

قَوْلًا ثَقِيلًا

د. سمير الغول


Vibes 28 Publisher

الكتاب: قولاً ثقيلاً
الكاتب: د. سمير الغول
التصنيف: ديني/ فلسفي/ علمي
الناشر: VIBES 28 PUBLISHER
رقم الطبعة: الطبعة الأولى
سنة النشر: 2022م
الترقيم الدولي (ISBN): 979-8-9857819-3-9

حقوق النشر محفوظة ©

لا يجوز دون الحصول على إذن خطي من المؤلف استخدام أي مادة من مواد هذا الكتاب أو استنساخها أو نقلها كلياً أو جزئياً — في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الطباعة وإعادة النشر أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها


Vibes 28 Publisher

الناشر: VIBES 28 PUBLISHER
بلنجهام – واشنطن - الولايات المتحدة الأمريكية.

P.O: 21867
Tel: +1(360)-865-4660
Email: Info@Vibes28publisher.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى كل باحث عن الحقيقة غير متحيز.
إلى كل مسلم بمعناه القرآني.
إلى كل صاحب مبدأ شريف يسعى بإخلاص إلى المعرفة.

الفهرس

1	المقدمة	1
12	الفصل الأول القرآن العظيم	2
42	الفصل الثاني الرحمن علم القرآن	3
62	الفصل الثالث هاتوا برهانكم	4
86	الفصل الرابع هل من مدكر	5
104	الفصل الخامس السبع المثاني	6
124	الفصل السادس النبي	7
154	الفصل السابع الوحي	8
174	الفصل الثامن أولو الأمر	9
196	الفصل التاسع ليلة القدر	10
238	الفصل العاشر الأعراف	11
258	الفصل الحادي عشر مسلماً حنيفاً	12
282	الفصل الثاني عشر اليهود	13
302	الفصل الثالث عشر النصارى	14
322	الفصل الرابع عشر العصر	15
342	الفصل الخامس عشر المزمل والمدثر	16

المقدمة

الحمد لله رب العالمين

اليوم نحن أمام مفترق طرق لا مناص منه، وأمام بحرٍ لا بد خائضوه لنصل إلى الشاطئ الآخر، فمن احتمى بالآخرين غرق، ومن بقي على الجانب الآخر لم يصل، ومن استقلَّ عقله وأخلص قلبه نجا. فوالله لن ينفع اليوم أحدٌ أحداً؛ فقد حصحص الحق وتتبع الأداة وسطعت البراهين، فمن عمي أو تعامى فعليه العمى وهو في الآخرة أضل سبيلاً، ومن أبصر فإنما يبصر لنفسه، وإلى الله ترجع الامور، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مع نشر الأجزاء الثلاثة من سلسلة كتب (تلك الأسباب) وصلتني مجموعة كبيرة من الأسئلة، والتي كنت قد أجبت على الكثير منها في مقالات متفرقة. مع تكرار الأسئلة رأيت أن أوليها مزيداً من البحث، ثم أضعها في كتاب مستقل.

ما إن شرعت في الإجابة على هذه الأسئلة وبحثها بشكل أكثر عمقاً إلا وانفتحت أمامي إشارات خلف آيات الله لا يمكن تجاوزها. كانت أهم هذه الإشارات تلك التي جاءت في سورة القدر، وكيف أن السورة تشير إلى حالة متكررة من التنزيل، وأن الإنسان في كل جيل وكل زمن يعاني اختباراً حقيقياً لقبول الحقيقة أو رفضها، كما عانى ذلك كل جيل على مدار تاريخ البشرية، بما فيه الجيل الذي عاصر نبي الله محمد صلوات ربي عليه.

كانت هذه المعلومات بمثابة صدمةٍ، إذ يلزم معها فهم المسميات المختلفة للفئات التي تعاملت مع الأفكار والمعارف الجديدة، وطريقة تعاطيها معها. بالفعل تم تحليل وتبع هذه الفئات في الكتاب، وكانت المفاجأة عند استنتاج مفهوم أكثر عمقاً للفظ المسلم ومفهوم الإسلام، الذي تكامل تماماً مع مفهوم الحنيف الذي جاء في أغلب آيات القرآن ملازماً لمفهوم الإسلام، مرتبطاً بشكل كبير بنبي الله إبراهيم صلوات ربي عليه.

الكتاب كما سلسلة كتب تلك الأسباب ليست وجهات نظر خاصة بالمؤلف؛ وإنما تطبيق لمنهج محدد يتم استخدامه في تحليل اللفظ القرآني. مرفقاً في نهاية المقدمة ملخص هذا المنهج في عدة نقاط محددة. خلاصة هذا المنهج أن الألفاظ في كتاب الله حقيقية تصف خصائص المسمى وصفاته.

من هنا نستطيع القول بشكل مختصر إن كل لفظ في كتاب الله يمثل حالة عامة لها صفات وخصائص محددة؛ فكل مسمى انطبقت عليه الصفات والخصائص يصح أن يطلق عليه هذا اللفظ. يصرف اللفظ إلى أشهر معانيه وأقربها ما لم توجد قرينة تصرفه إلى معنى آخر. تفهم حالة اللفظ من خلال السياق بناء على صفاته وخصائصه، ولا يجوز وجود تعارض في صفات اللفظ بين موضع وموضع آخر؛ لأن هذا التضاد أو التعارض لا يجوز في كلمات الله الحقيقية.

هذه النظرية البسيطة والتي تم تفصيل بعضها في الجزء الثاني من كتاب تلك الأسباب الفصل الأول والثاني هي محور المنهج الذي نستخدمه في فهم اللفظ القرآني وتحليله.

كل ما أطلبه من القارئ هو أن يدخل للكتاب دون أي تحيز، ويستمر في القراءة حتى نهاية الكتاب، ثم يعاود القراءة مرة أخرى للوقوف على كل نقطة لم تكن واضحة بالنسبة إليه وقت قراءته المرة الأولى. هذا الكتاب لن تُجدي معه القراءة العابرة، ويحتاج بشدة لتطبيق الحيادية وعدم التحيز في مطالعة كل فكرة فيه. مبدأ عدم التحيز شُرحَ بالكامل داخل صفحات الكتاب، وتحديدًا في الفصل الحادي عشر- مسلماً حنيفاً.

لقد أجاب الكتاب على عدد كبير جداً من الأسئلة، جاءت في خمسة عشر فصلاً هي كالتالي:

الفصل الأول: القرآن العظيم

يشرح هذا الفصل مفهوم القرآن وميزته الأساسية، ولماذا سُمي (القرآن) بهذا الاسم تحديداً. في هذا الفصل تم التفريق بين لفظ (القرآن) ولفظ (الكتاب)، من خلال عمق معرفي

جديد. لقد كان هذا الفصل مدخلاً رئيساً لفهم قضية خلق القرآن، والتي تناولناها من خلال فهم سورة الرحمن. حوى هذا الفصل إجابة على سؤال هام وهو: هل كان الرسول يعلم تأويل القرآن؟ ولماذا لم ينزل القرآن مؤولاً منذ اللحظة الأولى؟ ولماذا لم ينزل كتاب محفوظ منذ بداية البشرية؟ ولماذا للقرآن تحديداً الذي حفظ بلغته التي نزل بها؟

ناقش هذا الفصل فكرة خلق القرآن من منظور مختلف ولماذا القول بخلق القرآن أو عدم خلق القرآن هي قضية مستمرة، ونعيشها كل يوم حتى وإن زعم المفكرون أن هذه القضية انتهت وأصبحت تاريخياً لا يجب الخوض فيه. إننا نعيش هذه القضية ولكن بعد تهذيب طريقة عرضها، واختيار الكلمات المناسبة لها. كذلك سوف نجيب في هذا الفصل عن سؤال هل للرسول أن يخبر عن أمور غيبية مستقبلية؟ وهل الإخبار عن المستقبل يوافق المنهج القرآني؟

الفصل الثاني: الرحمن علم القرآن

يستمر هذا الفصل في تتبع قضية خلق القرآن من خلال آيات سورة الرحمن، ثم يحاول فهم العلاقة بين (علم القرآن) و(خلق الإنسان). الفصل كذلك يتناول الثنائي المقصود في السورة، ولماذا لا يمكن أن يكون هذا الثنائي الإنس والجان، ولماذا هذا التكرار العجيب الوارد في السورة فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وإلى ماذا يشير؟

الفصل الثالث: هاتوا برهانكم

هذا الفصل يثير تساؤلاً هاماً، وهو: هل هناك دليل عقلي على وجود الله؟ ولماذا الحوار الحالي حوار من طرف واحد؟. لماذا كل فريق يصرُّ على عدم فهم الفريق الآخر وسماعه؟ ما علاقة القرآن بهذا الحوار؟ بالإضافة لذلك فلدينا مجموعة أسئلة معتبرة تم طرحها، وهي: هل المسلمون الأوائل لم يكونوا على دراية بهذه اللغة التي نزل بها القرآن؟ وكيف يؤمنون بما لا يعرفون؟ -لماذا لم يسأل المعاصرون رسول الله عن الكلمات والتعابير الغامضة في القرآن؟

ولماذا لم ينزل القرآن واضحاً لا يحتاج كل هذا الجهد في التأويل؟
لماذا لم يُنزل الله كتاباً واحداً على آدم أو إبراهيم صلوات ربي عليهما؟ ولماذا تعددت الكتب؟

هل يلزم أن يكون كل واحد منا باحثاً ومفكراً؛ لكي يستطيع الحصول على دليل من خلال القرآن، يدعم وجود الإله، أو حتى يصبح إيمانه إيماناً صادقاً؟ مارس الإنسان الطب أو الهندسة لا بد أن يكون متخصصاً، فما بالكم بالدين؟

الفصل الرابع: هل من مدكر

سوف نشرح في هذا الفصل مفهوم (الذكر) من منظور مختلف، ونفرق بين ثلاثة مفاهيم غاية في الدقة، وهي: الذكر، والذكر بحرف الدال، والفكر. هذا الفصل مليء بالمعلومات والتحليلات عن ألفاظ مختلفة، وحلّ بعضاً من القضايا الشائكة. لقد تعرض هذا الفصل للأسئلة التالية:

ما الفرق بين أن يذكر الإنسان أو يذكر بحرف الدال، كما جاء في سورة القمر؟
هل المقصود بذكر اسم الله على الذبائح هو قول بسم الله، أم مفهوم الذكر أشمل وأعم من ذلك بكثير؟

هل السنة النبوية هي الذكر كما يقول بعض المفسرين؟

الفصل الخامس: السبع المثاني

يتناول هذا الفصل مفهوماً شاملاً عن السبع المثاني، من خلال فهم الفرق بين (المحكم والمتشابه). مفهوم السبع المثاني تكامل بشكل لم يسبق له مثيل مع مفهوم القرآن ومفهوم الذكر. لقد تطرق هذا الفصل لشرح دلالة اللفظ (سبعة)، وعلاقة اللفظ بآكلات اللحوم المسماة (السبع)، حتى حصلنا على تصور جيد لما يعنيه لفظ (سبع) في التعبير القرآني (السبع المثاني). الأسئلة التي تم طرحها في هذا الفصل كانت كالآتي:

ما هو الفرق بين المحكم والمتشابه في القرآن؟ ولماذا فهم الناس المحكم والمتشابه بشكل مناقض تماماً لمفهومهما القرآني؟ ما تأثير فهم المحكم والمتشابه على فهم السبع المثاني؟

ما دلالة ذكر السبع المثاني وتفصيلها في سورة الحجر؟ وماذا يعني الحجر؟ وما هي علاقته الوثيقة بتأويل كتاب الله؟

لماذا مفهوم السبع المثاني حجة على الناس في كل وقت؟

لماذا يؤهل مفهوم السبع المثاني الإنسان لاختبارٍ كاختبار قبول الرسالة في العصر الأول؟

الفصل السادس: النبي

في هذا الفصل تم تحليل لفظ (النبي)، وتم تتبع الآيات التي تتحدث عن النبي؛ للتفريق بين لفظي (النبي والرسول)، وما يقوله النبي وما يفعله، بعيداً عن الإفراط أو التفريط. من خلال هذا الفصل سنكتشف كيف تكامل دور النبي مع القرآن، وكيف كان هذا الدور حلقة من حلقات تطور البشرية، وليس مهيمناً عليها دون أي مزايدة. أما الأسئلة التي طُرحت في هذا الفصل فجاءت كالاتي:

كيف يمكن أن نفهم اليوم لفظاً بخلاف ما فهمه النبي؟ وهل هذا يجوز؟

إن كان النبي قد أخبر كل هذه الأخبار عن المعارك والملاحم آخر الزمان بهذا التفصيل

الدقيق، لماذا لم يخبر العرب عن البترول القابع تحت أرجلهم؟

ولماذا لم يخبرهم عن الكهرباء والتقدم التكنولوجي الهائل الذي سوف تلاقيه البشرية؟

الفصل السابع: الوحي

تناولنا في هذا الفصل تحليل لفظ (الوحي)، والتفريق بين الوحي الملزم وغير الملزم، وكيف جاءت التعبيرات القرآنية، دقيقة للغاية تصف أنواع الوحي في القرآن. استكمل هذا الفصل فهم دور النبي ودور الرسول عن طريق تحليل كم معتبر من الآيات والكلمات القرآنية. سوف نتعرض لعدد من الأسئلة في هذا الفصل مثل:

لماذا وحي النبوة وحي خاص جداً، وخلطه بالقرآن دون مراعاةٍ للبعد الزمني خطيرٌ

لأبعد حد؟

لماذا لم يوحى الله إلى نبيه أمر الخندق في غزوة الخندق؟ ولماذا لم يصل النبي لهذه

الفكرة إلا من خلال سلمان الفارسي؟

الفصل الثامن أولو الأمر

هذا الفصل هو المدخل لفهم سورة القدر، حيث تم في هذا الفصل تناول مفهوم أولي الأمر من خلال الغوص في التعبيرات القرآنية التي ذكرت هذا التعبير. من الأسئلة التي تناولها هذا الفصل:

ما هو مفهوم (ولي الأمر)؟

وكيف حَرَّفَ الناس هذا المفهوم؟ ولماذا نعتقد أن إعادة هذا المفهوم إلى وضعه الطبيعي هو بمنزلة نقلة نوعية في إعادة الإنسان إلى طريق المعرفة الصحيح؟

ما علاقة الروح بالأمر؟ وما علاقتها بأولي الأمر؟ ولماذا نرى التكامل بينهما يكاد ينطق ويفصح عن نفسه؟

ما علاقة المهدي المنتظر بمفهوم أولي الأمر؟ وكيف عَرَفَ هذا المفهوم طريقه للهرويات دون أي إشارة إليه في كتاب الله؟

الفصل التاسع: ليلة القدر

في هذا الفصل تم تناول مفهوم (القدر)، وحلَّت أَلْفَاظُ سورة القدر، لنكتشف معلومات غاية في الدقة، عن دورات متتالية يتنزل فيها أمر الله إلى خلقه. السورة تشير إلى تنزيل مستمر واختبار للناس كاختبار عصر النبوة الأول باستمرار وسوف يظل هكذا إلى يوم الدين، لينح الناس فرصة عظيمة لإثبات استحقاقهم الحرية التي منحهم إياها ربهم.

تطرَّقنا لمجموعة من الأسئلة في هذا الفصل، وهي:

هل أرسل الله القرآن وتركنا هكذا يموج بعضنا في بعض لا نهتدي، أم أنه استكمل التوجيه والإرشاد الرباني بعامل مساعد آخر؟

لماذا سورة القدر يجب أن تغير نظرة الإنسان للدين بشكل كامل؟ ولماذا إغفال هذه السورة اقد يؤدي إلى فقد الإنسان مبدأ العبادة لله؟

لماذا ليلة القدر لا تأتي كل عام؛ وإنما كل ألف شهر؟

هل اكتشاف أمور فُهِمَتْ خطأً في كتاب الله يجعل السابقين ضالين؟

أين الحقيقة؟ وكيف يمكن تمييزها بين كل هذا الكم الهائل من المعلومات، وكلُّ له أدلته؟

هل مطلوب من كل إنسان أن يكون متفقيهاً عالماً باحثاً حتى يضمن النجاة؟
ما الذي يجعل الإنسان يثق في فكرة قرأها أو سمعها؟
الفصل العاشر: الأعراف

تطرق هذا الفصل إلى مفهوم (أصحاب الأعراف)، وما هو وضعهم وما يمثلون. تناول هذا الفصل السمات الأساسية لأصحاب الأعراف، وقارن بينهم وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار. سوف نرى من خلال هذا الفصل كيف أن أصحاب الأعراف هم مجموعات لا تزال موجودة في كل المجتمعات ولم تنتهي، وهو وصف دنيوي وليس أخروي.

الأسئلة التي جاءت في هذا الفصل كانت كالتالي:

من هم أصحاب الأعراف؟

ولماذا هذا الوصف أعطى مساحة من الرحمة كبيرة جداً لأولئك الذين آمنوا بشكل وراثي، ولم يصلوا إلى الإيمان القائم على بحث وتحليل؟

ما مصير من حيل بينهم وبين الحقيقة بأي طريقة كانت، مثل التشويش المعرفي، أو البعد الجغرافي، أو أي سبب كان؟.

الفصل الحادي عشر: مسلماً حنيفاً

هذا الفصل تناول مفهوم (المسلم) ومفهوم (الحنيف)، عن طريق الغوص بعيداً في جذور الكلمات، وترتيل الآيات، فاستخرجنا مفهوماً للمسلم متوافقاً بشكل لم يسبق له مثيل مع كل آيات القرآن التي ذكرت هذا اللفظ.

تناول هذا الفصل مجموعة من الأسئلة بالتحليل والإجابة وهي الآتي:

ما هو مفهوم المسلم كما جاء في القرآن؟

ولماذا يختلف تماماً عن المفهوم السياسي المتداول حالياً؟

هل أنت حقاً مسلم؟

هل يمكن أن يكون الإنسان مسلماً حتى قبل تعرّفه على الله؟

هل يمكن للإنسان أن يخرج من مفهوم الإسلام وهو لا يدري؟

كيف أخطأ المعجم في توصيف كلمة حنيف؟ وكيف صحّحها القرآن؟

كيف تكامل لفظ (مسلم) مع لفظ (حنيف) ليخرجَ بالنهاية توصيفاً رائعاً، يتمنى أن

ينتسب إليه كل إنسان صاحب مبدأ شريف على وجه الأرض؟

كيف أصبح الذين احتكروا الحديث عن الله أكبرَ عائق أمام فكرة الإسلام التي جاء

بها القرآن؟

الفصل الثاني عشر: اليهود

تناول هذا الفصل مفهوم (الذين هادوا)، وفرّق بينهم وبين اليهود، ورسمَ حدود هذه

المسميات من خلال كتاب الله، بوصفها مناهج فكرية وليست مفاهيم طائفية. سوف تكتشف

أن هذه المسميات قد تنطبق على بعض الناس دون أن يدركوا ذلك. هذا الفصل أجاب عن

الأسئلة التالية: ما الفرق بين اليهود والذين هادوا؟ ولماذا لم يدخل اليهود ضمن إطار الذين لا

خوف عليهم ولا هم يحزنون؟

من هو (عزير) رغم أن اليهود بوصفهم الحالي لا يقولون أن هناك شخصاً اسمه عزير

هو ابن الله؟

كيف انطبق وصف يهودي على كل متعصب محتكر للحقيقة في أي ملة أو طائفة؟

لماذا عدم فهم المسميات كما جاءت في كتاب الله جعل الناس عنصريين بامتياز،

وينسبون عنصريتهم زوراً لكتاب الله؟

الفصل الثالث عشر: النصارى

خلال هذا الفصل سوف نعوص في تعبير نصارى، ونكتشف لماذا لم يذكر القرآن لفظ

(المسيحيين). عند مقارنة لفظ (أنصار) الذي جاء في القرآن واصفاً الحواريين، ثم تحول هذا

الوصف إلى (نصارى) بعد نبي الله عيسى صلوات ربي عليه، اكتشفنا أن هناك مدلولاً أكثر شمولية من المفهوم التقليدي لمفهوم النصارى. من الأسئلة التي تعرض لها هذا الفصل ما يلي:
 ما معنى كلمة (نصارى)؟ وما علاقتها بمفهوم (الأنصار)؟
 لماذا سمي أتباع نبي الله عيسى في حياته بالأنصار، ثم تغير هذا المسمى لمفهوم النصارى بعد ذلك؟

لماذا لم يرد ذكر لفظ (المسيحيين) في كتاب الله؟
 هل النصارى طائفة أم منهج فكري محدد ينطبق على كل من يطبقه؟
 ما الفرق بين التقسيم الفقهي لمسمى النصارى والإشارات القرآنية لهذا المفهوم؟
 ما وجه الشبه بين الذين هادوا والنصارى؟ ولماذا كلاهما يختلف تماماً عن اليهود؟
 الفصل الرابع عشر: العصر

تناول هذا الفصل تحليل سورة العصر، وهي السورة العظيمة التي يمكن أن يكتب فيها مجلدات؛ إذ إنَّ كلَّ كلمة فيها تخفي معلومات لا نهائية. وجاءت أسئلة هذا الفصل كما يلي:
 ماذا يعني لفظ (سورة) في القرآن؟
 إلام يشير لفظ (العصر) وسورة العصر؟ وما علاقتها بمفهوم المسلم؟
 ما هو التواصي بالحق والتواصي بالصبر المذكور في سورة العصر؟
 لماذا شملت السورة أعظم التوصيات على الإطلاق؟

الفصل الخامس عشر: المزمّل والمدثر
 هذا الفصل تناول مفهوم المزمّل ومفهوم المدثر، وعلاقتها بالعلم، ولماذا جاءت سورة المدثر بعد سورة المزمّل، ولماذا نظن أنهما ليسا لفظين يختصان بنبيينا الكريم؛ بل هما لفظان يصفان نوعين من البشر، لا غنى للمجتمع عنهما. أسئلة هذا الفصل هي الآتي:
 من هو المزمّل؟
 ما علاقة السورة بطلب العلم، وطريقة التعاطي مع العلم؟
 من هو المدثر؟ ولماذا جاءت السورة بعد سورة المزمّل؟

كيف يمكن فهم التعبير القرآني العجيب فإذا نقر في الناقور؟

هذا الكتاب سيعيد ترتيب كثير من الأفكار لديك، وسوف يفتح لك آفاقاً جديدة، من خلال فهم لفظ (مسلم) ولفظ (الإسلام)، وسوف ترى وصفاً دقيقاً لمسمى (اليهود) ومسمى (النصارى)، فلا تنظر إلى المسمى الذي تحمله في بطاقة تحقيق الشخصية؛ وإنما انظر إلى كيفية تعاملك مع الأفكار والمعارف والحقائق الجديدة لتدرك من أي فئة أنت.

ستكتشف أيضاً كيف وصف القرآن هذه الفئات، من خلال تعاطيها مع رسائل الله إليهم، والمستمرة إلى يوم الدين.

لقد بذلنا جهدنا في تبين المسميات وايضاها قدر ما أفاء الله علينا، ونبذل الجهد لكي تصل لأكبر قدر من الناس؛ ولا نقول إلا كما علمنا ربنا في كتابه العظيم.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة يوسف : آية 108).

والحمد لله رب العالمين، وسلاماً على عباده المخلصين.

ملخص المنهج

النقاط التالية تمثل ركائز المنهج المستخدم في تحليل اللفظ القرآني في سلسلة تلك الأسباب. (لمراجعة المنهج بشئ من التفصيل يرجى العودة للجزء الثاني من الكتاب الفصل الأول والثاني).

1. اللغة هبة إلهية من الله اصطفى آدم وأعطاه القدرة على التسمية ووصف المسميات بكل دقة (النظرية التوقيفية) والتي انتقلت منه إلى البشرية.

2. ألفاظ القرآن جميعها ألفاظ حقيقية ليس فيها مجاز ولها خاصية الإفصاح عن نفسها وتحمّل مفاتيح فهمها .

3. الألفاظ خارج القرآن يحتمل فيها أن تكون حقيقية تصف المسمى بكل دقة؛ أو غير حقيقة ليس لها دلالة أو اعتبارية.
4. جذر الكلمة يمثل حالة عامة لها صفات وخصائص محددة ولكل كلمة جذر واحد فقط، ولا يمكن وصف الجذر بكلمة واحدة بل بتعبير كامل.
5. الحالة العامة للجذر قد يكون له مدلولان: مدلول مادي يمكن تجسيده ومدلول لا مادي يحمل نفس الصفات والخصائص.
6. هناك علاقة وثيقة بين الحالة الوصفية الجذر ومدلولها الفيزيائي حيث الجذر الثنائي تتغير حالته بتغيير الحرف الثالث بشكل منتظم تبعا للمدلول الصوتي للحرف الثالث.
7. وجود أكثر من أصل للجذر الواحد يتنافى مع كون اللغة هبة إلهية لذا يجب دراسة الأصول المتعددة وإرجاعها إلى أصل واحد. (قد تم دراسة بعض هذه الجذور).
(المعاجم بها أصول متعددة لنفس الجذر وهذا يتنافى مع حقيقة النظرية التوقيفية).
8. لا يمكن للجذر الواحد أن يحمل أصلا متضادان لأن ذلك يتنافى مع كون اللغة هبة إلهية. والصحيح أن للجذر أصل واحد يمثل حالة عامة تفرع منها التضاد. (المعاجم بها أصول متضادة وهذا يتنافى مع النظرية التوقيفية)
9. لا يمكن فهم اللفظ إلا من خلال السياق وفي إطار الحالة التي يصفها بكل دقة دون التدخل بالزيادة أو النقص.
10. يصرف اللفظ إلى الحالة الأشهر التي يمثلها ما لم توجد قرينة تصرفه إلى حالة أخرى بدليل قوي، وليس مجرد رؤية شخصية.
11. آيات القرآن جاءت من خارج الإطار المعرفي للنبي صلوات ربي عليه فتفاعل معها واستخرج الأحكام فجاءت أقواله وأفعاله بخلاف القرآن من داخل إطاره المعرفي.

الفصل الأول القرآن العظيم

يخبرنا القرآن أنّ البشرية على مر العصور نالت حظها من الرسل والأنبياء، فليس من المعقول أن ينال مجتمع ما نصيباً من الإرشاد والتوجيه بينما مجتمعات أخرى فقيرة وجاهلة. بنص القرآن جاء أنّ هناك رسلاً قصهم ربنا ورسلاً لم يقصهم:

(وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (سورة النساء: آية 164).

إذا كان الرسل كذلك فليس لدينا شك أنّ أعداد الأنبياء كانت كبيرة، وتوزعت على المجتمعات البشرية، وأما المذكور منهم في القرآن فيبدو لنا أنهم أصحاب التحولات العظيمة في تاريخ البشرية، كما جاء في الجزء الثالث من سلسلة كتب تلك الأسباب.

إنّ من الصعوبة بمكان تتبع ظهور الرسل والأنبياء في كافة المجتمعات البشرية، ولكن ما لا يخفى على أحد أن جميع المجتمعات كان فيها مصلحون، فهل كان هؤلاء رسلاً أو أنبياء؟ هذا ما لا يمكن إثباته بشكل عملي.

مفهوم الرسول -لا شك- أوسع وأشمل من مفهوم النبي، فكل من يحمل رسالة هو في الحقيقة رسول، بل إن الله يرسل برسائل قد تكون خاصة أو عامة، وقد يكون حامل الرسالة ليس من البشر، والرسائل التي يرسلها رب العالمين وظيفتها الأساسية هي هداية البشرية وتقديم عون المعرفة لهم.

الغراب الذي بحث في الأرض واستنتج ابن آدم من خلال هذا المشهد عملية الدفن هو في الحقيقة رسول بلغ الرسالة، واستلم ابن آدم الرسالة وتعلم الدفن. مفهوم الرسل أعم وأشمل بكثير مما نعتقد، وكل المصلحين هم في الحقيقة يحملون رسالات، وسوف تبقى الرسل

إلى يوم الدين، وليس شرطاً حتى أن يعرف الرسول أنه رسول، وهذا ليس قولي، وإنما هو قول الله سبحانه في سورة يونس:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (سورة يونس: آية 47).

حدِيثنا هنا ليس تتبعاً للرسول الذين لم يقصهم الله علينا، فهذا ليس لنا؛ وإنما سوف نقف كثيراً أمام الرسول الذي بين أيدينا والمكتنز بالرسالات. سوف يظل هذا الرسول هكذا ينتظر من يتدبر رسالاته ويحملها ويبلغها للناس.

إذا كانت الرسل البشرية جاءت للناس وأخبرتهم أن الله اختارهم لتبليغ رسالة محددة، فإنّ القرآن يقول للناس أنه يحمل رسالات لهم ليل نهار، وسيظل هكذا يفيض بالرسالات، إنه إعلان إلهي عن انتهاء عصر الوساطة بين الإنسان وربه وبداية عصر الرسول الذاتي الذي يختبئ داخل عقل كل إنسان وقلبه.

عندما وصلت البشرية لدرجة من النضج المعرفي أصبحت مهيئة نوعاً ما لتحمل المسؤولية بشكل أكبر، لذلك تم الإعلان عن نهاية عصر النبوة وبداية عصر العقل. أنزل الله القرآن تطوراً طبيعياً للتدخل الإلهي، الرامي لاستقامة البشرية وتصحيح مسارها.

اقصد تحديداً مسمى القرآن وليس مسمى الكتاب، فهو المعنى بذلك لأنه يحمل خصائص وصفات تجعله رسولاً للبشرية ومتجدداً باستمرار. طبيعته وتكوينه جعلته في متناول التدبر والتفكير حيث تستطيع العقول استنباط مفاهيم جديدة من خلال تدبر كلماته وتعبيراته. هذا التفكير المستمر والقراءة المتأنية يمكن الإنسانية من ضبط إيقاع تصرفاتها، وبمنحها فرصة ثمينة لاكتشاف الكون وسبر أغوار النفس والسباحة نحو الحقيقة بمعدل ثابت ومستمر.

لك أن تتخيل أن العالم الغربي وجد كتاباً مكتوباً باللغة الإنجليزية، ولكن لاحظ الغربيون أنّ هناك بعض الاختلافات في ألفاظ هذا الكتاب، وهناك ادعاء أنه قادم من كائنات فضائية أكثر علماً ودرايةً وإحاطةً بالأشياء، تخيل ماذا سيكون رد فعل الغربيين؟

سوف تنصب عليه المعامل والمختبرات، ويُسخَّر لهذا الكتاب طاقات عملاقة لفهم كل حرف فيه، حتى إذا أدركوا من خلاله حقيقة واحدة غائبة عنهم زادوا في بحثهم، وتولوا تعبيراته بمزيد من التدقيق والدراسة. نحن في زمن العلم والمناهج البحثية، ومع ذلك فإنَّ أعظم كتاب -وليس قديماً من كائنات فضائية بل من خالق الكون- تركه الناس دون عناية تليق بقدر هذا القرآن من وجهة نظري. لقد تعامل الناس مع القرآن وإلى اليوم بطريقة لم ترتق بعد إلى عظمة هذا الكتاب، فلا نجد طرحاً للأسئلة، ولا بحثاً ما يبدو متعارضاً، وإنما كان التبرير هو سيد الموقف.

قد تكون هذه الطريقة مقبولة نوعاً ما قبل ظهور المناهج العلمية والأساليب البحثية، ولكن أن يظل التعامل هكذا مع كتاب الله فهو ما لا يمكن استيعابه. الصراعات القائمة منذ نزول القرآن بين فريقين؛ أحدهما يغلب النقل على العقل، والأخر يغلب العقل على النقل، كان يمكن أن تنتهي هذه الصراعات تماماً إذا أدرك الناس الفرق بين المدلول والمعنى، وأدركوا أنَّ ألفاظ القرآن الكريم لها خاصية فريدة تعتمد بشكل أساسي على المعنى.

الطريقة التي تم فهم اللفظ القرآني بها منذ فجر التاريخ كانت طريقة قائمة بالأساس على مدلول الكلمات لدى البشر بغض النظر عن أصل الكلمة وهل طالها تحريف أم لا. من هنا تم تفسير القرآن اعتماداً على هذه الطريقة، مما عطّل الخاصية الرئيسة للقرآن؛ وهي قابليته للقراءة. ما استطاع المفسر القديم فهمه لم يكن نتيجة منهج علمي؛ بل كان أقرب للصدفة منه للمنهج، وهو جزء لا يمثل شيئاً يذكر من المعلومات المختفية خلف ألفاظ القرآن الكريم لو تم اعتماد المعنى والحالة التس تمثّلها الكلمة بدلاً من المدلول لدى البشر بصورة سطحية.

الصراع القائم بين العقل والنقل منذ فجر التاريخ مر بمراحل مختلفة؛ من أهمها خلق القرآن، حتى وصلنا إلى الفرق بين القرآن والكتاب وهو الإمتداد الطبيعي لهذه القضية. سوف نمر سريعاً على هذه المراحل التاريخية ونبين فلسفتها، ومن ثم نستطيع إدراك وجود الخلل بشكل علمي دون تحيز، وندرك لماذا ندور في هذا الفلك دون أي أمل بالخروج منه.

خلق القرآن

انقسمت الأمة بين تيارين رئيسين، وما زال هذان التياران في صراع:

التيار الأول هو التيار الأصولي، والذي يرى تغليب النص على العقل، وهو التيار الذي قاد الأمة حتى يومنا هذا، وأنتج كل هذا الكم من التناقضات؛ لأنه ببساطة أوقف التاريخ والعصر ولم يستجب للأمر الإلهي بالقراءة.

رغم ظاهر عبارة (تغليب النص على العقل) على أنها تمسك بالنص الإلهي، إلا أنها تحوي مغالطة قاتلة؛ فالنص الإلهي لا يفهم إلا من خلال العقل، ولذلك فهم الجيل الأول النص بعقولهم وإلا ما قبلوه. لو أنّ عبارة تغليب النص على العقل صحيحة فهذا يعني تغليب النص الإلهي على كل ما عاده، ولكن للأسف فإنّ العبارة توقفت عند الجيل الأول، فكان يجب أن يسميها الباحثون (تغليب فهم الجيل الأول على كل ما عاده) وهذه هي الطامة الكبرى.

التيار الثاني هو التيار العقلي، وكان يرى تغليب العقل على النص، وللأسف بدأ هذا المنهج فلسفياً أكثر منه عملياً؛ بسبب طبيعة العصر وافتقار البشرية جميعها لما يسمى (المنهج العلمي في البحث). عدم القدرة على فهم لفظ القرآن ذاته، أو الخلط بين المدلول والمعنى العميق للفظ هو السبب المباشر في هذا الصراع. تيار أصحاب العقل وإن كان قد بدأ فلسفياً إلا أنه كان مؤشراً صحيحاً مائة بالمائة على سير البشرية في الطريق الصحيح.

من وجهة نظري، لو أنّ هذا المنهج استمر بالزخم المطلوب لم يكن ليمضي على البشرية قرنان أو ثلاثة إلا وكانت قد أسست مناهج علمية للبحث، وفهم النص القرآني، واستخراج كنوز من القرآن لا مثيل لها. لكن للأسف ما حدث هو العكس بالضبط، فقد تم اضطهاد أرباب هذه المناهج، ولم يُسمح إلا للأصوليين بالظهور من قبل الدولة.

السؤال هنا: لماذا سمحت الدولة في أغلب فتراتنا للأصوليين ولم تسمح للفكر الآخر بالانتشار، ووصفت الفكر الآخر بالفكر المنحرف؟

قبل الرسالة ونزول القرآن لم يكن هناك دولة في هذه المنطقة، وعند نزول القرآن وانتشار الدين تكونت الدولة، فنحن هنا أمام نموذج فريد؛ وهو نموذج دين أنشأ دولة. لكي تستمر الدولة لا بد أن تحافظ على الدين بشكله التقليدي الذي كان سبباً في نشأتها؛ لذلك كان تغليب فكر الأصوليين وحمائته من قبل الدولة سياسةً راجحةً جداً، وكذلك كان اضطراد الفكر العقلاني والذي قد يحدث انشقاقاً بين صفوفها بسبب طبيعة أفكاره الثورية نوعاً من تثبيت أركان الدولة.

تمثل هذا الفكر في الجبرية التي سادت مطلع الدولة الأموية، والتي كانت تقوم على أن ما يتم على الأرض إنما هو بإرادة الله؛ لأن الإنسان مسير لا مخير، ولو أراد الله غير ما هو كائن لفعل. تلك المبادئ هي تكريس حقيقي للقبول بما هو كائن وتعطيل العقل، وقد كان لهم ذلك فترة من الزمن.

عندما جاءت الدولة العباسية انفتحت بشكل كبير على الفكر العقلاني، فحدثت موجة ازدهار لا مثيل لها على مستوى الفكر والفلسفة، ومن ثم بزغ الصراع بين الفريقين من جديد ووصل أوجه متمثلاً في أزمة خلق القرآن.

بدأ هذا الصراع في عهد المأمون والذي كان على ارتباط بالفكر المعتزلي، وقد كان هذا الانفتاح حالة خاصة بشخص المأمون. يبدو أن المأمون كان في طريقه لتأمين سيطرته على الدولة، وأدرك منذ الوهلة الأولى أنه لن تكون سيطرته كاملة إلا من خلال تخيعة المؤسسة الدينية التي تعاضم دورها وأخذت في التمدد.

وجد المأمون الفرصة سانحة أمامه بتبني الفكر المعتزلي القائل بخلق القرآن، ولم يكن المعتزلة هم أول من قال بفكرة خلق القرآن، بل إن المذهب الشيعي قبل المعتزلة كان لديه فكرة شبيهة، وكذلك الجهمية نسبة إلى معبد الجهني كانوا يعتنقون هذا الفكر.

في عهد الواثق خشيت الدولة العباسية الفتنة؛ بسبب طبيعة القضية الدينية واكتساب أحمد بن حنبل تعاطفاً كبيراً، فخفف الواثق من قبضته، ثم جاء المتوكل بعده لتنتهي هذه القضية تماماً، والتي كان من الممكن أن تقضي على الدولة العباسية. ها نحن نرى أن محاولة

تغليب العقل قد فشلت فشلاً ذريعاً؛ بسبب طبيعية المجتمعات، وتهديد هذه القضية للنظام السياسي ونظام الدولة من الأساس.

لقد كان التيار المعتزلي منقسماً إلى فريقين: الفريق الأول قريب من السلطة، وساهم بشكل كبير فيما يعتقدُه إصلاحاً سياسياً حتى ولو أجبر الناس. أمّا الفريق الثاني فهو قائم بالأساس على رفض الظلم، ورفض إضفاء الشرعية على النظام الفاسد، ولا يؤيد إجبار الناس، حتى إن المأمون ذاته اضطهد جزءاً منهم.

قال المعتزلة أنّ القرآن مخلوق ليس أزلياً، معتمدين على قول الله (ليس كمثله شيء) بينما قال أحمد بن حنبل -وهو أشهر من جاء ذكره في هذه القضية- أن القرآن كلام الله، ولم يتطرق إلى خلق القرآن أو عدم خلقه. وأضاف ابن حنبل: (إنّ من قال بخلق القرآن فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع).

فكرة خلق القرآن هي فكرة فلسفية شديدة التعقيد، وطرحها بهذا الشكل وحمل الناس عليها ظلم كبير. خلاصة قضية خلق القرآن والتي تخفى على الكثيرين من الباحثين والمفكرين هي أنها قضية الصراع بين التجديد وبين الأصولية.

التجديد الذي حمل رايته أول من حمل هم المعتزلة، أما الأصولية فهي طبيعة متأصلة في المجتمعات البسيطة، وتدعمها الجموع رغبةً في الاستقرار، وخوفاً من الأفكار الجديدة.

العداء الشديد للأفكار الجديدة، ودس الروايات على رسول التي تنبأ بظهور فرق في المستقبل، رغم أن الرسول لا يعلم الغيب وليس حكماً على الزمن، يخبرنا أنّ أرباب الفكر الأصولي لم يتورعوا عن محاربة التطور المعرفي الذي جاء به القرآن، واستماتوا في بقاء الوضع على ما هو عليه؛ اعتقاداً أن هذا هو الدين الحق.

ربما يكون هؤلاء القوم مخلصين فيما ذهبوا إليه، وهدفهم كان الحفاظ على الدين في نطاق تصوراتهم. وقد تكون ألفاظ مثل: مخلوق وغير مخلوق ألفاظاً غير موفقة في استخدامها

لوصف هذه القضية؛ مما سبب خلطاً واضحاً في المفاهيم، وجعل كل فريق يصر على منهجه بشكل عنيف.

القول بخلق القرآن أو عدم خلق القرآن هي قضية مستمرة، ونعيشها كل يوم حتى وإن زعم المفكرون أن هذه القضية انتهت وأصبحت تاريخاً لا يجب الخوض فيه. إننا نعيش هذه القضية ولكن بعد تهذيب طريقة عرضها واختيار الكلمات المناسبة لها، وهي: هل القرآن قابل للتجديد باستمرار، أم أنه يكان جامد لا يمكن فهمه إلا من خلال الفهم الأول؟

لا شك أن لفظ القرآن نفسه قادر على إجابة هذا السؤال دون مزيد من الأدلة، فلفظ (القرآن) وجرده (قرأ) مع الألف والنون يدلان على الاستمرار، ومثال ذلك لفظ (الرحمن) وجرده (رحم) وإضافة الألف والنون أفادت الاستمرار، وهذا حال جميع الكلمات التي تنتهي بالألف والنون في المصحف وليست مثنى، وتحتوي ألفاً ونوناً زائدة على أصل الكلمة، فنجد أن الألف والنون فيها يفيدان الاستمرار. لذا لفظ القرآن يعني حالة من القراءة المستمرة، أو القابل للقراءة المستمرة، وهذا يشير إلى أن التفاعل مع القرآن متجدد باستمرار.

بالبحث في التاريخ سنجد أن صدى المعركة بين الأصوليين وبين العقلايين دارت رحاها بين أبي حامد الغزالي (صاحب كتاب الإحياء) وبين الوليد بن رشد (الفيلسوف ابن رشد) وكان مجمل المعركة هو دعوة أبي حامد الغزالي إلى ترجيح النص، بينما رد عليه ابن رشد في كتابه (تهافت التهافت) بضرورة إعلاء العقل على النص.

فلسفة ابن رشد هي الفلسفة التي قادت أوروبا للتخلص من عبء الكنيسة، والتحرر من سلطة الكهنوت، والانطلاق نحو العلم. بينما فكر أبي حامد الغزالي تبلور اليوم في العبارة الشهيرة: (النقل فوق العقل، بل الاعتقاد بضلال العقل)، التي يدين بها الأصوليين بشكل متجذر.

حلقة أخرى من حلقات الصراع تبلورت من خلال التفريق بين القرآن والكتاب من قبل المعاصرين، وعلى رأسهم د. محمد شحرور، هذا التفريق لا يمكن فصله عن الصراع الدائم

منذ الأزل، ولا عن قضية خلق القرآن، ولا عن الصراع بين الغزالي وابن رشد، إنها سلسلة متصلة تزداد وضوحاً عن طريق البحث العميق في أسبابها ونتائجها.

هذا الفرق الواضح بين القرآن والكتاب هو ما يلخص الفرق بين النقل والعقل، وهو الصراع بين الأصوليين والمجددين، أو قل هو الصراع بين أهل الكتاب وبين قارئ القرآن. منبع اعتقاد الأصوليين هو الاعتقاد بأن رسول الله محمد صلوات ربي عليه حكّم على البشرية، بدلاً من كونه رسول رب العالمين؛ لذا تجد كما هائلاً من الأحداث المستقبلية يخبر عنها رسول الله بصيغة الأحداث الواقعة والتي لا مفر منها، هذه الصيغ رغم تعارضها مع القرآن بشكل واضح جعلت من الرسول شريكاً لرب العالمين، وليس حلقة وصل من حلقات تطور وتقدم البشرية، مثله مثل إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات ربي عليهم أجمعين في كل الحقب والأزمنة.

هذه الصورة الذهنية عن رسول رب العالمين كرسّت التصور بالجبرية، وبكون الإنسان مفعولاً به تجري عليه الأحداث المحددة سلفاً. هذا لعمرى يخالف منهج كتاب الله وآيات الله، ومن يقول بذلك يتحمل وزر ما يقول. لو أنصف هؤلاء القائلون بمثل هذه الأقوال وأدركوا المنهج القرآني لعلموا أنهم يقولون قولاً عظيماً، وأنهم يسيئون لمقام الرسول صلوات ربي عليه، وهو بريء من هذه التصورات التي جعلت منه نصف إله.

تدبر هذه الآية الكريمة في سورة آل عمران كفيل برد الوضع إلى نصابه، وعدم تنصيب رسول الله حكماً على أمور غيبية لا يعلم عنها شيئاً إلا ما أخبره به ربه عنه في كتابه:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

ج وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (سورة آل عمران: آية 144).

عندما نزلت هذه الآية الكريمة لا شك أن رسول الله محمد صلوات ربي عليه كان

ما زال حياً

السؤال هنا: ألم يكن الله سبحانه وتعالى يعلم مصير رسوله من كونه سوف يموت أو يقتل؟ لماذا أعطى احتمالين، وما سوف يحدث هو احتمال واحد؟

ببساطة لأنه المنهج الرباني الذي يرشدنا إليه ربنا، الإنسان والبشرية تخلق أفعالها، لا قطع بمصير أحد قبل أن ينجز دوره في هذه الحياة حتى لو كان رسولاً أو نبياً. هذا في أمر الدنيا فما بالكم بأمر الآخرة. كل الأخبار الواردة في كتاب الله تخبر عن أمور قضى أصحابها وانتهت حياتهم الدنيا التي هي محل تحصيلهم واختبارهم. أما الأخبار التي وردت في كتاب الله وتخبر عن المستقبل فهي تخبر عن أمور عامة، وليس فيها تحديد شخصيات أو أماكن بعينها. ليس هناك جزم في كتاب الله بمصير إنسان في الدنيا، فضلاً عن الآخرة إلا بعد انقضاء فترته في هذه الدنيا، أما قبل ذلك فلا.

لو استشهد أحدهم بسورة المسد والوارد فيها ذكر أبي لهب، الذي قيل أنه عم النبي صلوات ربي عليه لقلنا أنّ هذا هو المثال الوحيد، وعليه كثير من علامات الاستفهام، ولا بد أن يُدرس بشكل جيد؛ لأن القطع الذي جاء فيه بمصير شخص مخالف لمنهج القرآن. إذا كان لفظ أبو لهب هو كنية عبد العزة عم النبي، وبحسب المصادر التاريخية يعني جميل الوجه، لأن وجهه كان مشوباً بالاحمرار، أو حسن الوجه، فهل من العقل أن يقول الله: تبت يدا جميل الطلعة مثلاً، أو تبت يدا حسن الوجه؟

بحسب المنهج الذي نسير عليه، نعلم أن توصيفات القرآن توصيفات حقيقة وليست ظاهرية فعندما يقول القرآن تبت يدا أبي لهب فهذا معناه أن لفظ لهب وصف حقيقي لحالة الموصوف وليس كنية. هذا المثال فيه كثير من الإشكاليات، ولكن ليس هنا محلها، وربما نعود إليها في موضع آخر.

لو نظرنا إلى الآية الكريمة التي لم يخبر فيها ربنا بمصير "محمد" صلوات ربي عليه، وهو أمر هين، ثم تطرقنا إلى الروايات المنسوبة للرسول والتي فصلت أحداثاً عظيمة، وقطعت بمصير

أشخاص ما زالوا يعملون في الدنيا؛ لعلنا كمّ التقول والافتراء على الله ورسوله، فالله يعلمهم في كتابه ويأبى الناس أن يعقلوا، ولم لا وكلام الله لديهم هو آخر المراجع وآخر ما يلتفت إليه.

أعلم أنّ هناك روايات لا حصر لها منسوبة لرسول الله تتحدث عن أحداث مستقبلية لأشخاص بعينهم، فإن أحسنا الظن بهذه الروايات وأن الرسول قالها بالفعل فهي لا تعدو كونها من باب التنبؤ القائم على معارفه البشرية، وليست إلزاماً أو اخباراً بأحداث واقعة لا محالة. نقول ذلك ببساطة لأن الإخبار عن المستقبل بشكل قاطع ليس من المنهج الرباني كما بينّا في أكثر من موضع.

عندما يقول أحد الحكماء أو المفكرين أن الامة الفلانية أو المجتمع أو الدولة سوف تسقط في غضون مدة زمنية محددة فلا يمكن الاعتقاد أنّ الحدث واقع لا محالة، إنما قال ما قال اعتماداً على بشريته، فعندما يخبر الأستاذ تلميذه أنّ بانتظاره مستقبلاً باهراً وأنه سوف يصبح مثلاً طيباً ممتازاً، فهذا لا يعد قطعاً بالأحداث أو إلزاماً للأقدار؛ وإنما من باب من يرى بلحاظ الأمر ما هو واقع .

المشكلة لا تكمن في النبي الذي تكلم بناء على بشريته، أو المفكر الذي أخبر بناء على تجربته، أو المدرس الذي رأى برأيه؛ وإنما المشكلة تكمن في تلك العقول البسيطة المتواضعة التي لا تدرك هذه الفروق، وتفتقر إلى طريقة قويمية لتحكيم كتاب الله فيما يذهبون، والذي ينفي نفيّاً قاطعاً علم ما هو كائن، وعلم الغيب بشكل قاطع لأحد كائن من كان.

ماذا يفعل الرسول لهؤلاء إن خالفوا أمر الله، ولم يمتلكوا أي قدرة على تدبر أمر الله، ويسيروا في جماعات معصوبة الأعين.

لا شك لدينا أن النبي والرسول يملك حكمة ورؤية ثابتة، وعدم تحيز في فهم الأشياء، وهذا يجعله أكثر حكمة في فهم الأمور والتحدث عنها والتنبؤ بها. لكن تبقى تنبؤات غير

لازمة الوقوع، طالما جاءت خارج النص الإلهي. لو اعتقد أحد أنها تنبؤ لازم الوقوع فقد خالف المنهج الرباني الذي أرشد إليه ربنا، وقال ما ليس له به علم وافترى قولاً عظيماً.

قليلاً من التفكير والتريث حتى لا يساء إلى رسولنا الكريم، ونقول على الله ما لا نعلم، والذين اتخذوا الأنبياء آلهة أو نصف آلهة لن تشفع لهم الأنبياء؛ بل سوف يسبوا منهم الأنبياء والرسول. لقد تعدى بعض الأصوليين حتى دور النبي، وجعلوا من المعاصرين له حكماً على أزمته لا يدرون عنها شيئاً؛ مما شكل عقبة كئود في طريقة تفكيرهم وطريقة فهمهم لكلام الله.

سوف يستمر الصراع هكذا بين التجديد والأصولية؛ بسبب التفاوت الشديد في المجتمعات، وفي طبيعة التعلم، واختلاف الثقافات. أحد أهم صور هذا الصراع تجلت في التفريق بين الكتاب والقرآن، والتي أنتجت فريقين؛ أحدهما لا يرى أي فرق، والآخر يرى فرقاً شديداً الوضوح. فهل حقاً هناك فرق بين الكتاب والقرآن؟

الفرق بين القرآن والكتاب

الفرق بين القرآن والكتاب والذي أشار إليه الدكتور شحور في كتابه (الكتاب والقرآن) وشهد موجة معارضة شديدة جداً، حتى من بعض أنصار الفكر التجديدي، هو تجسيد للصراع الدائر بين العقل والنقل، وأخذ القضية إلى بعد عميق جداً، بل أزعج أنه وصل إلى أسباب الصراع الرئيسة.

اعتمد الدكتور شحور في التفريق بين القرآن والكتاب على عدم وجود الترادف، ثم استنتج أن جذر كلمة (قرآن) هو (قرن)، وعلى ذلك قال أن الكتاب هو كل الآيات، وأن القرآن جزء من الكتاب، ومعنى ذلك أن هناك آيات في الكتاب لا تعتبر آيات قرآن.

واجه هذا الطرح انتقادات عديدة، وكان من أهم الأدلة التي ساقها المعارضون رافضين وجود فروق بين القرآن والكتاب آيات واضحة في كتاب الله تنص على أن القرآن والكتاب شيء واحد:

(الرَّتِّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ) (سورة الحجر: آية 1) .

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) (سورة النمل: آية 1) .

كذلك آيتان في سورة الأحقاف تذكران أن الجن قالوا عن القرآن في موضع قرآن، وقالوا عنه أيضاً كتاباً .

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30)) (سورة الأحقاف: آيات 29-30) .

فما هو القرآن، وما الفرق بينه وبين الكتاب إن وجد فرق؟

بالنظر إلى لفظ (قرآن) وأصله (قرأ) وإضافة الألف والنون الدالة على الاستمرار، بينما لفظ (كتاب) وأصله (كتب) ويعني ضم أشياء بعضها إلى بعض لتصف موضوعاً معيناً، سندرك أن خصائص وصفات كل مسمى مختلفة تماماً عن المسمى الآخر .

نعم هناك فرق بين القرآن والكتاب، ولكن في الوقت نفسه ليس ذلك معناه أن بعضاً من آيات الكتاب ليست آيات قرآن، إذ لا يمكن تجاوز آيات في كتاب الله تشير إلى أن الكتاب والقرآن هما الشيء نفسه .

الفرق بين القرآن وبين الكتاب هو فرق في التلقي؛ أي كيف يتلقى الإنسان الآية الكريمة وماذا تعني له؟ بمعنى أكثر وضوحاً، إذا تلقى الإنسان الآية بالقراءة والتي تعني البحث والتدبر والتحليل فهي بالنسبة له آية قرآن، ويصبح هو قارئاً للقرآن، أما إذا تلقاها بالإيمان دون بحثها فهو إذن تلقاها كآية كتاب، ويصبح من الذين يتلون الكتاب .

حتى تتضح الصورة أكثر فأكثر دعونا نعطي مثلاً للتعامل مع آية كريمة؛ لنبين من خلالها مفهوم القرآن والكتاب .

آية تحريم لحم الخنزير

(قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا
أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ) (سورة الأنعام: آية 45).

هذه آية في كتاب الله وهي كذلك آية من القرآن العظيم، فأما الإنسان الذي يمثل الأمر دون بحث وتدبر، أو أن قدراته لا تسمح له بالبحث والتدبر فيتبع عموم الآية، فهو في الحقيقة يؤمن ويتعامل مع الآية على أنها آية من كتاب الله، وغالباً فهو يؤمن بالكتاب بشكل تلقائي ويمتنع عن أكل لحم الخنزير، دون محاولة فهم العلة أو طرح الأسئلة على الآية الكريمة. على الجانب الآخر هناك من يبحث ويتدبر، ويحاول فك رموز كل حرف وكل كلمة في الآية، وفي هذه الحالة تصبح الآية للباحث المتدبر آية قرآن.

من هنا نجد أن الآية الواحدة انطبق عليها القول بأنها آية كتاب وآية من القرآن؛ بحسب تلقي الإنسان لهذه الآية. التفريق والقول بأن هناك آيات لا ينطبق عليها القول بأنها آيات قرآن هو قول جانبه الصواب. قد تظل الآية آية كتاب بالنسبة للناس لفترة طويلة من الزمن، بسبب صعوبة تدبرها أو نقص المعرفة؛ ولكن ما إن يتم تدبرها أو محاولة لتدبرها حتى تصبح آية قرآن بالنسبة للمتدبر.

قد يكون ما أشكل على الباحث وجعله يقول أن هناك آيات من الكتاب ليست آيات قرآن هو الاعتقاد بأنها لا تحتاج للتدبر أو القراءة، وأنها واضحة لا لبس فيها ولا تأويل، مثل آيات الوحدانية، أو بعض من القصص القرآني والأمور الصريحة.

هذا الاعتقاد هو اعتقاد أيضاً جانبه الصواب لأن التجربة أثبتت أن التعمق والبحث الدؤوب خلف كل كلمة يعطي نتائج جديدة، ومعلومات متجددة باستمرار، مما يجعل كل آيات الكتاب آيات قرآن.

عندما وصف ربنا الكتاب بأنه هدى للمتقين، والقرآن هدى للناس، فذلك وصف غاية في الإعجاز؛ فالمتقون هم الذين يحاولون اتقاء كل ما يمكن اتقاءه، ولذلك يميلون لاتباع الكتاب بشكل -إن جاز لنا التعبير- اعتيادي، ولا يجذون التفكير النقدي.

بينما القرآن هدى للناس؛ لأن الناس بصفة عامة يميلون للتفكير النقدي، وبحث الأشياء وفهم علاقتها، والتوجيه الإلهي لم يعب هؤلاء ولا هؤلاء، بل جاءت الآيات بكل هدوء بأن الكتاب هدى للمتقين، و القرآن هدى للناس.

أين تكمن المشكلة؟

المشكلة تبدأ في الظهور عندما يسود فكر الوصاية، فيعتقد كل فريق أنه صاحب الطريق الحق، متناسياً الفروق المتفاوتة بين الناس؛ فما يستطيع إنسان ما بحثه وطرح الأسئلة عليه يعتبره البعض كفراً وزندقةً، وكذلك إلزام النص بشكل حرفي قد يعده البعض عين الجمود والضلال، بينما يراه المؤمنون بالكتاب هو عين الإيمان والتسليم.

البشرية بصفة عامة تميل مع التقدم الزمني إلى التطور العقلي والفكر النقدي؛ لذلك ليس جيداً على الإطلاق دفع الناس دفعاً لأن يكونوا جميعاً باحثين مخضرمين، في حين أنّ قدراتهم لا تسمح لهم بذلك.

توبيخ الناس على عدم تدبرهم ودفعهم للشعور بالجهل سوف يؤدي إلى فوضى معرفية كبيرة. سوف نجد المثاقفين يحاولون بكل قوة أن يطرحوا أفكاراً عشوائية، ويختطفون أفكاراً من هنا وهناك، دون أي دراية أو علم، سوى رغبة في إبداء ثقافة وعلم لا يمتلكونها؛ مما يؤدي في النهاية إلى كَمٍّ من السخافات والمهرف، فتضيع وسطها الحقائق.

هذه الفوضى سوف تتسبب في مزيد من التشويش على الناس، لذلك كان فهم الفروقات الفردية ووضعها في نصابها، وعدم الإنكار على أصحابها و دفعهم للشعور بالنقص، هو أحد أهم درجات التطور المعرفي للبشرية، وسبباً رئيساً في وجود التناغم بين أفرادها. من امتلك قدرة عقلية تؤهله للغوص والعمق المعرفي فهو الأجدر على فهم هذه الفروق؛ لذلك من وجهة نظري عبء تخفيف نعمة التجهيل والتضليل بين الناس بعضهم لبعض تقع بالأساس

على هذا الفريق، فريق البحث والتدبر الحقيقي . لا شك أن وجود فريق يؤمن بالكتاب ولا يستطيع قراءة الآيات بشكل علمي هو أمر واقع في كل زمان. مشكلة هذا الفريق أن لديه قناعات تم تغذيتها على مدار سنوات طويلة، وجموع تدعم وجهة نظره. بعض هؤلاء يعتبر أن بحث الآيات بشكل مستمر هو نوع من أنواع رد الدين والظعن في الشرع. يكثر انتشار هؤلاء في المجتمعات المغلقة والبيئات الثقافية الضحلة، التي يسهل التأثير عليها باستخدام العاطفة والأسلوب الخطابي.

للأسف الشديد هذا النوع من الناس لا يعنيه المنطق بقدر ما يستمتع ويقتنع بالأسلوب الإنشائي، لذلك يأتي دور التلطف وفهم الفروق كعامل حاسم في توعية هؤلاء وتعليمهم. عملية تعليم هؤلاء تحتاج لوقت طويل، حتى وإن لم يستقبلوا، فلا ضرر منهم، ومخاطبتهم بشكل ودي واللين لهم هو الحل الأمثل، الذي يعطي الفرصة لبعضهم لمراجعة أفكارهم، وكذلك يعطي الفرصة للأجيال القادمة لتكون أقل انقساماً، وأكثر انفتاحاً على المعرفة، وأكثر إقبالاً على التعلم.

مجرد فهم الفرق بين لفظي الكتاب والقرآن مكننا من قبول الآخر المختلف عنا فكرياً، وتفهم الفروق بين الناس، والتعامل بشيء من المرونة، ويعذر بعضنا بعضاً بسبب هذه الفروق. نأتي الآن إلى الآيتين في سورة الأحقاف والتي استمع فيهما الجن إلى القرآن، ثم قالوا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى، الآيتان تعطياننا تأكيداً على أن القرآن لا يختلف عن الكتاب بحسب التعامل مع الآية:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30)) (سورة الأحقاف: آيات 29-30).

لكي نستطيع التعامل مع هاتين الآيتين لابد من فهم سياق الآيات، ولماذا جاء في الآية الأولى لفظ (القرآن) وفي الآية الثانية لفظ (الكتاب)، مع أن الحديث منصب على نفس الشيء.

عندما كان الجن يستمعون إلى الآيات كانوا يستمعون إلى القرآن، فالآيات كانت تحتاج لقراءة مستمرة وتدبر وليست آيات عادية، وهذا يعني أن الأصل هو القرآن وليس الكتاب، ولكن عندما بلغوا قومهم فقالوا: (إنا سمعنا كتاباً)، ولم يقولوا قرآناً؛ لأن القرآن لكي يكون قرآناً يلزمه القراءة والتدبر والتحليل، وهم لم يفعلوا ذلك؛ هم آمنوا بالمجمل بأن هذا الكلام يشبه الكلام الذي أنزله الله على موسى، أو أن كلاهما من نفس المصدر؛ لذلك كان قولهم: (إنا سمعنا كتاباً) ليوافق تصديقهم وإيمانهم، وليس قرآناً لأنهم لم يتطرقوا بعد لقراءته، وقراءته بمعنى بحثه وتدبره.

ما الذي دعا الجن للإيمان بالكتاب رغم أنهم لم يختبروه بالبحث والتدبر؟

الجن كان لديهم مقياس هو كتاب موسى، ولذلك استطاعوا عقلياً قياس هذا الكتاب على كتاب موسى، فآمنوا بمجمل الكتاب، وقد سبق الإيمان بالكتاب عملية عقلية؛ وهي عملية قياس كتاب على كتاب، وليس إيماناً مطلقاً.

الإنسان الذي لم يعاصر كتاب موسى وليس لديه علم بكتب سابقة أو خبرات سابقة ليس لديه سبيل إلى الإيمان بالكتاب إلا من خلال إيمان عقلي ببعض من الكتاب، ثم الإيمان الغيبي بباقي الكتاب؛ أي أن الإنسان لابد له من التعامل مع آيات المصحف على الأقل آية واحدة على أنها آية قرآن، حتى يصبح إيمانه بالكتاب إيماناً صحيحاً.

لا شك أن عملية القرآن تسبق الكتاب؛ لأنه لا إيمان بدون تعقل. هذا المبدأ مخالف تماماً لما يقول به الأصوليون، فقد جعل الأصوليون النقل فوق العقل، وهذه مغالطة منطقية، إذ كيف يستطيع الإنسان قبول النقل بدون العقل.

الصورة السليمة التي أرشد إليها كتاب الله هي العقل أولاً؛ على نحو نقرأ ونحلل ونتدبر آيات القرآن، فيكون بذلك العقل حاكماً على النقل، فإذا استطاع العقل برهنة جزء من النقل، قبل ما لم يستطع برهنته عن طريق الإيمان، إنها سنة الله في خلقه التي لا تقبل الإيمان إلا بعد قبول حد أدنى من المفاهيم عن طريق العقل.

النقل فوق العقل على أنه منهج عام هو منهج أجهزة التسجيل، لا يثر حياة وينتج نسخاً مكررة لا فائدة منها، والعقل فوق النقل بصفة عامة يؤدي إلى الضلال بل ورفض الدين من الأساس، وترافق القرآن والكتاب يخبرنا أنه لا غنى عن أحدهما بالآخر.

دورة الإيمان لدى الإنسان تبدأ بقبول العقل لبعض الأساسيات، ثم يبدأ في الإيمان بالغيبيات، ثم ينطلق يفتش ويحاول فهم ما خفي عنه وهو يحمل هذا الإيمان في قلبه. إنها الحقيقة التي يغفل عنها الإنسان الباحث عن الحقيقة؛ وهي قلب مطمئن بالإيمان، وعقل يشك ليزداد علماً و يقيناً.

دعونا نتعرض لبعض الآيات الكريمة لنزداد فهماً لبُعد الكتاب والقرآن، كما جاء في كتاب الله:

الآية الأولى

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (سورة العنكبوت : آية 46).

التوجيه الرباني في الآية الكريمة يشير إلى عدم الجدال مع أهل الكتاب، وإن كان لا بد فهو الجدال الحسن دون تجاوز أو تضليل.

لماذا هذا الإرشاد؟ لأن أهل الكتاب بالمجمل يغلبون النقل على العقل؛ فلا فائدة كبيرة من الجدال معهم، لذا تجنبهم والإحسان إليهم هو السبيل الأمثل .

الإرشاد القرآني يراعي الفروق بين الناس، فما تعتقده سهلاً وواضحاً قد يكون طلاسماً بالنسبة للآخرين، فلا داعي لتكفير بعضنا البعض وتجهيل بعضنا البعض، وليكن نقاشاً مرناً،

فإن بدا أن هناك قصوراً في أمر ما فيكفي أن نقول كما أمر ربنا: آمنا بالذي أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلها وإلهكم واحد ونحن له مسلمون.

قد يعترض أحدهم ويقول أن الآية نزلت في أهل الكتاب المعروفين لنا جميعاً، فكيف تسقطها على من يؤمنون بالكتاب الذي هو القرآن؟

الحقيقة أن مفهوم أهل الكتاب متعلق بالكتاب وليس بطائفة معينة فكل من يؤمن بمجموعة تعليمات دون قراءتها وبحثها فهو مؤمن بالكتاب. مفهوم الكتاب مفهوم شامل فكل محتوى من معارف معينة هو كتاب وأهل الكتاب في المطلق هم أهل المعارف. لذلك نستطيع وبكل سهولة فهم مفهوم أهل الكتاب وهم كل الذين يضمون المعارف بعضها إلى بعض. لنا في هذا المفهوم تفصيل في كتاب آخر ولكن هنا يكفي أن نشير إلى أن هناك فرق كبير بين العلماء وبين من ينعتهم الناس بالعلماء وهم في الحقيقة موافقون مفهوم أهل الكتاب بالتوصيف القرآني.

إذا كان العلماء هم من يحلون ويستنتجون نتائج جديدة وهم أهل الثناء في كتاب الله، فإن كل الذين يضمون معلومات بعضها إلى بعض ثم ينثرونها بين يدي الناس ليسوا علماء ولكن ينطبق عليهم مفهوم أهل الكتاب. أهل الكتاب يغلب عليهم الضلال بسبب منهج التقليد الذي يتبعونه وعدم القدرة على تحليل ما بين أيديهم لذا جاء التحذير الرباني من هذه فئة كثيف للغاية.

يكثُر في هذه الفئة الكفر والتكذيب والقول على الله بما لا يعلمون. بإختصار شديد أهل الكتاب لا يعلمون وإنما يغلب عليهم صفة يعرفون وهذه هي الميزة الرئيسية لفئة أهل الكتاب. سوف يتضح مفهوم أهل الكتاب أكثر فأكثر عند بحث لفظ اليهود ولفظ النصارى في الفصول القادمة.

سوف أتطرق لخاطرة بسيطة هنا قبل الانتقال للآية التالية، وهي الفرق بين الله يعلم والله يعرف.

هل الله يعلم أم الله يعرف؟

تعبير (علم الله) هو تعبير شديد الخطورة؛ إذ سبب عدم فهمه بالشكل السليم إلى تكفير ناس وزندقة آخرين، بل وكان أحد أركان قضية خلق القرآن، وسبب إلى يومنا هذا كما كبيراً جداً من الكسل، والقول على الله بما لا يعلم الناس، حتى جعلوا من الله العلي القدير الحكيم مرادفاً للعشوائية وهو لا يدرون.

عدم فهم هذا التعبير جعل الناس يعتقدون أن الإنسان لا يملك من أمره شيئاً، وأنه يسير كما هو مخطط له، وليس له في ذلك حيلة. هذه المفاهيم هي سبب تخلف الأمم وسبب نكبتها، ومن يُنظر لها وينشرها بين الناس، ينشر الجهل ويفتري على الله الكذب. (الله يعلم) تختلف تماماً عن (الله يعرف) فلو قال الله أنه يعرف لكان الفعل قد تم وحدث، والإنسان فيه مسير تماماً، أما قول الله يعلم، يعني أن الله محيط بالشيء، ويمتلك أدواته جميعها؛ والمفهوم الأقرب لهذا المعنى هو مفهوم الاحتمالات.

نفترض أن المطلوب مني الذهاب إلى مدينة معينة، وهناك خمس طرق للوصول للمدينة، ومسافة كل طريق تختلف عن الآخر، وظروف كل طريق تختلف عن ظروف الطريق الآخر. المعرفة هنا هي معرفة الطريق الذي سلكه الشخص بشكل محدد، وكل ما يخص هذا الطريق فقط، وغالباً تأتي بعد حدوث الفعل، بينما عملية العلم أوسع من ذلك بكثير، وهي عملية تتم قبل حدوث الفعل.

العلم هو عملية حسابية معقدة للغاية؛ إذ تأخذ في الحسبان الطرق الخمسة وجميع الظروف والعوامل والاحتمالات والعلاقات التي تتحكم في هذه العملية، ثم إعطاء نتيجة لما سوف يحدث. كلما ازداد العلم دقة كلما اقتربت التوقعات من النتائج، فإذا كان العلم محيطاً بشكل كامل فهنا لا بد أن تكون التوقعات موافقة تماماً للنتائج، بل تصبح التوقعات والنتائج شيئاً واحداً.

لذلك استخدم ربنا لفظ (يعلم) ولم يستخدم لفظ (يعرف) في وصف أفعاله؛ مما يثبت أن الإنسان يخلق أفعاله، لا اجبار عليه، وأن علم الله هو إحاطته بكل الاحتمالات التي سوف يقوم بها الإنسان ونتائجها.

الآية الثانية والثالثة

لدينا آيتين في كتاب الله جاء فيهما تعبير (يعلم) وتعبير (يعرف) مع الكتاب فكيف ذلك؟ عندما جاء لفظ (يعلم) مع الكتاب قال الله لا يعلمون الكتاب إلا أمانى:

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (سورة البقرة: آية 87).

العلم قائم بالأساس على الاستنتاج والاستنباط، وقليل ما هم؛ لذلك قال الله لا يعلمون الكتاب إلا أمانى. الأمانى كما بينا في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب عندما جئنا على مفهوم (الأميين) أنها الأفكار غير القائمة على منهجية، وإنما رؤى وفلسفات شخصية. علمهم بلكتاب بالأصل أمانى وهي الأفكار الشاردة التي لا تقوم على أرض صلبة. بينما عندما جاء لفظ يعرف قال الله عنهم (يعرفون الكتاب كما يعرفون أبناءهم)؛ أي معرفة قوية.

(الَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (سورة البقرة: آية 146).

المعرفة هنا استحضار ما هو موجود بالفعل بشكل قاطع، دون أي استنتاج أو عمليات تحليل لذلك، هم يعرفون ولكن لا يعلمون. ولو كان لهم علم فهو مجرد أمانى يغلبه الهوى. هذه الصفات نستطيع إدراكها بكل سهولة في أصحاب المعارف الذين لا يملكون أدوات العلم، تجدهم يتعاهدون المعارف التي تذر بها الكتب ومن ثم إعادة تدويرها مرة أخرى بين الناس. فإذا استنتجوا أمرًا لم يفرقوا بين الدلائل والحيل وجاءت استنتاجاتهم على مقاس أهوائهم وأمانيمهم لا تلتزم أي منهجية سليمة.

الآية الرابعة

الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ءَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ؕ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ؕ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ (البقرة : الآية 121) .

الآية الخامسة وحتى الثامنة

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ؕ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (سورة البقرة: آية 129) .

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (سورة البقرة: آية 151) .

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ (سورة آل عمران: آية 164) .

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ (سورة الجمعة: آية 2) .

بالنظر إلى هذه الآيات نجد أن وظيفة الرسول هي أن يتلو عليهم آيات الله، وكذلك يعلمهم الكتاب. أما (التلاوة) فهي نطق الآيات وتتبعها كما هي، وأما (يعلمهم) فهي تعني طريقة التعامل مع الكتاب.

تعليم الطالب الرياضيات تعني تعليمه طريقة التعامل مع الرياضيات، وتعليم الصيد تعني طريقة الصيد، فلو كان يعرفهم الكتاب لكان حلاً واحداً وطريقاً واحداً، أما تعليم الكتاب فتعني طريقة التعامل معه، والتعاطي مع آياته.

هناك فرق شاسع بين أن يُعرِّف الرسول الناس شيئاً وأن يعلمهم شيئاً. تعريف الناس بالشيء لا يُسمن ولا يغني من جوع، ولا يُنتج أي فائدة، أما تعليم الناس شيئاً ما فهو أساس كل خير. أساس وظيفة الرسل تبليغ الآيات ثم تعليم الناس التعامل مع هذه الآيات، ولذلك

كان القرآن هو آخر التسميات؛ لأنه يحتاج لتعليم كثيف حتى يستطيع الإنسان القراءة والتحليل والتدبر. الأمر أشبه بالطالب في المدرسة الذي يعلّمه الأستاذ المواد الدراسية، فإذا شبّ وكبر وتدرّب بما فيه الكفاية انطلق واستطاع القراءة والتحليل بذاته.

الآيات التي ذكر فيها القرآن كثيرة وغزيرة، وإن أردنا أن نمر عليها جميعها فلن يكفينا كتاب كامل، ولكن حسبنا أن نمر سريعاً على بعض الآيات الخفيفة، لنبين من خلالها كيف يختلف القرآن عن المفهوم الذي توارثناه، والذي أضاع أهم خاصية وميزة لهذا الكتاب؛ وهي القابلية المستمرة للقراءة.

عندما نستعرض الآيات التي ذكر فيها لفظ (القرآن) سنجد أنها مترافقة في أغلبها مع لفظ (اقرأ) أو (تدبر) أو (يعقل)، أو ألفاظ لها علاقة مباشرة بالعلم والبحث والتحليل. لم يأت لفظ (التلاوة) مع (القرآن) إلا في موضعين في مواضع (كتاب الله) في سورة الأعراف، ويشير إلى تتبع القرآن، وليس كما يفهم بشكل تقليدي على أنه ترديد كلمات القرآن وآياته.

الآية الأولى

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (سورة يونس: آية 61).

التعبير القرآني "تتلو منه من قرآن" تعني تطبق ما استطعت فهمه من القرآن في الشأن الذي أنت فيه، إذ الهاء في "منه" عائدة على الشأن في الآية الكريمة. القرآن بطبيعته يحتاج للفهم والوقوف عليه وليس مجرد ترديد للآيات، ودل على ذلك أصل الكلمة ذاتها، وكذلك ترافق مفردات التدبر والتعقل والقراءة مع لفظ (القرآن). لفظ (تلو) نفسه يعني تتبع الشيء، ولا يمكن فهم المقصود الحقيقي بالتلاوة إلا إذا فهمنا ما هو الشيء المراد تلاوته.

تلاوة الكتاب تختلف عن تلاوة القرآن، فتلاوة الكتاب تعني تتبع الظاهر من الكتاب، سواءً تتبعه لفظياً (ما نسميه -تجاوزاً- قراءة)، أو التزاماً بالأمر والتعليمات بحسب ما تظهره.

إلا أن تلاوة القرآن لا بد أن تأخذ عمقاً أبعد من ذلك، وتشير إلى تتبع المعاني الباطنة، والتي لا يتم الوصول إليها إلا من خلال القراءة والبحث والتدبر.

الآية الثانية

(وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) (سورة النمل: آية 92).

هذه الآية خاصة تحديداً بالتأويل والتفسير والتفاعل مع القرآن، وليس كما ذكرنا تلاوة الألفاظ أو ترديدها فقط، بسبب حساسية لفظ القرآن. المقصود هو تتبع ما جاء به القرآن من خلال قراءته السليمة فإذا وضح للناس أمر خلاف ما يعتقدونه من خلال قراءة القرآن وجب عليهم اتباع الأمر وترك الأمر المخالف لأنه الهدى كما يقول ربنا وسواه الضلال. أكرر دوماً القراءة السليمة القائمة على منهج سليم وليست الأمانى.

سوف نأتي في الفصول القادمة على كيفية التفريق بين القراءة السليمة وبين القراءة المزاجية وكيف يستطيع الإنسان النجاة بنفسه وكفى بنفسه حسيباً.

الآية الثالثة

(فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) (سورة القيامة: آية 18).

يقول المفسرون في هذه الآية: إن المقصود إذا أقرأك جبريل القرآن فاتبع هذه القراءة. مرة أخرى يتم فهم القراءة على أنها عملية ترديد العبارات والكلمات. الآية لا تشير إلى وجود وسيط أو وجود جبريل، وإنما تشير إلى أن قراءة القرآن أي فهمه وفهم معانيه يتم باتصال مع الله، سواء أخذ هذا الاتصال شكل الوحي أو ما نسميه نحن الإلهام، فيجب اتباع القراءة . هذه الآية تشير بشكل أساسي إلى خاصية القرآن الأساسية وهي قابليته للقراءة، وأنها مرتبطة بشكل كبير بالله، وليست عملية عشوائية . هذا الأمر تم الإشارة إليه أيضاً من خلال الآيات التي تتحدث بشكل كبير عن الأمر الذي يلقيه الله على من يشاء من عباده، وسوف يتم تفصيله عند الحديث عن سورة القدر.

كذلك سوف نكتشف مع نهاية الكتاب كيف أن هناك بعض الشروط اللازمة لقراءة القرآن، إذا ما توافرت فتح الله على صاحبها، فهو القرآن الذي جعله الله ميسراً لمن يتدبر.

الآية الرابعة

(وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) (سورة الانشقاق: آية 21).

هذه الآية الكريمة بني عليها حكم سجود التلاوة، رغم أن الآية تقول صراحةً إذا قرئ عليهم القرآن وليس تليت عليهم آيات من القرآن. لو أن الآية تشير إلى وجوب سجود التلاوة لكان ذلك في كل القرآن، وليس في بضع آيات حددها الشراح. لماذا يتم هدر المعاني بكل هذه السهولة، وعدم الوقوف على المعنى المراد وعدم التفريق بين (قرأ وتلا) وبين (القرآن والكتاب)؟ ولماذا لم يتم فهم لفظ (السجود) من خلال كتاب الله الزاخر بهذا اللفظ في كثير من المواضع؟

فعل (قرأ) كما بينا في أكثر من موضع يعني: التحليل والفهم والتدبر وليس مجرد التلاوة، بمعنى إذا تم تدبر وفهم وتحليل القرآن تجد بعضاً من الناس لا يسجدون؛ أي لا يلبنون للفهم غير السائد أو المفاهيم غير الموروثة لديهم ولا يطمثون لها.

كما قد بينا في الجزء الثالث من الكتاب أن السجود لآدم من قبل الملائكة كان عبارة عن دعمه ومساندته وبث الطمأنينة، عن طريق الاقتراب والتواصل معه، وليس سجوداً مادياً كما نتخيل. هو مفهوم السجود نفسه المذكور في سورة الرحمن الخاص بالنجم والشجر، والذي سوف نأتي عليه في الفصل القادم. السجود المطالب به الإنسان هنا هو الاقتراب والتواصل في حالة قراءة معاني القرآن أو تدبره، وعدم الإعراض أو التنكر أو التحذلق، وكثير من الأعراض السخيفة التي يغرق فيها أرباب المورثات.

لا شك عندي أن عدم الامتثال بالسجود لقراءة القرآن بمعنى الاقتراب والتواصل، مع هذه المفاهيم الناتجة من القراءة؛ سببٌ رئيسٌ في تضييع تلك المفاهيم الجديدة، وبقاء المفاهيم القديمة أو المغلوطة أكبر قدر من الزمان. إنه تعطيل مسيرة القرآن ووظيفته، وتكريس للجمود

والسكون، والذي هو خلاف الحركة أو التسبيح الذي أرشد إليه التوجيه الإلهي، والذي هو أهم قانون من قوانين الوجود.

المثال الأقرب الذي يمكننا من خلاله توضيح ماذا فعل بعضهم بالقرآن، وكيف حولوا قراءة القرآن إلى مجرد تلاوة الألفاظ، وكيف سارت الجموع خلف هؤلاء دون مراجعة ودون تفكير، هو مثال المعادلات الرياضية.

بفرض أن حكيماً أعطى كتاب معادلات رياضية لمجموعة من الناس في قرية ما، وقال لهم: تمرنوا و تدرّبوا من خلال هذا الكتاب، أو إن هذا الكتاب خاص بالتمارين والتدريب.

فما كان من الناس إلا أن استخدموا الكتاب كأحد الأثقال في تقوية عضلات اليدين مثلاً. لم يفهم الناس أن لفظ (تمارين) أو (تدرّبوا) يقصد به حل المعادلات الرياضية؛ لأن مجتمعهم لا يعرف هذا النوع بالتحديد من التمارين. حاولوا قدر استطاعتهم فهم تطبيق الأمر الذي سمعوه بقدر ما توافر لهم من معارف. فإذا فاجأتهم بأنهم يتصرفون بالطريقة الخاطئة، وأنّ ما يفعلونه لا يمت بصلة للتمارين أو التدريب المقصود في الكتاب، وأن الكتاب ينكر عليهم ذلك، لن يستمعوا، وبالتالي لا يسجدون.

نخلف من بعدهم خلف بدلاً من أن ينتهبوا إلى الجرم الذي ارتكب في حق الكتاب، وكيف تم تعطيله، أضافوا بعض الموسيقى وهم يقومون بممارسة تمارين التقوية، غير عابئين بالمفهوم الحقيقي للتدريب المتعلق بحل المعادلات، وليس تمارين تقوية العضلات.

إنه مثال تقريبي لفهم كيف يمكن لمدلول الكلمات أن يغير وظيفة الآيات ورسالتها. لا يعقل أن يكون نصيب الإنسان كلّ نصيبه من هذا الكنز الإلهي مجرد التلاوة، أو الاستمتاع بالموسيقى التي تحملها ألفاظه.

قمة التناقض أيضاً أن كثيراً من هؤلاء الذين حرّموا الموسيقى في الحياة لا يحتفون بشيء من كتاب الله سوى موسيقاه، بل وتم منح العازفين على الكلمات لقب قارئ القرآن، في تعدٍ صارخ على مفهوم القراءة ومفهوم القرآن.

الآية الخامسة

(لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (سورة الأعراف: آية 204).

هذا الأمر الإلهي أيضا يتكامل تماماً مع الآية السابقة، وهو إذا قرئ القرآن بمعنى تم تحليل معانيه وتعبيراته فيلزمه الاستماع والإنصات. الإنصات ملازم للتدبر وهو حسن الاستماع، المتوافق تماماً مع القراءة بمفهومها القرآني، وهو التحليل ومحاولة الفهم. هذا الأمر الإلهي ليس فقط فهم على غير معناه، بل تعامل الكثيرون من أهل التقليد والتراث معه بالضد؛ فأصبح من الطبيعي أن ترى رجل الدين ينهى الناس عن الاستماع أو الإنصات إلى قراءة القرآن التي تخالف ما تعارف عليه الناس، وهذا التصرف هو عين التصرف الذي أشار إليه القرآن في سورة فصلت:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (سورة فصلت: آية 26).

التحريض هنا على ترك سماع القرآن وليس سماع الكتاب؛ لأن القرآن مصمم تماماً لمخاطبة العقل، وأول منازل التعقل هي الاستماع، لذلك فطن الذين كفروا إلى هذه الخاصية فطلبوا من أتباعهم والجموع التي ترى فيهم أهل الثقة عدم الاستماع للقرآن؛ أي لما تحويه الآيات من مفاهيم قابلة للقراءة والتدبر والتعقل.

بعد هاتين الآيتين لا أستغرب أبداً ذلك العامي الذي يرفض الاستماع أو مطالعة كتب تخالف ما ورثه وتعارف عليه.

لقد تم تحريف معاني القرآن كما نرى، وأصبحت القراءة مجرد تلاوة الآيات أو ترديدها، وتبع ذلك قصور في فهم كثير من آيات القرآن التي تحث على الفهم والتدبر والتعقل. لقد تحول الأمر إلى مجرد شكل ظاهري، أو مسرحية يقوم فيها الممثلون بدور قارئ القرآن، وهم بالكاد يقولون الكتاب ولا يمكن تسميتهم بالقارئ؛ لأنهم لا يفعلون ذلك حقيقة، ويصطف الناس أمامهم وهم مقتنعون أنهم يستمعون إلى القرآن وينصتون إليه.

لا هؤلاء قارئون ولا هؤلاء منصتون، وكل ما في الأمر مسرحية يستمتع فيها الجميع بدور المؤمن والمتبتل إلى الله، وتمثيل دور أهل الله وخاصته. نحتاج في كثير من المواقف ان نؤكد على البدييات مراراً وتكراراً حتى لا يتم تحريف الكلام على غير معناه. لا نعيب على تلاوة الآيات أو الاستماع إليها وإنما نود الإشارة إلى تسمية الأشياء بمسمياتها حتى لا يختلط على الناس الأمر ويضيع أمر الله ولا يجد من ينتبه إليه.

الآية السادسة

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا) (سورة الإسراء : آية 45).

هذه الآية الكريمة تشير إلى نوع من المكذبين لا تؤثر فيهم قراءة القرآن؛ لأنهم بالفعل هم معزولون. كثيراً ما يعتقد أصحاب النيات الطيبة أن فهم آيات القرآن واستخراج معانيها ربما تثير حاسة التفكير لدى الناس. هذه الفرضية صحيحة لدى الذين لديهم الرغبة في معرفة الحقيقة، وبريئون من التحيز المعرفي، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فهؤلاء معزولون عن القول، ولديهم نظامهم المعرفي، فلا داعي لتضييع الوقت معهم.

في الغالب هؤلاء يسخرون ويستهنئون، لذلك كان التوجيه الإلهي واضحاً مع أمثال هؤلاء، كما جاء الأمر في سورة الأنعام بالابتعاد عنهم وعدم الخوض معهم:

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (سورة الأنعام: آية 68).

الآية السابعة

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) (سورة الإسراء: آية 78).

هذه الآية الكريمة تشير إلى لحظة غاية في الروعة؛ وهي أن قرآن الفجر كان مشهوداً. التدبر والقراءة في وقت الفجر هي أفضل وقت، وهذا الوقت يبدو فيه العقل في حالة مثالية لاستقبال ومعالجة الأمور. سوف نعود إلى هذه الآية الكريمة عندما نأتي على مقدمة سورة المزمل في الفصول القادمة، ونقارن بين ناشئة الليل وقرآن الفجر.

الآية الثامنة

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء : آية 88).

هذا التحدي الذي جاء في كتاب الله جاء لمقام القرآن، وهو أن القرآن له صيغة وله خاصية لا يمكن لأي بشر أن يستطيع الإتيان بها. القرآن هو قراءة للكون والأحداث تتكشف باستمرار. ألفاظ القرآن تحوي معارف من علم الخالق المحيط الكلي والشامل، لذلك سوف يظل القرآن هكذا قابلاً للقراءة والتفاعل باستمرار.

المخلوق سواء كان بشراً أو غير ذلك لا يمكن أن يأتي بمثل القرآن؛ بسبب معارفه المحدودة والمحكومة بالزمن الذي عاش فيه هؤلاء البشر أو غير البشر. من خلال هذه الآية تحديداً، ومن خلال مفهوم القرآن لا يمكننا قبول الحديث المنسوب لرسول الله والذي يقول الراوي فيه أن رسول الله قال أنه أوتي القرآن ومثله معه.

"عَنِ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْتَنِي شَبَعَانًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ، أَلَا وَلَا لُقْطَةٌ مِنْ مَالٍ مُعَاهَدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَعْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ، فَلَهُمْ أَنْ يُعَقِّبُوهُمْ بِمِثْلِ قَرَاهِمِ)".

ربما لو أن الرواية لم يُذكر فيها القرآن واكتفي بالكتاب لما حدثت إشكالية، ولكن الرواية بهذه الصيغة لا يمكن قبولها؛ بسبب تعارضها الواضح مع الآية الصريحة في كتاب الله، وهي تحدي الله للإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

طبيعة لفظ القرآن لا يمكن لبشر -حتى الرسل والأنبياء- الإتيان بمثله، ولو قال أحدهم أو ادعى أن الله أوحى إلى رسوله قرآناً شبيهاً، لكان لزاماً أن يكون مع هذا القرآن، لا منفرداً عنه؛ لأن لفظ القرآن لا بد أن يكون خالصاً من عند الله لفظاً ومعنى؛ بسبب طبيعته الحساسة للمعرفة. ليس هناك فرصة للقول أن هناك أقوالاً تشبه في الحقيقة القرآن، ومن يدعي ذلك فليتحمل ما يقول، ومن يثق في أسلافه الذين قالوا بهذا، ويقول مثل قولهم، فهنيئاً له ما يقول وما يدعي، فلكل إنسان ما يعتقد.

أما إذا كان المقصود بأن الله أتى رسوله القرآن ومثله معه، وهي السبع المثاني، وهي أيضاً مما جاء في كتاب الله، فإننا لا نذهب إلى هذا القول أيضاً؛ بسبب أن السبع المثاني لها طبيعة مختلفة كما سوف نرى في الفصول القادمة، وأنها خاصة شديدة الأهمية مرتبطة بالقرآن والقراءة، وليست شيئاً آخر مواز للقرآن.

من خلال هذه الآيات البسيطة ومفهوم القرآن يمكننا إدراك خاصية القرآن، وكيف أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقل والتدبر.

إذا كانت النبوة قد انتهى وقتها فلديكم قرآن قابل للقراءة، سوف تتكشف أسراره في دورات زمنية محسوبة تقود الباحثين المخلصين إلى الإيمان، ويضل عنها الكسالى والمتواكلون. مجرد نزول القرآن وتسميته بالقرآن لهو إعلان عن بداية العصر الجديد، القائم تماماً على العقل الذي يستطيع القراءة والتحليل. إنها رحمة الله التي أدركت الناس جميعاً، وليس حكراً على المؤمنين فقط. لا يمكن أن يكون القرآن هدى للناس إلا إذا وافقت مفاهيمه -والتي تتكشف يوماً بعد يوم- المفاهيم العقلية عند الناس، ولم تتعارض مع المنطق.

من يصرون على اتباع قراءة القرون الأولى أو التفاعل الأول، لا يمثلون أمر الله، ولا يُعلون كلمة الله، وهم أبعد ما يكون عن مراد الله، ولو أحسنا الظن بهم فلن نجد إلا أنهم خلطوا الأمر بين الكتاب والقرآن.

السؤال هنا: كيف يمكن أن يكون القرآن متجدداً باستمرار؟
الآن يبدو لنا أن قصة خلق القرآن ما هي إلا صراع دائم بين التجديد والأصولية، ولكن خان طرفي الصراع اختيار الألفاظ . لفظ (خلق) الذي وصف به المتكلمون القرآن لم يأت في كتاب الله مطلقاً واصفاً آيات القرآن.. لذلك عندما تم إثارة هذه القضية حدث لبس مازال حتى يومنا هذا. لقد جاء لفظ عجيب في كتاب الله يصف وظيفة القرآن وتكامله مع الإنسان، وهو (علم القرآن) الذي ذكره الله في سورة الرحمن . سوف ندخل إلى سورة الرحمن في الفصل القادم، لنفهم تلك العلاقة العجيبة بين الإنسان والقرآن، ولم لا يجب أن يتخللها علاقات أخرى، إذا كان الإنسان مخلصاً في بحثه وطلبه المعرفة.

الفصل الثاني الرحمن علم القرآن

دعونا نبدأ مباشرة بمحاولة تدبر الآيات الأولى من سورة الرحمن.

الآية الأولى: (الرحمن)

الرحمن مشتق من الرحمة، وزيادة الألف والنون كما بينا سابقاً تفيد الاستقرار، وكأنّ الاسم يصف رحمة متصلة في غير انقطاع. لفهم مدلول هذا الاسم العظيم يلزمنا التعرّيج على اسم الرحيم أولاً؛ لفهم الفرق بينه وبين الرحمن.

مدلول لفظ الرحيم

لفظ (الرحيم) ورد في كتاب الله في مائة وخمسة عشر موضوعاً، جميعها جاءت مرتبطة بأفعال الله، مثال: إنه غفور رحيم، تواب رحيم، رؤوف رحيم، رب رحيم، رحيم ودود، رحمن رحيم، أو رحيماً بالمؤمنين. بينما اسم الرحمن جاء واصفاً ذاته سبحانه وتعالى.

اسم الرحمن عائد على الرحمة الذاتية، وهو متعلق بذاته سبحانه، بينما الرحيم دالٌّ على الرحمة الفعلية، ومتعلق بالمرحوم. كذلك اسم الرحمن يشير إلى الرحمة الشاملة؛ ولذلك جاء ذكر هذا الاسم مع الأحداث العظيمة ذات التأثير الممتد، وهذا متوافق تماماً مع زيادة الألف والنون. بينما اسم الرحيم جاء واصفاً أحداثاً جزئية متعلقة بفعل محدد. لذا نجد قوله سبحانه وتعالى: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) (سورة الأحزاب: آية 43). (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ) (سورة البقرة: آية 143). (رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (سورة الإسراء: آية 66). الرحيم هنا متعلق بالمؤمنين أو بالناس، ولا شك أنّ كلاهما جزء من ملكوت عظيم، لا نهائي الحدود.

بينما اسم الرحمن نجده أعم وأشمل من ذلك بكثير، كما جاء في قوله تعالى:

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (سورة طه: آية 5).)

لا شك أن كل اسم يتعلق بالذات الإلهية، فهو المعنى المطلق لهذا الاسم. لذلك اسم الرحمن هو الرحمة المطلقة الشاملة، ولا يمكن أن يوصف المخلوق بالرحمن؛ لأن الرحمة المطلقة تحتاج لإدراك كل العلاقات، وفهم كل الارتباطات الخاصة بالمرحوم، وهذا لا يمكن أن يتأتى للمخلوق. بينما لفظ وصفة الرحيم قد يتصف بها المخلوق؛ لأنها متعلقة بفعل محدد، وقد وصف ربنا رسوله بهذا الوصف، لأنه رحيم بالناس فيما يتعلق بتبليغه وتصرفاته معهم:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (سورة التوبة: آية 128).

صفة الرحيم لله هي صفة مطلقة أيضاً، ولكنها مختصة بجزء محدد، بخلاف الرحمن. لو حاولنا ضرب مثال لتقريب الصورة، وفهم الفرق بين صفة الرحيم واسم الرحمن، دعونا نأخذ مثلاً لبيئة ثقافية بسيطة للغاية؛ لنبين كيف أن مفهوم الرحيم يعتمد بالأساس على معارف الإنسان، وكيف أنه يتعلق بجزئية محددة، وليس اسماً مطلقاً.

لو أن أمّاً في بيئة كهذه رأت ولدها في حالة مرض، ربما من رحمتها به لن ترغب في إعطائه علاجاً ما، أو تعريضه للألم، حتى وإن كان هذا الألم قد يسبب شفاءه. الأم في هذه الحالة رحيمة بابنها فيما يخص هذه الحالة تحديداً، وهي رحمة جزئية. بينما نجد أن الطبيب سوف يفعل كل ما في وسعه لإنقاذ الوليد، حتى لو سبب ذلك ألماً شديداً لهذا الطفل، وهذه صورة أخرى من مفهوم الرحيم، ولكن أعم وأشمل من تصور الأم.

بمد انخط على استقامته، نفترض أن هيئة علماء اكتشفت أن العلاج الذي وصفه الطبيب له آثار جانبية خطيرة على حالة الطفل، ومنعت هذا العلاج واستبدلته بعلاج آخر، فهنا نتحدث عن مفهوم آخر للرحيم أكثر شمولاً. ما نود قوله أن مفهوم الرحيم هو مفهوم يتعلق بجزئية واحدة فقط، كانت في هذا المثال حالة مرض الطفل، وكيفية علاجه. كذلك

مفهوم الرحيم في المثال السابق اختلف باختلاف المعارف وكم المعلومات لدى كلٍّ من الأم، والطبيب الصغير، وهيئة العلماء.

لا يمكن بحال من الأحوال وصف أيٍّ من الأطراف التي رحمت الطفل بوصف الرحمن؛ لأنه مهما فعلوا فهناك علاقات وارتباطات غاية في التعقيد، لا يمكن الاحاطة بها بشكل كامل، ومن يحيط بهذه العلاقات هو خالقها ومقدرها الرحمن.

لا يمكن لمخلوق مهما أوتي من علم أن يسمى بالرحمن؛ لأنه مهما أوتي هذا المخلوق من علم ومعرفة، فسوف تغيب عنه تفاصيل وعلاقات، ليس في إمكانه إدراك تأثيرها. ومفهوم الرحمن ذاته يلزمه الأبدية أو الاستمرار.

إذا كان فعل الرحيم مرتبطاً بجزئية محددة، أو بمعنى أكثر دقة، فعل الرحيم مرتبط بالحدث؛ أي أنه فعل منتهٍ، بينما فعل الرحمن هو فعل ممتد ومستمر.

لكي نفهم ماذا يعني وصف الرحمن، وكيف يمكن أن يكون ممتداً ومستمراً، لا بد من تلقي نظرة سريعة على مفهوم الخالق مقابل مفهوم الرحمن.

بالفرض أن أهل قرية طلبوا من ثلاثة أشخاص صنع وسيلة تساعدهم في تنقلاتهم، فقام الشخص الأول بصنع سيارة من المكونات المتاحة، ولكنه لم يكن خبيراً بالقدر الكافي، فصنع سيارة لا تسير ولا تتحرك، ولا تلائم الوظيفة التي صنعت من أجلها.

هذا الإنسان تبعاً لتعريف فعل خالق، هو خالق. وقد جاء هذا الفعل في كتاب الله على نحو يمكن أن يتصف به آخرون غير الله سبحانه وتعالى، كما وصف نبيه عيسى بأنه يخلق من الطين، وكذلك عندما قال تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (سورة المؤمنون: آية 14).

وإن كان هناك خالقين غير الله بنص كتاب الله إلا أن صفة الخالق لله - كما تؤكد دائماً - هي صفة مطلقة وشاملة، ولا يمكن لأحد أن يخلق بالكفاءة والإحاطة مثل الله الخالق.

هذا الشخص رتب مجموعة من المكونات وأخرج شكلاً نهائياً لسيارة؛ فخلق هذا الشيء، ولكن هذا الخلق لا يؤدي وظيفته التي خلق من أجلها، لذلك هذا الخلق بالنهاية خلق عبثي؛

أي ليس له وظيفة. إذ لو نظرنا لما خلق هذا الشخص، ورأينا مثلاً الإطارات، فلا بد لنا أن نتساءل: لماذا يوجد إطارات ولكن السيارة لا تتحرك.

كل مكون، إن لم يؤد وظيفة بشكل تام وملائم تماماً لما خلق من أجله فهو العبث بحد ذاته.

الشخص الثاني، كان أكثر خبرة ودراية؛ لذلك صنع سيارة، واستطاعت بالفعل السير، وإنجاز الوظيفة التي أعدت من أجلها، ولكنها تفتقر إلى كثير من الكماليات، ووسائل الراحة والأمان. هذا الشخص هو في الحقيقة خالق لهذه السيارة، وأدى ما عليه بكفاءة، ولكنه يفتقر لحس الرحمة، الذي يدفعه لإضافة هذه الكماليات، والتي تؤهل السيارة لأداء وظيفتها بمنتهى الدقة والمرونة.

الشخص الثالث، صنع السيارة وبها جميع وسائل التكنولوجيا والراحة والأمان، وذات كفاءة منقطعة النظير، فهنا توافرت عوامل الرحمة مع أسباب الخلق.

الأشخاص الثلاثة تبعاً لتعريف الخلق؛ وهو تكوين شيء مادي من مكونات سابقة، والذي تناولناه في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب، هم خالقون، ولكن الشخص الأخير ينطبق عليه وصف الرحمة، أو صفة الرحمن تجاوزاً؛ لأنه خلق الشيء بكفاءة عالية، ليلائم وظيفته، ويصبح غاية في الدقة والإتقان.

لفظ الخالق هو لفظ متعادل، بمعنى أنه لا يعني الإتقان في حد ذاته، ولكن بالطبع عندما يكون الخالق هو الله، فهذا معناه أن الله أحسن الخالقين، وهذا مما لا شك فيه، بينما إذا خلق الإنسان نخلقه يكون على قدر معارفه، وفي حدود المتاح لديه.

إما إذا كان الخالق رحمن، فهذا معناه أن كل دقيقة وكل حركة موضوعة في مكانها بالضبط، وسوف تلائم وظائفها، وسوف تستمر في أداء عملها بمنتهى الدقة.

مرة أخرى ماذا يعني ذلك؟

الرحمن لا يخلق عبثاً؛ لأنه لو خلق عبثاً أنتفت صفة الرحمن عنه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، لذلك كل دقيقة وكل حركة وكل نسمة لها وظيفتها المستمرة، وضعت تحت

المستمرة مائة خط، لأن لفظ الرحمن ذاته يعني: أنه علم القرآن، وخلق الإنسان لوظيفة مستمرة غير منتهية، وتلائم ما خلقت من أجله تماماً.

مثال آخر لبيان مفهوم الرحمن والرحيم، والله المثل الأعلى:

بفرض أن مجلس من الحكماء صمم نظاماً تعليمياً ممتازاً؛ بحيث يكون نظاماً مفيداً للطلاب، وفي الوقت نفسه مليئاً بالمرح والترفيه. وكذلك تم تصميم النظام التعليمي ليكون مريحاً للمعلمين، ومريحاً لأولياء الأمور.

هذا النظام التعليمي ينمى قدرات الطلاب بشكل مستمر، ويؤهلهم لدراسة التخصصات التي يرغبونها. ثم قام هذا المجلس بتصميم جامعات وكليات تتوافق تماماً مع كل التخصصات المطلوبة، على نحو تكون متناسبة تماماً مع قدرات الطالب، وتكون متوافقة تماماً مع سوق العمل. ثم أنشأ هذا المجلس مجالات عمل عديدة تستوعب كل هذه التخصصات، على نحو يكون كل تخصص يخدم ناحية من نواحي المجتمع، بشكل سليم وصحيح.

خلال هذه العملية، نرى أن مجلس الحكماء هذا حريص كل الحرص على توفير سبل الإفادة لكل طرف على حدة، وكذلك حريص على التكامل بين جميع الأطراف، وحريص على المردود النهائي، بحيث تعمل المنظومة كلها في تناغم وتناسق.

مجلس الحكماء هذا رحيم بكل مكونات المجتمع، فهو رحيم بالطلاب والمعلمين وأولياء الأمور ورجال الصناعة، كل على حدة. أما العناية الفائقة بكل هذه المكونات، والنظرة الشاملة على نحو يؤدي كل مكون من مكونات المجتمع دوره باقتدار، ليحصل على أكبر فائدة، ويمنح الآخرين أقصى فائدة؛ فهو فعل الرحمن.

لذلك يمكننا القول أن خلال فعل الرحيم يكون التركيز على تحقيق أقصى فائدة للرحوم، بينما فعل الرحمن فهو تحقيق أقصى فائدة للمجموع، وفي حالة الخالق فإن المجموع يعني الكون بكل مكوناته.

سوف نحاول في السطور التالية استعراض بعض آيات القرآن، التي جاء فيها ذكر الرحمن؛ لنؤكد على الفرق بين مفهوم الرحمن ومفهوم الرحيم.

الآية الأولى

(قَالَتِ إِنِّي فَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا) (سورة مريم: آية 18).

لوجاءت الاستعاذة في هذه الآية الكريمة بالرحيم، فهذا يعني رحيماً بطرف واحد، وفي هذه الحالة هو السيدة مريم، ولكن الاستعاذة جاءت بالرحمن؛ لأنها في هذه الحالة لم تكن تعلم حقيقة هذا الرسول الذي جاءها، هل هو رسول خير أم رسول شر. لذلك جاءت الاستعاذة بالرحمن؛ بمعنى أن يحدث الخير في المطلق، وأن يرحم الجميع، سواء السيدة مريم أو هذا الرسول، وكل ما يترتب على وجود هذا الرسول. اختيار اسم الرحمن هنا منتهى العدل؛ لأن السيدة مريم بموجب هذا الاسم طلبت الرحمة للجميع، وليس لشخصها فقط.

الآية الثانية

(يَأْتِبِ إِنِّي فَأَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) (سورة مريم:

آية 45).

في هذه الآية أيضا نجد أن اسم الرحمن موافق تماماً لما ذهبنا إليه؛ إذ لا يمكن أن يأتي هنا اسم الرحيم مع العذاب، فهو خاص بالجزئيات. بينما اسم الرحمن هنا موافق تماماً، ويشير إلى أن العذاب وإن كان عدم رحمة بجانب معين، فهو رحمة في موضع آخر من مواضع الكون. لا شك أن تعذيب الظالم على ظلمه هو فعل الرحمن، الذي يوازن كل الأمور، بحيث تصبح النتيجة النهائية في صالح الجميع، بينما لو كان رحيماً في عذابه لما عذب من الأساس.

الآية الثالثة

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) (سورة

الفرقان: آية 60).

السجود في هذه الآية الكريمة تكليف يتناسب تماماً مع اسم الرحمن، أما الرحيم فهو لا يكلف المرحوم بقدر ما يعفيه.

الآية الرابعة

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) (سورة يس: آية 4).

الخشية في هذه الآية الكريمة تتناسب مع ذكر الرحمن، ولا تتناسب مع وصف الرحيم، إذ الخشية هنا سبب في ضبط أشياء، في طرف من أطراف الكون. تعبير خشية الرحمن تعني أن الخشية تعود بالنفع على آخرين، وأنه رحمة لآخرين في مكان آخر، وإن كانت في حد ذاتها فعلاً خشناً على الإنسان الذي يخشى.

الآية الخامسة

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ) (سورة الملك: آية 3).

عندما نرى ترافق اسم الرحمن مع خلق سبع سموات، فهذا يأخذنا إلى القول بأن السموات لم يخلقها الله سبحانه وتعالى للإنسان فقط، كما هو المعتقد لدى الكثيرين، بل هي نظام دقيق محكم داخل منظومة شاملة. هذه الآية تحديداً ترشدنا إلى حقيقة أن الإنسان ليس مركز الكون، أو أن الكون ليس مخلوقاً من أجل الإنسان، كما يعتقد الكثير من رجال الدين، بل إن الإنسان هو جزء من الكون.

الآية السادسة

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) (سورة النبأ: آية 37).

هنا أيضاً جاء ذكر الرحمن موافقاً تماماً للنظرة الشمولية في الآية الكريمة، إذ تتحدث الآية عمّا في السموات والأرض وما بينهما، وليس طرفاً واحداً.

لذلك عندما نرى آية كاملة عبارة عن اسم الرحمن، في سورة اسمها الرحمن؛ فلا بد أن نتوقف كثيراً، لأن ما سيأتي بعدها سوف يكون له شأن عظيم على مستوى شامل، وليس مجرد فترة مؤقتة. بدأت سورة الرحمن بالإشارة إلى هذا الاسم العظيم في بدايتها لتدلنا على مظاهر هذه الرحمة المباشرة، وأهمها على الإطلاق: علم القرآن، وخلق الإنسان. فما مدلول علم القرآن؟

الآية الثانية: (علم القرآن) (سورة الرحمن: آية 2)

بعد شرح وبيان معنى الرحمن، نأتي إلى أول حدث متعلق بصفة الرحمن؛ هو علم القرآن. فكأن علم القرآن جاء نتيجة اسم الله الرحمن؛ مما يدفعنا للقول أن وجود القرآن مرتبط ارتباطاً وثيقاً بكل مكونات الكون، وليس كما يدعي بعضهم أنه كتاب هداية فقط، بالمفهوم الطقوسي.

القرآن هو وصف دقيق للوجود، وعن طريق قراءته بشكل سليم سوف نتحل أسرار وشفرات الكون بكل مكوناته. إنه متعلق بالوجود؛ لأن الرحمن صفة شاملة وعامة، كما بينا في تحليل لفظ (الرحمن).

آية (علم القرآن) كذلك تحل إشكالية خلق القرآن من الجذور. لم يستخدم ربنا لفظ (خلق القرآن)، لذلك عندما تم استخدام لفظ (خلق القرآن) من قبل المعتزلة قوبل برفض شديد من جانب الأصوليين وقتها. مسألة خلق القرآن هي صراع دائم بين التجديد والأصولية، ولكن استخدام اللفظ كان غير موفق بالمرّة.

التعبير الصحيح عن التجدد الذي يحويه القرآن، وأن قراءته فرض على كل جيل، وأنها معين لا ينضب، هو التعبير الوارد في هذه الآية الكريمة: (علم القرآن).

قال بعض المفسرين: إن علم القرآن تعني أن الله علم الإنسان القرآن، أو علم الرسول القرآن. ولكن الحقيقة أن القرآن هو الذي وقع عليه الفعل. الله سبحانه وتعالى علم القرآن، كما قال سبحانه وتعالى: (خلق الإنسان)؛ أي أن القرآن هو المعلم.

ماذا يعني تعبير (علم القرآن)؟

(لفظ علم) كما بينا من قبل في أكثر من موضع هو امتلاك قدرات وأدوات، يستطيع من خلالها المعلم التعبير عن فكرة معينة بشكل صحيح. هذا المبدأ كان شديد الوضوح عندما قمنا بتحليل التعبير القرآني (علم آدم الأسماء كلها)، وقلنا وقتها أن علم آدم تعني؛ أن الله أعطى آدم القدرة على تسمية الأشياء بشكل صحيح.

لفظ (القرآن) ذاته أصله (قرأ)، وكما بينا أيضاً أن تعامل الإنسان مع القرآن يجب أن يكون بالقراءة، والتي تعني التحليل والتدبر والفهم. هذه الآية التي بين أيدينا وضعت النقاط على الحروف؛ إذ ترشدنا أن القرآن -إن جاز لنا التعبير- يمتلك داخله الأدوات، التي تجعله قابلاً للقراءة، وقادراً على توصيل الفكرة بشكل سليم وحقيقي.

سوف يظل القرآن قرآناً إلى يوم الدين، وهذا يعني أن الإنسان مطالب بقراءته إلى يوم الدين كذلك. وبناء على آية ((علم القرآن))، سوف يظل القرآن يوح بالأسرار والمعارف؛ لأن وظيفة الأساسية هي توصيل الفكرة للقارئ بشكل سليم.

الأدوات التي يمتلكها القرآن هي -لا شك- المنطوق الصوتي للحروف، والتعبيرات القرآنية. هذه هي الأدوات التي علمها الله، أو جعلها ميزة للقرآن، على نحو يمكن من خلالها إدراك الفكرة أو المعلومة المطلوبة.

في اللهجات الدارجة يُقال: (علم المنزل) مثلاً؛ تعني وضع علامة تدل على هذا المنزل، على نحو يستطيع الإنسان من خلال هذه العلامة الاستدلال على المنزل بشكل صحيح.

كذلك تماماً تعبير (علم القرآن)؛ هو وضع أدوات تجعل القرآن ملائماً لوظيفته؛ وهي القابلية المستمرة للقراءة. لو أدرك السابقون هذه الحقيقة لتخلوا فوراً عن اصطلاح (خلق القرآن)، واستبدلوه بمصطلح (علم القرآن)، إن كانوا حقاً يتحدثون عن تجدد واستمرار القرآن، وقابليته للقراءة المستمرة على مر العصور.

على الجانب الآخر، لن يستطيع الأصوليون رد التعبير القرآني، إلا إذا لم يستطيعوا استيعابه، وكان لديهم تحيز واضح، وعدم رغبة في فهم القرآن بشكل متجدد، واكتفوا بفهم السابقين. إذا لم يقتنع الإنسان بتجدد القرآن وقابليته للقراءة باستمرار، فهذا يعود بالأساس غالباً لنقص معرفي، ومن الأفضل عدم الدخول في جدال مع هؤلاء؛ لأنه من الصعب إقناعهم؛ بسبب قصور في جانب المنطق لديهم.

الآية الثالثة : ((خلق الإنسان)) (سورة الرحمن: آية 3)

الآية الكريمة تعلن عن الحدث الثاني المتعلق بالكون، وهو خلق الإنسان. معنى أن حدث خلق الإنسان متعلق بصفة الرحمن، فهذا معناه أن خلق الإنسان داخل ضمن منظومة الرحمة الشاملة.

معنى ذلك أن الإنسان لا بد أن يكون له دور في الحياة الآخرة، متعلق بهذه الرحمة. التصور السائد عن الإنسان بأن دوره سوف ينتهي بدخول الجنة أو دخول النار هو تصور لم يأخذ في الحسبان مفهوم الرحمن.

مفهوم الرحمن يخبرنا أن خلق الإنسان هو حلقة من حلقات الكون، وليس كل الكون، أو مركز الكون، بل جزءاً من منظومة متكاملة ومستمرة. قد يكون هذا المفهوم مزعجاً للكثيرين؛ إذ لا يتصور أحد أن هناك عملاً أو تكليفاً أو مهمة في الحياة الآخرة؛ اعتماداً على المتاعب التي تجلبها المهام في الدنيا. الخبرات السيئة مع المهام تجعل الإنسان متوجساً من وجود مهمة أخرى في الحياة الآخرة.

الأمر يبدو غير ما نعتقد، فالحياة الدنيا مرحلة أولى، لفرز المؤهلين فعلاً لحمل المسؤولية التي أوكلها رب العالمين لهم، ومن ينجح في الاختبار سوف يتولى مهاماً مختلفة، وقد وصفها ربنا في كتابه بقوله تعالى:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ) (سورة يس: آية 55).

رغم أن التفسير التقليدي فسر الشغل بأنه المتاع بأنواعه، حتى أن منهم من قال: هو فض الأبقار؛ نجد أن لفظ شغل يرشدنا إلى شيء آخر. الشغل لا بد أن يكون للشغل مردوداً؛ فالشغل ليس لهواً أو لعباً؛ وإنما عمل بهدف، وهذا قول الله سبحانه وتعالى:

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) سورة الفتح: آية (11).

معنى ذلك أن أموالهم وأهلهم شغلتهم؛ أي بأعمال لها مردود، وليس مجرد لهو أو لعب. لو كان مرادف الشغل هو اللهو أو اللعب أو مجرد المتاع، ما كان عذراً يقال، ولكن لأن الانشغال استغراق في عمل شيء له مردود لجأ إليه الأعراب كعذر مقبول. لن أتوسع في مفهوم المهمة في الحياة الآخرة في هذا الكتاب، على أن يكون لنا بعون الله فيها كتاب منفصل. الآن لدينا حالتان رئيستان متعلقتان بالرحمن؛ وهما علم القرآن، وخلق الإنسان. الآية الرابعة تصف التفاعل ما بين الإنسان والقرآن، والذي عبر عنه ربنا بقوله:

الآية الرابعة: (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) سورة الرحمن: آية (4)

البيان هو استيضاح الشيء، فإذا كنا نتحدث عن علم القرآن وخلق الإنسان فالبيان هو فهم الإنسان واستيضاح آيات القرآن.

بعد الآية الرابعة بدأت السورة الكريمة في ذكر علاقات كونية، وهي لا شك لها علاقة باسم الرحمن، إذ إن ذكر هذه الآيات لا بد وأن يشير إلى أن وجودها أوسع وأشمل مما نعتقد، وأن وظيفتها تتعدى حدود معارفنا. قبل أن نطرق باب هذه الآيات، نحتاج لفهم الآية التي تكررت في السورة واحداً وثلاثين مرة، بدءاً من الآية 13 وحتى الآية 77، آية ((فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)) (سورة الرحمن: آية 13).

من المثني المقصود بالخطاب في قوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبان)؟

قال المفسرون: إن المقصود بالخطاب هنا هو الإنس والجن. وبعض أقوال المعاصرين ذكرت: أنه ربما يكون المقصود الذكر والأنثى. المتبع بتأنٍ للسورة الكريمة يلاحظ أن خطاب المثنى ليس مقصوداً به الإنس والجن؛ لأن الآيات خاطبت المكلفين بصيغة الجمع في الآية الثامنة والتاسعة: (الَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)) (سورة الرحمن: آيات 8-9).

لماذا كان الخطاب هنا بصيغة الجمع، ثم انتقل فجأة إلى صيغة المثنى في آية ((فبأي آلاء ربكما تكذبان))؟ الثنائي المقصود هنا هو المحوران الرئيسيان اللذان بدأت بهما السورة، وهما القرآن والإنسان.

الذي يدعونا لقول ذلك:

أولاً: صيغة الجمع - كما ذكرنا- التي جاءت في أول السورة، في قوله لا تطغوا) و(واقموا). ويتضح تماماً أن المخاطب هنا مكلف، إذ إن الطغيان والقدرة على الإقامة أو عدمها لا يقوم بها إلا حر الإرادة والحركة، وهو المتوافر للإنسان والجان، كما سوف نرى في آيات تالية.

ثانياً: لفظ (الإنس والجان) لم يأت إلا في الآية الرابعة عشر؛ أي بعد ذكر أول آية جاء فيها (فبأي آلاء ربكما تكذبان)، وهي الآية رقم (13).

ثالثاً: خاطب ربنا الجن والإنس صراحة في الآية رقم (33) بصيغة الجمع، وليس بصيغة المثنى

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَعْظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا

ج لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (سورة الرحمن: آية 33). يقول أهل اللغة: إن لفظ معشر يعامل معاملة الجمع، لذلك جاءت هذه الآية تحديداً بصيغة الجمع، أما باقي الآيات بصيغة المثنى؛ لأن المخاطب هو الإنس والجان بدون معشر.

ملاحظة لفظ (معشر) لم يصف الإنس أبداً في كتاب الله؛ وإنما جاءت وصفاً للجن في ثلاث آيات في كتاب الله، منها الآية التي نحن بصددتها في سورة الرحمن وفي آيتين آخرين في كتاب الله.

(وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْمِعْ بَعْضَنَا بَعْضًا وَبَلِّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثَلُكُمْ خُلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (سورة الأنعام: آية 123).

(يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) (سورة الأنعام: آية 130)

السؤال هنا: لماذا استخدم لفظ المثني، وقد عبر عن الجن بالمعشر هنا، واستخدم معه صيغة الجمع؟ الأجابة المباشرة لأن الثنائي المقصود ليس الإنس والجان بل تحديدا القرآن والإنسان.

رابعاً: صيغة الجن والإنس جاءت في أكثر من موضع من كتاب الله بصيغة الجمع، وليس بالمثني، كالاتي:

(وَقِيضْنَا لَهُمْ قَرْنَاءَ فَرَزِنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ) (سورة فصلت: آية 25).

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ) (سورة الأحقاف: آية 18).

(قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِمُهُمْ لِأَوْلِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّوا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) (سورة الأعراف: آية 38).

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغٰفِلُونَ) (سورة الأعراف: آية 179).

من هنا يمكننا القول أن المخاطب ليس الإنس والجن؛ وإنما قطبا السورة، والتي يدور حولها موضوع السورة، وهما القرآن والإنسان.

السؤال هنا: كيف يخاطب الله سبحانه وتعالى القرآن، بقوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبان)؟ الآية الكريمة ليست سؤالاً، وإنما تقريراً لحقيقة أن القرآن والإنسان كل منهما يصدق الآخر، أو بمعنى آخر هو استنكار أن يكذب أحدهما الآخر. نعم الإجابة عن هذه الآية المكررة يكمن في الأربع آيات الأولى، وهي أن الرحمن علم القرآن، ثم خلق الإنسان، ثم علم الإنسان البيان؛ وهو استيضاح ما هو غامض، أو التفاعل مع القرآن؛ لكي يتبين الحقائق التي يحويها القرآن.

القرآن يحوي حقائق وقوانين الوجود، وقابل للقراءة، والإنسان خلقه ربه وعلمه البيان، وهو على ذلك يملك القدرة على القراءة، ويستخرج هذه الحقائق. هذا التعبير القرآني العجيب يشبه تعبيراً مصرياً باللغة المصرية الدارجة، وهو: "الماء يكذب الغطاس"؛ فلو أن رجلاً زعم كذباً أنه يجيد الغطس، وهو لا يعرف السباحة؛ فعند التجربة لن يطاوعه الماء وسيكذبه، وسوف يغرق. كذلك القرآن، يصدق الإنسان الذي علمه الله البيان؛ بمعنى أنه يبوح له بأسراره ومكنونه، والإنسان من جانبه يصدق القرآن عندما يكتشف علومه، فيكون دليلاً على الرحمن.

سوف نزداد يقيناً عندما نتعرف على لفظ (آلاء)، وماذا يعني؟
 جاء في التفسير أن لفظ (آلاء) يعني النعم. ولكن كما نعلم جيداً أنه لا بد من وجود
 فرق بين ألفاظ القرآن، إذ إن لفظ (النعم) ذكر في القرآن، فلماذا جاء هنا لفظ (آلاء)؟
 أصل كلمة آلاء (ألو)، وتعني الاجتهاد والمبالغة. ومن ذلك نجد أن لفظ (آلاء)
 لا يعني النعم بمفهومها المتداول، وإنما المبالغة في النعم، أو ما يمكن وصفه بالاستثناءات، أو
 الزيادة الكبيرة في النعم. إن أول آلاء ربنا هي القرآن، وخلق الإنسان ذاته، ولو دققنا النظر
 سنجد أن علم القرآن وخلق الإنسان هما -إن جاز لنا التعبير- استثناءان كبيران، وهما أعظم
 الآلاء، وليس مجرد نعم عادية.

تكرار الآية واحداً وثلاثين مرة هو أيضاً استثناء، لم يحدث من قبل في كتاب الله أن
 تكررت آية في سورة واحدة بهذا القدر. الأمر الآخر والذي يجب أن ننتبه إليه أن كل ما سبق
 هذه الآية له وضع استثنائي، ويمكن للإنسان استنباط معلومات غاية في الدقة، من خلال قراءة
 الآيات بشكل دقيق، وتدبر عميق. لا شك أن بعضهم استغرب ورود الآية بهذه الكثرة في
 السورة، ولكن إذا علمنا أن الوضع استثنائي، بل إن كل ما جاء في السورة هو استثنائي، لزال
 العجب. استثنائي في النعم والفضل، إذ لفظ (آلاء) ذاته يحتوي هذه الخصائص والصفات.
 سوف أحاول قدر المستطاع المرور السريع على الآيات التي سبقت قول الله تعالى ()
 فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) لنقف على بعض المعاني العظيمة التي تضمنتها السورة الكريمة. حسبنا
 أن نضع بعض الأفكار بشكل عام حول هذه الآيات، لعل باحثين لديهم عمق معرفي، ورؤية
 مختلفة عما لدينا، ينتبهون إليها.

الآية الخامسة: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (سورة الرحمن: آية 5)

لفظ (حسبان) من الألفاظ التي يجب أن نفحصها بدقة، لأنه لفظ غير اعتيادي، فهل
 المقصود أن الشمس والقمر هما مصدرا الحسابات على الأرض، إذ إن دوران القمر حول
 الأرض، ودوران الأرض حول الشمس يتسبب عنهما الأيام والشهور والسنوات. قد يكون

هذا المعنى من ضمن المعاني المقصودة في الآية الكريمة، ولكن يبدو أن اللفظ يحمل الكثير، عن القمر والشمس وعلاقتها بالحسابات. هذه العلاقة لا بد أن تكون مرتبطة بباقي الكون، ولا بد أن فيها شيئاً استثنائياً.

من الواضح أن هذه الثنائيات في سورة الرحمن بينها علاقة وثيقة، ومن خلال فهم علاقة القمر بالحساب، وعلاقة الشمس بالحساب أيضاً، يمكننا أن نقول أن القمر والشمس متطابقان في الوظيفة، أو حتى يعملان بشكل متكامل، لإنتاج الحسابات المعروفة. هذه العملية مرتبطة باسم الرحمن؛ لذلك إن كانت رحمة للناس معرفة التقويم والحساب، فهي لا شك لها وظيفة أخرى في الكون، ولكن بسبب نقص المعارف الحالية؛ نحن غير قادرين على فهم هذه الوظيفة. أقصى ما يمكننا قوله عند هذه النقطة أن القمر والشمس وعلاقتهما بالحسابات ليست مقتصرة النفع على أهل الأرض، ولكن يبدو لنا أن لها امتدادات أخرى لم نكتشفها بعد.

الآية السادسة: (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) (سورة الرحمن: آية 6) رغم أن المفسر

التقليدي ذهب إلى أن المقصود بالنجم هنا هو نبات الأرض الذي ليس له ساق، وبعض المفسرين قال أن النجم هو نجم السماء، فيمكننا القول: إن المقصود هنا هو نجم السماء؛ لأنه وحسب المنهج الذي نستخدمه، أن الاسم يصف حالة عامة، ويفهم من خلال السياق، وفي حالة غياب السياق فإنه يُصرف إلى الوصف الأشهر له.

في حالة هذه الآية الكريمة يمكننا القول بكل أريحية: إن المقصود هو نجم السماء. ثم عن طريق فهم علاقة الشجر بفعل السجود سوف ندرك علاقة السجود بالنجم.

السجود كما بيناه في كثير من مواضع الكتب السابقة هو عملية الاستقرار والاطمئنان، فإذا سجد الشجر فهذا يقودنا إلى فهم وظيفة الشجر، وعلاقتها بالاستقرار والاطمئنان، أو ما يمكن أن نسميه بالثبات والتوازن. من خلال معارفنا نستطيع القول أن الشجر له وظيفتان أساسيتان، يمكن اعتبارهما سجوداً، وهما تثبيت التربة، والمساهمة في توازن واستقرار غازات الغلاف الجوي، من خلال استهلاكه لثاني أكسيد الكربون، وإنتاجه للأكسجين، في عملية

تسمى: عملية البناء الضوئي. كما ذكرنا في الجزء الثالث من الكتاب أن الكون عبارة عن دوائر متطابقة، ومن خلال فهم إحدى هذه الدوائر يمكننا فهم الدائرة الأخرى البعيدة عنا .

يبدو أن الشجر والنجم دائرتان متطابقتان، وأن النجم والشجر كلاهما متطابقان في الوظيفة، وتحديدًا عملية السجود. من هنا يمكننا استنتاج أن النجم له وظيفته التي تشبه وظيفة الشجر على الأرض، أو في النظام الخاص به. من المعروف أن الشجر يوجد داخل نظام محدد، وهو النظام البيئي الأرضي، بينما النجم يوجد في نظام مختلف، وهو نظام المجرة. لذا يمكننا القول أن النجم له وظيفة تثبيت النظام المحيط به وجعله مستقرًا. كما أن زوال الأشجار يندر بكوارث، مثل: التصحر، ونقص الأكسجين، كذلك فإن غياب النجوم يندر بكوارث، وهي خلل في النظام الكوني الحاوي لها.

كثير من المتعجلين الذين لا يدركون كنه الأشياء، تراهم يسخرون من ذكر أشياء في كتاب الله تبدو غريبة، ولو كانوا محايدين وحاولوا فهم العلاقة بشيء من التوازن النفسي، لما بدو بكل هذه العدائية والأمراض النفسية التي يحملونها ويعيشون بها. من الطبيعي عندما يعتقد رجل الدين التقليدي أن الإنسان مركز الكون فسوف يقابله السؤال التقليدي: هل هذا الكون اللانهائي بنجومه ومجراته وكل مكوناته جاء من أجل الإنسان؟

القرآن الكريم لم يقل أن الإنسان مركز الكون، أو أن الله خلق كل هذا من أجل الإنسان، وإنما الغرور المعرفي هو الذي أوحى للإنسان البدائي أنه مركز الكون ومحوره، ومن ثم تابع الإنسان البدائي ذريته الذين لا يرغبون في المعرفة.

هذه الإشارة القرآنية لا شك أنها إشارة استثنائية، حيث العلاقة بين النجم والشجر وعلاقتهما بالسجود. القول بأن النجم والشجر هما أحد مكونات التوازن والاستقرار في الأنظمة التي تحويهم له دلائل أخرى من الآيات التالية، والتي تتحدث عن الاتزان الكوني، والميزان الذي تحدثت عنه الآيات القرآنية، وكما قد تناولنا هذه الآيات في الجزء الثالث من كتاب تلك

الأسباب، وقلنا أنها تعني الاتزان الكوني بكل ما فيه من توازن بيئي، وتوازن بين مكونات هذا النظام.

من الآية السابعة وحتى التاسعة: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8)) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) (سورة الرحمن: آيات 7-9) .
 هذه الآيات الكريمة تتحدث عن اتزان كوني، وعلاقات مترابطة بين رفع السماء واتزان كل مكونات الكون. بالعودة إلى الآية السابقة لهذه الآيات، وهي الآية التي تتحدث عن النجم والشجر يسجدان، يتبين لنا أن ثمة اتزان واستقرار تسبب فيه وجود النجم في النظام الكوني، والشجر في النظام الأرضي، وأن الإنسان بما يملكه من حرية الحركة والتصرف مطالب بعدم تجاوز حدود هذا الاتزان، وكف العبث بالأنظمة البيئية، والتي قد تسبب خسارة لا مثيل لها في الاتزان الكوني.

كذلك علاقة هذا الاتزان باسم الرحمن يدفعنا للقول؛ بأن الاتزان الذي يتحكم فيه الإنسان على الأرض له علاقة وثيقة بالاتزان الكوني، والذي يبدو خارجاً عن سيطرة الإنسان ظاهرياً. إننا أمام نظرية رفرقة جناح الفراشة مرة أخرى. الصياغة الحالية لهذه النظرية، والتي تنص على أن رفرقة جناح فراشة على سواحل الصين قد تسبب إعصاراً مدمراً على سواحل أمريكا، هذه الصياغة تعني بشكل بسيط أن تأثيرات متناهية الصغر قد تسبب في أحداث عظيمة.

من خلال سورة الرحمن وعلاقة النجم والشجر بالسجود يمكننا القول أن أي خلل في الاتزان البيئي الأرضي قد تجد صداه بين النجوم والمجرات. لذلك جاء التنبيه الإلهي والإرشاد الرباني للإنسان باستخدام المصادر المتاحة، وفهم هذه العلاقات للحفاظ على هذا التوازن.
 أهم هذه المصادر المعرفية التي يمكن للإنسان من خلالها فهم الكون وسبر أغواره هو القرآن، وتحديدًا القرآن الذي علمه الله وميزه، ووضع فيه أسرار الكون، وطالب الإنسان بالاستيضاح والتحليل والاستنتاج، وهو على ذلك مؤهل لبيان ما في القرآن بما حباه الله من عقل وقدرات معرفية هائلة.

سوف ندرك شناعة الجريمة التي اقترفها الداعون لبقاء القرآن أسيراً لفهم السابقين، عندما ندرك كم الآيات التي تفك أغاز وأسرار هذا الكون، وكيف أن الإنسان في رحلته هذه مطالب بالكشف عنها. سوف ندرك أن مجرد التخلي عن هذا الدور والرضوخ للواقع المجتمعي الكئيب هو تخلٍ عن عبادة الله، وأن الداعين لذلك أبعد ما يكون عن مراد الله.

الآية العاشرة: (والأرض وضعها للأنام) (سورة الرحمن: آية 10)

هذه الآية كذلك تصف حالة استثنائية؛ وهي أن الأرض نقطة الانطلاق، فكيف ذلك؟ الآية تشير إلى أن الأرض وضعت للأنام، وأصل كلمة (أنام) تعني الجمود وسكون الحركة. السكون هنا ليس مطلقاً أبداً، وإنما سكون نسبي. وكما أن النوم هو مرحلة سكون يسبق الاستيقاظ في الأرض، كذلك وضعت الأرض - كما يبدو من الآية الكريمة - محطة أو استراحة تسبق الانطلاق. هذه الحالة الاستثنائية نجدتها مكررة دوماً في استقرار وسكون المنام، كأنها تجهيز لحالة الحركة التي سوف تدب في النهار، وسكون البذرة في الأرض ما هو إلا تجهيز لنموها وانطلاقها في رحلة تزيورها.

من هنا نستطيع القول، وبناء على مسمى سورة الرحمن: إن الأرض هي نقطة الانطلاق نحو الكون، أو أنها مصنع تجهيز الإنسان ليأخذ مكانه في هذا الكون. اسم الرحمن ومعاني الكلمات تأخذنا رغماً عنا لهذا المعنى وهذا المفهوم، وتأبى أن تتركنا في أحلامنا، التي تزعم أن الإنسان هو مركز الكون، وأنه بموته سوف يتنعم، ويدخل عالماً لانهائياً من اللهو واللعب. يتم إعداد الإنسان على قدم وساق للانطلاق، هذا ما يمكننا فهمه من خلال سورة الرحمن، ومن خلال هذه الآية الكريمة (الأرض وضعها للأنام).

الآيتان الحادية عشر والثانية عشر: (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ

ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) (سورة الرحمن: آيات 11-12).

مخطئ من يظن أن هذه الآيات بهذه البساطة التي فسرها بها المفسرون القدماء؛ هذه الآيات تتحدث عن المملكة النباتية بشيء من التفصيل. لفظ (ذات الاكمام) يشير إلى تفاصيل

وتراكيب نباتية، لسنا أهلاً للخوض فيها. ربما قرأ هذا الكتاب أحد المطلعين وأهل الاختصاص بالمملكة النباتية؛ فاستطاع من خلال المنهج اللفظي الذي نستخدمه فهم هذه المسميات، وإلى ما تشير، وربما استطاع استنتاج معلومات وعلاقات لم تكتشف بعد.

كل ما يمكننا قوله هنا: إنَّ الحب و العصف والريحان تشير إلى البذور ذات التركيزات العالية، سواءً أهذه التركيزات غذاء أم طاقة، وكذلك إلى الزيوت الطيارة؛ وهي المقصودة بالريحان. اكتفي بهذا القدر من هذه السورة فهي سورة تحتاج ان نفردها لها كتاب خاص بها. ما كنا نود بيانه هنا هو العلاقة العجيبة بين القرآن والإنسان وأن قول الله تعالى (فبأي آلاء ربكما تكذبان) تشير إلى هذا الثنائي الرائع.

بعد استعراضنا لبعض الآيات من بداية سورة الرحمن، وبيان كيف أن خلق الإنسان وآيات القرآن يجب أن يعملوا سوياً تحت مظلة الرحمن، سوف نتعرف في الفصل القادم على الدليل العقلي الوحيد على وجود الله، وكيف أن سورة الرحمن دفعتنا لفهم هذا الدليل.

الفصل الثالث هاتوا برهانكم

اليوم يختلف عن أمس، وما قبله الآباء والأجداد بالحدس والفطرة فإن الأبناء لن يقبلوه كذلك. جيلاً بعد جيل تتراكم المعرفة ويسود العقل، وتتعاظم سلاطين العلم والتجربة، ولا سبيل إلى لجم الأسئلة بالعواطف أو بالإرهاب الفكري، فهذا عصر قد ولى.

رجل الدين الذي يردد تلك العبارات التي حفظها عن وجود الله، دون أن يكلف نفسه معرفة كيف فندها الآخرون، عاجز تماماً عن مناقشة صبي بعمر العشر سنوات تلقى تعليماً جيداً قائماً على التفكير. يحاول المتدينون تحصين أبنائهم ضد مثل هذه التساؤلات عن طريق اتهام الآخر بالضلال والكفر والزندقة، ولكن للأسف سوف تنهار هذه التحصينات مع أول نقاش، أو أول كتاب يطالعه. سوف تتزاحم الأسئلة وسمتقافز الشكوك. إن لم يتصد لمثل هذه النقاشات أهلها، بعيداً عن المقلدين، لسوف تنهار المنظومة الفكرية لهؤلاء المنعزلين، ولن يبق أمامهم من سبيل سوى التطرف.

نعم، إذا قصرت العقول عن إدراك الأمور، وعجزت عن وجود أجوبة منطقية؛ فلا سبيل لحماية نفسها إلا بالتطرف. التطرف هو الشيء الوحيد الذي يحمي العقل إذا عجز عن مقارعة الفكرة بالفكرة؛ فيلجأ إلى الالتفاف على نفسه، ومن ثم نبذ الآخر، واتهامه بالجهل، وبالتالي معاداته واحتقاره. التطرف هو انغلاق فكري كامل، وشعور مزيف بالمعرفة، تجده عند المتدين ذي المستوى الفكري المتدني، وتجده عند الملحد الذي تعرض للاضطهاد.

كلاهما عانى من خبرات تفوق قدراته المعرفية، فلجأ إلى الانزواء بعيداً، ضمن مجموعة تشبه نمطه الفكري؛ ليصب جام غضبه على المجتمع وسلوكه، وعلى الأنماط الفكرية المغايرة له. المتطرف يكره الاختلاف، ويراه تهديداً لسلامته؛ لأنه عاجز عن أن يكون مختلفاً بشكل إيجابي. الاختلاف يعني جهداً عقلياً زائداً، والمتطرف لا يرغب في ذلك، فالتقليد لديه مريح. المتدين

المتطرف يقلد الموروث دون أي جهد في التفكير، والملحد المتطرف كذلك، يقلد من سبقه دون أي قدرة على التمييز، أو فرز الغث من السمين.

إننا في مجتمع المتطرف فيه أعلى صوتاً؛ لأنه يتعامل مع القضايا الفكرية المعقدة على أنها معركة بين طلاب في مدرسة، أو بين العامة في الشارع، ولا يدري أن لكل وجهة نظر، لها وجهتها، فلا بد من الإنصاف في النقاش، وعدم التحيز لرأي قد يكون خاطئاً. من القضايا التي أظنها قضايا شائكة للغاية هي قضية وجود الله، ومع ذلك فإن الأصوات الأعلى التي تتصدى لهذه القضية جُلها متطرفة، تتحدث من جانب واحد، وليس لديها حتى القدرة على تجربة النظر من الجانب الآخر.

المتدين يرى أن وجود الله أبلغ من أن يحتاج إلى دليل، وأن عقل العاقل يدرك هذه الحقيقة كبدية وفطرة. عندما يتعامل المتدين مع هذه القضية فهو ينطلق من شعور إيماني، وعاطفة جياشة، تجعله يستخف بالرأي الآخر، ولا يحاول فهمه بشكل كامل.

معالجة مثل هذه الأمور لا بد لها أن تتم بعيداً عن العواطف؛ حتى لا يقع الإنسان في المغالطات المنطقية، وبدلاً من الانطلاق من العاطفة يجب تقديم الأدلة والبراهين، التي تدعم وجهة النظر التي يتبناها أي طرف.

دائماً هناك مجموعة من الأدلة يسوقها المتدين على وجود الله، ويقابلها المنكر لوجود الله بنقد لاذع، ومن ثم ينتهي النقاش بين الطرفين دون أي جدوى. جميع الأدلة التي يتم النقاش حولها هي أدلة على وجود الخالق، أو وجود المسبب، أو سبب الخلق، وليس على وجود الله. في البداية، لا بد أن نفرق بين مفهوم الإله ومفهوم الخالق؛ حتى يمكننا فهم أبعاد المشكلة. الإله هو من يصدر التعليمات والتكليفات، ويأمر بالطاعة، ويعد بالثواب، وتوعد المخالفين بالعقاب. بينما مفهوم الخالق هو الذي أوجد الأشياء، أو المسبب الذي سبب حدوث الأشياء.

عندما يتصدى أحد المتدينين للنقاش حول مسألة وجود الله، هو في الغالب لا يفرق بين مفهوم الإله ومفهوم الخالق، بسبب الإيمان المستقر لديه؛ بأن الخالق هو الله. على الناحية الأخرى، نجد اللاديني مستميتاً في دفاعه عن عدم وجود إله، برغم تسليمه بكثير من الأمور المنطقية عن وجود سبب للخلق، وهو ما يعرف بالخالق.

المتدينون واللادينون العقلانيون متفقون في الغالب على وجود خالق أو مسبب، ولكن الاختلاف يكمن في أن المتدينين يسمون هذا المسبب (الله)، بينما يرى الملحدون أن السبب هو شيء آخر، قد يكون بحسب زعمهم (الطاقة العمياء)، أو حتى سبباً غير معروف حتى الآن. من أشهر الأدلة التي يتم النقاش حولها، وتعتبر أسباباً وجيهة لوجود الله، هي كالتالي:

الدليل الأول: دليل الخلق والإيجاد، أو دليل الحدوث

يقوم هذا الدليل على محورين رئيسين، هما:

(1) الكون حادث من العدم، وليس قديماً.

(2) كل حادث لابد له من محدث.

مسألة لكل حادث محدث هي مسألة منطقية إلى حد كبير، ولكن المتدين قفز من وجود خالق إلى وجود إله، وهو ما رفضه الملحد. يرفض الملحد تسمية سبب الخلق بالإله، هذا كل ما في الأمر. قبول وجود خالق سهل نسبياً، بينما قبول فكرة الإله ليست بهذه السهولة، وخصوصاً مع تعدد التصورات الذهنية عن الإله. مئات المجتمعات والجماعات لديها تصورات للإله تختلف عن بعضها بعضاً، بل إن كلاً منها يدعي امتلاك الحقيقة، ويتصور أن مخالفتي فكرته كافرون بالله.

عندما يصر أحد الأطراف على أن هذا الدليل هو دليل على وجود الله، فهو يتحدث في الغالب عن وجود خالق أو مسبب إسمه (الله)، بينما الطرف الآخر يرفض أن يعطي للمسبب اسم (الله)، ويسميه في الغالب (سبب ما).

الدليل الثاني: دليل الإتيان والإحكام

ويقوم على محورين: (1) الكون محكم ومتقن في خلقه. (2) الإتيان والإحكام لا بد له من فاعل. دليل الإتيان كذلك، برغم نقضه علمياً، هو دليل على وجود مسبب، لو افترضنا صحته.

الدليل الثالث: امتناع الصدف

الدليل قائم على عدم قدرة الصدف على إيجاد خلق بهذا الشكل. نعم دليل الصدف دليل قوي، ولكن سيظل هذا الدليل دليلاً على وجود مسبب وخالق، وليس بالضرورة دليلاً على وجود إله. امتناع الصدف يعني وجود خالق، ولكن يبقى السؤال: هل طلب هذا الخالق من البشر تكليفات، وأعطاهم تعليمات محددة، وأي تعليمات هي الصحيحة حيث كل أمة لديها تصورها الخاص عن الإله وتعليمات الإله؟

الدليل الرابع: دليل الحركة

الدليل ينص على أن العالم بكل ما فيه متحرك، وكل متحرك يلزمه محرّك. أيضاً نحن هنا أمام دليل على وجود مسبب، وليس على وجود إله.

الدليل الخامس: القاهرية

ملخص الدليل أن الطبيعة تميل إلى البقاء لولا وجود إرادة مفروضة عليها تدفعها نحو الفناء؛ وبالتالي لا بد من وجود خالق يدفع المخلوقات نحو الفناء. أرباب الطبيعة قالوا: إن إرادة الفناء تتبع قوانين الديناميكا الحرارية، والتي تنص على أن هناك تحولات مستمرة، والموت هو صفة طبيعية؛ بسبب عدم قدرة الخلايا على طرح الفضلات خارجها. بغض النظر عن هذه التفاصيل العلمية، يبقى السجال بين الطرفين حول وجود خالق أو وجود مسبب، وإن كان هنا سماه المتدين إلهاً وفقاً لإيمانه؛ فقد سماه الملحد (الطبيعة) وفقاً لمنطقه.

كثير من الفلاسفة يعتقدون أن الدين تجربة شخصية لا تخضع للعقل؛ وإنما هي عملية إيمان بالغيبات، ولا يوجد دليل عقلي على وجود إله بمعنى الإله الحكيم القدير، الذي يطلب من البشر تكليفات معينة، وفي يده الثواب والعقاب.

عند هذه النقطة نرى أن الفلاسفة محقون تماماً في أنه لا يوجد دليل عقلي على وجود إله، وخصوصاً في ظل تنوع المجتمعات، وتعدد صور الآلهة التي يؤمن بها كل مجتمع، حتى داخل المجتمع الواحد الذي يبدو أنه يؤمن بمعتقد واحد سنجد أن الصورة الذهنية عن مفهوم الإله لدى كل فرد من أفرادهِ - وإن كانت في بعضها فروقاً طفيفة - فهي لا تزال فروقاً تعتمد بالأساس على عوامل عدة، منها قدرات الشخص العقلية، وثقافته، والخبرات التي عايشها، وطريقة نشأته.

الإنسان المتشدد يؤمن بوجود إله يطلب منه أن يكون وصياً على البشر، وأن يفتش في نواياهم. بينما هناك من يؤمن أن الإله لم يطلب ذلك منه، ولا يهمله من لم يؤمن. هاتان صورتان ليستا متطابقتين تماماً لمفهوم الإله عند كلا المجموعتين.

الإنسان الذي يعتقد أن الإله يجبر الإنسان على الأفعال، ويسيره دون أي إرادة من الإنسان نفسه، تختلف صورة الإله لديه تماماً عن صورة الإله التي يؤمن به الآخرون، الذين يظنون أن الإنسان يخلق أفعاله، أو أن الإنسان مخير في كل أفعاله. هذه الفروق وإن ادعى بعضهم أنها فروق طفيفة في بعض الأحيان، إلا أن تأثيراتها عظيمة على تفاعل الناس مع التوجيهات الإلهية.

الكتب المقدسة لدى الأمم المختلفة تؤمن بوجود إله واحد، ولكن كل أمة تعتقد أن لها الإله الخاص بها. في الكتاب المقدس في (سفر التثنية، الإصحاح 5، الأعداد 7-9) نجد عبارة صريحة تقرر وحدانية الله: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، صورةً ما ممّا في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهم، ولا تعبدهم؛ لأنني أنا الرب إلهك إله غيور".

مع ذلك يعتقد المؤمنون بالكتاب المقدس أنهم يؤمنون بإله مختلف عما يؤمن به المسلمون. في الكتب المقدسة لدى الهندوس سنجد عبارة: "الإله واحد لا ثاني له" مدونة في كتاب (أوبانيشاد - شانودوغيا) الجزء السادس القسم 2، الآية 1. رغم ذلك هناك طائفة

يصنعون أصناماً يعبدونها، بحجة أن الناس الذين هم في مستوى المبتدئين يحتاجون إلى التركيز، وهذا التركيز لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق صورة مجسدة (التمثال).

هذا التباين في مفهوم الإله لدى الشعوب يؤيد أن الإيمان بالإله تجربة شخصية، لا تقوم بالأساس على دليل عقلي، ولكن يمكن لكل فريق أن يتخذ من الأدلة العقلية على وجود خالق طريقاً لإثبات التصور الذهني الخاص به على وجود إله.

لكي نستطيع القول أن لدينا دليلاً عقلياً على وجود إله، فلا بد أن يكون هذا الدليل قابلاً للقياس وملموساً، فهل لدينا دليل عقلي على وجود إله؟

بعيداً عن العاطفة، وبعيداً عن الخطاب الإنشائي، وبشكل علمي، أستطيع القول وبكل ثقة: نعم لدينا هذا الدليل.

إذا كان لدينا كتاب يعلن فيه الخالق عن نفسه، ويقول أنه هو الإله، فلا بد لهذا الكتاب أن يحتوي الدليل على وجود هذا الإله. لكن كيف ننع من لا يؤمن بوجود إله من الأساس بأن الكتاب المعين هو كتاب الخالق؟

المسألة ليست هكذا، إننا أمام معضلة علمية، ومسألة بحثية بامتياز، بعيداً عن أي اعتبارات إيمانية. سوف نقوم بإخضاع كل كتاب يزعم أصحابه أنه كتاب الخالق؛ لنرى هل بالفعل ألفاظه وتعبيراته تعبيرات خالق عليم وقدير وحكيم، أم مجرد خواطر بشرية.

حتى نتقدم خطوة في عملية التمييز هذه لا بد لنا من توافر مجموعة من الشروط، أولها:

أن يعتقد المؤمنون بالكتاب -أي كتاب- أن كل الكلمات التي يحويها الكتاب هي كلمات

الخالق نصاً ولفظاً.

ثانياً: أن يقر المؤمنون بهذا الكتاب بأن اللغة المكتوب بها الكتاب الحالي هي اللغة

الأصلية؛ إذ إن ترجمة النص الإلهي من قبل أي فرد تلغي تماماً أي فرصة لوضع الكتاب تحت

المجهر، فهو في هذه الحالة سيكون نصاً غير حقيقي.

هذه الشروط لا تتطلب رأياً علياً بقدر ما تتطلب إقرار المؤمنين بالكتاب نفسه، ومن ثم يتم وضع الكتاب تحت المجهر، واختبار ما فيه، بافتراض أنه كتاب الخالق.

بحد علي أن هذه الشروط لا تنطبق إلا على القرآن، إذ إن المؤمنين به يقرون على أنه نصاً ولفظاً من عند الخالق، وكذلك مكتوب باللغة الأصلية التي نزل بها، ولم يتم ترجمته عن لغة أخرى. إذن لدينا كتاب يقول المؤمنون به أنه كتاب الخالق، وبالنص الأصلي. وهنا لا بد أن تتوافر في اللغة التي كتب بها الكتاب صفة أساسية؛ وهي أن تصف المسميات بشكل حقيقي

عندها يمكننا القول أننا أمام كتاب ألفاظه حقيقية مائة بالمائة، إذ إن الذي أنزلها هو الخالق، صاحب العلم المحيط والقدرة التامة. وهذه الفرضية هي ما يجب الانطلاق منها لبرهنة وجود إله، من خلال كتابه. لا بد أن نلاحظ أن الإله لا يمكن أن يضع كلماته الأصلية في قالب لغوي من صنع البشر؛ لأن وصف المسميات عملية معقدة إلى أقصى درجة. تسمية الأشياء تتم عن طريق معرفة صفاتها وخواصها، وكلما كانت المعرفة شاملة كانت التسمية دقيقة. هذه الخاصية جعلت تسمية البشر للأشياء بعضها دقيق، وخصوصاً فيما يقع تحت أيديهم، بينما تسمية الأشياء التي غابت عنهم لا يمكن أن تكون دقيقة مائة بالمائة.

قد يستطيع الإنسان تسمية شيء معين بشكل ظاهري، ولكن يبقى وصفاً وتسمية غير مطابقة لحقيقة الشيء. من شيم الفلاسفة والمفكرين العناية الفائقة باستخدام اللفظ؛ حتى يكون معبراً بشكل كامل عن المعنى المقصود، فما بال الناس بكتاب يقولون عنه أنه كتاب الخالق؟ إذا كان العالم الفذ ينتقي عباراته بهذه الدقة؛ فالخالق أولى بذلك. من هنا لا بد أن يكون لدينا مسلمة أولى؛ وهي أن كتاب الخالق كتاب خاص، كلماته تحمل الحقيقة المطلقة.

النقطة الثانية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، وهي أن هذا الكتاب لا بد وأن يحمل داخله مفاتيح فهمه، فلا يمكن للخالق أن ينزل كتاباً دون ملحق لفهم تعبيراته والغامض منه. إذا كان لدينا كتاب يفهمه الناس على حسب أمرجتهم، ومن خلال مدلول الكلمات لديهم

دون قاعدة سليمة، فإننا مرة أخرى أمام معضلة كفيلة بإخراج كتاب الله من المعادلة (أقصد معادلة أن يصبح دليلاً عقلياً على وجود الإله).

هذه النقاط الهامة أجاب عنها القرآن، وقام عليها منهج كتاب تلك الأسباب، إذ إن فرضية أن الألفاظ حقيقية: (ينطق بالحق)، وأن الكتاب يحمل مفاتيح فهمه: (بلسان عربي مبين) أهلت أن يكون القرآن هو كتاب الله.

يتبقى لنا أن نحلل ونخضع الكتاب لمنهج صارم، فإذا استطعنا كشف حقيقة علمية قبل أن يكتشفها العلم، أو استطعنا حل لغز محير بشكل علمي، ومن خلال فهم اللفظ فقط؛ فنحن أمام كتاب الخالق بشكل مؤكد، وتوجب علينا التعامل معه من هذا المنطلق.

التعامل مع القرآن منذ اللحظة الأولى تم على أساس أن اللغة لغة العرب، بينما اللغة التي نزل بها القرآن بلسان عربي مبين. وكما بينا في أكثر من موضع أن الفرق بين التعبيرين هو فرق بين نظريتين متباعدتين. فمعنى أن القرآن نزل بلسان العرب؛ يجعله ذلك نصاً محكوماً بفهم العرب. بينما كونه بلسان عربي؛ يجعله ينيب ويفصح عن نفسه. وهذه هي أهم خاصية من خصائص النص الإلهي.

عندما تعامل الناس مع القرآن على أنه نزل بلسان العرب أتوا فيه بالعجائب؛ فقد جعلوا فيه المجاز، وجعلوا فيه أسماء أعجمية، وأسماء لا تعلق، بل وكلمات من لغات أخرى ليست عربية. بينا في الجزء الثاني من كتاب تلك الأسباب، ومن خلال الأمثلة الغزيرة في كل سلسلة تلك الأسباب، أن ألفاظ القرآن جميعها حقيقية، وليس فيها شيء غير حقيقي، سواء أكان لفظاً مجازياً أو أسماء لا تعلق، أو غير ذلك.

إن كان هناك بعض المسميات التي أعجزتنا، فهذا لا يعني إلا أننا نريد مزيداً من الوقت ومزيداً من الجهد، لا أن نسلم بكونها مجازاً أو غير معللة. يحاول رجال الدين بكافة السبل النأي بكتاب الله عن المعترك العلمي، وذلك ليس إلا بسبب قدراتهم المعرفية المتواضعة، واعتقادهم الساذج بأنهم حكام على كتاب الله، وحراس هذا الكتاب. هؤلاء يرفضون استخدام منهج علمي

في فهم كتاب الله وفهم ألفاظه؛ لأنهم في الغالب لا يثقون في المناهج العلمية إما بسبب جهل بها أو صعوبة تطبيقها، وللأسف الشديد يتبعهم على ذلك أكثرية مخيفة.

الحقيقة أن استخدام العقل والمنطق لفحص ما توارثناه من تفسيرات لكتاب الله، سوف يستبعد مجمل التفسيرات لأنها لا تمت للمنطق بصلة، بينما استخدام المنطق والعقل في فهم كلمات وألفاظ كتاب الله هي الخطوة الأولى التي سوف تجعل من هذا الكتاب دليلاً عقلياً وحيداً على وجود الإله.

إذا كان الكون بما فيه من نظم ودقة وترتيب وقوانين دليلاً على وجود خالق، فإن الكتاب الذي أعلن فيه الخالق عن نفسه بأنه هو الله لا بد أن يكون مطابقاً لهذا الكون تماماً، ويتبع قوانين صارمة كما يتبعها الكون، وموافقاً للمفاهيم العقلية، وليس فيه ما يخالف المنطق السليم.

هذا هو الفرق بين القرآن وأي شيء آخر، إذ إن الكثيرين لا يستطيعون إدراك هذه الحقيقة، فتراهم دائماً ما يعقدون المقارنات بين معتقدات محلية، أو نصوص تاريخية، أو حتى نصوص مترجمة ليست نصوصاً أصلية، وبين نص إلهي حقيقي، بلغته الأصلية، ورسالته العالمية.

هذا الكتاب بكلماته وألفاظه ليس موجهاً للعرب؛ وإنما للناس جميعاً، وإذا سطا العرب على مفاهيمه، واعتقدوا أنهم أحق الناس بفهمه، فقد أثبت الوقت أنهم ليسوا كذلك؛ بل وإنهم فهموا جل هذا الكتاب بشكل مغاير عن مقصوده. الأمثلة التي سقناها عديدة على هذا الفهم الخاطئ، بل والجائر في كثير من الأحيان.

البشرية التي تبحث كل شيء، وتُخضع كل شيء للتجربة، لا بد أن تُخضع هذا الكتاب للفحص الدقيق، وتأخذ في الاعتبار أن اللغة المكتوب بها النص القرآني هي لغة غاية في الخصوصية؛ لأن الله الذي أنزل هذا الكتاب ليس رب العرب وحدهم؛ بل هو رب العالمين، والكتاب موجه للعالمين.

هنا سوف يبرز سؤال غاية في الأهمية، وهو: هل المسلمون الأوائل لم يكونوا على دراية بهذه اللغة التي نزل بها القرآن؟

وإن كانوا لم يعرفوا كلماته فكيف آمنوا بما لا يعرفوا؟ ولماذا لم يسألوا رسول الله عن الغامض من كلمات القرآن؟

الاعتقاد بأن الأوائل كانوا علماء لا يشق لهم غبار؛ هو اعتقاد عاطفي للغاية، لا يثبتته القرآن نفسه، عندما قال: (وَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم بِرَسُولٍ مِّن نَّذِيرٍ) (سورة سبأ : آية 44).

لقد كان القوم بسطاء المعرفة، ولم يكن الأوائل على دراية كاملة بتوجيهات القرآن؛ وإنما أخذوا من القرآن بقدر ما تسمح به معارفهم. حتى نكون محددين أكثر، كان القوم على دراية بمدلولات كثير من الكلمات (أقصد تماماً مدلول الكلمات وليس معانيها). ولكن التأويل بمعناه المتكامل؛ وهو ربط الكلمات بعضها ببعض، وقراءة السياق، وترتيل المشاهد القرآنية، لم يكن متاحاً وقتها؛ بسبب طبيعة هذه المجتمعات البسيطة. لقد وضع القوم تصوراتهم عن التعبيرات القرآنية وآمنوا بهذا التصور بسبب موافقة كثير من مفاهيم القرآن وقتها مفاهيمهم العقلية.

القرآن ليس موجهاً لزمان محدد؛ وإنما لكل البشر في كل الأوقات، وفي كل مكان، وكلما ازدادت معارف البشر؛ استطاعوا التفاعل مع كتاب الله بشكل أفضل من سابقهم. وهذه الفرضية يثبتها التطور المعرفي للبشر، والذي جاء أيضاً واضحاً في كتاب الله. فكرة التطور هي فكرة قرآنية بامتياز، ولكنها فكرة ضد الدين التاريخي، ولذلك لا يعترف رجال الدين التقليديون بمسألة التطور المعرفي للبشرية، بل ويصرّون على أن العصور القديمة تعرف أكثر منهم فيما يخص القرآن.

لو تحدثنا عن عصر الرسول صلوات ربي عليه، ومن خلال السرد التاريخي، سنكتشف أن أسئلة المعاصرين كانت بسيطة للغاية، تتركز حول الحلال والحرام، وهذا أمر طبيعي؛ إذ

القدرة على طرح الأسئلة تأتي من غزارة المعرفة، وهذا ما حدث تماماً عندما دخل الدين إلى البلاد ذات الثقل الحضاري الكبير، مثل: بلاد الشام، وبلاد فارس، التي كانت تتمتع بمستوى متقدم من المعرفة؛ فعرفت الأسئلة الوجودية والفلسفية طريقها إلى عقول الناس.

ليس لدينا أي دليل تاريخي على أن الرسول صلوات ربي عليه، فسر الحروف المقطعة مثلاً، ولا يوجد لدينا دليل على أن أحداً سأله عنها. القول بأن القوم لم يسألوه لأنهم لا شك كانوا يعرفونها، هو قول مرسل، لا يؤيده ما وصلنا من نصوص تاريخية عن تفسير هذه الحروف، والتضارب حول مدلولاتها. سوف ندرك لماذا لم يسأل أحد عن الأشياء التي تبدو غامضة، عندما نتعرف في السطور القليلة القادمة على البناء المعرفي لهذه المجتمعات من خلال بعض الأمثلة.

سوف أضرب مثالين بشكل بسيط، لنكتشف من خلالهما كيف كانت أسئلة العصر الأول، وكيف كان التعاطي مع السؤال:

المثال الأول

جاء في تاريخ الأمم والممالك لابن جرير الطبري: "إن معاوية ألح على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غزو البحر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق، فلها قرأه عمر كتب إلى معاوية: لا والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً"

كما نرى أن عمر بن الخطاب، ليس لديه فكرة متكاملة عن البحر، برغم بساطة هذه المعرفة؛ وذلك بسبب انعزال هذا المجتمع، والذي من نتيجته قلة المعارف. (ملاحظة: انعزال المجتمع ميزة كبيرة؛ أدت إلى الحفاظ على اللغة دون تشوه كبير، وذلك تم شرحه في الجزء الثاني، مما يفسر لماذا نزل القرآن بهذه اللغة في هذه المنطقة). لدينا مجتمع منعزل ملائم تماماً

لتلقي القرآن؛ بسبب سلامة اللغة إلى حد كبير. ولكن في الوقت نفسه، وبسبب هذه العزلة؛ قليل المعرفة ليس لديه القدرة الكافية التي تؤهله للتعامل مع الثورة المعرفية في القرآن.

بالعودة إلى المثال، نجد أن وصف عمرو بن العاص للبحر، هو وصف أقرب للشعر منه للوصف الاستراتيجي. طبيعية هذه المجتمعات يغلب عليها الطبيعة الشعرية، وهذا ثابت بالتاريخ؛ مما يجعلها ترسم صورة ذهنية لما تجهله، دون أن تلجأ إلى السؤال، كما في المجتمعات التي تميل إلى الناحية العقلية. المثال الثاني

هو أيضاً خاص بالخليفة عمر بن الخطاب، وقصته مع صبيغ التيمي القادم من الكوفة، ذات المستوى الحضاري المتقدم نوعاً ما. جاء الرجل يسأل عن أشياء في القرآن غير مفهومة بالنسبة له، خصوصاً مفهوم (الذاريات ذروا) ، فتم اتهامه بالتنطع، وأنه يعرض شبهات ليضل الناس، وتم جلد الرجل بسبب أنه سأل أسئلة بسيطة للغاية. الرواية عند الدارمي في سننه، وكذلك في كنز العمال.

جاء في كنز العمال: "أتى عمر بن الخطاب، فقيل: يا أمير المؤمنين، إنا لقينا رجلاً يسأل عن تأويل مشكل القرآن، فقال عمر: اللهم أمكني منه، فبينما عمر ذات يوم جالس يغدي الناس، إذ جاء وعليه ثياب وعمامة صفراء، حتى إذا فرغ قال: يا أمير المؤمنين، (والذاريات ذرواً فالحاملات وقرا)، فقال عمر: أنت هو، فقام إليه وحسر عن ذراعيه، فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته، فقال: والذي نفس عمر بيده لو وجدتك مخلوقاً لضربت رأسك، ألبسوه ثياباً، واحملوه على قتب، وأخرجوه، حتى تقدموا به بلاده، ثم ليقم خطيب، ثم يقول: إن صبيغاً ابتغى العلم فأخطأه، فلم يزل وضعياً في قومه حتى هلك".

رغم أن تبرير ضرب الرجل قد يعد مقبولاً في المجتمعات القديمة بسبب طبيعتها المحافظة وقلّة معرفتها إلا إن هذا السلوك غير مقبول بالمرّة. لا يمكن الحكم على شخص يسأل مجرد أسئلة أنه يشكك الناس ثم يتم الحكم عليه بهذه الطريقة وإهانته في صورة من صور قمع السؤال وبالتالي تحجيم الفكر. ما هي الحدود التي يمكننا من خلالها تحديد كون هذا السؤال سؤال برئ، أو

أن ذاك السؤال غير برئ وله أغراض خبيثة. الحقيقة لا يوجد أي مقاييس سوى الرؤية الشخصية التي تعتمد على معارف الشخص ذاته وهي طريقة لا يعتد بها كتاب الله من قريب أو من بعيد.

هذه الرواية تثبت بساطة المجتمعات عند تعاملها مع المعرفة وليست نقدا لتصرف عمر بن الخطاب لأن لكي عصر ظروفه وملابساته. إننا لا نقيم حكماً على الأفراد، لأننا لم نكن هناك وقتها، ولكن نحاول قدر المستطاع فهم البناء المعرفي لتلك المجتمعات من خلال ما كتب عنها.

ربما لو أُتيح لصبيغ السؤال والنقاش، ما كان لنا أن ننتظر كل هذا الوقت لنكتشف أن الذاريات ذروا ليست الرياح كما قال المفسرون، بل هي سورة عظيمة تتحدث عن نظرية معرفية تتعلق بدورة حياة الكائنات على الأرض. ربما لو كان هناك انفتاح فكري لم يكن ليمر قرن أو قرنان حتى تتكشف هذه النظريات، بدلاً من هذا الجمود الذي نعانيه.

لكن للإنصاف لا بد أن نذكر أن الانفتاح الفكري ربما كان تسبب في تشتيت الناس، وخصوصاً أن معارف القرآن غزيرة، بالقدر الذي يصعب استيعابه في مجتمعات بسيطة. لقد سار الأمر بهذا الشكل، وخصوصاً مع تغول السلطة، التي لم تسمح إلا بما يتوافق مع مصالحها، أو ما يتوافق مع معتقداتها، وتم اضطهاد الكثيرين وتكفيرهم وزندقتهم، بل وقتلهم، ممن كان لهم رأي مخالف، أو صاحب رأي فلسفي معين.

هذا هو الجعد بن درهم المثال الأوضح، الذي ذبحه خالد بن عبد الله القسري في عهد هشام بن عبد الملك، يوم عيد الأضحى؛ لأن الجعد زعم - كما قال القسري - أن الله لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً. تلك الفكرة التي سبقت القول بخلق القرآن، أو الصراع بين الأصولية والتجديد، والذي لم يكن ناضجاً بالقدر الكافي وقتها.

لو أُتيح للجعد أن يدون ما قال، ويشارك فكرته، وإن كانت ضعيفة الحجّة، لربما صنعت حالة تساؤلات فكرية مستمرة، وقادت لفكرة ذات قيمة، حتى ولو بعد عشرات أو مئات

السنين. قمع السؤال، وقمع الفكر المخالف، كان سمة أساسية؛ بسبب ضيق المعارف، واعتقاد الناس وقتها بأن المسائل الفكرية هذه يمكن أن تشتت الناس. أنا لا أقول أن هؤلاء القوم سيئو النية؛ بل قد تكون نيتهم سليمة تماماً، ومخلصون فيما قاموا به، ولكنها ليست الطريقة المثلى للتعامل مع الفكر، وليست الطريقة التي أرشد إليها القرآن. كل ما هنالك أن القوم تعاملوا وتفاعلو مع الدين بحكم معارفهم.

التاريخ "الإسلامي" زاخر بالأمثلة على قمع الفكر المخالف من وجهة نظر الأغلبية، ولعل فكر المعتزلة كان فكراً واعداً بشكل كبير. لو أن الفرصة أتيحت لهذا الفكر، لكان لدينا الآن قوة عقلية لا مثيل لها، ولكن تم اضطهاده حتى يومنا هذا؛ بحجة أنه فكر ضال. لم تفهم السلطة "العربية"، ولا أقول الإسلامية، أن الفكر يصححه الفكر، وأن الله لم يطلب منا حماية الدين، ولكنه طلب منا حماية العقل لكي يصل إلى الدين.

حرق مؤلفات ابن رشد واحد من الأمثلة على فكر الغوغاء الذي سيطر، وللأسف ما زال يسيطر على كثير من عقول الناس. هل تعلم أن أغلب العلماء الذين تفخر بهم الأمة الإسلامية قد اتهموا من قبل مجتمعاتهم، إما بالكفر أو بالإلحاد؟ رغم أن أفكارهم متقدمة للغاية، ولو أتيحت لها الفرصة لكانت هذه الأمة في الصدارة الآن، وتهدى العالم جميعه إلى كلام الله.

من هؤلاء المفكرين: ابن المقفع (724-759 م)، جابر بن حيان (721-815 م)، أبو بكر الرازي (864-923 م)، الفارابي (874-950 م)، ابن سينا (980-1037 م).

للأسف العقل البشري بصفة عامة في المجتمعات البسيطة، يسير خلف الأغلبية في المسائل العلمية، رغم تحذير القرآن الشديد من أن الأكثرية لا تعقل، ولا تعلم. أضف إلى ذلك أنه عقل إقصائي، يضطهد المخالف، مما يحرمه من التعلم، وسوف تظل طبيعة هذا العقل مانعة له من المعرفة، إلا إذا استطاع كسر هذا الحاجز، والتحرر التام.

الوقت الذي سوف يستطيع فيه العقل كسر القيود التي وضعوها عليه، سوف تنهال عليه الأسئلة، وتشتعل فيه الرغبة للمعرفة. ليس لدينا شك في أن الناس في القرن الأول كانوا بسطاء، لم يتناولوا القرآن بالعمق الذي نتناوله حالياً، وسوف يأتي بعدنا أجيال تغوص أكثر عمقاً، وهو ما سوف نتحقق منه عند الحديث عن السبع المثاني. الخطأ الذي ارتكبه رجال الدين، هو الاعتقاد أن العصر الأول أكثر العصور علماً ومعرفة. ولعمري هذا الفرض مخالف لمفهوم السبع المثاني، ومخالف لمفهوم القرآن ذاته؛ الذي يحتاج للقراءة باستمرار، ويتعارض تماماً مع قول الله سبحانه في سورة الرحمن: (علم القرآن)، ومخالف كذلك لسنة التطور التي تحكم الحياة وتحكم الإنسان.

لعله الآن يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو: هل الرسول صلوات ربي عليه لم يكن يعلم تأويل القرآن؟

لماذا لم ينزل القرآن واضحاً لا يحتاج كل هذا الجهد في التأويل؟
للإجابة على سؤال كهذا، دعونا نطرح سؤالين آخرين:

لماذا لم يُنزل الله كتاباً واحداً على آدم، أو إبراهيم صلوات ربي عليهما؟ ولماذا تعددت الكتب؟

لماذا لم يتعهد الله بحفظ الكتب الأخرى (أقصد النص الأصلي)، كما حدث مع القرآن؟

كلمة السر هي التطور، والتطور وحده من سوف يفك شفرة هذه الأسئلة الصعبة، والذي جاء مفصلاً في كتاب (تلك الأسباب الجزء الثالث الطور).

الله سبحانه وتعالى لم يرد للبشرية القفز مرة واحدة إلى النتيجة النهائية؛ لأن ذلك سوف يجعل وجود البشرية بلا معنى، ووجوداً عبثياً. ما معنى خلق الخلق، ثم إعطائهم طريقة عمل الحياة والتصرفات؟ وجود الإنسان هو وجود له هدف محدد، وليس مجرد لهو أو عبث، كما ذكر ذلك ربنا في كتابه. ولكي يكون وجود الإنسان وجوداً ذا معنى، ونهايته تؤول إلى معنى؛ فلا بد

أن يعاني اختباراً حقيقياً يقيس قدراته، وطريقة تعاطيه مع كل ما يحيط به، دون تدخل يُفقد هذا الاختبار الدنيوي معناه.

الحياة الدنيا ليست مصممة من أجل نبي أو رسول، وليس هناك نبي أو رسول حاكم على الناس، أو مصادر لأفعالهم؛ بل الرسل والأنبياء هم في الحقيقة شهداء مراقبون ما داموا أحياء، مبلّغون ما أنزل إليهم ربهم دون زيادة أو نقصان.

التدرج في إرسال الرسل والأنبياء، والتطور في انتقال المجتمعات من البسيط إلى المعقد، هي الحالة الواقعية السائدة، والتي لا يمكن إنكارها، سواء تاريخياً أو قرآنيًا أو علمياً. لذلك فرضية أن رسول الله كان لديه تأويل القرآن، واعتبار هذا التأويل جازماً ونهائياً؛ يتعارض مع حركة الحياة، وسير البشرية منذ نشأتها، ويتعارض مع القرآن نفسه، كما سوف نرى بعد قليل.

لفظ القرآن نفسه يثبت أنه نص يحتاج للتحليل والدراسة المستمرة، ولا يمكن أن يكون له تأويل بشري قاطع وجازم. فهم أصل كلمة (قرآن) ذاتها تحمل أعظم سمة من سمات هذا الكتاب العظيم؛ وهو الكتاب القابل للقراءة باستمرار. كذلك فهم أوائل سورة الرحمن لا يرحح أبداً أن يكون للرسول تأويل قاطع وجازم، ولو ثبت أن للرسول تأويلاً ما لآية كريمة؛ فهو تفاعل النبي الكريم مع كتاب الله، وليس نصاً قاطعاً.

لو أن الرسول صلوات ربي عليه تأوّل القرآن وانتهى منه، بوحى من الله لا يمكن تجاوزه؛ لما صح أن يسمى قرآناً من الأساس؛ لأنه أصبح غير قابل للقراءة بعد قراءة رسول الله. الأمر الإلهي لرسول الله بخصوص الكتاب الذي أنزله الله هو التبليغ (بلغ). بينما الأمر الإلهي لرسول الله وللناس جميعاً بخصوص فهم القرآن وتفسير آياته هو (اقرأ)، وهي أول آية نزلت. الأمر الإلهي (اقرأ) ينفي بشكل قاطع أن تكون محاولة تفسير القرآن من قبل أي بشر هو وحي لا يمكن تجاوزه.

يشير فعل (اقرأ) إلى أن تفسير آيات القرآن هو عبارة عن تفاعل الإنسان مع النص الإلهي. (هناك وحي لا يمكن تجاوزه، وهو الخاص بالرسالة، وهناك وحي معرفي؛ أو ما

نسميه نحن تجاوزاً بالإلهام، وهو وحي قد يحصل عليه كل باحث عن المعرفة، بشرط السعي والإخلاص، وهو وحي غير ملزم.

الفرق بين الوحيين أشارت إليه سورة النجم، بشكل لا مثيل له، وسوف نأتي عليها في الكتاب القادم إن شاء الله). لو كان رسول الله تأول القرآن لأصبح أمر القراءة الخاص بالقرآن للبشرية غير ذي معنى، وأمر التدبر أمر تحصيل حاصل، ولو أن الله أراد أن يؤول رسوله القرآن، فلماذا لم ينزله مؤولاً؟ ولماذا تركه هكذا؟

لأن البشرية تتطور وتتقدم باستمرار، وعلى كل إنسان أن يفعل ما في وسعه سواء نبي كريم أو رسول مرسل أو إنسان كسائر البشر. إننا أمام اختبار معرفي حقيقي يتم من خلاله فرز الناس والبشر، لينظر إليهم ربهم كيف يعملون، وكيف أن كل واحدا منهم أدى ما عليه بكل إخلاص وجد ولم يتكاسل ولم يتواكل. إنها سنة الله في الكون ومراده من عباده، أن يتحمل كلا منهم مسؤوليته ويقوم بدوره. أما الذين حكموا على أنفسهم بإنهاء دورهم واكتفوا بما حققه غيرهم فهنيئاً لهم ما يعتقدون ويناصرون .

تاريخياً: السيدة عائشة أخبرت أن الرسول لم يفسر من القرآن إلا بضع آيات، وكثير من الباحثين يرون أن عدد الآيات التي تكلم فيها النبي لا يتعدى 200 آية، من مجموع 6000 آية، هي آيات القرآن.

الله سبحانه وتعالى يخبرنا في القرآن بحقيقة ذات أهمية قصوى، وهي أن تأويل القرآن على حقيقته لا يعلمه إلا الله، ولم يستثن منها حتى رسول الله.

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ

قَالَ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (سورة آل

عمران: آية 7).

حرف الواو الذي سبق لفظ (الراسخون في العلم) ليس معناه أن الراسخين في العلم يشاركون الله تأويله؛ وإنما الواو هي للاستئناف، كما حكى بعض من أهل التفسير ذلك، أي أن الكلام تم عند لفظ الجلالة، وجملة (الراسخون في العلم) ليست عطفاً على ما قبلها. رغم أن المفسرين يقولون في قول الله تعالى: (أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا) تعني المحكم من الآيات والمتشابه؛ كلاهما يؤمن به الراسخون في العلم؛ إلا أن لنا رأياً في هذه الآية الكريمة. تشير الآية إلى خاصية القرآن الأساسية؛ وهي تجدد المستمر، وقدرة العقول العلمية الراسخة على استكشاف معانيه.

لذلك عندما يستطيع الراسخون في العلم تأويل بعضه (بحسب قدراتهم)، يقودهم هذا التأويل إلى الإيمان بما لم يستطيعوا تأويله، وهي صفة خاصة بالراسخين في العلم. بينما الأميون بمفهومه السليبي ينطلقون مما لم يستطيعوا فهمه إلى تكذيب ما يمكن فهمه، وهذا وضع مقلوب يقود إلى تكذيب النص الإلهي. (راجع مفهوم الأمي والأمين في الجزء الثالث، وكيف أن غياب المنهج العلمي جعل كل إنسان يعتقد أن لديه القدرة على فهم كتاب الله كما يحلوه).

الآية الكريمة لم تشر من قريب أو من بعيد إلى أي وظيفة للرسول في تأويل القرآن، وقصرت التأويل على الله وحده. أما الراسخون في العلم فهم في محاولات مستمرة للتدبر وفهم آيات القرآن؛ ولن تكون مستمرة إن زعم أحدهم أنه امتلك الحقيقة. قد نقرب كثيراً من التأويل؛ ولكن يبقى التأويل الحقيقي يعلمه الله. هذه هي طبيعة القرآن؛ معرفة تراكمية تناسقية باستمرار كل مجتهد، يضيف قدر استطاعته، بشرط وجود منهج علمي للتأويل، وهو ما نحاول قوله في سلسلة هذا الكتاب.

عدم وجود منهج علمي سوف يعطي الفرصة لكل حالم أن يقول ما يعنُّ له دون دليل أو أي برهان، سوى قدرته على التخيل. مرة أخرى، هل كان الرسول يعلم تأويل القرآن؟ والجواب بنص القرآن ذاته، أن الرسول لم يكن يعلم تأويل القرآن (راجع الآية السابقة)

من يقولون أن رسول الله كان يعلم تأويل القرآن على الحقيقة، هم يسيئون إلى رسول الله من حيث لا يشعرون، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: جعلوا رسول الله شريكاً لرب العالمين، وبنص القرآن جاء: (لا يعلم تأويله إلا الله).

الوجه الثاني: لو أن رسول الله يعلم التأويل ولم يبلغه؛ لكان كاتماً للعلم الذي نهى الله عنه، وتنزه رسول الله عن ذلك. (الروايات تقول أنه لم يتكلم إلا في بضع آيات).

حقيقة إن رسول الله بلغ الرسالة فقط، ولم يكن يعلم تأويل القرآن تأويلاً حقيقياً، على نحو لا يمكننا تجاوز هذا التفسير. هذه المعلومة واضحة وضوح الشمس، من خلال آيات الذكر الحكيم، ومن خلال السرد التاريخي؛ ولكن العاطفة التي تأبى ذلك هي المتحكمة في عقول الناس، وتحاول بشتى الطرق تنصيب الرسول شريكاً لرب العالمين.

أعلم أن هذا الكلام في منتهى الصعوبة على بعض الناس، ولكن الأشد هو عدم قوله، وتمييع مفاهيم القرآن وطمسها، وإضلال البشرية وإضاعتها، فقط بسبب العواطف التي تحكمتنا في التعامل مع كل ما هو ديني.

القرآن لم يدع الفرصة لأي متقول أن يقول على الله ورسوله ما لا يعلم، وأقام الحجة على كل واحد، ولكن أكثر الناس عن آيات الله غافلون. وأخيراً، لا بد أن نعي تماماً أن الرسول ليس حاكماً على البشرية؛ وإنما هو من ضمن حلقات تطور هذه البشرية وتدرجها، وواقع في نطاقها، ويجري عليه ما يجري عليها، إلا في الرسالة التي حددها الله بنصوص قطعية لا تقبل الشك، وهي القرآن الكريم.

الآن يمكننا إدراك لماذا لم يصبح القرآن الكريم دليلاً عقلياً على وجود الله؛ وذلك بسبب المسلمات الخاطئة التي حكمت فكر هذه الأمة. إن الأمة التي غفلت عن اللغة التي جاء

بها كتاب الله، واعتقدت أن مجتمعاً بسيطاً للغاية هو مجتمع حاكم على البشرية، وأنه مجتمع قادر على فهم القرآن بشكل صحيح مائة بالمائة؛ هي أمة لم تدرك قيمة الكنز الذي بين أيديها.

هذه أمة سجت آيات الله في حقبة زمنية معينة، بل وحاربت الله وكلماته، وجعلت كلمات الله في المرتبة الثانية، أو الثالثة ولم تجعلها هي العليا. لا شك أن مثل هذه الفرضيات فرضيات مزعجة للغاية، وتطرح تساؤلات عديدة، ومن أهم هذه التساؤلات: هل يلزم أن يكون كل واحد منا باحثاً ومفكراً؛ لكي يستطيع الحصول على دليل من خلال القرآن، يدعم وجود الإله، أو حتى ليصبح إيمانه إيماناً صادقاً؟

ليس منطقياً على الإطلاق أن يصير كل إنسان مفكراً وباحثاً بشكل عميق؛ ولكن بالمقابل ليس مقبولاً أن يستسلم الإنسان للكسل المعرفي بحجة وجود متخصصين.

حجة المتخصصين في الدين حجة كهنوتية بامتياز، أفرزت طبقة من البشر تتحدث في أمور، وتتصدى لمسائل شديدة الخطورة بمعدل ذكاء منخفض للغاية. رغم دعوة القرآن الصريحة للناس بصفة عامة للتدبر والتفكير؛ إلا أن مجموعة كبيرة من رجال الكهنوت لا يعجبهم ذلك، ويرغبون بإبقاء الناس رهن معارفهم، الأقرب إلى الأساطير، والأبعد عن العقل. هذا ليس معناه أن تحدث فوضى معرفية، وتصبح النصوص مباحة لكل صاحب خيال خصب، دون أي معرفة بطرق البحث ومناهجه. التعليم الديني بشكل نظامي، والذي أسسه نظام الملك عام 459 هجرية، أصبح كارثة على هذا الدين، عندما أصبح باباً خلفياً للحصول على المناصب في الدولة؛ إذ أعطى الفرصة لاستخدام الدين بشكل أناني، من قبل مجموعة من الأفاقين والانتهازيين.

ازداد الطين بلة في العصر الحديث، عندما أصبح التعليم الديني باباً خلفياً لكل ضعيف الإمكانيات -إلا من رحم ربي- في الحصول على شهادة جامعية. هذا النظام أفرز كماً هائلاً من الغناء المعرفي، ومنح حق الحديث بشكل حصري في الدين إلى شخصيات لا تصلح للحديث حتى عن طبق اليوم.

لكي يمارس الإنسان الطب أو الهندسة لابد أن يكون متخصصاً، فما بالكم بالدين؟ إنها مغالطة منطقية فجأة، فنحن نمارس الدين بالفعل، وبالرغم من ذلك، فالدين ليس كعلم الهندسة أو الطب، أو أي علم تجريبي.

العلوم الطبيعية جميعها تقوم على تجارب وأدلة يمكن قياسها، واستنتاجات منطقية، ولا يوجد فيها اختلافات سوى في تفاصيل لا يمكن ملاحظتها. هل ذهب أحد إلى مهندس يوماً ليصمم له منزلاً، فأعطاه رسماً هندسياً لمزرعة حيوانات، أو ذهب أحدهم إلى طبيب يشتكي ألماً في المعدة، فأخبره أن من يحتاج العلاج هو جاره أو زميله في العمل. لن تجد محاسباً في شركة يحاول إقناعك أن حاصل ضرب 5 في 10 يساوي 20، إلا إذا كان يريد سرقتك.

على ذلك فإن خطأ المهندس أو الطبيب يمكن اكتشافه، بل ويمكن تفاديه بقليل من المعرفة والمراجعة، ولو حدثت خسارة فلا شك أنها سوف تكون محددة. النقطة الأهم كذلك هي أن العلوم الطبيعية علوم ليس لها علاقة بالسلطة الحاكمة، ولا تسيطر على عقول الناس من خلال أمور غيبية.

على العكس من ذلك تماماً، فالدين حتى يومنا هذا لا يقوم على نتائج يمكن قياسها، وأغلبه خاضع لظروف السلطة، وكلما تغيرت الظروف غير رجال الدين أردتهم. فوق كل ذلك، فإن خطأ رجل الدين يمكن أن يكلف الإنسان مصيره، خصوصاً إذا استسلم الإنسان، ولم يرغب في المعرفة.

ما الذي يجعلني أمنح ثقتي لشخص لا يملك الحد الأدنى من المنطق والعقل، بحجة أنه متخصص. ما هذه القوة الخفية التي تجعلني أعلق مصيري بشخص كل مواهبه نسخ ما في الكتب ونقله، ولا يستطيع نقد كلمة.

راجع كتاب (الكامل لابن الأثير)، و(تاريخ الأمم والممالك للطبري)، لتعرف أننا نعيش في وهم لا مثيل له، وأتينا رسماً صورياً مثالية لعصور هي ليست كذلك بالمرّة، بل وسلّمنا

مصيرنا للمجهول، ونساهم بشكل لا مثيل له في نشر الجهل والخرافة والقداسة على أشياء ليس لها أي قيمة.

من نعمة الله على الإنسان، أن الله يحاسب على السعي الصادق للوصول للحقيقة، بغض النظر عن النتائج، وأن تكاب الله وكلماته دائماً ما توافق المفاهيم العقلية، ومنطق الإنسان الصادق. ليس منطقياً أن يترك الإنسان عمله الأساسي وشأنه، لكي يبحث كل صغيرة وكبيرة؛ لكن بالمقابل، الإنسان ملزم بالحد الأدنى من المعرفة، والتي تؤهله لكي يفرق بين الصواب والخطأ، وبين الدليل والحيل.

الإقبال على المعرفة بصدق، هي الحد الأدنى الذي يجب توافره لدى الإنسان؛ لكي يكون بالفعل مستحقاً لدوره في الدنيا، القائم بالأساس على المعرفة. أما الإعراض عن المعرفة فهي أهم حيل الشيطان؛ لكي يحول بين المرء وربه. كل إنسان لديه جرس إنذار، ونظام معرفي قادر على أن يقوده إلى الحق، ولكن بعض المساكين يعطلون هذا النظام، ويسلمون عقولهم للآخرين؛ إما تكاسلاً، أو بسبب انعدام ثقتهم في قدراتهم.

إننا نرى الأمثلة كل يوم تكاد تعلن عن نفسها. حرص الإنسان على السؤال وعلى المعرفة، بل والإلحاح في الفهم؛ ما هو إلا ترجمة لتلك الرغبة في النفوس الذكية للوصول إلى الحقيقة. على العكس من ذلك تجد كثيراً من الناس تطرق المعرفة بابه، وتصير في متناول يديه؛ فيشتكي من الإزعاج. السعي المخلص للمعرفة هو ما دفع سلمان الفارسي، وصهيباً الرومي، وعبدالله بن سلام، لكي يقبلوا الرسالة؛ بينما الاستخفاف والكبر والغرور، هو ما دفع عبد العزى عم رسول الله إلى الكفر والصد والإعراض.

سلامة القصد هو ما دفع ياسر بن عامر والد عمار بن ياسر لبذل نفسه في سبيل الله، وهو الضعيف، أما الحسابات الأخرى هي من دفعت العباس إلى خوض معركة بدر ضد المسلمين، والانتظار حتى يوم الفتح لكي يدخل الإسلام، وهو عم النبي.

صدق اللهجة هو ما دفع أبا ذر الغفاري لكي يمشي وحده إلى رسول الله، يسعى خلف الحقيقة، حتى أنه كان رابع أو خامس من دخل في الإسلام، ولم يكن من ساكني مكة بالأساس، بينما المكروه ما دفع أبا سفيان حتى بعد أن أعلن "إسلامه" أن يصيح بأعلى صوته، عندما انكشف المسلمون في غزوة حنين: "لا تنتهي هزيمتهم دون البحر"؛ شامتا في ما حدث للمسلمين.

بالطبع ليس مطلوباً أن نفكر جميعاً بنفس الكيفية؛ ولكن يلزمنا لقبول الحق صدق الطلب، وسلامة القصد. كل الذين نكبوا عن الصراط، وتفرقت بهم السبل، وتنازعتهم الأهواء، ظنوا أنهم الأهدى، أو كان لهم حساباتهم الخاصة. إذا كان الحصول على فكرة جديدة يحتاج إلى ذكاء ومنطق سليم، فإن مجرد قبول هذه الفكرة من قبل أي إنسان يحتاج لنفس القدر من الذكاء والمنطق السليم.

لقد بدأ عصر القرآن، عصر كلمات الله، وهي الدليل الوحيد على وجود الله، فهل من باحث عن الحقيقة، ملقٍ خلف ظهره عنترياتٍ وأشعاراً وخطباً رنانة لا محل لها من الإعراب؟

بعد أن تحدثنا عن القرآن، وقمنا بتحليل كثير من التعبيرات القرآنية التي تدعم تجدد هذا القرآن واستمراريته، ومن ثم تدعم كونه دليلاً وحيداً على وجود الله؛ سوف ننتقل لمفهوم آخر صال وجال وفيه الكثيرون؛ وهو مفهوم الذكر؛ لتبين ما هو الذكر من خلال كتاب الله.

الفصل الرابع هل من مدكر

من المفاهيم التي لاقت تشويشاً كبيراً هو مفهوم الذكر، حتى لا تكاد فرقة أو طائفة إلا ولها مفهوم خاص بالذكر. ما هو الذكر؟ لماذا لا يذهب الناس مباشرة إلى كتاب الله لاستخلاص هذا المفهوم العظيم بدلاً القيل والقال؟

مفهوم كمفهوم الذكر ليس نزهة، وليس تعبيراً عادياً يمكن تجاوزه؛ بل هو قلب هذا الكتاب الذي أنزله الله على رسوله حرفياً. لنحاول في البداية فهم جذر كلمة (الذكر)، وترتيل الآيات الكريمة التي ذكر فيها لفظ (الذكر).

مادة (ذكر) في اللغة تعني حفظ الشيء، وهي خلاف النسيان، هكذا دون تعقيدات لغوية. الآن دعونا ننطق لكي نصف مشتقات لفظ (ذكر) بناء على فهم جذر الكلمة، ثم ننطق لفهم آيات الكتاب التي ذكر فيها لفظ الذكر.

الذكر بوصفه اسماً؛ هو الشيء المحفوظ الذي لا يتغير. لو حاولنا الغوص أكثر لفهم ما هو الشيء المحفوظ الذي لا يتغير، سوف ندرك أن لفظ (الذكر) يعني الأشياء الثابتة. لو أردنا أن نأخذ خطوة للأمام فسوف ندرك أن الذكر هو الحقائق، وأهم صفات الحقائق الثبات وعدم التغير. كل ما هو متغير لا يصح أن نطلق عليه ذكراً، وإن أطلقنا عليه لفظ ذكر فهو خطأ يجب تصحيحه.

لذلك (الذكر) في كتاب الله يعني الحقائق الثابتة التي وضعها الله، ولا يجري عليها التغير. فلو نظرنا لكل آيات الكتاب فسنجد أنها كلها آيات ذكر؛ أي أنها حقائق. الأقدار التي تحرك الكون جميعاً (ذكر)، الأحداث التي حدثت وقصها ربنا في الكتاب هي (ذكر)؛ لأنها وقعت، وتم وصفها بشكل حقيقي. لفظ (ذكر) يعني تماماً أن يكون هناك آيات تم نسخها في كتاب الله، أو تم تغييرها، كما يدعي بعض الذين لم يصلوا بعد لمعنى الذكر.

جميع الآيات اللفظية وما تحمله من حكمة هي الحقيقة؛ ولذلك كل القائلين بأن هناك أوصافاً على سبيل المجاز في كتاب الله عليهم مراجعة هذا الطرح. إن كان هناك بعض الآيات تبدو وكأنها ذات تعبيرات مجازية فهذا فقط لأننا لم نصل إليها بعد، ولا يعني أنها غير حقيقية. لا أقصد فقط أن الذكر هو الآيات الكونية أو الأحداث، بل إنني أقصد تماماً بعداً أعمق بكثير؛ وهو أن كل مسمى وكل تعبير في كتاب الله هو ذكر لأنه يصف حقيقة ثابتة، وليس مجرد اسم لا يعلل.

عندما قلنا ببيان الفرق بين القرآن والكتاب، وقلنا أن جميع الآيات في كتاب الله هي آيات قرآن للقارئ، وجميعها كذلك آيات كتاب للمؤمن بها؛ فهي كذلك جميعها آيات ذكر في حقيقتها.

سوف أعطي بعض الأمثلة على بعض الآيات في كتاب الله، التي تحمل الحقيقة المطلقة، واليقين بأن كل آيات الكتاب هي آيات ذكر، ولكن عدم قدرتنا على فهم الحقائق التي تحملها هو عائد بالأساس إلى قدراتنا المعرفية المتواضعة.

الأمثلة التالية ليست أمثلة بشكل قاطع؛ وإنما هي تحت الاختبار، وتحتاج لجهد كبير لبحثها، ولكن سوف أسجل فقط بعض الأفكار حولها بشكل بدائي للغاية؛ لتوضيح فكرة الذكر، وأن آيات الكتاب لفظاً ومعنى هي ذكر؛ أي تحمل الحقيقة المطلقة.

المثال الأول: في الجزء الأول من سلسلة كتاب تلك الأسباب قدمت قصة زواج رسول الله من زينب بنت جحش، وكيف أن التعبير القرآني (اتق الله) الذي ذكره القرآن على لسان رسوله إلى زيد، كان دليلاً على أن زيداً في معاملته مع زينب كان لا يتقي الله.

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي

نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ

لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا^ج وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (سورة الأحزاب: آية 37).

هذه الآية ورد فيها اسم زيد، وقد أوردت ملاحظة في الفصل الخاص بها؛ إذ يبدو أن اسم زيد نفسه يصف صاحبه وصفاً حقيقياً، وليس مجرد تسمية دون دلالة؛ لأن طبيعة الكتاب هي الوصف الحقيقي لجميع المسميات فيه. لذلك أشرت إلى أن ذكر اسم زيد يشير إلى أن هذه الشخصية لديها زيادة في فعلها وردة فعلها، وربما هذا هو السبب المباشر في وقوع الطلاق وفي استحالة العشرة بينه وبين زوجته.

المثال الثاني: تحول اسم الرسول صلوات ربي عليه من أحمد عندما ذكره نبي الله عيسى، إلى محمد عندما أرسله الله. كما قد تحدثنا عن الفرق بين اسم أحمد واسم محمد في الجزء الثالث من سلسلة كتب تلك الأسباب وأشرنا إلى كيف أن لفظ أحمد ولفظ محمد وصف حقيقة الاسم وليس الاسم الذي نعته به الناس وقد تطرقنا لفهم لفظ الحمد ذاته وعلاقته بالطاقة الحرارية تحديداً لذا يرجى مراجعة هذه النقطة في الجزء الثالث- الطور- فصل قريش.

بعض الكتابات زعمت أن رسول الله صلوات ربي عليه لم يكن اسمه محمد بالأساس؛ وإنما كان اسمه قُثم، وهذا الفرض طرحه بعض المستشرقين، أمثال الألماني تويودور نولدكه، في كتابه "تاريخ القرآن"، والمستشرق النمساوي لويس سبرنجر في كتاب "عن سيرة الرسول الكريم"، والمستشرق الفرنسي هرتويغ درنبرغ، والمستشرق الإيطالي الأمير ليون كياتاني في كتابه "حوليات الإسلام".

المسألة غاية في البساطة، ولا يجب أن تشغل تفكير أي متدبر، سواء كان اسمه محمداً منذ ولادته، أو اسمه قُثم، فالقرآن نعته باسم محمد، بمعنى أنه يحمل صفات وخصائص الاسم بشكل صحيح، والقرآن ذاته سماه أحمد عندما كان غائباً، وهذا يحيلنا إلى أن الأسماء في القرآن بأنها تصف الحقائق، ولا تصف ما يعتقد الناس، وهو الذكر الذي قال عنه ربنا.

لو ثبت بشكل علمي لا يقبل الشك أن اسم الرسول قبل الرسالة كان قثم، وأن اسم محمد جاء بعد نزول القرآن؛ فهذا لا يزيدنا إلا إيماناً بأن القرآن كتاب الذكر المجيد، وأن ألفاظه حقيقية، تصف الأشياء على حقيقتها. لقد جاء أيضاً في فهم لفظ محمد ولفظ أحمد أن الاسم يتعلق بالوحي والتفاعل الذي أنتج هذا الوحي وقلنا أن صيغة أحمد هي صيغة تفضيل وان لفظ الحمد ذاته هو لفظ متعلق بالطاقة .

من الإشارات الجيدة في هذه الجزئية هو أن التعبير القرآني (اسمه احمد) يعني صفته أو سمته أحمد وذلك يعني أنه أكثر استقبلاً للفيض الإلهي وليس اسم شخص. أحمد الذي جاء في القرآن يشبه لفظ أفضل أو أحسن وهي صفة وليس اسم شخص. يمكن مراجعة فصل قریش في الجزء الثالث .

المثال الثالث: اسم نبي الله إبراهيم المذكور في كتاب الله. مدلول إبراهيم في العربية هو أبو الجمهور أو الجماعة، ويقال أنه مأخوذ من كلمة أبرام، ومعناها الأب أو رفيع المقام. مدلول إبراهيم عند الكرد مركب من (بر) وهو الأخ، و(هام) وهو الصخر، بمعنى أخو الصخر. ويُعتقد أن هذا المعنى جاء من صنعة أبيه وعمه، وهي نحت الصخر لصنع التماثيل.

بالطبع هذه الأسماء شقت طريقها إلى فهم كلمة إبراهيم، وصارت معرفة معتبرة؛ بسبب عدم إدراك مفهوم الذكر، وكيف أن الكلمات والتعبيرات في كتاب الله هي حقائق مطلقة. عندما نطبق قاعدة الذكر على اسم إبراهيم فسوف نحاول بحثه بشكل مختلف، وقد يكون الاسم مكوناً من مقطعين (إبرا) وهو من البراءة، ومقطع (هيم) وهو من الهيام أو السياحة، وعلى ذلك وبناء على الأحداث التي قصها القرآن عن رسول الله إبراهيم، يمكننا القول أن اسم إبراهيم يصف الشخص الذي تبرأ وتخلص من كل الموروث في زمنه، وذهب هائماً باحثاً عن الحق. كثير من الباحثين في التاريخ يظن أن القرآن شيء والأحداث التاريخية شيء آخر، أو أن القرآن عبارة عن استعارات، ومجموعة من التعبيرات المجازية؛ بسبب عدم ذكر أي من الأنبياء في المصادر التاريخية بأسمائهم، سوى في نصوص العهد القديم والجديد.

ذكر أسماء الأنبياء والمرسلين من خلال كلمات الله لا بد أن يكون ذكراً حقيقياً؛ لذلك قد يكون شخصية نبي الله إبراهيم في التاريخ لها اسم مختلف، بفرض أن التاريخ عاصرها، ولكن عندما يذكرها الله في كتابه لا بد أن يذكر الاسم الحقيقي الذي يصف المسمى بشكل كامل وتام. على هذا المنوال نجد أن هناك أبعاداً مختلفة من المعرفة، يمكن استنتاجها من خلال تطبيق مفهوم الذكر على كل ما أنزل الله.

مفهوم الذكر، أو الشيء المحفوظ والذي لا يتغير، هو أعظم النعم التي يمكن أن ينالها الباحث، وهي أعظم نعمة للإنسان بعد عصر النبوة. هل يقدر الناس المتحدثون بالعربية هذه النعمة، وهذا الكنز الثمين. كتاب يحمل حقائق ثابتة لا تتغير، يمكن أن يغير وجه المعرفة، لو استطاع الإنسان الانطلاق منه نحو البحث والعلم.

لقد جاء لفظ الذكر مرافقاً للفظ القرآن في موضعين من مواضع كتاب الله، دلالة على الارتباط الوثيق بينهما، فالذكر إذا كان يحمل الحقائق، فالقرآن هو ما سوف يبينها: (وَمَا عَلَّمَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) (سورة يس: آية 69).
(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) (سورة ص: آية 1).

هل هناك نعمة أفضل من ذلك، ذكر يحمل الحقائق بكل عمقها، ونص يقبل القراءة باستمرار، ومع ذلك تم تشويه هذه المفاهيم، وصار القرآن لا يمثل سوى رمز خالٍ من المعنى، وصار الذكر متممةً لبعض الأقوال.

مجرد وضوح مفهوم الذكر؛ وهو الحقائق الثابتة التي لا تتغير، وضح لنا مفهومها في غاية الروعة؛ وهو مفهوم (هل من مدكر) الواردة في ست مواضع في سورة القمر:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) (سورة القمر: آية 17).

عندما حاول المفسر فهم لفظ (الذكر) بالبدال جاء بالعجب، وهذا ملخص لما قيل في لفظ (الذكر): ذكر هو الذِّكْرُ، لغةً لِرَبِيعَةٍ، وهو غَلَطٌ حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ ادَّكَّرَ، حَكَاهُ سِيبَوَيْهِ وَنَفَاهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ، وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ الْمُظَفَّرِ: الذِّكْرُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَرَبِيعَةٌ تَغْلُطُ فِي الذِّكْرِ فَتَقُولُ:

دَكَرٌ، بِالذَّالِ. أَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ: فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ وَمُدَّكِرٍ، فَقَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُدَكِّرٌ، بِالذَّالِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ. وَمُدَكِّرٌ فِي الْأَصْلِ مُدْتَكِّرٌ عَلَى مُفْتَعِلٍ، فَصِيرَتِ الذَّالُ وَتَاءُ الْاِفْتِعَالِ ذَالًا مُشَدَّدَةً، قَالَ: وَبَعْضُ بَنِي أَسَدٍ يَقُولُ: مُدَكِّرٌ، فَيَقْلِبُونَ الذَّالَ فَتَصِيرُ ذَالًا مُشَدَّدَةً، كَذَا فِي اللِّسَانِ.

أحد أساتذة اللغة يقول " أن الجذر هو (ذ/ك/ر) والبناء مُفْتَعِلٍ، والأصل مُدْتَكِّر. الذال مجهورة، ومخرجها بين الأسنان، والتاء مهموسة، ومخرجها أصول الثنايا وطرف اللسان، ولتسهيل النطق بالحرفين حدث تماثل تبادلي بين الصوتين؛ فأثرت الذال بجهرها في التاء، لتتحول إلى تاء مجهورة فتسمع (دالاً)، وأثرت التاء بمخرجها في الذال لتكون لثوية أسنانية، لتسمع (دالاً)، وهكذا تجاوزت دالان، تنطقان بقاء واحد لأعضاء النطق، وهذه آلية الإدغام."

من الملاحظ أن هناك استماتة في فهم اللفظ تبعاً لمدلوله عند القبائل، ولم يضع المفسر أي احتمال لانحراف لسان هذه القبائل. فإذا لم يجد المفسر مدلول اللفظ عند قبيلة ما ذهب كل مذهب، وفتش في السنة القبائل الأخرى، دون أي محاولة حقيقة لفهم اللفظ من خلال القرآن نفسه، ومن خلال التعبيرات القرآنية. حتى نكون منصفين فإن القدرة على القياس والمقارنة هي قدرات ليست هينة، وليس لكل أحد أن يستطيع التعامل معها. ولعل هذا ما يفسر كيف أن الباحث غالباً ما يذهب للسان المحلي لفهم مدلول الكلمة، دون مجهود القياس والمقارنة والتحليل.

هل تعلم أن هذه التفاسير وهذه التأويلات تُخرج القرآن من كونه كتاباً ينطق بالحق، وكتاباً فيه الذكر، إلى ما يشبه الشعر أو النثر؟ وهذا ما حدث بالفعل؛ فقد تعامل أغلب المفسرين مع القرآن وكأنه كتاب لأحد الشعراء أو رجال القبائل، وليس كتاب رب العالمين، ورغم ذلك لا نتهم المفسر القديم بشيء، إلا بضعف المعرفة.

الذين يقولون أن (دكر) بالذال ليست من لغة العرب، وأن الأصل مدتكر؛ يقولون بكل أريحية أن الألفاظ لا تحمل أي حقيقة؛ أي ينفون بشكل صريح كونها من الذكر الذي أنزله

الله، ولا يدركون ذلك. عندما شكك بعضهم في كونها (ذكراً) أو (ذكراً بالبدال)، جاء الرد بأن رسول الله قرأها هكذا (ذكراً بالبدال)؛ فدل ذلك على أنها حقيقة وليست منقلبة، كذلك ليست للتخفيف؛ وإنما تحمل معنى يجب على الباحث بذل الجهد للوصول إليه، خصوصاً أنها مرتبطة بالذكر.

يسر الله القرآن للذكر؛ أي لحمل الحقائق الثابتة التي لا تتغير، وهذا معناه أن الألفاظ والتعبيرات، وكل ما يخص القرآن، إنما هو نظم يخدم حفظ الحقائق. (هل من مدكر؟) لو أن الذي كتب القرآن بشرُّ لقال: هل من مدكر؛ لأنها مناسبة لما قبلها، وليس مدكر، ولأن لفظ (مدكر) بحروفه لفظ قرآني جاء في سورة الغاشية بتشديد الكاف:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) (سورة الغاشية: آية 21).

هذا المثال يوضح الفرضية التي نسعى بكل السبل لتوصيلها لأهل اللغة، وأهل التفسير، ورجال الدين، وكل المهتمين، بأن لغة القرآن لغة له خواص مختلفة، وليست مثل لغة أهل الجزيرة بحذافيرها. لغة علمية تتبع منهجاً علمياً، وليست عشوائية. سوف نحاول بذل قصارى جهدنا في فهم لفظ (مدكر) من خلال جذور الكلمات، ومن خلال سياق القرآن، ومن خلال مقابلة اللفظ مع لفظ (الذكر) الذي جاء معه في نفس الآية.

كما ذكرنا أن لفظ (الذكر) يعني الشيء المحفوظ، وهو بالتابعة الحقائق التي لا تتغير، و الجذر الثنائي (ذك) يعني حدة ونفاذاً. لفظ (ذكر) نفسه يحمل خاصية الحدة والنفاذ، أو ما يمكن أن نسميه بالعمق، وهو خاصية مميزة للحقائق. الجذر الثنائي لكلمة (ذكر) هو (دك)، وهو يعني التسوية والتسطيح، وهذا يعني أن التسوية والتسطيح هو أحد خواص وصفات كلمة (ذكر).

من خلال لفظ (ذكر) ومعناه الحقائق، التي لها عمق وحدة؛ أي صرامة، على نحو لا تتغير؛ فإن لفظ (ذكر) لا يتمتع بهذا العمق، ولكنه أيضاً يحمل قوة وثباتاً، مثال ذلك قولنا: دك

الشيء. فالذكر جزء من الذكر أو وجه من أوجهه. والذكر يتميز بالقوة والثبات، ولكن ليس بعمق الذكر نفسه.

يمكننا الآن ترجمة هذه الآية العظيمة واستخراج هذه المعرفة التي لا مثيل لها. الله سبحانه وتعالى يسر القرآن لحمل الحقائق، بكل ما فيها من عمق وصرامة، فهل للإنسان أن يدكر؟ أي يحاول كشفها أو حتى كشف أحد وجوهها. لأن الوصول للحقيقة من أصعب ما يكون، بل النفاذ للحقيقة المطلقة يقارب المستحيل، لذلك يشير القرآن إلى لفظ (مدكر)، وهو اللفظ المناسب للإنسان؛ لأن الإنسان في الغالب لا يرى الحقيقة بكاملها، بل يرى منها جانباً واحداً، أو وجهاً واحداً بحسب تصوره الذهني عنها. حتى وإن استطاع الإنسان الغوص بكل ما أوتي من قوة لفهم الحقيقة سيظل هناك جانب لم يصل إليه بعد؛ ولذلك جاء اللفظ القرآني مستخدماً لفظ (دكر بالدال) ليدل على قدرة الإنسان وطبيعته، ولم يستخدم لفظ (ذكر)؛ لأن قدرة الإنسان على النفاذ للحقيقة بكامل علاقاتها تكاد تكون مستحيلة.

يجب ألا نغفل أن لفظ (الذكر) و(المدكر) هنا خاصين بالقرآن، والحقائق التي يحويها القرآن، وهذا موافق تماماً للآية الكريمة، التي أرشد فيها ربنا أنه لا يعلم تأويل هذا الكتاب إلا الله:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (سورة آل عمران: آية 7).

لفظ (دكر بالدال) جاء كذلك في سورة يوسف، ليوضح لنا الفرق بين الذكر والذكر: (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) (سورة يوسف: آية 42). الذي نجا كان صاحب رسول الله يوسف

في السجن، وقال له يوسف اذكرني عند ربك. أن يذكر هذا الصاحب يوسف؛ أي أن ينقل موقف يوسف للملك؛ لأن الذكر هو استحضار المذكور بشكل صحيح وسليم. لكن ما حدث أن الصاحب لم يذكر يوسف، ولكن عندما حدثت الرؤيا اذكر؛ أي استدعى وجهة نظره عن يوسف، وقال مقولته: أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون:

(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) (سورة يوسف: آية 45).

لو أن هذا الصاحب تذكر لكان نقل للملك قول يوسف، وذكره عنده، لكنه لم يفعل، وبدلاً من ذلك اذكر؛ أي أن لديه صورة ذهنية عن يوسف، وعن رغبة يوسف في أن يذكره عند ربه. ربما هذا الصاحب لم يتذكر الموقف تماماً؛ ولكن لا شك أنه تذكر يوسف وتذكر قدرته على تأويل الأحلام.

من هنا نجد أن لفظ (يذكر) هو استدعاء الحقيقة، بينما لفظ (يدكر) هو قدرة الإنسان على الوصول إلى الحقيقة، أو الصورة الذهنية للإنسان عن الحقيقة، والتي غالباً ما تختلف باختلاف معارف هذا الإنسان. ما أنزله الله هو الذكر؛ أي الحقائق المطلقة، والذي نحاول نحن ونسعى إليه وما ندعي امتلاكه هو الدكر، وليس الذكر بمفهومه القرآني. التعبير القرآني (مدكر) جاء خصيصاً مع القرآن، حتى لا يدعي أحد امتلاك الحقيقة؛ لأن للقرآن طبيعة خاصة، كما بينا في أكثر من موضع.

إذن لفظ (الذكر) هو الحقيقة التي لا تتغير، فما هو مدلول (ذكر) على وزن فعل؟ ذكر تعني استدعى الشيء أو استحضره، فعندما نقول فلان ذكر ربه يعني استحضره أمامه، وفلان ذكر يوم كذا يعني استحضره هذا اليوم من الذاكرة أو استدعاه. من هنا يصبح ذكر الله هو استحضار الله، واستحضار الله يكون في القلب. عندما نقرأ في كتاب الله (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) (سورة الغاشية: آية 21). نجد أنها تعني حث الناس على استحضار الحقيقة؛ لأن مهمة المذكر أو النذير هي تذكيرهم بالله.

يذكر الناس بالله؛ أي يحثهم على استحضار الله في قلوبهم، في أثناء أفعالهم وأقوالهم. يذكر الناس بالقرآن؛ أي يحثهم على طلب قراءته وتدبره، واستخراج معانيه. يذكر الناس بالقيامه؛ أي يحثهم على استحضار هذا اليوم وموقفهم فيه. المعنى الشامل لذكر الله هو استحضار الله، أما ترديد عبارات معينة فهي حالة خاصة جداً، ولو انفصلت عن القلب لا يصح أن تسمى ذكراً؛ بل تسمى قولاً أو ترديداً أو تمتمة. الذكر هو الحقيقة، وذكر الحقيقة استحضارها واستدعائها، وليس فقط مجرد ترديدها. عندما يريد المهندس تصميم شيء ما فهو يستدعي بعض القوانين لكي يطبقها في عمله الذي يقوم به، ولو أن المهندس أخذ يردد القوانين، فلا شك أن عمله يصبح دون فائدة، بل ضرباً من الجنون. الذي صنع الطائرة ذكر قانون الجاذبية وقوانين الديناميكا، ولو أنه جعل يردد أن السرعة تظل ثابتة عندما لا تؤثر على الجسم قوة محصلة (قانون نيوتن الأول) دون تطبيقه؛ فهو لا شك لن يصنع شيئاً.

مفهوم الذكر في القرآن يفسر نفسه، من خلال الآية الكريمة التي مدح الله فيها من يذكر في سورة آل عمران.

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (سورة آل عمران: آية 191).

الذكر هنا استحضار الله، وبما أن الحركات المذكورة في الآية هي جميع الحركات التي يقوم بها الإنسان في حياته؛ لذلك أفضل الناس أولئك الذين يستحضرون الله في كل أفعالهم وفي كل حركاتهم. الموظف الذي يقوم على خدمة الناس، إذا استحضر الله سوف يؤدي عمله بأكل صورة، الطالب الذي يدرس إن استحضر الله سوف يدرس بمنتهى الجهد، الباحث إذا ذكر الله أثناء بحثه فلن يتوانى لحظة عن عمل ما يجب عمله.

الذكر بمفهومه العظيم؛ وهو استحضار المذكور، سوف يصنع حالة مراقبة مستمرة، ولا شك أن مردودها سوف يكون أعظم أثراً من أكثر أجهزة المراقبة كفاءة.

كُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ

من الآيات التي فهمت بطريقة مغايرة لمعناها، الآية التي جاء فيها (ذكر اسم الله)،
والخاصة بالأكل في سورة الأنعام:

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) (سورة الأنعام: آية 118).

ذكر اسم الله عليه؛ أي استحضار الله وقت تجهيز ما يؤكل. عندما تفاعلت المجتمعات
القديمة مع هذه الآية كان من المنطق أن تدخل الذبائح التي تدبج لغير الله ضمن هذه الآية؛
لأنها ذبائح من تأثيرات الوثنية، وتدعم الشرك بالله.

أما اليوم، فإن مفهوم الذكر ومدلول (ذكر الله) يأخذنا لآفاق أبعد بكثير من مجرد ذبائح
لغير الله، أو مجرد ترديد قول باسم الله عند كل ما يؤكل. رغم أن لفظ الأكل هو لفظ أشمل
وأعم من لفظ الطعام إذا أن لفظ الأكل يشمل كل ما يستخدمه الإنسان بغرض الاستهلاك،
إلا أننا هنا سوف نلقي الضوء على وجه واحد من أوجه هذا الأكل وهو الطعام. يمكن تعميم
الآية بعد ذلك على كل ما يؤكل، أي ما يستخدمه الإنسان لغرض الاستهلاك مثل الملابس
والمال بغرض سد الحاجة.

كل طعام ليس فيه إتقان أو شبهة تقصير في أمر ما، فهو طعام يدخل ضمن الطعام
الذي لم يذكر اسم الله عليه؛ لأن تجهيزه لم يراعي الله ولم يستحضره. لكن كيف للإنسان أن
يتتبع الطعام الذي لم يذكر اسم الله عليه، ومن ثم يتجنبه، وهي عملية صعبة للغاية، بل ومستحيلة؟

التوجيه في هذه الآية توجيه مجتمعي، وليس توجيهاً بشكل فردي؛ بسبب فعل (كلوا)
الذي يخاطب الجمع. هذا معناه أن على المجتمع تأمين طعام يذكر اسم الله عليه، وبمعنى آخر؛
طعام معد على درجة كبيرة من الإتقان، وسليم من العيوب، وذو جودة وسلامة مضمونة.

اللجان التي تشرف وتفترض، سواء من وزارات الصحة، أو أي هيئة رقابية، لتؤكد من أن الأغذية مطابقة للمواصفات هي في الحقيقة تطبق بشكل عملي الآية الكريمة، بحيث تتأكد من صلاحية المأكولات، وأنه لم يشبها أي تقصير يسبب تلفها أو عدم سلامتها.

لقد كانت هذه الآية مطبقة بشكل كبير في العصور الأولى في الأمة الإسلامية، في شكل وظيفة المحتسب، الذي كان يتأكد من صلاحية الأشياء وسلامتها. التأكيد من ذكر اسم الله على الطعام، أو ما نسميه نحن حالياً مراقبة الجودة؛ هو ضرورة ملحة في أي مجتمع سليم. المجتمع المؤمن بكتاب الله يتعامل مع الأمر على أنه أمر إلهي؛ لذلك من المفترض أن يكون هناك حرص شديد عند تطبيقه.

الفرد المؤمن الذي يعد الطعام عندما يقرأ هذه الآية، ويفهم معناها، لا يمكن أن يتجاسر على غش الطعام، أو استعمال مواد منتهية الصلاحية، أو حتى مكونات رديئة؛ لأنه يعلم أنها مخالفة صريحة لأمر من أوامر الله. كذلك المراقب الذي يراقب ويفترض على الطعام وأماكن إعداده وتجهيزه لا يمكن أن يتساهل؛ لأنه سوف يكون واقعاً تحت مراقبة ذاتية صادرة من ضميره، الذي قرأ ووعى هذه الآية الكريمة، بالإضافة إلى قوانين المجتمع التي تجرم ذلك.

التعامل مع هذه الآية على أنها دليل دامغ على عدم جواز أكل الذبيحة التي لم يقل ذابحها عبارة (باسم الله)؛ هو تسطيح للأمر بشكل كبير، بل وإهدار إرشاد قرآني عظيم في ضبط وإدارة المجتمع، وخصوصاً فيما يخص الأغذية.

لو أن الإنسان الذي يباشر عملية الذبح قرأ على ذبيحته القرآن كله، وهو يعلم أن ذبيحته مريضة؛ فهو ممن لم يذكر اسم الله، ولا يجوز أكل ما ذبح. كذلك لو فعل الإنسان أي فعل من شأنه أن يتسبب في ضرر المستهلك هو في الحقيقة لم يذكر اسم الله على هذا الشيء ولا يجوز أكله.

إنها آية تؤسس للرقابة على المأكولات والتأكد من أنها لا تؤذي أحداً، ومراقبة الله أثناء تجهيز هذه المأكولات. التوجيه الرباني توجيه عام، وعلى المجتمع أن يتعامل ويتفاعل مع

هذا الإرشاد الإلهي، سواء بتأسيس الهيئات الرقابية، أو بإصدار القوانين الصارمة التي تضمن جودة كل ما يؤكل.

لا يمكن أن يكون الذكر هنا مجرد قول؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر لفظ (القول) عندما أشار إلى صيغة الحمد في أكثر من آية.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ

الذَّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا) (سورة الإسراء: آية 111).

القول جاء صريحاً هنا، وبالطبع يختلف عن الذكر، ولا يقول بتساوي اللفظين إلا ضحل المعرفة. كذلك الآيات التالية لهذه الآية الكريمة تشير إلى أن الذكر هو حالة استحضار اسم الله، أو صفات الله، ومن صفاته كما نعلم الخبير العليم القدير، وكل هذه الصفات أو المسميات تمتع الإنسان من الإضرار بغيره، إن كان يعقل ويعي هذه الأسماء الحسنى لله.

(وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ

إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظَاهِرَ

الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ

يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ

إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ((121)) (سورة الأنعام: آيات 119-121).

الذكر كما نرى هو استحضار ما حرم الله، بحيث لا يقع الإنسان في المحرم، مثل:

المنخقة، والمتردية، أو حتى المريضة، كما تم شرحها في آية ما ذبح على النصب.

الآية 120 كذلك في سورة الأنعام تشير إلى وجوب ترك الإثم ظاهره وباطنه، وما

زلنا نتحدث عن عدم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه. الآيات توضح حالة عامة من التحري قدر

المستطاع، في أن يكون الطعام سليماً خالياً من كل ما يضر، وخالياً من كل المحرمات.

الآية 121 تؤكد على حقيقة الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وما عدا ذلك فسق. إذن الأمر ليس أمراً عادياً؛ بل هو أمر عظيم، احتاج لكل هذا التأكيد، من خلال ذكره في أكثر من آية، وتوضيح أكثر من حالة، ليس من بينها مجرد القول أو التلفظ؛ بل هي تحري الطيب من الطعام، والذي يراعى فيه أوامر الله؛ من أن يكون سليماً معافى لا يشوبه شائب يفسده.

مدلول الذكر في كتاب الله

سوف نلقي نظرة سريعة على بعض الآيات التي ورد فيها لفظ الذكر؛ محاولين فهمها في ضوء ما مدلول الذكر القرآني:

الآية الأولى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (سورة الحجر: آية 9).

كما ذكرنا آنفاً أن الذكر هو الشيء المحفوظ الذي لا يتغير، فكل شيء لا يتغير وثابت هو في حقيقته ذكر. قوانين الطبيعية الثابتة ذكر، الأقدار التي تسير كل شيء هي ذكر، كلمات الله هي ذكر؛ لأنها حقيقية لا تتغير. المقصود بالذكر هنا في هذه الآية الكريمة هو الكتاب الذي أنزله الله؛ كلماته ومنطوقه وتعبيراته وأحداثه، وجميع المعارف المختزنة داخله.

الآيات الخارقة للعادة ذكر، سواء على مستوى الحدوث؛ أي أنها حدثت بالفعل، وعلى مستوى إمكانية حدوثها. هذه الآية تنفي نفياً قاطعاً أن يكون التنزيل فيه نسخ، وتنفي وجود أي آيات معطلة فيه اليوم، بل هو حقائق ثابتة لا تتغير، وقوانين عامة، من أهم خصائصها أنها محفوظة، ومن يحفظها من التغيير هو الله، كما جاء في الآية. التعبير القرآني (إنا له لحافظون).

هذا التعبير القرآني ينفي أن يكون الذكر هو الأشياء المحفوظة بذاتها؛ ولكنها محفوظة من قبل خالقها، كما نصت الآية. اقتصار الذكر على شيء واحد، مثل: ألفاظ القرآن، أو المنطوق الصوتي للقرآن فقط؛ ليس عندي هو القول الصائب، ولكن جميع التراكيب والمعارف التي يحويها القرآن هي الذكر؛ أي أنها حقائق محفوظة لا تتغير. لذلك عندما أشرنا للنظريات العلمية في سلسلة كتب تلك الأسباب، والتي لم تكتشف بشكل كامل؛ إنما كانت إشارة لتلك الحقيقة

الراسخة، وهي أن التعبير القرآني، والكلمة القرآنية، والحرف القرآني، والسياق القرآني، يعبر عن الذكر؛ أي هو حقائق تامة وكاملة لا تتغير.

بناء على هذا المفهوم، لا يمكن الادعاء بأن سنة النبي صلوات ربي عليه، هي الذكر المقصود في القرآن؛ لأن الذكر لا يقدر عليه سوى الله، ولا يمكن لبشر التعبير عنه بشكل تام. لذلك القرآن كله ذكر؛ لأن التعبير عن أحداثه وحقائقه جاء من قبل الله، ولا دخل للبشر فيه. النبي كما بينا في الفصول السابقة يتفاعل مع النص القرآني، فلا يمكن أن يكون تفاعله ذكراً؛ ولكن يمكن أن يسمى ذكراً بحرف الدال. الذين ذهبوا إلى القول بأن المقصود بالذكر هو سنة النبي صلوات ربي عليه، لم يقفوا على مفهوم الذكر في القرآن، ولو ردوا هذا اللفظ إلى كتاب الله وتبعوه، ما قالوا مثل ما قالوا.

الآية الثانية: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (سورة النحل: آية 43).

أهل الذكر هنا هم الذين يسعون لكشف الحقائق أو المتعاملون مع الحقائق الثابتة. (أهل الذكر) هم المؤهلين للتعامل مع الذكر كما في التعبير المعاصر. فكل مجال هناك المؤهلون الذين يستطيعون بحث حقائقه، واستنباط المعلومات منه.

الآية الثالثة: (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة النحل: آية 44).

هنا أيضاً المقصود بالذكر هو مجمل كل ما جاء في القرآن، من ألفاظ ومعانٍ وتعبيرات وأحداث، إشارة إلى أن ما أنزله الله هو حقائق ثابتة لا تتغير.

الآية الرابعة: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (سورة الأنبياء: آية 2).

في تفسير هذه الآية يقول المفسرون أن معناها: ما ينزل من القرآن شيء إلا استمع الكفار هذا التنزيل وهم يلعبون.

لقد كانت هذه الآية الكريمة إحدى الآيات التي اعتمد عليها القائلون بخلق القرآن، وأن القرآن ليس أزلياً؛ وإنما هو مخلوق، وقد بينا في فصل سابق ما وراء هذه الفلسفة، وكيف أنها كانت صراعاً بين التجديد والفكر الأصولي. وها هي هذه الآية الكريمة تضيف لنا معلومات جديدة، عن مفهوم الذكر ومفهوم القرآن.

هذه الآية تقول تحديداً: (ما يأتيهم)، ولم تقل: ما ينزل عليهم، وقالت: (من ذكر)، ولم تقل: من قرآن. ومن خلال فهم معنى الذكر نستطيع فهم المقصود. كما قلنا أن (الذكر) هو الحقائق المحفوظة التي لا تتغير، وهي في كتاب الله تشمل كل شيء، بما فيه من قوانين ومعاني خفية تتكشف يوماً بعد يوم بزيادة المعارف.

هذه الآية الكريمة تخص الذين إذا تكشفت أمامهم حقيقة من حقائق القرآن على مر العصور، لا ينتبهون إليها، ولا يستمعون لها إلا وهم يلعبون. هذه الآية عاملة إلى يوم الدين، فإذا كان رسول الله يأتي الناس بالذكر، فكانوا لا يستمعون إليه إلا وهم يلعبون، فكذلك كثير من المكذبين أو حتى الأصوليين؛ إذا ما أتاهم ذكر لا يستمعون إلا وهم يلعبون. يبدو من الآية أن الذين ظلموا لا ينتبهون لهذا الذكر؛ بسبب اعتقادهم بعدم أهميته، ولولا وجود تحيز معرفي لديهم ما غفلوا عن هذا الذكر.

الشيء الذي يدفع الإنسان لعدم الاهتمام بما يقال؛ هو إما ظنه بالاكتماء المعرفي، أو ظنه بامتلاك الحقيقة، وكلاهما مدمر للنظام المعرفي للإنسان. لفظ (محدث) في الآية الكريمة إن كان يدل على أن الذكر متجدد باستمرار، فهذا متوافق تماماً مع الحالة العامة التي يصفها القرآن؛ وهي التكشف مع التدبر والتعقل والتفكير. الذكر موجود بالفعل داخل الآيات، وخلال الكلمات، وإنما يأتيهم من خلال تدبر المتدبرين، وهم عن ذلك معرضون.

تجدد القرآن وفيضه المعرفي اليوم لا يمكن أن ينكره صاحب عقل، وعلى ذلك يكون لفظ (محدث) هنا خاصاً بالذكر، أو الحقائق المختزنة في باطن اللفظ القرآني، وهو ما سوف نؤكد عليه من خلال فهم (السبع المثاني). هذا المعنى متوافق تماماً مع قول الله سبحانه وتعالى (علم

القرآن) في سورة الرحمن، والتي تصف كما بينا الحالة العامة للقرآن، وكيف أنه معد بشكل يتلاءم مع وظيفته؛ وهي التكامل مع الإنسان، لاكتشاف الكون، والبوح بأسراره.

مدلول لفظ فكر

يتبقى لنا لفظ نختم به هذا الفصل، وهو لفظ (فكر)، و الفرق بينه وبين (الذكر)؟

(فكر) كما في لسان العرب: هو إعمال الخاطر في شيء. وفي مقاييس اللغة: هو تردد

القلب في شيء. لقد طلب الله من الإنسان التفكير، وهو مطابق تماماً للمعنى الوارد في لسان العرب ومعاجم اللغة، إذ هو النظر والتأمل وإعمال الخاطر.

إذاً (الذكر) هو الحقائق التي لا تتغير، و(يذكر) تعني يستحضر المذكور. (الفكر) بناء

على جذر الكلمة، هو عمل إنساني يتعلق بفلسفة الإنسان حول شيء ما. على ذلك الإنسان الذي يفكر هو إنسان يقوم بعمليات تحليل للمعطيات التي بين يديه، للوصول لوجهة نظر معينة.

لا يشترط أن يكون الفكر (ذكراً)؛ وإنما هو وجهة نظر الإنسان، بغض النظر عن كون

وجهة النظر هذه حقيقية، أو تشوبها الشوائب.

من هنا يمكننا القول أن (الذكر) هو الحقائق المطلقة أو الثابتة، وأن الإنسان مطالب

بـ (الفكر) وهو التأمل والنظر وإعمال العقل للوصول للحقائق، وفي حالة وصول الإنسان إلى حقيقة قد تبدو ثابتة بالنسبة له؛ فليعلم أنها (ذكر بالدال) وليست ذكراً خالصاً؛ فلربما هناك وجه آخر لم يطلع عليه.

يمكننا تلخيص المفاهيم الثلاثة (الذكر والذكر بحرف الدال والفكر) فيما يتعلق بالقرآن

كما يلي: الذكر: هو الحقائق الثابتة التي لا تتغير. الذكر: هو ما يتوصل إليه الإنسان بالفعل ويحمل

جزء من الحقيقة، أو هو التصور الذهني للإنسان عن الحقيقة أو أحد وجوهها.

الفكر: هو محاولات الإنسان في طريقه للوصول إلى الذكر أو حقائق الأمور.

لكي يكتمل مفهوم الذكر، سوف نحاول فهم التعبير القرآني الخاص بـ(السبع المثاني)،

وعلاقة هذا المفهوم بالقرآن وبالذكر.

الفصل الخامس السبع المثاني

مفهوم السبع المثاني مفهوم محير للغاية، وقد قيل فيه الكثير والكثير، ولكي نستطيع تحليل هذا التعبير القرآني العجيب، لا بد أن نعرف ما هو الكتاب؟ وما هي الآيات المحكمات، والآيات المتشابهات؟

جميع آيات المصحف هي في الحقيقة آيات قرآن للقارئ، وهي كذلك آيات كتاب للمؤمن، وآيات ذكر بما تحويه من حقائق ثابتة لا تتغير.

جاء لفظ (كتاب) أكثر ما جاء مقروناً مع لفظ الإيمان؛ لأنه يحتاج إلى تصديق واتباع. كذلك نجد العناد والتكذيب مصاحباً لأهل الكتاب؛ لأن إيمانهم بالكتاب أعطاهم ثقة وشجاعة لمجاهة الأفكار الجديدة.

الآيات التي ورد فيها ذكر (الكتاب) كثيرة جداً، وكلها تصب في أن (الكتاب) لفظ عام يقتضي الإيمان، بخلاف (القرآن) الذي يشير إلى العمق المعرفي للآيات، والذي يتطلب البحث والتحليل. سوف أتوقف في السطور التالية مع آية واحدة من آيات ربنا؛ لنستخلص منها بعض المعرفة، وتصلح أن تكون مدخلاً لفهم السبع المثاني، والمتعلقة أيضاً بفهم معاني القرآن.

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (سورة آل عمران: آية 7).

الآية الكريمة تقرر بالفعل أن جميع الآيات هي آيات كتاب، وهذه الآيات تنقسم إلى آيات محكمات، وآيات متشابهات. فما هي المحكمات؟ وما هي المتشابهات؟

المحكيات والمتشابهات

لعل القول المشهور والذي عليه الغالبية، هو أن المحكم هو البين الواضح الذي لا يحتمل وجهاً آخر، بينما المتشابه هو الذي يشته أمره على بعض الناس، يعلمه العلماء ولا يعلمه العامة، ومنه أيضاً ما لا يعلمه إلا الله.

هل هذا التعريف سليم، أم أنه تعريف جاء على عجل، ولم يراعي ترتيل اللفظ القرآني؟ في البداية دعونا نتعرف على معنى المحكم، ثم ننتقل بعد ذلك إلى فهم المقصود بالمتشابه؛ لنكتشف أن معنى المحكم والمتشابه كما جاء في كتاب الله، ليس بعيداً عن المعنى المتداول فقط؛ بل على النقيض منه تماماً، وليراجع أهل "الاختصاص" ما هو مكتوب بشكل علمي ومنهجي.

أولاً: معنى محكم مادة (حكم) كما جاءت في قاموس اللغة، مأخوذة من حكمت الدابة، وأحكمت، بمعنى منعت. كذلك الحكم هو الفصل بين شيئين. لدينا هنا ملاحظة على مدلول جذر (حكم)، والذي جاء في قاموس اللغة مأخوذاً من حكمت الدابة، وهو لا شك عندي أنه مدلول صحيح من وجه واحد؛ وهو الانغلاق أو المنع، ولكنه لم يصب ولم يصل إلى عمق جذر لفظ (حكم) كما ينبغي. هذا المدلول يبدو لي أنه متأثر بشكل كبير بالبيئة العربية البسيطة، وهو معنى فرعي، وغاب عن اللفظ المعنى الأساسي، والذي يمكننا بسهولة ويسر إدراكه من خلال كتاب الله.

لو نظرنا إلى لفظ (حكم) ومشتقاته في كتاب الله، سوف ندرك من اللحظة الأولى أن اللفظ يصف حالة من العمق المعرفي، وهي الحكمة. جاء في لسان العرب لابن منظور أن (حكم) أي صار حكيماً. عندما نقول (عبارة محكمة)؛ أي عبارة تنطوي أو تشتمل على قدر كبير من المعلومات أو المعرفة. يقال للرجل (حكيم) إن استطاع التعبير عن فكرة بشكل موجز وسليم، على نحو يشكل كل لفظ حالة معرفية بحد ذاته.

بشكل عام وصف الله سبحانه وتعالى آيات الكتاب جميعها بأنها محكمات، أو أن الآيات من لدن حكيم.

(الرِّكَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (سورة هود: آية 1).

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) (سورة يونس: 2).

ثانياً: معنى التشابه

لفظ (الشبه) في اللغة يعني المثل. وشيء يشبه شيئاً؛ أي لهما شكلان ظاهرياً متقاربان أو حتى متطابقان. إذن التشابه هو حالة خاصة بالشكل الظاهري، وليس بالجوهر. وبما أننا نتحدث عن آيات محكمات؛ أي المليئة بالحكمة؛ فتكون الآيات المتشابهات هي الآيات التي لها معنى ظاهر يمكن فهمه بسهولة. يتضح لفظ (التشابه) أو (المتشابه) من خلال الآية الكريمة التالية:

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) (سورة النساء: آية 157).

الشبه هنا هو الشكل الظاهري، ومن السهل على الإنسان التفريق بين الأشياء عن طريق الشكل الظاهري، بل هو وسيلة التفريق الأولى السهلة، والتي يلجأ إليها الإنسان إذا طلب منه وصف شيء، أو مقارنة شيء بشيء. أيضاً الآية التالية تؤيد معنى التشابه بأنه المظهر الخارجي، والذي يسهل على الإنسان مقارنته بشيء آخر:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) (سورة البقرة: آية 70).

تشابه البقر يعني أن هناك أشكالاً ظاهرية لهذه الأبقار، عند مقارنة بعضها ببعض لم تظهر فروق قوية. من هنا نستطيع القول: إن المتشابه هو ما له شبيه لديهم، ويمكن مقارنته بسهولة؛ لأنه يشبه ظاهرياً معرفة ما لديهم.

ملاحظة: كيف نوفق بين الآية التي تقول أن الكتاب منه آيات محكمات ومنه آيات متشابهات، والآية التي تقول أن الكتاب كله محكم؟

المبدأ العام هو أن كل آيات الكتاب محكمات؛ أي تحتوي على الحكمة، أو أن لها عمقاً معرفياً يحتاج لقدر من العلم لفهمها. هذا لا يعني أن تكون بعض الآيات لها معرفة ظاهرية، وهذه هي الآيات المتشابهة. كون الآيات ممكنة الفهم بشكل ظاهري، هذا لا يعني كونها تحتوي على الحكمة، أو أنها محكمة.

من هنا نستطيع أن ندرك حجم المأساة التي أمت بهذه الأمة، جراء الذين يفسرون القرآن اعتماداً على المتشابه، أو الشكل الظاهري، دون عمق معرفي. دون أدنى مبالغة، لقد تم تفسير أغلب آيات الكتاب منذ العصر الأول اعتماداً على الشكل الظاهري دون أي عمق معرفي، مستنداً إلى قصص وروايات أهل الكتاب.

أستطيع أن أعطيك مئات الأمثلة على كلمات وتعبيرات قرآنية تصف ظواهر كونية، ونظريات معرفية لم يجد لها المفسر القديم تفسيراً، سوى الرياح أو الجبال أو الخيل أو الملائكة. كل ما كان يفعله إنسان هذا العصر، في ظل غياب أي منهجية علمية لفهم اللفظ القرآني، هو تقريب المدلول لأقرب ظاهرة لديه، أو لحادثة يعرفها دون أي دليل، سوى تصوره الذهني. هذه الطريقة قلبت آيات الله من آيات محكمات، إلى آيات متشابهات، وأفرغت المحتوى المعرفي للقرآن العظيم.

الفرق بين المحكم والمتشابه هو مثال في غاية الخطورة؛ لأنه ببساطة شديدة يوضح كيف تم التعامل مع اللفظ القرآني، وكيف تم تفسيره من خلال المدلول، بينما الغوص في المعنى أعطى نتائج على النقيض تماماً.

إنه مثال من مئات الأمثلة التي جاءت في سلسلة كُتاب تلك الأسباب، والكفيلة بعمل مراجعات كاملة، إن كنا في بيئة لديها الحد الأدنى من المنهجية العلمية، ولا تتعامل مع الأفكار بشكل عدائي. رغم تفجر المعرفة من ثنايا آيات الكتاب عند تطبيق منهج علمي عليها، إلا أن إقناع أجيال تربت على معرفة معينة هو أمر في غاية الصعوبة؛ بسبب ثقل الميراث التلقيني.

من هنا يمكننا أن نقول أن الفهم السابق للمحكم والمتشابه لم يأخذ بعين الاعتبار البعد اللغوي للفظ (الحكمة)، وجذرهما (حكم)؛ لذلك قالوا أن المحكم هو الواضح الذي يمكن فهمه بسهولة، أما المتشابه فهو الذي يحتاج إلى علم ودراية معينة.

من الأشياء البديهية إذا أرجعنا لفظ (حكم) إلى حكم وحكيم وحكمة، وهي صفات وصفت آيات الذكر الحكيم، فلا يمكننا القول أن (آيات محكمات) تعني آيات واضحة؛ بل الأصح عندي أنها آيات تحوي الحكمة، ومعرفة تحتاج لقدرة كبير من المعرفة والدراية.

لقد حذر ربنا من اتباع المتشابه من الآيات، رغبة في تأويله؛ لأن الكتاب وآياته كلها محكمة، فلا يصح ولا يستقيم التعامل مع آيات الكتاب بشكل ظاهري، بل لابد لها من عمق معرفي كبير لفهم دلالاتها.

لعل عدم التفريق بشكل علمي بين المحكم والمتشابه، سبب خلطاً كبيراً لا مثيل له في فهم آيات الكتاب، وجعل كثيراً من مدعي العلم والمعرفة يتحدثون عن أشياء لا يعلمون عنها شيئاً، سوى معرفة سطحية، ويعتقدون أنهم يملكون الحق في قول ما يرغبون في قوله، دون أي فرصة للتراجع والاعتراف بالخطأ.

لو أردنا أن نبين تلك المفاهيم التي فهمت بشكل ظاهري، وسببت كوارث في ثقافة هذه الأمة، ولم يراعى فيها العمق المعرفي، ولم يصل أحد إلى مكوناتها من الحكمة، وشكلت جزءاً أصيلاً من نظامنا المعرفي، لاحتجنا إلى مجلدات لبيان هذه الفروقات، ومدى تأثيرها.

بمجرد أن استطعنا التفريق بين المحكم والمتشابه، وجدنا أنفسنا أمام معنى من أشهر المعاني التي اختلف حولها الناس، وهي السبع المثاني. السبع المثاني التي ظلت لغزاً، وقال فيها أغلب العلماء أقوالاً كثيرة ومتشعبة، ولكن للأسف الشديد لم يحدث ربط بينها وبين القرآن، وبين المتشابه، ولو حدث لبان معناها ووضحت بشكل كبير.

السبع المثاني

أهم الأقوال التي خاضت غمار (السبع المثاني) تحورت حول كون السبع المثاني هي سورة الفاتحة؛ لأنها تقرأ في كل صلاة، أو أن السبع المثاني هي السور التي تلي السور ذات المائة آية، وبعد السبع الطوال.

السبع الطوال هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة فيها خلاف، فقيل: إنها براءة، وقيل يونس. وقيل غير ذلك. وأما المئون أي السور التي تزيد على مائة آية أو تقاربها، وهي السور التي تلي السبع الطوال، أما المثاني فهي السور التي تلي المئين، سميت بذلك لأنها ثنتها، أي كانت بعدها، فهي ثوان بالنسبة للمئين، والمئون أوائل بالنسبة إليها.

بعض الأقوال ذكرت أن السبع الطوال ذاتها هي السبع المثاني. بعض من المعاصرين ذكر أن السبع المثاني هي الأشياء الثنائية في القرآن، مثل الأرض والسماء، والجنة والنار، وهكذا، وقد تطلق المثاني على القرآن عند بعض الشراح.

من الواضح أن الاختلاف على أشده في بيان مفهوم (السبع المثاني)، وهذا الاختلاف إن دل فإنه يدل على عدم وجود تفسير معين، وإنما هي محض اجتهادات مرتبطة بقدره المفسر المعرفية. بداية دعونا نتعرف على تعبير (سبع أو سبعة) كما جاءت في القرآن.

سر الرقم سبعة

لغويا لفظ (سبع) هو عدد، وهو كذلك حيوان من الوحوش وهو السبع. حسب المنهج الذي نستخدمه، والذي يقوم على أن الكلمة أو اللفظ يمثل حالة لها خصائص وصفات،

فلا يمكننا فهم صفات لفظ (سبع) إلا من خلال نسبته إلى شيء في القرآن له صفات وخصائص، وهو بالطبع السبع الذي ذكره الله تعالى في سورة المائدة:

(حَرَمْتُ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسِقُ الْيَوْمِ يَكْفُرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة المائدة: آية 3).

(السبع) المذكور في الآية الكريمة هو من آكلات اللحوم، وسوف نحاول إيجاد علاقة بين لفظ (السبع) وهو الوحش والرقم سبعة.

قد يكون سمي الوحش سبعا؛ لأنه مر في تكوينه التطوري بسبع مراحل، أو غير ذلك. من المعروف أن آكلات اللحوم (السباع) تتربع على قمة الهرم التطوري بالنسبة إلى باقي المخلوقات، والتي تبدأ بالكائنات وحيدة الخلية، وتنتهي بالسباع.

الإنسان يختلف عن هذه الدورة؛ لأنه دخل في دورة جديدة من الوعي والإدراك، أو بمعنى أفلت من هذه الدورة، عندما امتلك القدرة على إنتاج الأفكار. خروج الإنسان من هذه الدورة جعله مسؤولاً عنها، وهذا هو عين العبادة، والذي تناولناه في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب (الطور). سمي السبع سبعا؛ لأنه نهاية دورة تمت على ما يبدو من سبع مراحل أساسية، تربع هو على رأس قائمتها.

ربما هذا التحليل لا يعجب الباحثين في النظام الحيوي، والدارسين المتخصصين في تقسيم الكائنات الحية. كل ما يمكن أن نقوله هنا أننا نحلل اللفظ، ونشير إلى خصائصه، والذي نعتقد أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكون، والحالات الفيزيائية في الكون. فبدلاً من الاعتراض فإننا نطلب من الباحثين إعادة النظر مرة أخرى في الدورات التطورية للسباع؛ لأن

لدينا دلائل أخرى قوية تشير إلى وجود نظام سباعي يحكم كثيراً من الأشياء. الرقم سبعة رقم عجيب؛ فقد وصف تركيب السموات، وهو كذلك أشار إلى كثير من الأشياء التي تبدو مركبة تركيباً طبقياً، وعدد طبقاتها سبع. مثل ذلك دورة فيضان النيل، والتي جاءت في الجزء الثالث من الكتاب، وكيف أن السنين السبع التي ذكرها نبي الله يوسف تشير إلى دورة فيضان النيل، وهي سبع سنوات.

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47))
 ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48)) (سورة يوسف: آيات 47-48).

وصف السموات في القرآن بالسموات السبع، جاء بصيغتين مختلفتين: فمرة قال ربنا عنها أنها سبع سموات، ومرة قال عنها السموات السبع، فما هو الفرق بين التعبيرين؟

جاء لفظ (السموات) مقروناً بلفظ سبع في سبعة مواضع من كتاب الله، نحسة منها جاءت بصيغة سبع سموات، واثنين بصيغة السموات السبع. لا يمكننا فهم الفرق بين التعبيرين إلا من خلال مقارنة الآيات بعضها البعض وفهم سياق الآيات.

(سبع سموات):

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: آية 29).

الآية الكريمة تقص علينا قصة خلق الأرض والسموات المرتبطة بهذه الأرض وكذلك باقي الآيات.

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (سورة فصلت: آية 12).

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (سورة الطلاق: الآية 12).

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (سور الملك: آية 3).

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا) (سورة نوح : آية 15).

جميع هذه الآيات الكريمة تتحدث عن السموات المحددة، والتي تقع نحن في نطاقها، وسبع سموات تعني سبع تركيبات طبقية محددة ومعينة؛ بينما التعبير القرآني الوارد بصيغة السموات السبع لا يعني نطاقاً محدداً كما سوف نرى من خلال الآيات.

(السموات السبع):

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (سورة الإسراء : آية 44).

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (سورة المؤمنون: آية 86).

السموات السبع هنا تعني النظام الطبقي أو النظام الدوري، الذي يتكون منه الكون وهو وصف أشمل وأعم من وصف السبع سموات كما هو واضح من ترتيل الآيات. الآية في سورة المؤمنون التي جمعت العرش والسموات السبع تدفعنا بقوة للاعتقاد بأن لفظ السموات السبع يشير إلى تركيبات طبقية عددها سبع يتكون منها الكون وليس مجرد السموات المرتبطة بالأرض التي نعيش عليها.

هذا معناه أننا نعيش في نظام سباعي، يتكون من سبع تركيبات طبقية، هو جزء من نظام سباعي أكبر، وقد يكون النظام السباعي الأكبر هو جزء من نظام سباعي أكبر وهكذا. تعبير (السموات السبع) تحديداً يشير إلى أكوان متوازية، بينما تعبير (سبع سموات) هو تعبير عن الكون الذي نعيش فيه.

ما نستطيع التأكيد عليه أن النظام الطبقي السباعي هو النظام السائد في جميع الأكوان، ويبدو كذلك أنه النظام المستقر.

نظرة سريعة إلى بنية الذرة يمكن أن تمنحنا معرفة أكثر عمقا للنظام السباعي.

من المعروف أن مستويات الطاقة في الذرات والتي تتحرك فيها الإلكترونات هي مستويات لا نهائية بشكل نظري، ولكن عملياً المستويات التي تستوعب كل الإلكترونات المعروفة هي سبعة مستويات فقط. ماذا يحدث إذا افترضنا وجود إلكترونات تحتاج لمستوى ثامن؟

وجود مستوى ثامن يعني أن الذرة غير مستقرة، فلا يمكن وجودها بشكل عملي؛ إذ إن اللحظة التي سوف تتكون فيها هي نفسها اللحظة التي سوف تنهار فيها. من هنا يمكننا القول إن النظام السباعي هو الدرجة القصوى التي يمكن أن يبلغها نظام مستقر. يجب الأخذ في الاعتبار أن الشيء الموصوف بالسبع هو شيء تراكمي وليس منفصلاً، أي أن الطبقة الثانية قائمة بالأساس على الطبقة الأولى، والطبقة الثالثة قائمة على ما سبقها، وهكذا حتى نصل إلى الطبقة السابعة.

رأينا ذلك في وصف السبع (الوحش)، إذ إنه رابض في قمة التطور، وقائم بالأساس على ما سبقه من خلال فهم التطور. كذلك البنية الذرية، وكذلك تركيب السموات أو الطبقات العليا، فهي جميعاً مركبة تركيباً طبقياً بحيث تعتمد كل طبقة على الطبقة التي تسبقها.

لذلك الوصف القرآني (سبع من المثاني) يشير إلى سبع تركيبات طبقية من المثاني، كل منها تعتمد على ما يسبقها، فما هي المثاني؟

المثاني (ثنى) في اللغة هو تكرر الشيء مرتين، وفي لسان العرب (ثنى الشيء) تعني ردّ الشيء بعضه على بعض. ومن خلال الآية الكريمة التالية سوف يتضح جزء من مفهوم المثاني:

(اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (سورة الزمر: آية 23).

التعبير القرآني (كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي) هو المدخل الرئيسي لفهم السبع المثاني. عندما استطعنا استنتاج مفهوم (متشابه)، ثم بينا أن (المحكم) هو المنطوي على الحكمة، أو المليء بالحكمة، و(المتشابه) هو ذو الفهم الظاهري.

لذلك فإن التعبير القرآني (كِتَابًا مُتَشَابِهًا) تعني أنه كتاب له فهم ظاهري. وبإضافة هذا التعبير إلى لفظ (المثاني) يعني أن هذا الكتاب ذاته متعدد الثنويات. الشيء المثني هو الشيء الذي يخفي داخله شيئاً آخر. وإذا أخذنا في الاعتبار أن المعنى هنا هو كتاب الله، والذي بعض آياته لها مدلول ظاهري، وفي الوقت نفسه لها طبيعة محكمة؛ أي مليئة بالحكمة؛ فالمثاني هي مواضع الحكمة في الآيات.

كل مثني يحوي داخله درجة من الحكمة، أو قدراً من الحكمة، وهذه الصفة صفة رئيسة في آيات الله المحكمات. درجات هذه الحكمة حددتها الآية التي نحن بصدددها، وهي آية السبع المثاني.

الآية التي تسبق آية السبع المثاني إلى نهاية سورة الحجر، سنجد أن الآيات تتحدث عن موضوع واحد، متعلق بالسبع المثاني والقرآن العظيم، وهي الآتي:

الآية الأولى: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) (سورة الحجر: آية 86).

في هذه الآية الكريمة وصف ربنا ذاته بأنه سبحانه خلاق عليم. وصفة الخلاق جاءت كذلك في سورة يس، عندما وصف الله قدرته سبحانه على خلق مثل للسماوات والأرض، أي تعدد الخلق.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) (سورة يس: آية 81). وصف الخلاق، وكذلك وصف العليم، مناسبان تماماً لما سوف يأتي بعدهما، وهو عطاء الله المتكرر والمتمثل في السبع المثاني والقرآن العظيم.

الآية الثانية: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (سورة الحجر: آية 87).

يقول المفسرون أن لفظ (آتيناك) مقصود به رسول الله، والحقيقة كما يبدو من سياق الآيات أنه لفظ موجه لكل إنسان بشكل عام؛ إذ إن الحكمة التي تنطوي عليها الآيات لا يمكن استخراجها مرة واحدة، وإلا كانت مثني واحداً. إنه تعبير للإنسان حتى يوم الدين، وتوجيه بأن آيات القرآن العظيم تحمل في طياتها سبع مستويات من الحكمة.

قد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: كيف تحتوي آيات القرآن سبع مستويات من الحكمة، أو المعرفة التراكمية، ونحن نرى أن هناك تفسيرات كثيرة كل منها يلغي الآخر؟ هل هذه التفسيرات تعتبر مثانٍ؟

تفسير آيات القرآن لا يمكن أن يتم إلا في وجود منهج علمي لفهم اللفظ القرآني، وفي حالة عدم وجود منهج علمي متكامل لا يمكن الادعاء بالقول أننا وصلنا المثني الأول. لقد كان تفسير القرآن، في السابق، قائم بالأساس على فهم مدلول الكلمات لدى الإنسان الذي عاصر نزول القرآن، وهو فهم ظاهري لم يغوص في معاني الكلمات والحالات التي تصفها هذه الكلمات بدقة.

كل مفسر حاول قدر استطاعته استنباط مفاهيم معينة، لم تكن قائمة على منهج علمي؛ بل كانت قائمة بالأساس على قدرة المفسر المعرفية. هذه الطريقة في فهم اللفظ القرآني طريقة بدائية تماماً، لا تتناسب وآيات الله وخصوصاً ونحن اليوم لدينا طرق علمية لتحليل الظواهر وحل المشكلات، بل وقادرون على إيجاد منهجية دقيقة من خلال الملاحظة وفرض الفرضيات واختبار هذه الفرضيات.

لا شك أن هناك بعض الإرهاصات التي تبشر بتبلور منهج متكامل قريباً. ولكن دون تكاتف الجهود، ودون وجود دعم كبير، لا يمكن أن يتبلور هذا المنهج. بمجرد تبلور منهج علمي سليم لفهم اللفظ القرآني سوف نكون قد وضعنا يدنا على فهم المثاني التي يحويها القرآن. الأمر يشبه إلى حد كبير فهم تركيب المادة؛ إذ إن محاولات فهم تركيب المادة لم تتوقف منذ فجر التاريخ، ولدينا مجموعة من الأفكار عن تركيب المادة منذ زمن الإغريق، ولكنها كلها تصب في خانة وجهات النظر الشخصية، والتصورات الذهنية، وأفكار فلسفية لا تقوم على منهج علمي محدد.

أول نموذج قائم على تجربة علمية لفهم تركيب الذرة، كان نموذج جوزيف طومسون، الذي اكتشف من خلاله وجود جسيمات مشحونة بشحنة سالبة أخذت اسم إلكترون فيما بعد. من هذا الوقت أصبحت المعرفة تراكمية؛ لأنها قائمة بالأساس على طرق علمية، بحيث تم الغوص أكثر وأكثر لفهم الجسيمات، حتى وصلنا اليوم إلى نظرية الأوتار الفائقة. هذه المعرفة المذهلة هي معرفة تراكمية؛ إذ كل خطوة تعتمد على الخطوة التي تسبقها، ولا يمكن لها أن تعتمد على الخطوة التي تسبقها إلا إذا كان هناك منهج علمي متبع، وطرق بحثية سليمة لتتبع هذه المعرفة.

السبع المثاني هي سبع طبقات من المعرفة والحكمة في آيات القرآن، لا يمكن الجزم بأننا على اعتبارها إلا من خلال طرق بحثية سليمة، لا تخضع لوجهات النظر. قد يكون هناك أفاذ جاؤوا في أزمان مختلفة، واستطاعوا النفاذ إلى الحكمة، ولكن تبقى معرفة عرضية، وليست منهجية.

المعرفة التراكمية هي سنة الحياة، ولكن غياب المنهجية في فهم اللفظ والآية القرآنية جعلها في أغلب الأحيان معرفة تصادمية، وهذا هو القول المتعارف عليه بين العامة، وخصوصاً لدى التيار الداعي للتجديد. التيار الذي يستمسك بالنص مقابل العقل والفهم الأول هو تيار لن يمتنع ولن ينفع معه منطق؛ لأنه قبل ما قبل دون منطق، فهم تيار خارج الحسابات.

الإشكالية في التيار الذي يرى أن العقل وسيلته لفهم النص واستخراج الحكمة منه؛ فكثير من أرباب هذا التيار يعتقدون أن المعرفة تصادمية؛ إذ يمكن أن تأتي معرفة تلغي المعرفة السابقة، ولكن الحقيقة هي أن المعرفة تراكمية، ويجب أن تكون كذلك؛ لأن مفهوم السبع المثاني يشير إلى ذلك.

الآية الثالثة والرابعة: (لَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) (سورة الحجر: آية 88).

هذه الآية توجيه لمن يسلك طريق المعرفة ألا يثنيه عن هذه المعرفة أي مغريات؛ لأن سنة الحياة هي أن كل فكرة جديدة غير سائدة أو معنى غير مألوف لن يتم قبوله بسهولة، لذلك في الغالب يهلك الباحثون عن المعرفة قبل أن يروا ثمرة معرفتهم. التوجيه القرآني هو السير في الطريق دون الالتفات إلى المتع التي بين أيدي الآخرين، وخفض الجناح واللين مع المؤمنين الذين يقبلون المعرفة الجديدة.

تأتي الآية الرابعة لتضع النقاط على الحروف وتنبه إلى أن الباحث عن المعرفة ليس عليه هدى أحد، وإنما ينذر بقدر ما آتاه الله، ويبلغ ما آتاه الله من علم فقط لا غير. فكرة أن يؤدي الإنسان دوره دون النظر لحسابات أخرى، أو دون التعلق بالنتائج، هي فكرة مريحة؛ إذ إن أكثر ما يقلق ويربك الإنسان هو ظنه أنه يقول ولا أحد يسمعه، فجاءت الآية الكريمة تطيب خاطر الذين يتدبرون. الإنسان الذي يفتح الله على يديه ما هو إلا نذير، وبالطبع لن يكون هذا النذير مبيناً إلا إذا وافق ما يقوله المفاهيم العقلية، وليست مجرد أقوال من هنا وهناك لا تستقيم ولا تتماسك.

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) (سورة الحجر: آية 89).

الآية الخامسة والسادسة: (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ) (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) (سورة الحجر: آيات 90-91).

المقتسمون هم الذين اقتسموا أمراً ما قسمين، بحيث فرقوا بين المتشابه منه وهو المعنى الظاهر، والمثاني التي تحوي الحكمة في طياتها. هذا الصنف من الناس هو الصنف الذي يتمسك بالظاهر من التفسير، أو بالذي وجد عليه آباءه، وإذا تعامل مع المعاني الباطنة أو الحكمة، تعامل معها في أحسن الظروف على أنها فلسفة وليست حقيقة. ربما يكون هذا الاستخفاف بمكنون الآيات راجعاً بالأساس إلى عدم وجود منهج علمي للغوص في الآيات الكريمة، وربما يكون بسبب التحيز المعرفي للماضي.

الآية التالية تلقي مزيداً من الضوء على هؤلاء المقتسمين، إذ أخبرنا الله أنهم الذين جعلوا القرآن عضين. قال المفسرون معنى (جعلوا القرآن عضين) أي يشبه العضات المتفرقة، بينما جذر كلمة (عض) يعني الإمساك بالشيء بقوة.

من هنا يمكننا القول إن الذين جعلوا القرآن عضين هم المتمسكون بقوة بجزء منه رافضين الجزء الآخر. وبما أننا نتحدث عن السبع المثاني فيبدو جلياً أن الصراع قائم بين أصحاب المتشابهات والتفسيرات الظاهرية والذين يحاولون النفاذ إلى المثاني.

كيف لمن جعلوا القرآن عضين أن يدركوا أن الحكمة تنفجر من بين ثنايا الآيات، وأنها حكمة متراكبة وطبقية، وليست الغائية؟

عندما يرفض بعضهم المعاني والأفكار الجديدة التي تحملها كلمات الله، والتي تكون موافقة للمفاهيم العقلية، في مقابل مفاهيم متوارثة غير منطقية، فعليهم الاستعداد للسؤال عن سر هذا التمسك ورفض العقل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93)) (سورة الحجر: آيات 92-93).

باقي الآيات تتحدث عن أولئك المشركين الذين استبدلوا كلام الله بكلام غيره، وجعلوا كلام بشر فوق كلام الله. لن ينتهي هذا الجدل، وسوف يستمر ما دامت الحياة، بين مشركين مستمسكين بما وجدوا عليه آباءهم مقابل مفاهيم عقلية واضحة وضوح الشمس، وأصحاب المعرفة والحكمة.

(فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97)
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)) (سورة
الحجر: آيات 92-99).

الاستهزاء هو سمة رئيسة لدى فقراء المعرفة تجاه الأفكار غير السائدة، وغالباً ما تتم من
كهان المعرفة القديمة، أو لأنهم بطبيعتهم البشرية لا يرغبون في الظهور كأغبياء وجهال، فيتم
تحويل الأمر إلى استهزاء ونبرة سخرية، لا تتم إلا عن مزيد من الجهل، ولا تزيدهم إلا شركاً
على شركهم.

التوجيه الإلهي السليم هو الإعراض عن هؤلاء والاقتراب أكثر من الله، والقيام
بالمسؤوليات الملقاة على العاتق، حتى يأتي اليقين. أصحاب المعرفة غير السائدة دائماً ما يعترتهم
الشك، وهذه ميزة كل أصحاب العلم، بينما الجهال لديهم ثقة غير عادية بما يقولون، اكتسبوا
من الميراث ومن المجموع الذي يقول مثل ما يقولون.

فهم أنماط البشر المختلفة، وفهم سنن الحياة في التعامل مع المعرفة الجديدة مريح لكل
أصحاب الأفكار غير السائدة، وعمما قريب وقريباً جداً سوف ينظر كل إنسان مكانه. فإما مجتهد
يسعى إلى الله بكل قوة ذاكراً ربه، وإما أعمى لا يبصر فهو كذلك في الآخرة.

يمكننا إيجاز مفهوم السبع المثاني في جملة بسيطة، وهي سبع مستويات أو درجات من
الحكمة، تنطوي عليها آيات القرآن العظيم. مفهوم رحمة للبشرية يفسر لنا لماذا لا يعلم أحد
تأويل كتاب الله إلا الله؟

لأن المعرفة تراكمية، وليست نهائية قطعية، كما يصير العامة وأرباب التاريخ. سبع مثانٍ
مطروحة أمام البشرية لينهلوا منها كيفما شاءوا، فهنيئاً لمن تدبر وتفكر وادكر، وتعساً لمن في
كل موطن لا يعقلون.

مفهوم السبع المثاني هو مفهوم الحركة مقابل الجمود، والتسييح مقابل السكون، والعجيب أن مفهوم الآيات التي ألفت الضوء بشكل كبير على مفهوم السبع المثاني جاءت في سورة الحجر. فما دلالة ذلك؟

سورة الحجر

مسمى السورة نفسه يقودنا مباشرة إلى المقصود، إذ إن مسمى السورة يعني الجمود والتحجر. رغم أن التفاسير قالت أن أصحاب الحجر هم أصحاب الوادي، أو أنهم قوم نبي الله صالح، إلا أن معنى الحجر وهو المنع والتصلب يشير إلى أن الحجر كان صفة هؤلاء القوم. معنى أصحاب الحجر أي الملازمون للتحجر أو التصلب أو الذين يرفضون الحركة والتجديد. إن كان هناك قوم في الماضي انطبق عليهم مفهوم أصحاب الحجر فإن هذا النمط هو نمط فكري متكرر، يجمعهم جميعاً التحجر والتصلب ورفض التجديد.

هذا النموذج هو نموذج يكشفه ويبين عورته مفهوم السبع المثاني. كلما بانت آية أو حقيقة من آيات الله ستجد أصحاب الحجر في كل زمن يناصبون هذا التجديد العداء. لدينا خمس عشرة آية في بداية سورة الحجر تعطينا لمحات ثرية عن تصرفات أصحاب الحجر وأهم سماتهم:

ج
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (1) رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2)
ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ^ط فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَمَا أَهْلَكَنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ^ط وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ

السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (15))
(سورة الحجر: آيات 1-15).

مرة أخرى حقيقة لا جدال فيها، آيات الكتاب هي آيات القرآن كما بيّنا من قبل، وهنا أضيف القرآن إلى لفظ (مبين)؛ لندرك جرم أصحاب الحجر أو الكافرين. (الكافر) في العموم هو الذي ينكر الحقيقة مع وضوحها لسبب ما، و(أصحاب الحجر) هم نوع من الكافرين الذين يرفضون الدليل والبرهان الواضح؛ بسبب طبيعتهم المحافظة، أو قُلُّ بسبب جمودهم، ورفضهم حركة الحياة.

هؤلاء لا يدركون حجم المصيبة الواقعين فيها، ولن ينتبهوا بسهولة، وسوف يسرق الأمل أعمارهم وهو لا يدرون. غالباً هؤلاء المستمسكون لديهم ثقة فيما يعتقدون، ثقة تصل بهم إلى وصم مخالفهم بالجنون أو بالضلال، وهو دفاع نفسي يفعله هؤلاء بشكل طبيعي؛ لأن اختراق أفكارهم وبيان خطئه له تأثير مدمر عليهم.

إنهم يتعاملون مع الأفكار بشكل شخصي، ويرون أن خلخلة هذه الأفكار هو تهديد وجود، فلا بد أن يشنوا على هذه الأفكار وعلى حاملها حرباً لا هوادة فيها. رغم وضوح الآيات والدلائل تراهم يبحثون عن شيء أكبر، وكأنهم حرفياً يريدون أن تنزل الملائكة وتكلمهم. لا يكفيهم البرهان والدليل الساطع، وهم دائماً في ريب حتى تنتهي آجالهم وهم لا يؤمنون. إنه العناد القاتل والمدمر، والذي يقود للغفلة، وتخبّرنا الآيات أن الملائكة بالفعل تنزل، ولكنهم غير منظورين.

أن تطرق المعارف آذان هؤلاء، وأن تُعرض الأدلة أمامهم هو نوع من الرحمة، ولكن هؤلاء في الغالب لا يدركون هذه الرحمة؛ بسبب التصلب والجمود الذي يعانونه. النعمة التي تُدرك أصحاب الحجر أيضاً هي نعمة حفظ الذكر، والذي يمكنهم من خلال حفظه مقارنة وقياس ما لديهم عليه، ولكنهم لا يفقهون. حتى إذا جاءتهم الآيات واضحة لا تقبل الشك تجدهم ينزعون إلى معتقداتهم القديمة، ويفضلون البقاء عليها، كنوع من الأمان النفسي.

إنها سنة من السنن الكونية، أن هؤلاء الكافرين طالما لا يرغبون في تصحيح مفاهيمهم ستجدهم يستهزؤون. هذه الآيات تصف بدقة شديدة تعامل هؤلاء مع الآيات التي تتكشف أمامهم، وكيف أنهم يقابلونها بالاستهزاء. ولعل أشهر عبارات الاستهزاء هي التي تجدها على ألسنتهم في كل زمان، وهي: هل جئت بما لم يأت به الأولون؟

أو كما بينت الآيات في بدايتها: إنك لمجنون. إنها أنماط متكررة في كل وقت، فإن كان أسلافهم فعلوا ذلك مقابل التنزيل، فهم على خطاهم مقابل التأويل. جمود هؤلاء يمنعهم من الإيمان والتصديق، ولديهم مقابل كل دليل وبرهان تصور ذهني يمنعهم من التصديق، حتى لو جئتهم بكل آية.

من أغرب ما سمعت رداً على بعض المقالات التي أكتبها هو رأي أحد هؤلاء؛ أن المقال يستخدم المنطق والعقل في دس السم في العسل. المسكين اعترف أن المقال يستخدم العقل والمنطق، ولكنه لم يبين أين السم في العسل غير أنه يخالف ما تربى عليه وألفه. إنه الدفاع الذاتي عما يعتقد، رغم أنه يقر في نفسه بالمنطق والعقل، ولكن الجمود الذي ورثه وترعرع فيه يمنعه من الإقرار بالحقيقة، فتراه ينزع إلى الإنكار بكل السبل المتاحة لديه.

لا يمكن لأصحاب الحجر الإقرار بمفهوم (المثاني)؛ لأنه ببساطة شديدة إقرار يحتاج لجهد ومتابعة وفرز مستمر، لبيان الصواب والخطأ، وهؤلاء المتحجرون يريدونها سهلة مريحة، بدون مجهود اذهنياً مكلفاً. لماذا يفكرون وقد كفاهم غيرهم هذه المؤنة؟ ولماذا يراجعون ويختبرون هذه الأفكار وهم مشغولون بأشياء أخرى، من وجهة نظرهم أكثر أهمية؟.

لا يعلم هؤلاء أن كل يوم تقام فيه عليهم الحجّة، وتطرق بابهم المعارف، وتمثل أمامهم الأدلة، وتنزل الملائكة إن تدبروا، ولكن هيات أن يفهم هؤلاء الدور المناط بهم، وكيف لهم أن يؤدوا دورهم الذي عليهم في استكشاف الحقيقة، أو على الأقل في قبول الحقيقة؟

الآيات الكريمة التي تحدثت عن السبع المثاني في آخر سورة الحجر، سبقها آيات كريمة تناولت أصحاب الحجر بشكل مباشر، وكيف تعاملوا مع آيات الله.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81)
 وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ
 مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَقَدْ آتَيْنَاكَ
 فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)) (سورة الحجر: آيات 80 - 85).

بطريقة مباشرة تقص علينا الآيات كيف كان تصرف أصحاب الحجر مع آيات الله، وكيف كان الإعراض هو سيد الموقف لديهم. هم منشغلون بالحياة، مطمئنون بها، لا يريدون أن تشغلهم متاعب الأفكار الجديدة، يناون بأنفسهم عن المجهود العقلي المكلف. لقد اكتملت الصورة الآن، وعلمنا لماذا لم يرسل الله أنبياء وكتباً في كل أمة لتتال الأجيال الجديدة نصيبها كما الأجيال القديمة؛ لأن تكامل القرآن على أنه كتاب قابل للقراءة المستمرة، ومحتواه المعرفي العميق المتمثل في السبع المثاني، هو البديل لتأخذ كل أمة نصيبها غير منقوص، وليعاني كل جيل اختباراً حقيقياً، الجميع فيه متساوون.

الآن يبرز سؤال غاية في الأهمية، وهو كيف يمكن للإنسان التعامل مع مفهوم السبع المثاني؟ وهل كل إنسان عليه واجب استخراج المعاني بنفسه؟ الفصل القادم سوف نتعرض لمفهوم شديد الأهمية، وهو مفهوم النبي وسوف نحاول الإجابة على كل الأسئلة المطروحة في الفصول القادمة.

الفصل السادس النبي

لا شك أن وجود شخص النبي بين الناس وقت نزول الكتاب، يجعل منه أكثر الناس إدراكاً للبعد المعرفي للآيات الكريمة خلال البعد الزمني الذي عاش فيه النبي. لا بد من فهم طبيعة المجتمع وقتئذ، حيث أنّ التفاعل مع النص القرآني في كل وقت محكوم بطبيعة المجتمع، ولو ظن الناس أن هذا التفاعل حاكم على الأزمنة المستقبلية فهنا تكمن المشكلة، وسوف نبين أبعادها بكل حيادية.

احتاجت الأمم في السابق إلى إرسال الأنبياء والرسول بشكل كثيف؛ لقيادتها وتصحيح مسارها باستمرار، وبذلك أصبح الأنبياء والرسول حلقات من حلقات تطور البشرية، وليسوا حاكمين على البشرية كلها. لو أن النبي في حد ذاته حاكم على الزمن المستقبلي، فلماذا تعددت الأنبياء، وكان يكفي نبي واحد وكتاب واحد؟

تعددت الكتب لتناسب التطور المعرفي للبشرية، وجاءت الأنبياء لتبين للناس، وتتفاعل مع النص الإلهي. حتى إذا اكتمل نمو البشرية جاء القرآن مشمولاً بالسبع المثاني؛ ليقوم محل الكتب السابقة، وينتهي إرسال الأنبياء. النبي الخاتم جاء حاملاً الرسالة الخاتمة، ويبين ما فيها بقدر معارف المجتمع. لو أن النبي كان لديه القدرة على تبين كل المعارف لانتهد مهمة البشرية من الأساس، وأصبح تفاعلها تحصيل حاصل، ولا تنفي كما ذكرنا مفهوم القرآن، ولما كان هناك حاجة لما يسمى بالسبع المثاني.

هذه التراكمات تتكامل معاً لتعطي بالنهاية صورة واضحة لما يجب أن تكون عليه البشرية، وما هو مطلوب منها. دعونا في البداية نوضح الفرق بين الرسول والنبي، الفرق الذي قُتل بحثاً، ولكنها بداية لا بد منها. من الأمور المختلف فيها بشكل كبير هو الفرق بين الرسول والنبي، فن الباحثين من يرى أنه لا فرق بين الاثنين، ومنهم من يرى خلاف ذلك.

المشهور هو أن النبي والرسول كلاهما يتلقى الوحي من الله، غير أن الرسول مأمور بالتبليغ، بينما النبي غير مأمور بالتبليغ.

يقول ابن الملقن في "المعين على تفهم الأربعين": (و"الرسول": جمع رسول، وهو: المأمور بتبليغ الوحي إلى العباد، وهو أخص من النبي؛ فإنه الذي أوحى إليه العمل والتبليغ، بخلاف النبي؛ فإنه أوحى إليه العمل فقط).

هناك أقوال أخرى عن الفرق بين النبي والرسول، فهناك من يقول أن النبي والرسول كلاهما يتلقى الوحي، وكلاهما مأمور بالتبليغ؛ غير أن الرسول معه كتاب من عند الله، أو يأتي معه ملك، بينما النبي يوحى إليه أو يكون تبعاً لرسول آخر.

قال العيني في "البنية شرح الهداية": (الرسول من نزل عليه الكتاب، أو أتى إليه ملك، والنبي من يؤقِّفه الله تعالى على الأحكام، أو تبع رسولاً آخر).

يقول ابن تيمية في "النبوات": (النبي هو الذي ينبئه الله، وهو يُنبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله، ليبلغه رسالة من الله إليه؛ فهو رسول. وأما إذا كان إنما يُعمل بالشرعة قبله، ولم يُرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة؛ فهو نبي، وليس برسول) أقوال السابقين تكاد تعلن عن نفسها، فهي تقول أن الرسول هو من يحمل رسالة أو كتاباً بشكل عام، بينما النبي هو المتفاعل مع هذه الرسالة. المشكلة كلها بدأت عندما لم يستوعب السابقون مسألة التطور، التي هي أساس كل شيء، فلو أدرك السابقون عملية التطور البيولوجي، ومن ثم عملية التطور المعرفي للبشرية؛ لما تردد أحد منهم بقول أن النبي يختص بالمجتمع الذي عاش فيه، والزمن الذي جاء فيه، والناس في هذا الزمن مطالبون باتباعه؛ لأنه بالطبيعة هو خير من يتفاعل ويفهم النص الإلهي.

بالنظر إلى الآيات والمشاهد القرآنية المختلفة، سوف ندرك هذه الحقيقة دون مواربة، ونفهم أن تفاعل النبي قد يكون وحيًا من الله، وهذا الوحي يختلف عن وحي الرسالة؛ بل هو

ما نسميه نحن بمفهومنا المعاصر إلهاماً من الله، ومنه ما هو اجتهاد شخصي، بناءً على تفاعل معرفي لديه. الوحي الخاص بالتفاعل هو وليد الموقف، ويعمل داخل حدود الزمان، بينما الوحي الخاص بالرسالة -وهنا أتحدث عن القرآن تحديداً- فهو وحي مستمر، ولا يخضع للزمان. الخلط بين الوحيين هو سبب هذا العراك بين أصحاب النقل والعقل، كما بينا في أكثر من موضع.

هذا ليس معناه أن يتم تجاهل كلام النبي في مسألة ما، فهذا لا يقول به إلا متحامل. نحن إلى يومنا هذا نسترشد بأقوال فلاسفة من أزمنة مختلفة، ولا ضير في ذلك، فما بالك بقول النبي. يجب أن يكون تعاملنا مع أقوال النبي هو تعامل استرشادي، وليس إلزامياً، بحيث إن أظهر النص القرآني معنى أشمل وأعم يتم على الفور تحكيم النص القرآني. هذه الطريقة في التعاطي مع أقوال النبي سوف تقضي تماماً على الجدل المستمر، والخاص بأحداث يراها الكثيرون غير متوافقة مع الحياة اليوم.

سوف يضع الأمور في نصابها بشكل سليم التعامل مع النبي كأنه بشر، وليس ملكاً يمشي على الأرض. بشر لديه قدرات تحليل واستقراء، ويعتريه ما يعتري البشر. بشر واقع ضمن الأمر الإلهي (اقرأ)؛ وهو بمعنى حل واستنتاج وتدبر. بينما وظيفته على أنه رسول كانت قاصرة على الأمر الإلهي (بلغ). دعونا نستعرض بعض المشاهد القرآنية لنقف على مفهوم النبي بشكل سليم.

المشهد الأول:

(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ^ط فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) (سورة البقرة: آية 33).

عندما قفنا بتحليل قول الله تعالى (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (سورة البقرة: آية 32) كما قد توصلنا لنتيجة مفادها أن الله سبحانه وتعالى أعطى آدم القدرة على التسمية. وهذه القدرة

هي التي أهلت آدم لتسمية كل ما يقع عليه نظره، أو يقع تحت يديه (كتاب تلك الأسباب - الجزء الثاني)؛ إذ إن عملية التسمية يلزمها معرفة خصائص وصفات الشيء المراد تسميته.

عندما قال الله سبحانه وتعالى لآدم أنبئهم بأسمائهم، لم يكن قد زود آدم بأسماء الأشياء؛ ولكن بالآلية التي تمكن آدم من التسمية. هذا الفرق فرق شاسع؛ فلو أن الله منح آدم أسماء الأشياء، ثم قال له أنبئهم بالأسماء، لكان النبأ هنا وحيًا خالصًا، أو ما يشبه الرسالة التي ينقلها آدم دون أي تدخل. بينما ومن خلال فهم التعبير القرآني (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) نجد أن آدم استخدم الآلية التي منحه الله إياها، واستطاع تسمية كل الأشياء التي عرضها الله عليه. ومن هنا برزت قيمة هذا المخلوق، الذي استطاع التفاعل بشكل سليم مع القدرة التي وهبها الله له.

من هنا نجد أن (النبأ) يختلف عن الرسالة، فالرسالة هي نقل حرفي للشيء المرسل، دون أي تدخل. بينما (النبأ) هو تفاعل الإنسان مع ما هو متاح بالنسبة إليه، ومن خلال القدرات التي وهبها الله إياها، ليعطي بالنهاية نبأ. إننا نستخدم هذا الجذر اللغوي في حياتنا المعاصرة بشكل سليم؛ ويعني قدرة الإنسان الخاصة على التعامل مع الأشياء، وهو لفظ (يتنبأ). فعندما نقول أن فلان يتنبأ بحدث أو بشيء ما؛ فإننا نعني أن فلان هذا لديه قدرة على التحليل والاستنتاج، مكنته من فهم أمور قد تغيب عن الآخرين، ولذلك استطاع التنبؤ. لفظ (النبي) ذاته يحمل في طياته قدرة الشخص على التعامل مع الأحداث بكفاءة عالية، أضف إلى هذه الكفاءة عناية الله التي ترعاه، فيكون الأمر أكثر وضوحًا.

إذا أدركنا أن البشرية في أطوارها البدائية لم تكن قدراتها العقلية بهذه الكفاءة، أضف إلى ذلك أن الصدق والأمانة وعدم التحيز في فهم الأشياء لم يكن بالقدر الكافي لدى الأغلبية، فلن يكون هناك صعوبة في فهم لماذا كان بعث الأنبياء شيئًا هامًا للغاية؛ لتصحيح مسار البشرية وتعليمها. ما إن ارتقت البشرية حتى توقف بعث الأنبياء، أو على الأقل التحدث باسم الله

لم يعد متاحاً للناس، وحل بدلاً منه العقل والمنطق والتفاعل مع القرآن، وهذا نوع من الرقي البشري الذي تأهلت له البشرية، أرادته الله لها.

المشهد الثاني:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (سورة البقرة: الآية 213).

الآية الكريمة توضح بشكل لا يقبل الشك وظيفة النبيين؛ وهي الفصل والحكم بين الناس، عن طريق الكتاب الذي بين أيديهم. نلاحظ أن وظيفة النبيين كانت كما تبين الآية وظيفة وقتية؛ إذ يحكم النبيين بين الناس فيما اختلفوا فيه، وليس تشريعاً كما يعتقد بعضهم. التعبير القرآني (بين الناس) يدل على وقتية النبوة. وإرسال الأنبياء للبشرية كان كثيفاً في بداية البشرية؛ بسبب حاجتها لمن يبين لها ويفصل لها. هذا المشهد يؤكد ما نقوله؛ من أن صفات النبي وقدراته التي ملكها هي من قلب وظيفته، وليست وحياً قاطعاً ملزماً من الله، كوحى الرسالة التي يرسلها الله في كلمات وألفاظ محددة، لا يملك أمامها الرسول سوى التبليغ كما هي.

المشهد الثالث:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ^ق وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (سورة الأحزاب: آية 40).

لا بد لنا أن نتساءل: لماذا خاتم النبيين؟ كما بينا في الجزء الثالث من الكتاب أن التدخل الإلهي لتقويم البشرية بدأ كثيفاً أو غزيراً عندما كانت البشرية تخطو أولى خطواتها، وكان العقل ذا قدرات محدودة. مع تطور القدرات العقلية للإنسان أصبح الإنسان قادراً على إدارة وإدراك كثير من الأمور، وقلَّ معه التدخل الإلهي المباشر.

من أهم التدخلات الإلهية التي ساعدت الإنسان على إصلاح مساره وتعديل سلوكه كان إرسال الأنبياء. إذ يأتي كل نبي يسوس القوم الذي جاء فيهم، يتفاعل مع الكتاب الموجود، أو يأتي بكتاب آخر في شكل رسالة. أفعال الأنبياء وتصرفاتهم داخل مجتمعاتهم كانت تعتمد بشكل كبير على القدرات التي منحها الله لهذا النبي، وعلى الوحي من الله.

لا بد أن نفرق بين الوحي الخاص بالرسالة؛ وهو وحي ملزم لا يمكن تجاوزه، والوحي الخاص بالنبوة؛ وهو تفاعلي في زمن النبي. من الطبيعي أن يكون الوحي الخاص بالنبوة في بداية البشرية كثيفاً جداً، ولكن مع التطور كان وحي الأنبياء يقل شيئاً فشيئاً، وتبعاً لذلك يزداد تفاعل النبي مع الرسالة في شكل اجتهاد؛ حيث إذا لم يوفق تماماً يتم تصويبه أيضاً بالوحي، كما سوف نرى.

هذه الدورة تتناغم تماماً مع تطور البشرية، وليس انتقاصاً من قدر نبي معين حاشا لله؛ بل لأن الخط العام والمنهج القرآني يشير إلى ذلك، وإلى أن الله سبحانه وتعالى يريد للبشرية أن تملك حريتها، وتتفاعل باستخدام القدرات التي وهبها إياها، لينظر ماذا تفعل. في المشهد التالي نجد تفاعل النبي مع حدث ما، ولكن القرآن والوحي جاء يصوب ما حدث.

المشهد الرابع:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
(سورة التحريم: آية 1).

الخطاب في هذه الآية الكريمة لمقام النبوة، ومع ذلك يقول له الله لم تحرم ما أحل الله لك. هذه الآية الكريمة تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن مقام النبوة هو مقام تفاعل مع الرسالة، وليس وحياً من الله ملزماً. يجب أن نسأل أنفسنا: هل فعل النبي هذا كان بوحي من الله في أن يحرم ما أحل الله له؟ بالطبع لم يكن وحياً؛ لأن الله عاتبه في ذلك، وهو في مقام النبوة.

لا يمكن لأحد أن يدعي أن ما فعله النبي وهو تحريم ما أحل الله كان وحيًا، ولكن من الواضح أنه كان تفاعلاً واجتهاداً، ولما لم يكن هذا الاجتهاد مصيباً نزل الوحي بقرآن نقرأه جميعاً، يعطينا لمحة عظيمة عن الفرق بين مقام النبوة ومقام الرسالة. آية أخرى في كتاب الله تشير إلى نفس المبدأ في سورة الأنفال، وتدل أيضاً على أن ما فعله النبي وهو في مقام النبوة كان تفاعلاً، ولم يكن وحيًا.

(مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخَنَّ فِي الْأَرْضِ ج تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة الأنفال: آية 67).

لا يعقل أن نعتقد أن فعل النبي هنا كان وحيًا، ثم ينزل قرآن يعاتب في ذلك، وإنما كما تقص علينا الآية أن مسألة الأسرى كانت اجتهاداً من النبي، وهو في مقام النبوة، وعندما جانبها الصواب نزل الوحي للتوجيه. هاتان الآيتان توضحان لنا كيف كان التوجيه الرباني، من خلال الوحي لتصرفات النبي التي فعلها تفاعلاً مع الأحداث؛ لأنه نبي؛ أي في مقام النبوة. القرآن دقيق في تعبيراته؛ فقد عاتب النبي، ولكنه لم يعاتب الرسول؛ لأن وظيفة الرسول تختلف عن وظيفة النبي.

ربما يعتقد بعضهم طالما أن القرآن قص علينا كيف كان يصحح للنبي، فهذا معناه أن كل أفعاله وأقواله التي لم ينزل فيها القرآن معاتباً صحيحة مائة بالمائة، ويلزمنا اتباعها.

لعمري أن استنتاجاً كهذا يقوم على العاطفة لا يراعي نسق القرآن، وانلخط العام الذي تسير فيه البشرية. هذه الآيات الكريمة التي جاء فيها الأمر صريحاً بمعاتبه النبي، ترشدنا إلى أن تفاعل النبي ليس وحيًا ملزمًا كما نعتقد؛ وإنما تفاعل للنبي مع النص. ليس لدي شك في أن تفاعل النبي هو التفاعل الأرقى والأفضل والأسمى، ولكن لا بد أن ندرك البعد الزمني؛ حتى لا نقع في الشرك، ونجعل النبي حاكماً على زمن لا يعلم عنه شيئاً، وتصبح البشرية تحصيل

حاصل، وتفقد الميزة الأساسية التي وهبها الله، وهي التفاعل والتطور، وتصحيح مسارها تبعاً للرسالة التي تملكها.

المشهد التالي يعرض عدداً من آيات القرآن، التي تشير إلى التوجيه الرباني للنبي وهو في مقام النبوة، وتتعلق بتصريفات المجتمع وقتها.

المشهد الخامس:

هذه مجموعة من الآيات التي خاطب فيها ربنا نبيه وهو في مقام النبوة، وكلها متعلقة بالمجتمع وقتها. فنجد الآية في سورة الأنفال تطلب من النبي تحريض المؤمنين على القتال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثَّةِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) (سورة الأنفال: آية 65).

الآية التالية تتحدث عن الأسرى وقت معارك النبي مع الكافرين، وتوجيه ربنا للنبي:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة الأنفال: آية 70).

هكذا نجد باقي الآيات تتحدث جميعها عن وقائع في عصر النبي، وتوجيهه للتعامل معها.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (سورة التوبة: آية 73).

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) (سورة الأحزاب: آية 1).

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) (سورة الأحزاب: آية 28).

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (سورة الأحزاب: آية 50).

المشهد السادس يعطينا لمحة عظيمة على أن من أفعال النبي وهو في مقام النبوة ما هو ليس وحيًا؛ وإنما هو تفاعله مع الرسالة.

المشهد السادس:

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (سورة آل عمران: آية 61).

(يغل) معناه أن يأخذ الشخص شيئاً لنفسه بعيداً عن الآخرين، وهنا نجد القرآن ينفي عن الأنبياء هذا التصرف غير السليم، ومع ذلك يقول أن من يغلل يأت بما غل يوم القيامة. هذا معناه أن تصرف الأنبياء هو تصرف نابع من إرادتهم، وليس وحيًا في هذه الحالة؛ إذ إن لديه حرية الإرادة في أن يغلل أو لا يغلل.

لو كانت الآية وحيًا للنبي لا يستطيع تجاوزه لما جاءت تحذر أن من يغلل يأت بما غل يوم القيامة؛ وإنما كان التحذير بالطرد من مقام النبوة، كما حدث في مقام الرسالة الذي بينته الآيات في سورة الحاقة:

(تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46)) (سورة الحاقة: آيات 43-46).

بشيء من الإنصاف، ومن خلال مقارنة الآيتين نجد أن النبي لو حدث وغل؛ فعقابه يوم القيامة، وسوف يستمر في مقام النبوة؛ لأنه تفاعل مباشر مع الرسالة، ولكنه تجاوزه. بينما

عقاب الرسول الذي يقول غير ما بلغ؛ هو قطع الرسالة فوراً عنه. هذا الفرق الجوهرى بين لنا المساحة التي يتحرك فيها النبي، بينما لا توجد مساحة للرسول خارج النص الإلهي.

لو كان فعل النبي وحيًا من الله مباشرة، وخالفه النبي؛ لثم طرده مباشرة من مقام النبوة في الدنيا، وقطع عنه الله هذا الوحي، كما أخبرنا ربنا عن الرسول الذي يمكن له أن يتقول على الله. لا شك أن أنبياء الله ورسله هم الصفوة، وإنما اصطفاهم للصفات الطيبة التي يحملونها، ولكن الآيات تشير لكل ذي لب إلى الفرق بين النبي والرسول، وكيف يتعامل القرآن مع كليهما.

المشهد السابع: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ

هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوهُنَّ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (سورة المائدة: آية 44).

الآية الكريمة تشير إلى حقيقة غائبة عن الكثيرين، وهي أن الكتاب هو الأصل والمرجع، بينما النبي عليه التفاعل مع الكتاب. لذلك جاءت التوراة ككتاب مرجع، وتعاقب عليها النبيون، يحكمون بحكمها، ولم يطلب ربنا من الأنبياء اتباع حكم بعضهم بعضاً، وإنما طلب العودة إلى التوراة والاحتكام بها.

هذه الحقيقة لا تحتاج لمجهود لفهم علتها؛ لأن الكتاب ونصوصه هي كلام الله الذي يتميز بالشمول والعموم والإحاطة، بينما تفاعل النبيين هو تفاعل زمني، محكوم بالعصر الذي عاشوا فيه.

لدينا في كتاب الله أمر صريح للناس لا يقبل التأويل بالرجوع إلى الكتاب الذي بين أيديهم إن غم عليهم أمر، أو حدث لديهم التباس في فهم أمر نبيهم، بل أكثر من ذلك، يطلب منهم ربنا مراجعة كل شيء على كتاب الله الذي بين أيديهم، وإن استسلموا وتمسكوا بأمر

ليست في الكتاب؛ إنهم إذا لُضالون. إنها آية في سورة آل عمران تنكر على بني إسرائيل تحريمهم على أنفسهم ما لم يحرم الله عليهم، وأتباعهم تحريم نبيهم إسرائيل وهم لا يعلمون والتبس عليهم الأمر.

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ

التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (سورة آل عمران: آية 93).

رغم أن الآية تقول صراحة أن إسرائيل حرم على نفسه نوعاً من الطعام، إلا أنها استنكرت على بني إسرائيل تقليد هذا التحريم. لماذا أنكرت الآية على بني إسرائيل تقليدهم لإسرائيل؟

لأن نبي الله إسرائيل أو النبي بصفة عامة يتفاعل مع المعطيات التي وهبه الله إياها، فإن أصاب -وهي الحالة السائدة- فنعم هي، وإن لم يصب؛ فينزل الوحي ليصحح ما لم يصب فيه. ولأننا لم نكن معاصرين للنبي، ولا نعرف على وجه التحديد الظروف التي مر بها النبي ولا المجتمع، وكلها أمور ظنية؛ فإن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي النص الإلهي الذي لا يمكن تغييره ولا تبديله. لذلك طلب الله من بني إسرائيل مراجعة التوراة، واستخراج أمر التحريم منها إن كانوا صادقين.

الآية تقول للناس إنه لا تحريم إلا بأمر من الله صريح، ورغم ذلك لدينا تاريخ طويل من التحريم، حتى أن لفظ التحريم يجري على لسان بعضهم كتحية الصباح. التحريم الأبدي لا يجوز لأحد من كائن من كائن، ولو كان نبياً فليس له أن يحرم خارج إطار الرسالة، أو بمعنى صحيح خارج الأوامر الإلهية المباشرة؛ لأن الله وحده هو الذي يعلم علة الأشياء على حقيقتها، وعلاقتها. بينما النبي محدود بالزمان الذي جاء فيه. إذا نهى النبي عن شيء فهو نهى وليس تحريماً، قد يزول بزوال العلة، ولكن تحريم رب العالمين لا يزول أبداً، لذلك جاءت الآية الكريمة تحمل هذا الإرشاد الرباني العظيم لقوم يعقلون.

باختصار شديد، الرسالة مستمرة، وهي الأصل، والمتمثلة في النص الإلهي، بينما النبي هو تفاعل مرهون بالظروف والحياة التي عاشها النبي. ولذلك أعلن القرآن صراحة ختام النبوة، وأن البشرية لم تعد بحاجة للأنبياء تسوسها، وأعطى القرآن بدائل أخرى تعتمد اعتماداً مباشراً على قدرة العقل على التمييز. لقد وصلنا لمرحلة نجد فيها مؤسسات تصدر أمراً بالتحريم، في تجاوز واستهانة بأمر الله لا مثيل لها. لو تتبعنا الأشياء التي تم تحريمها، ثم تراجع عنها المشرعون، لبدأ بعض هذه المحرمات كفكاهة، ولتوقف كل لبيب ليعيد النظر في التلفظ بالتحريم، ويسلك مسلك العلماء في تحري الدقة في اللفظ.

بعض الأمثلة على المحرمات التي حرّمها الناس إفتاءً على رب العالمين، وهم لا يعلمون الفرق بين تحريم الإله الأبدي والملمزم، ونهي المجتمع.

المثال الأول: تحريم الطباعة

مع ظهور الطباعة في منتصف القرن الخامس الميلادي، حدثت نهضة كبيرة جداً في العواصم الأوروبية، التي استخدمت الطباعة في مضاعفة المعرفة وتسهيل انتشارها. لكن في الدولة العثمانية كان هناك أمر آخر، وهو صدور فتوى بتحريم الطباعة؛ خوفاً من تحريف القرآن الكريم، أو العبث بالكتب الشرعية.

تحريم كهذا جعل الأمر يبدو إلهياً. لو أن هناك عالماً واحداً يقرأ القرآن، ومر على الآية السابقة التي بين أيدينا؛ لقال لهم ائتموني بآية في كتاب الله تحرم الطباعة إن كنتم صادقين، كما قال الله سبحانه للمفتريين القائلين بتحريم نوع من الطعام اقتداءً بإسرائيل: ائتموا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين.

لماذا قال لهم الله فاتلوها، ولم يقل مثلاً اقرؤوها أو تدبروها أو اعقلوها؟

القراءة والتدبر والتعقل كلها أمور تعتمد على العقل، مثل القياس والمقارنة، أما لفظ التلاوة فهو تتبع الشيء حرفياً دون تدخل من الإنسان. معنى ذلك أن التحريم أمر شديد الخطورة، لا يجوز فيه القياس أو المقارنة، وإنما هو أمر لا بد أن يكون ظاهراً وواضحاً لا لبس

فيه. لو أنصف أصحاب الطباعة لقالوا ممنوع استخدام الطباعة، ثم جاؤوا بمبرراتهم كما يحلو لهم، ولكن الكارثة هي القول بالتحريم، والتجرؤ على لعب دور الإله بكل ثقة.

التلفظ بالتحريم هكذا بكل سهولة هو أمر شديد الخطورة؛ لأنه يخلط بين الأمر الإلهي والتفاعل البشري، مما يفقد النص الإلهي وظيفته. وهذا ما يحدث بسبب الوعاظ والدعاة والمؤسسات التقليدية، والتي تتسبب بكل سهولة ويسر في صرف الناس عن الله، بل والاستهانة بأمر الله، طالما أثبت الوقت أن كل شيء قابل للتغيير والتبديل.

المثال الثاني: تحريم القهوة

في بداية القرن السادس عشر دارت معركة فقهية، عنوانها تحريم القهوة؛ لأنها مفسدة للعقل، وخطرها أشد من الخمر. انتقلت معركة القهوة إلى مدن عديدة، وجاءت الفتاوى بتحريم شربها، ومطاردة شاربها، بل وحرقت مخازن البن، ولم يهدأ هذا الجدل إلا عندما جاء مفت جديد إلى إسطنبول في عهد السلطان مراد الثالث، وأعلن أن شرب القهوة غير محرم شرعاً.

المثال الثالث الموقف من الصنبور

في نهاية القرن التاسع عشر تم مد مواسير المياه، وتركيب صنابير المياه في منازل القاهرة، مما جعل الناس يستغنون عن السقاة الذي يجلبون الماء للمنازل مقابل أجر. من أجل ذلك توجه السقاة إلى أئمة المذاهب الأربعة في الأزهر؛ لاستصدار فتوى بأن مياه الصنبور لا تصلح للوضوء والطهارة. استجاب أئمة الحنابلة وأفتوا بأن مياه الصنابير بدعة وضلالة، بينما أفتى الحنفية بإباحة مياه الصنبور، وجواز الوضوء منه؛ ولهذا سمي الصنبور بالحنفية في مصر.

هذا المثال تحديداً وإن لم يكن القول فيه بالتحريم المباشر إلا أنه مثال واضح للتأثيرات الخارجية على الآراء الفقهية وتأثرها بالظرف الزماني وطبيعة المجتمع والتجاذبات المختلفة التي يعيشها المجتمع. القول بأن مياه الصنبور بدعة ولم يصل إلى التحريم؛ ربما بسبب انفتاح المجتمع المصري وقتئذ على المجتمعات الأخرى، وربما لو أن الأمر كان في أحد المجتمعات المغلقة لجاء الأمر بالتحريم وتكفير المخالف، كما في مسألة قراءة الصحف والمجلات.

المثال الرابع: تحريم قراءة الصحف والمجلات

في مطلع القرن العشرين كان لبعض فقهاء العراق والكويت والأحساء موقف شديد العداء تجاه قراءة الصحف والمجلات، فلم يكتفوا بتحريم قراءتها بل وتكفير من يقرأها. هل تعلم ما السبب في التحريم، ومن ثم التكفير؟ لأنها بزعمهم تحتوي على معلومات علمية غريبة، مثل كروية الأرض، والتطعيم ضد الأمراض.

المثال الخامس: تحريم أكل الطماطم

عندما أحضر بعض الناس الطماطم في نهاية القرن التاسع عشر إلى حلب في سوريا، لم يستسغ أهل المدينة شكلها الأحمر المخالف لكونها من الخضروات، وأطلقوا عليها لقب "مؤخرة الشيطان". في هذا الوقت أصدر مفتي حلب فتوى بتحريم أكل الطماطم، إلا أنها انتشرت بعد ذلك، ولم يعد هناك أي حرج في أكلها.

لا شك أن فتاوى التحريم هذه يتبعها عقاب لمن يخالفها، قد يصل إلى الإعدام، كما حدث مع تحريم الطباعة. إنه القتل باسم الله، والاقتراء على الله. لذلك نقولها وبكل يقين أن الوقوف على اللفظ وفهم معناه بدقة من أكمل العبادة لله، حتى لا نضل، ويتسبب هذا الهرج في ضلال الآخرين، حتى لو حسنت النيات.

المشهد الثامن:

(وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران: آية 80).

هذه الآية العظيمة جاءت ضمن مجموعة آيات في سورة آل عمران، تضع النقاط على الحروف، وتفصل مهمة الكتاب ومهمة النبي، وتحذر من أولئك الذين يدفعون الناس إلى الاعتقاد بربوبية النبيين.

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)) (سورة آل عمران: آيات 78:83).

الآيات تركز تركيزاً شديداً على التمسك بالكتاب، وعرض كل شيء على الكتاب، وتؤكد أن البشر الذين اصطفاهم الله سواء للحكم أو للنبوة ما هم إلا متبعون للكتاب. النهي جاء في الآيات من اتخاذ الملائكة والأنبياء أرباباً؛ لأن الله لم يأمر بذلك بل أمر بأن يكون الناس ربانيين؛ أي يرجعون في كل أمر لربهم.

قد يظن بعضهم أن اتخاذ الأنبياء أرباباً بعيد كل البعد عن المؤمنين، ولكن الحقيقة لا يمكن إدراكها إلا من خلال قياس الأفعال. الإنسان الذي يعلي كلام النبي فوق كلام رب العالمين الوارد في كتابه هو في الحقيقة اتخذ النبي رباً من دون الله، وهذا هو الكفر الذي حذر منه ربنا في الآيات، والله لا يأمر بالكفر.

كما ذكرنا أن تفاعل النبي مع النص هو تفاعل معتمد اعتماداً كلياً على الزمن، وهناك ظروف قد لا نعلم عنها شيئاً أثرت في تفاعل النبي مع النص. لذلك تجنباً للارتباك، واحتراراً

من الوقوع في الكفر، فلا بد من عرض كل أمر على كتاب الله، وعدم التهاون مطلقاً في ذلك. حتى إن صح أمر عن النبي، فهذا ليس معناه اتباعه رغم وجود تعارض مع القرآن، بحجة أن النبي هو أكثر علماً ودراية بكتاب الله؛ لأن الظروف غابت عنا، وهناك عوامل لا حصر لها قد يكون لها تأثير في مقولة كهذه، من الصعب حصرها أو تتبعها بشكل تام.

لذلك لا ضامن حقيقياً إلا كلام الله، فهو المعيار الذي يجب أن يُقاس عليه كل قول وكل فعل، ومن يقول غير ذلك يتحمل تبعات ما يقول. تقديم كلام النبي على كلام رب العالمين بأي حجة كانت هو ذاته اتخاذ أرباب من دون الله، إذ جعل النبي سلطة على الناس دون رب العالمين، أو سلطة منفردة عن رب العالمين. سيقول الناس كيف تفرق بين النبي وربّه؟، ويسوقون كلام أشخاص، ويستدلون بنصوص تاريخية؛ يوهمون الناس أنها أدلة على إشراك النبي مع رب العالمين في الحكم. الحقيقة أنّ هذه ليست أدلة؛ وإنما حيل لا تستطيع الصمود أمام الأدلة، والحكم الوحيد القادر على التفريق بين الحيل والدليل هو الإنسان ذاته

إنسان ما بعد النبوة قادر بالنص الإلهي على التفريق بين الحيل والدليل، إن كان حقاً يرغب في ذلك، ولديه الأدوات التي تمكنه من ذلك، لكن الضالين أوهموه أن عقله لا يستطيع ولا يقدر. نتيجة لذلك قعد المسكين عن التعقل، ووقع في شبك الشرك دون أن يدري، وإن وصلته الحجة وطرقت بابه المعرفة صد عنها، فوقع في الكفر الذي حذر منه رب العالمين.

لقد تطرف بعضهم ووصل لمرحلة أخطر، عندما زعموا أن سنة النبي يمكن أن تقيد القرآن أو تنسخه؛ بمعنى إبطال حكم من أحكامه. النبي كما قلنا تفاعل مع النص الإلهي حسب حاجة زمانه، والناس في كل عصر مأمورون باستمرار التفاعل، وهذه هي روح القرآن الغائبة عن الكثيرين.

بنص كتاب الله لا يمكن لنبي أن ينفرد عن الكتاب بعيداً عن رب العالمين، فما بالك بشيء يخالف الكتاب.

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) (سورة آل عمران: آية 79).

يطلب الله من الناس أن يكونوا ربانيين؛ أي يضعوا في حسابهم أن الرب هو السلطة والرعاية التي يجب أن يدخلوا تحتها. لن يستطيع الإنسان أن يكون ربانياً -أي واقعاً تحت السلطة والرعاية الإلهية- إلا من خلال العلم والدراسة، وليس من خلال التقليد. عرض كل أمر على كتاب الله، وتحري الدقة والحياضية، هو الضمان لكون الإنسان ربانياً. أما الكسل المعرفي فسوف يسوق الإنسان لاتخاذ غيره رباً يثق في قوله، سواء أكان نبياً أو رجل دين أو علامة في عصره، حتى لو خالف كلام الله، وبينه له المتدبرون.

نص صريح يقول فيه الله:

(وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران: آية 80).

قد يتوهم بعضهم أن اتخاذ الأرباب هو قول الإنسان صراحة فلان ربي؛ ولكن المتبع للفظ (الرب) في القرآن سيعلم أن لفظ (الرب) هو صفة كل من له سلطة مشمولة بالرعاية. مثال (الرب) في القرآن هو الملك الذي عاصر نبي الله يوسف، عندما خاطب صاحبه في السجن اذكرني عند ربك. ربك هنا تعني ذا السلطة عليك، ويقال رب الأسرة لما له من سلطة مشمولة بالرعاية. الله لا يطلب من الناس اتخاذ الملائكة أو الأنبياء أرباباً؛ أي ذوي سلطة مطلقة، ولكن متابعة تسمح بالنقاش واختيار الأفضل.

عدم اتخاذ النبي رباً نجده ماثلاً بشكل واضح في موقعة بدر، عندما نزل النبي بجيشه في موقع معين، فجاءه رجل من الجيش يسمى الحباب بن المنذر. لما رأى الحباب منزل المسلمين قال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمْزِلًا أَنْزَلَكُهُ اللَّهُ، لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ وَلَا نَتَأَخَّرَ

عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: "بل هو الرأى والحرب والمكيدة". فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فنزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فمملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون)

لقد فهم الحجاب مقام النبوة بشكل صحيح، إذ سأل هل هذا أمر من الله، أم أنه الرأى والمشاورة؟. لم يتخذ الحجاب النبى رباً هنا، ولم يعتقد أن تصرف النبى وحي من الله لا يجب النقاش فيه. إننا مطالبون في كل أمر لا يوافق العقل والمنطق أن نسأل كما سأل الحجاب، أهذا أمر من الله أم هو الرأى والمشاورة؟. أما ورسول الله محمد صلوات ربي عليه ليس بيننا اليوم فلم يبق لنا إلا أن نعرض الأمر على كتاب الله؛ لنعرف هل هو أمر ملزم أم أنه أمر يجوز لنا فيه الاجتهاد والمناقشة.

لقد فهم الرعيل الأول هذا الفرق جيداً، ولم يتخذوا النبى رباً؛ بحيث أن ما فعله لا يمكن التقدم عليه أو التأخر، وإنما أدركوا أن ما فعله وقاله النبى خارج كتاب الله إنما هو اجتهاده وتفاعله.

هذا أبو بكر الصديق عند وفاته يوصي بالخلافة لعمر بن الخطاب، ولم يكن الرسول قد أوصى من قبل، أو فعل ذلك. بكل بساطة لو أن أبا بكر الصديق اتخذ النبى رباً لما كان له أن يفعل إلا ما فعل النبى، ولكن لأنه علم أنه الرأى والمشاورة فقد أوصى عمر بن الخطاب بعده، ليس متبعاً بل متفاعلاً ومجتهداً.

إنه الخلل الواضح في العقول التي لا تدرك هذه الفروق، فتراهم يرون متابعة النبى على أمر هين مثل الملبس أو اللحية عظيم ومخالفته أمر جليل. بينما لا يرون فعل أبي بكر بعده، وهو أمر تولية أمير على الأمة جميعها دون أن يكون فعله رسول الله صلوات ربي عليه ليس فيه أي مخالفة. اجتهد أبو بكر وفهم الفرق بين الرسالة والنبوة وأجره على الله، ووقع المقلدون في نفع التقليد ولم يدركوا الفرق واتخذوا الأنبياء أرباباً وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا.

الأمثلة كثيرة على اجتهاد الرعيل الأول بعد وفاة النبي وفعل أفعال لم يفعلها في حياته، ولكن أصحاب الحجر والجمود وجدوا مخرجاً لذلك؛ بالادعاء أن الصحابة كذلك أفعالهم من الشرع وملزمة.

لقد أمر الله الناس بالألا يتخذوا الأنبياء أرباباً، وفهم ذلك بعض من الرعيل الأول، وتفاعلوا مع ذلك إلا المتأخرين أبوا، ولم يتخذوا الأنبياء فقط أرباباً؛ بل اتخذوا معاصري الأنبياء أرباباً، بل وزادوا عليهم من التابعين. شتان بين التوجيه القرآني الذي يدفع البشرية دفعاً لاتخاذ دورها والقيام بمسئوليتها، ومجموعة من الناس ذوي ثقافة محدود للغاية، تريد فرض رأيها وسيطرتها على العالم.

الآية التالية تشير إلى الفرق بين الرسول والنبي؛ إذ يجب على النبي أن يتبع الرسول وليس العكس. ما معنى أن يجيء الرسول إلى النبيين؟ معنى ذلك أن النبي يتبع الرسالة مع الرسول، وذلك بالتبعية يجعل النبي متابعاً ما جاءت به الرسالة التي أرسله الله بها، من خلال ما آتاه الله من معرفة وحكمة.

تشير الآية التالية مرة أخرى إلى أن النبي يتفاعل من خلال معارفه مع النص الإلهي، وليس منفرداً أو مخالفاً للنص الإلهي. لذلك على الناس فهم ذلك جيداً، فإذا وجدوا ما يخالف النص الإلهي تركوه؛ لأن الالتزام بما يخالف النص الإلهي بحجة أنه قول النبي هو عين اتخاذ الأنبياء أرباباً، وهو الكفر الذي حذر منه ربنا:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (سورة آل عمران: آية 81).

هل تعلم أن في تفسير هذه الآية الكريمة قال ابن مسعود أن فيها خطأ.

أنقل لك من تفسير الطبري "عن مجاهد في قوله: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ)، قال: هي خطأ من الكاتب، وهي في قراءة ابن مسعود: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ" عن الربيع في قوله: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ)، يقول: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، وكذلك كان يقرؤها الربيع: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ" إنما هي "أهل الكتاب".

ما قاله ابن مسعود والربيع يتخذه المشككون حجراً يقذفون به كتاب الله، ويشكون في دقته وحفظه. لكن اتباع منهج دقيق في فهم كتاب الله سوف يقضي على هذه الخرافات تماماً، ولن يدع المجال للقول على كتاب الله كلُّ بما يشاء.

هل هي (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) أم (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)؟ من خلال تتبع الآية وفهم السياق سوف نجد أن المقصود هو النبي، وليس لأهل الكتاب علاقة بهذه الآية؛ وإنما توهم ابن مسعود وخلط بين الآية وآيات أخرى. عدم فهم الآية وفهم الألفاظ بشكل دقيق جعل المفسر يورد قول ابن مسعود بهذا الشكل العجيب. إتيان الكتاب والحكمة والميثاق من الله بهذا الشكل موجه للنبيين، بالإضافة إلى أن سياق الآيات يتحدث عن النبيين، ويحذر من اتخاذ النبيين أرباباً، فما دخل أهل الكتاب في هذا التوجيه.

لدينا ملاحظة جديرة بالاهتمام، سوف تمنحنا قدراً كبيراً من فهم الفرق بين الرسول والنبي: لقد بقي رسول الله في مكة يبلغ ما أنزل إليه من ربه، وطوال هذه الفترة لم يخاطبه ربه بلفظ النبي. لقد كانت مهمة الرسول في مكة مهمة محددة وهي تبليغ الرسالة، ولذلك تفاعله مع الرسالة كان في أضيق الحدود، بينما بمجرد وصوله للمدينة وتأسيس مجتمع احتاج لتفاعل كبير، مما استحق معه مسمى نبي.

لو تتبعنا لفظ (نبي) في القرآن سوف نجد أن الخطاب بلفظ النبي لم يرد في مكة أبداً؛ وإنما كان الخطاب بلفظ النبي موجهاً له بعد قدومه إلى المدينة، بينما نجد أن الله خاطبه بلفظ

الرسول وهو في مكة. السور المدنية والأحداث التي حدثت في المدينة، تخبرنا بكل وضوح أن لفظ النبي وُصف به النبي في مرحلة المدينة، كما في الآيات التالية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة الأحزاب: آية 1).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأُسْرِحَنَّ سَرَاْحًا جَمِيلًا﴾ (سورة الأحزاب: آية 28).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: آية 45).

بينما لفظ (الرسول) نجد له أثراً واضحاً في السور المكية كما يلي:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة الأنبياء: آية 25).

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان: آية 7).

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (سورة الفرقان: آية 30).

أدلة كثيرة لو رتلنا بعضها إلى بعض، لن نحتاج لوقت طويل لفهم مهمة النبي ومهمة الرسول، والخروج من مأزق الروايات، ولماذا تبدو غير متناسبة مع الحياة المعاصرة، بل وتعتبر عبثاً في كثير من الأحيان.

لماذا لا تعتبر عبثاً ونحن نعتبر المجتمع القديم الذي عاش فيه النبي مجتمعاً مثالياً بكل ظروفه وعلاقاته، ويمكن تطبيق ظروفه على مجتمعات مختلفة الأزمنة والظروف؟ لأنها دعوة لاستنساخ المجتمع، وإنشاء نسخ مكررة منه على طول الكرة الأرضية، وهذا مخالف للسنن الكونية.

النص الوحيد الذي يملك قابلية القراءة المرنة، ويضع خطوطاً عريضة لكل شيء، هو القرآن، ولا شيء غير القرآن. والني مهما أوتي من جوامع الكلم، لا يملك القدرة على ذلك، ولا يستطيع. لو اعترض أحدهم بأن تفاعل النبي يصلح لكل زمان، وقابل للقراءة كذلك، مثله مثل القرآن؛ فنحن نقول له: لماذا لم يضمه الله إلى القرآن، طالما أنه وحي من الله كذلك، وله نفس الخصائص؟ أما وهذا لم يحدث، فالله الله في كتاب الله، ولا تشركوا بالله شيئاً.

في السطور التالية سوف أوضح بعض الأمثلة لتفاعل النبي، وكيف أن اعتبار هذه الأمثلة شرع وجزء من دين الله، أساء للنبي وأساء لدين الله.

مرة أخرى، التفريق بين لفظ (النبي) ولفظ (الرسول) بشكل حيادي يضع الأمور في نصابها، ويغلق باباً فتحه التقليديون بوضع أفعال وتصرفات بشرية خالصة للنبي داخل منظومة الدين، ومن ثم خلط الدين بالتاريخ أو بالعادات الاجتماعية، وعدم مراعاة البعد التطوري للبشرية.

تعدد زوجات النبي

المثال الأشهر لدينا هو تعدد زوجات النبي أو حتى زواجه من السيدة عائشة، أو حتى تصرفاته مع زوجاته:

بالنسبة إلى عدد زيجات رسول الله، كانت تفاعلاً لشخصه كونه بشراً، ليس لها أي علاقة بالرسالة، وهذه طبيعة المجتمعات وقتها، وهو ليس ملاكاً بل بشراً له ميول ورغبات وتفاعل، كما يتفاعل مجتمعه وقتها.

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا

مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا) (سورة الأحزاب: آية 52).

الخطاب في الآية الكريمة للنبي، وكما ذكرنا من قبل أن ما حدث تفاعل للنبي وليس

وحيًا، ولكن جاء الوحي ليوقف هذه الزيجات، رغم أن هذا هو المتعارف عليه في ذلك

العصر. عدم قدرة الفقيه على التفريق بين مقام الرسالة ومقام النبوة، وبين الوحي والتفاعل الإنساني المتأثر بالواقع، جعلهم يسيئون لرسول الله أشد إساءة.

زواج الرسول الكريم صلوات ربي عليه لم يكن بدعاً في مجتمعه، وليس له علاقة بمضمون الرسالة التي يحملها، فلا داعي لتحميل الأمر ما لا يحمل بالأساس. أتفهم غيرة الناس على الرسول الكريم، ولكن فهم المجتمع وقتها وفهم ظروفه يضع الأمور في نصابها بعيداً عن كونها ميزة أو عيباً. هل ينبني على هذه الزيجات أي أمور شرعية خارج ما جاء في القرآن؟ بالطبع لا.

بالمثل زواج الرسول من السيدة عائشة، والجدل القائم هل تزوجها الرسول وهي في عمر 9 سنوات، أم ثماني عشرة سنة؟ لماذا كل هذا الجدل؟ هل زواج الرسول من السيدة عائشة جزء من الرسالة، أم أن هذا الأمر يخص الجانب البشري للرسول، ويخضع لمجتمعه، وليس لنا أي علاقة به، ولا يمكن أن ينبني عليه أي حكم تشريعي.

من يتخذون تصرفات النبي أو التصرفات البشرية للرسول، ويريدون أن يشرعوا من خلالها أموراً ليست في كتاب الله هم المسيئون حقاً لمقام الرسالة، والجاهلون بمقام النبوة. عندما ختم الله بالنبي صلوات ربي عليه، إنما كانت رسالة واضحة لا لبس فيها للبشرية. إن الحكم باسم الله قد انتهى وإلى الأبد، وعلى البشرية أن تعي ذلك جيداً، وتتعامل على هذا الأساس. لقد آن الأوان ليصبح العقل هو رسول كل إنسان، يهدي للتي هي أقوم، وينتهي عصر الوصاية؛ بسبب تطور القدرات العقلية لهذا الإنسان. للأسف الشديد وكعادة البشرية دائماً لم تستطع التخلص من الموروث القديم، وظلت متمسكة بشكل الوصاية بعد وفاة الرسول، والذي جاء في إعلان الخلافة.

إعلان انتهاء عصر النبوة من خلال القرآن، كان بمثابة الوثيقة التي أسست لعهد جديد تماماً، يملك فيه الإنسان مسؤولية ضخمة وتكليفاً عظيماً؛ بسبب ارتقائه، وقدرته على ذلك. لقد جاء إعلان الخلافة بمثابة عودة خطوة للخلف، وطلب استمرار حكم النبي دون أن ندرى.

لو لم يكن كذلك فكيف يمكن لنا فهم دور الخليفة الذي يدعو الناس خليفة رسول الله. لرسول الله مقامان لا ثالث لهما، وهما مقام الرسالة ومقام النبوة، وأما مقام الرسالة فليس لأحد أن يخلفه فيه؛ لأنها كانت متعلقة بنزول القرآن، والقرآن اكتمل.

أما مقام النبوة فقد أعلن ربنا عن انتهاء هذا العصر، من خلال آية صريحة. من هنا لنا أن نتساءل عن مسمى (الخليفة)، والذي يعني أن يقوم الشخص المستخلف مقام الخلف. هل يجوز لأحد أن يخلف رسول الله في أي من مقاماته؟ يبدو لي أن الأمر تم على أساس أن القادم سوف يعمل بعمل رسول الله، وعلى ذلك يمكن تسميته خليفة. التسمية بحسب مدلول الكلمة في القرآن ليست صحيحة، والناس مطالبون في هذا العصر الجديد بالتعقل وليس بالتقليد. هذا هو التوجيه القرآني، والذي سوف يزداد وضوحاً مع شرح وتوضيح دور القرآن في المرحلة القادمة، ودور ولي الأمر.

دعونا نستعرض هذا المثال المشهور لكي نوضح من خلاله دور النبي، وكيف حدث تداخل بين دور النبي ودور الرسول، وكيف تحول هذا التشويش إلى أمر خطير للغاية، يمكن أن يدخل في دائرة الكفر، وضلال لا مثيل له.

آية الرجم

آية الرجم المشهورة والواردة عند البخاري ومسلم. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الرَّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ فَأَخْشَى أَنْ تَطَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ وَاللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةِ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبْلُ أَوْ الْإِعْتِرَافُ) (رواه البخاري 6442 ومسلم 1691)).

أنا لست هنا معنياً بتفنيد سند الرواية ولا متنها؛ فقد قام باحثون أفاضل بالرد على هذه الرواية، وتفنيد كل كلمة فيها، ولكن سوف أتناول هذا الأمر من خلال مفهوم النبي والرسول.

لو سلمنا جدلاً أن رسول الله رجم، فهو لا شك رجم وهو بوصفه نبي يتفاعل مع النص القرآني في وجود عوامل كثيرة. لو أن النبي رجم بالفعل فلا يمكن إن يكون الرجم قد حدث في ظل وجود الآية الكريمة التي جعلت الجلد على الزاني، وإنما الطريق السليم في فهم هذه الحادثة الاعتقاد أنها حدثت قبل نزول آية سورة النور التي قررت الجلد:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة النور: آية 2).

من الطبيعي إذا واجه النبي أمراً في حياته أو معضلة أن يجتهد قدر استطاعته لفهم هذه الحالة، ومن ثم يصدر حكماً عليها. في حالة عدم وجود نص صريح في كتاب الله، فليس أمام النبي إلا الاستعانة بما هو متاح في مجتمعه للقياس والمقارنة.

لقد كان الرجم في الشريعة اليهودية، فلا نستغرب أن رجم رسول الله اجتهاداً منه. إن كان نبي الله رجم فهذا الأمر لا يتعدى كونه تفاعل النبي مع الأحداث، ولا يمكن أن يكون قد حدث في ظل وجود آية الجلد؛ لأنه ببساطة لو رجم النبي في حالة وجود آية الجلد لكان نزل القرآن يعاتبه على ذلك، لماذا تخطيت آية الجلد إلى الرجم؟ أو أن القرآن نزل يدعم ما فعل. أما وأن كتاب الله خال من الرجم، فلا يمكن تجاوز ذلك أبداً.

أعلم أن التراث مليء بالأعاجيب، وأن أصحاب الحجر سوف يجدون أكثر من باب للالتفاف. سيقولون لك أن آية الرجم نسخت ورفعت وبقي حكمها، مستدلين برواية الشيخ

والشيخة. إذا وصلنا إلى هذه النقطة، وأن هناك من هو مقتنع بمنطق كهذا، فلا نملك إلا أن نقول لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، فلا فائدة من شرح وتفصيل المزيد.

أسوأ شيء يمكن أن تسمعه من مدعي العلم، هو قوله أن آية الرجم نسخت حكم الجلد في حق الثيب أو المحصن. هذا ليس علماً ولا علاقة له بالمنطق؛ ولا يؤيده كتاب الله. من قال أن قول النبي يمكن أن ينسخ نصاً إلهياً؟ من يملك الجرأة على قول ذلك، إلا شخص قدراته العقلية متواضعة للغاية.

لو يملك القائلون بالرجم مثقال ذرة من منطق، لقالوا حتى لو رجم رسول الله، فإن لدينا نصاً إلهياً لا يمكن تجاوزه، والصحيح أن النص الإلهي ينسخ كل قول عداه، ولا يمكن بحال من الأحوال أن ينسخ قول النبي النص الإلهي. هل يدرك القائل بأن قول النبي يمكن أن ينسخ النص الإلهي، هو بذلك اتخذ النبي رباً من دون الله؟ هل يدرك القائل بذلك أن في حالة اعتقاده ذلك هو في حالة شرك، وفي حالة إصراره مع بيان الدليل وقع في فخ الكفر؟. يقع في الكفر كل من يبحد المعرفة مع بيانها ووضوحها، والضامن الوحيد للنجاة هو الإخلاص والبحث بصدق لمعرفة الحقيقة ومن ثم اتباعها.

عند فهم دور النبي، سوف نتكمن من تناول جميع الأحداث التاريخية على عهد النبي، من منظور تفاعل النبي مع مجتمعه، ولا يمكن جعله حكماً على الرسالة بذاته؛ لأننا كما ذكرنا لا نعرف الظروف المحيطة بهذه الأحداث مهما أوتينا من قوة. ولكن في المقابل لدينا نص إلهي عظيم، يفسر نفسه بنفسه. وسنظل نسترشد بأقوال النبي وأفعاله، ونعتز بنبينا الذي أدى الرسالة وصدق في التبليغ، ونعوذ بالله أن نجعله شريكاً لرب العالمين، أو نتخذه رباً.

سوف نختتم هذا الفصل بمثال، لعل الله يفتح به آذاناً، وتفقه به قلوب، وهو مثال الأذان. هذا المثال يوضح بصورة جلية كيف تفاعل النبي في ظل عدم وجود وحي وكيف تصرف.

قصة الأذن

كيف توصل النبي إلى الأذان؟ ولماذا استحدثه وهو لم يكن وحيًا؟ ولماذا لم يوحه الله له مباشرة؟

لم يكن هناك شيء يمكن من خلاله إعلام الناس بوقت الصلاة، فتشاور رسول الله صلوات ربي عليه مع أصحابه لبحث الأمر، وإيجاد وسيلة لتنبيه الناس بوقت الصلاة. لاحظ أن الرسول تشاور مع أصحابه، ومع ذلك لم ينزل وحي يخبره بصيغة الأذان.

قال بعض الحضور: نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فاعترض بعضهم على هذا الرأي بأنه لا يفيد النائم ولا الغافل. قال آخرون: نشعل ناراً على مرتفع، فلم يقبل هذا الاقتراح أيضاً. ها نحن نرى اقتراحات أو تفاعلات مع حالة موجودة، والأكثر من ذلك، الحضور هم من يشيرون على رسول الله، ورسول الله لم يقل إلى الآن رأياً.

أشار بعضهم إلى استخدام البوق، وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم، فكرهه الرسول صلوات ربي عليه. أشار بعضهم إلى استعمال الناقوس، وهو ما يستعمله النصارى، فلم يقبله الرسول كذلك. بالنهاية أشار فريق بالنداء، إذ يقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها، فقبل هذا الرأي.

ها نحن نرى مناقشات تدور حول كيفية التنبيه للصلاة، ولم يأت وحي؛ بل كلها محض اجتهادات ممن حضر الواقعة. أحد الصحابة وهو عبد الله بن زيد بن عبد ربه رأى صيغة الأذان في منامه، فأقره الرسول على ذلك. لا شك أن الناس يعتبرون أن قصة الأذان هي سنة عن النبي الكريم؛ لأنه أقر هذا الفعل. ليس ما يهمننا ذلك، وكل ما نبحت عنه هو هل ما حدث مع الأذان هو محض تفاعل لأشخاص، أم أنه وحي ملزم؟

الإجابة على هذا السؤال بشكل منصف سوف تخبرك ماذا يريد الله من العباد. الله يريد منكم أن تجتهدوا وتتفاعلوا وتبدلوا قصارى جهدكم؛ لأن البشرية تتقدم بذلك، ولا تركنوا وتتكاسلوا فتهلكوا. الله يعطي مساحة للبشر لكي يتحركوا فيها، ويحملوا مسؤولياتهم، ولكن البشر لا يرغبون بذلك، وهذا قصور في التفكير، وقصور في فهم دورهم ومفهوم العبادة.

قراءة التاريخ إن لم تُفد الإنسان في قراءة الواقع تصبح عبثاً على الإنسان، ومن لم يستخلص منها فائدة فهي مضيعة للوقت. قصة الأذان هذه تعرض جانب التفاعل الغائب، وكيف كان يتعامل النبي ومن معه مع أمور الدين، والتي لم ينزل فيها نص. التفاعل والاجتهاد هذه هي صفة البشر الرئيسة. الفرق الرئيس بين اجتهاد النبي واجتهاد الآخرين أن النبي مخلص وصادق وأمين، وأكثر الناس نزاهة وحيادية في تعامله مع الأمور. لذا يلزم معاصريه اتباعه ونصرته، حتى يبلغ ويؤدي ويقدم المجتمع.

لقد جاءت صيغة الأذان من خلال رؤية لأحد المعاصرين لرسول الله وليس رسول الله نفسه، أفلا يدل ذلك على مراد الله من عباده؟ لماذا الإصرار الشديد على جعل النبي ربا أو نصف إله وهو برئ من ذلك ولم يبلغ إلا ما أمره الله به وحفظه الله لنا في كتابه.

نأتي بالنهاية إلى الحجّة الشهيرة التي يسوقها كل مبتدئ عندما يتعرض لمناقشة وضع السنة بالنسبة إلى القرآن، وهي قصة الصلاة وكيف أصلي إذا رفضنا سنة النبي؟

هذا الطرح طرح طفولي للغاية، ومن يقرأ الكتاب ثم يطراً على باله هذا السؤال فأنصح به بإعادة القراءة بهدوء وتريث. أنا هنا لم أتطرق لرفض سنة النبي بالمرّة؛ ولكن أفرّق بين النص الإلهي وبين النص البشري حتى ولو كان مصدره النبي. النص الإلهي لدي هو النص المؤسس، والنص البشري هو نص استرشادي وغير ملزم، وسوف يتضح هذا الطرح من خلال فهم قصة الصلاة وكيف نصلي.

الأصل في الأشياء هو أن توافق كتاب الله، فإن وافقت كتاب الله قبلناها، وإن تعارضت مع كتاب الله رفضناها، وإن لم تتعارض مع كتاب الله بحثنا عن أفضل السبل لتحقيقها. عندما نزل الأمر بالصلاة في الكتاب وهو (أن أقيموا الصلاة)، ثم ذكر كتاب الله أن في الصلاة ذكر الله، وحمد الله، والثناء عليه، وبيّنت كثير من الآيات مواضع عدة في الصلاة. عندما قرأ رسول الله أقيموا الصلاة تفاعل مع هذا النص الإلهي وصلى بالكيفية التي وصلتنا. الحد الأدنى لقبول هذه الصلاة هو ألا تتعارض مع كتاب الله.

يقول بعضهم أن أوقات الصلاة في كتاب الله هي ثلاثة أوقات، وهذا بالفعل ما تحقق في الصلاة التي نصليها، والتي وصلتنا عن رسول الله. الصلاة لا شك فيها الركوع والسجود وذكر الله والقيام. إذن الأركان الأساسية متحققة، فما الذي يجعل إنساناً عاقلاً يرفضها. لا شك عندي أن الصلاة كانت تفاعل الرسول الكريم صلوات ربي عليه مع النص الإلهي الذي أمر بالصلاة، فلماذا أخالفه، طالما يحقق الحد الأدنى الموجود في كتاب الله؟

أما الذين يرغبون في المخالفة لأجل المخالفة ومحاولة إثبات وجودهم فكل إنسان عليه ما حمل. لو أن الصلاة التي وصلتنا لم يكن فيها القيام، لقلنا أنها تخالف كتاب الله، ولا بد للصلاة أن يكون فيها القيام كما أمر الله. لو عرضنا الصلاة على كتاب الله، ولم نجد ما قد تحققت، أشرنا إلى ذلك دون أي غضاضة. أما وقد تحقق فيها الحد الأدنى وزيادة؛ فإننا نقبلها كما تفاعل معها رسول الله وأداها دون حرج.

من المعروف أن الوضوء مذكور بتفصيل أكثر من تفصيل الصلاة في كتاب الله، لكن هذا لا يعني أن الصلاة لم تذكر في كتاب الله كما يظن بعضهم، ولكن الشروط الأساسية للصلاة ذكرت في كتاب الله، وتفاعل معها النبي، وأداها بالكيفية التي وصلتنا، ونحن نفر بذلك. الذين يحتجون بأمر الصلاة هذا لكي يجعلونا نقبل كل معارض لكتاب الله، ندعوهم بالهداية والبصيرة وعدم خلط الأمور. قد يتبادر إلى ذهن أحدهم طالما أن الصلاة بهيئتها الحالية هي تفاعل النبي مع النص القرآني؛ إذن هي غير ملزمة ويمكن تغييرها.

السؤال: لماذا؟ لماذا تريد تغيير الهيئة، طالما لا تخالف كتاب الله؟ الذي يرغب في المخالفة من أجل المخالفة، للأسف الشديد قد يقع في فخ الخروج من مظلة الإسلام بالكامل، كما سوف نرى عندما نقوم بتحليل كلمة (مسلم و إسلام). الأصل في الإنسان الإنصاف وعدم التحيز، فإذا حاد عن الإنصاف وتحيز لشيء ما فقد البوصلة الأساسية. الحقيقة أن هيئة الصلاة الأساسية التي ذكرها القرآن تعطي مجالاً أوسع، وتتفق مع آيات كثيرة في كتاب الله



لفئات كثيرة تؤدي صلاتها بطريقة ما، وقد أشار ربنا لذلك في كتابه. عدم تحديد حركات الصلاة، وعدد ركعاتها في كتاب الله، يتوافق تماماً مع الرحمة التي يزرعها كتاب الله، ويتوافق مع كون الله رب العالمين.

ربما يعتقد بعضهم أننا نزعم أن النبي لا يوحى إليه، وهذه مغالطة واقتراء. سنبين في الفصل القادم الفرق الجوهرية بين وحي النبوة ووحى الرسالة، حتى نكون قد وضعنا النقاط على الحروف، ولا نشك لحظة في أن النبي أو النبيون يوحى إليهم من الله رب العالمين.

الفصل السابع الوحي

سوف نتعرف في هذا الفصل على الفرق بين وحي النبوة ووحى الرسالة، ثم نمر سريعاً على بعض المفاهيم لنستكمل مهمة النبي ومهمة الرسول.

كيف نفهم وحي النبوة؟

ملخص ما قيل في الوحي هو كل فعل يقصد به إيصال رسالة معينة بطريقة غير مباشرة. أقرب مفهوم معاصر لمفهوم الوحي هو مفهوم الإلهام. ليس شرطاً أن يكون الوحي من الله حصراً؛ ولكن قد يكون هناك آخرون يمكن لهم أن يقوموا بفعل الوحي، كما فعل نبي الله زكريا، وأوحى إلى قومه أن سبحوا بكرة وعشياً.

(نُفِخَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْحَرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (سورة مريم: آية

11).

الوحي هنا فعل من شأنه إفهام الطرف الآخر معلومة أو خبراً معيناً، وهذا ما فعله نبي الله زكريا؛ إذ إنه لم يتكلم بطريقة مباشرة بل أوحى إلى قومه شأن التسييح. قد يكون الوحي في شكل سلمي، كما تفعل الشياطين، وتوحي إلى أوليائها فعل الشرور:

(وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ قَلْبٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ

لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) (سورة الأنعام: آية 121).

ما يعيننا هنا هو الوحي من الله لمخلوقاته، وهذا الوحي كما جاء في كتاب الله ثلاثة أنواع: النوع الأول: وحي عام للبشر، النوع الثاني: وحي النبوة، النوع الثالث: وحي الرسالة.

النوع الأول: وحي عام للبشر

هذا الوحي وحي بفعل معين أو تصرف محدد في ظرف ما، وبالطبع هذا النوع من الوحي مرتبط بالوحي إليه لا يتعداه إلى غيره. المثال الواضح على هذا الوحي هو وحي الله سبحانه وتعالى إلى أم موسى.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي

ط
إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (سورة القصص: آية 7).

هذا الوحي غير ملزم لأحد، وخاص بموقف محدد. لا يقول عاقل طالما أن الله أوحى إلى أم موسى حين خافت على وليدها أن تلقيه في اليم فكل أم إن خافت على وليدها من أمر ما، أن تلقيه في اليم.

النوع الثاني: وحي النبوة

وحي النبوة جاء في كتاب الله على حالتين:

الحالة الأولى: وحي في الكليات،، مثال: الإيمان بالله،، أو فعل الخيرات، وليس وحيًا في التفاصيل

(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة النحل:

آية 123).

اتباع ملة إبراهيم؛ أي طريقة ومنهج إبراهيم صلوات ربي عليه، وهو أمر عام. وسوف نأتي على تفصيل هذا المنهج، من خلال فهم المسلم الحنيف في الفصول القادمة.

(وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ

وَكَانُوا لَنَا عُبْدِينَ) (سورة الأنبياء: آية 73).

أيضاً الوحي بفعل الخيرات جاء في صورة كليات وليس تفاصيل. إنها مبادئ عامة وخطوط عريضة، يتحرك من خلالها النبي.

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (سورة الشورى: آية 52).

كما قد تناولنا مفهوم الروح، وأن الوعي والإدراك هو من روح الله؛ لذلك عندما يقول ربنا أوحينا إليك روحاً من أمرنا؛ نفهمه على أنه وهبه وعباً وإدراكاً لمفاهيم الكتاب والإيمان، حتى يستطيع التعامل معها.

هذا الوحي هو أيضاً وحي في الكليات وليس في التفاصيل. هذا النوع من الوحي يؤهل النبي للتعامل والتفاعل السليم مع كتاب الله، وإقامة مجتمع سليم، وليس معناه أن ما يقوله ويفعله من كبيرة وصغيرة هو وحي ملزم من الله.

كما قد بينا في الفصل السابق كيف أن أفعالاً كثيرة قام بها النبي وهو في مقام النبوة عاتبه الله عليها. إذن الوحي هنا لتسهيل مهمة النبي في التعامل، وليس وحيّاً يجب تبليغه والسير عليه خطوة بخطوة.

الحالة الثانية: هي وحي للنبي للتصرف في موقف معين؛ لغرض الرسالة، ومثال هذا الوحي ما يلي:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) (سورة الأعراف: آية 117).

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بِيوتًا وَأَجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبَلَةَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَابْسُرِ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة يونس: آية 87).

(وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخْطِبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ) (سورة يونس: آية 37).

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى) (سورة طه: آية 77).

الآيات السابقة كلها تخبرنا كيف أن الله أوحى للنبيين أفعالاً متعلقة بالرسالة والزمن الحالي، ولو مددنا الخط على استقامته يمكننا أن نفهم وحي النبوة الخاص بالنبي محمد صلوات ربي عليه. هناك وحي تدلنا عليه آيات القرآن الخاص بالنبوة، وجاء كذلك في سورة الأنبياء، وهو وحي خاص بالكليات مثل وحدانية الله:

(قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (سورة الأنبياء: آية 109).

آيات القرآن قصت علينا أخباراً غزيرة، خصوصاً عن نبي الله موسى، حيث نرى أن أغلب تصرفاته صلوات ربي عليه كانت بموجب وحي. بالطبع هو وحي النبوة، مثل الخروج ببني إسرائيل، وضرب البحر، وضرب الحجر، بينما خروج نبي الله موسى إلى مدين كان تفاعلاً ذاتياً منه، عندما جاء رجل يحذره من القتل.

رغم هذه الغزارة مع نبي الله موسى، إلا أننا نرى أن الأخبار في كتاب الله عن أفعال نبينا الكريم لم تأت على شكل وحي مباشر، وإنما تدل الآيات على أنها كانت تفاعلاً للنبي صلوات ربي عليه، كما سوف نرى مع كثير من الحوادث العظيمة.

وحي النبوة كان متعلقاً بما يفعله النبي في زمنه؛ لتسهيل أمر الرسالة، أو أمور كلية، وليس كما هو السائد من أن تصرفات وسلوك النبي نفسه في كل كبيرة وصغيرة هي وحي من الله. تصرفات النبي وسلوكه هو نفسه يستمدّها من الكتاب الذي أنزل عليه، بتفاعله معه.

لو تتبعنا حياة الأنبياء من خلال القصص القرآني، ومن خلال آيات الله التي تحدثت عن الحوادث العظيمة في حياة الرسول صلوات ربي عليهم أجمعين، سوف نكتشف أن النبي محمد صلوات ربي عليه أقل الأنبياء وحيًا فيما يخص النبوة، وهذا أمر طبيعي للغاية، ومؤشر صحي، ودليل دامغ على قرب انتهاء عهد الأنبياء، وهذا ما حدث بالفعل.

الأنبياء السابقون احتاجوا إلى آيات مادية لإقناع أقوامهم، بل في كثير من الأحيان لتطمئن قلوبهم هم أنفسهم؛ بسبب بدائية المجتمعات في الماضي. كذلك الأنبياء السابقون

احتاجوا لكثير من الإرشاد والتوجيه، والذي تمثل في كثافة الوحي، بينما كلما تقدم الزمان، ارتقت القدرات العقلية؛ فزاد التفاعل العقلي مع النص، وقلّ تبعاً لذلك الوحي المباشر.

لهذا السبب نجد تفاعل النبي مثل البشر هو السائد في كثير من المواقف، وأنّ الوحي لم يكن حاضراً. هذا دليل على رقي البشرية، وقدرتها على التفاعل بشكل صحيح، وعلى قمتها نبينا الكريم في ذلك الوقت. لماذا النبي العظيم لم يطلب من ربه آية تؤكد له ألوهية ربه، مثل نبي الله إبراهيم الذي طلب آية إحياء الموتى، أو نبي الله موسى الذي طلب أن يرى ربه؟

الإجابة باختصار شديد أنّ القدرات العقلية وقتها كانت كافية لإدراك المعاني المجردة؛ لذلك كان مؤمناً تماماً بألوهية ربه، لا يحتاج على ذلك دليلاً. سوف نستعرض في السطور التالية بعض الأمثلة على حوادث عظيمة؛ كي تدلنا على طبيعة وحي النبوة، ولماذا كان أقل ما يمكن، وأن تفاعل النبي بقدراته مع النص الإلهي هو الحالة السائدة.

المثال الأول: حادثة الهجرة

رغم أنه لا يوجد في كتاب الله آية واحدة تدلنا على أن الله أوحى إلى نبيه بالخروج من مكة إلى المدينة، إلا أننا من خلال تتبع الآيات في كتاب الله نستطيع القول أن هناك آيات في سورة مكية ساعدت بشكل كبير على اتخاذ قرار الهجرة، ومن هذه الآيات الآيات في سورة النحل:

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (سورة النحل: آية 41).

يقول المفسرون أن هذه الآية نزلت في شأن الذين هاجروا إلى الحبشة هرباً من اضطهاد كفار مكة. رغم أنه ليس لدينا أي دليل على أن هذه الهجرة وحي مباشر من الله، إلا أن الرسول أشار على أصحابه الضعفاء بالهجرة ومغادرة مكة، تفاعلاً واجتهاداً، وليس عن طريق وحي مباشر. إن كانت الآية الكريمة تشير إلى هذه الهجرة، فهي تركز على هذا الفعل، ولعلها كانت

البداية، والتشجيع على اتخاذ خطوة الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) فيما بعد. . الآية التالية في سورة العنكبوت، إشارة مباشرة وإذن للذين آمنوا بالهجرة في حالة الاضطهاد:

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَّيَ فَاعْبُدُونِ) (سورة العنكبوت: آية 56).

يبدو لي جلياً أن هذه الآية أثرت في رسول الله، وإن كان لا يوجد فيها أمر مباشر بالهجرة، إلا أن التفاعل معها يمنح الإنسان حرية كبيرة في اتخاذ مثل هذا القرار.

الآيات السابقة آيات مكية؛ مما يساعدنا على فهم كيف تفاعل النبي مع النص الإلهي، وعندما خرج النبي من مكة إلى المدينة جاء في سورة الأنفال المدنية آية تشير إلى هذا الخروج، ولكن لم تصفه بالوحي، رغم أن حادثة شبيهة مع نبي الله موسى وبني إسرائيل كانت بوحى مباشر، كما أخبرنا ربنا.

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ) (سورة الأنفال: آية 30).

ما أستطيع قوله هنا أن الهجرة كان تفاعلاً خالصاً مع كتاب الله وكان تفاعلاً موفقاً للغاية عمل فيه النبي صلوات رب عليه بآيات الله. مفهوم الوحي التقليدي جعل وكأن الهجرة أمر مباشر من الله، رغم أن آيات القرآن لا تخبرنا بذلك؛ بل هي ترتيبات متتابعة، وإعداد مقدر تفاعل معه النبي العظيم.

السنة النبوية هنا بمفهومها الصحيح هي منهج النبي، وكما نرى منهج النبي هو التفاعل مع كتاب الله، كما حدث في هذه الحادثة، واستنباطه موقف الهجرة، وحاجته لكي يهاجر خدمة للرسالة، وقراءة جيدة لكلمات الله. هذا التعاطي مع كلمات الله وآياته من قبل النبي صلوات ربي عليه هو قمة الكمال والعظمة؛ لأنه بشر، ولأنه لم يحتج لأمر مباشر، بل أدى ما عليه، واستطاع فهم مراد الله وتنفيذه على أرض الواقع. الذين يجعلون النبي كمتلقٍ لأوامر يفعلها

كما هي، إنما أخرجوه من طوره البشري إلى طور الملائكة، وهذا ما نفاه ربنا تماماً، وأشار إليه في كتابه الكريم. حتى لو جاء ملكٌ فلا بد أن يكون في طور البشر.

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ) (سورة الأنعام: آية 9).

المثال الثاني: معارك النبي

الموقف الثاني الذي يدلنا على تفاعل النبي مع كتاب الله بما يملك من معرفة هو موقف معركة بدر. ليس في كتاب الله آية تدل على أن هذه المعركة المصيرية كانت بوحي من الله مباشرة؛ بل إن الترتيبات لم تكن أساساً تتجه نحو معركة، بل كانت اعتراض قافلة لقريش؛ انتقاماً لفقد المهاجرين لممتلكاتهم في مكة.

عندما عسكر الرسول بمن معه في مكان قرب موضع المعركة انتظاراً لقدوم أهل مكة، تقدم له رجل كما ذكرنا في الفصل السابق، وأشار بخلاف ما فعل النبي، واستحسن النبي ما قال الرجل. هذا الموقف يقودنا بكل بساطة لفهم طبيعة أفعال النبي وأقواله خارج مضمون الرسالة الحرفي؛ بأنها تفاعل وليست إلزاماً، كما يظن التقليديون.

لدينا هنا إشارة خفيفة حول اسم المعركة وهي التي ذكرها الله سبحانه وتعالى ببدر (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة آل عمران: آية 123). يقول المفسرون أن بدر هو اسم الماء الذي دارت بالقرب منه المعركة، لكن لو حولنا فهم دلالة حالة الإسم سوف نكتشف إن إسم بدر هو توصيف لحالة المعركة ذاتها.

لفظ (بَدْر) له أصل مشهور وهو الإسراعُ إلى الشيء. يقال بادر بالشيء أي اتخذ الخطوة الأولى. عندما يقول الله سبحانه (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ) فهذا يعني أن الله نصركم رغم أنكم بادرتم بالقتال وأنتم أذلة. بمعنى لم تكونوا في وضع يسمح لكم بالقتال ورغم ذلك نصركم الله.

معركة أحد

معركة أحد، وما حدث فيها من هزيمة للمسلمين ومخالفة الرماة أمر النبي، لماذا لم يخبر الله رسوله بوحي مباشر أن الرماة سوف يخالفون، فاحذر ذلك؟

لأن الله يريد من البشرية التفاعل والاجتهاد وبذل قصارى جهدها، وعلى رأسها الأنبياء. لم تعد البشرية طفلاً يوجبو بحاجة لتقويم أفعاله خطوة بخطوة؛ ولكنها نضجت، وتستطيع قراءة كلمات الله، والتفاعل معها، والمقصر هو المعلوم.

الملاحظ هنا أن هذه المعركة لم يطلق عليها القرآن اسم ولكن نعرفها جميعاً باسم معركة أحد وهذا معناه أن القرآن غير معني بالتسميات البشرية ولكنه يصف حقائق الأشياء. أحد لا يعني شئ في سياق المعركة وليس له دلالة حقيقة لذلك لم يرد ذكره في كتاب الله.

معركة الخندق

معركة الخندق، وحفر الخندق ذاته لم يكن وحياً من الله مباشرة، ولكن كان بإشارة من سلمان الفارسي؛ لأنه كان يملك خبرة بمثل هذه الخنادق. معركة كادت تستأصل المسلمين من المدينة جاء الحل الناجع فيها من شخص من أتباع النبي، ولم تأت من النبي نفسه. لا بد أن نسأل أنفسنا: لماذا لم يوحى الله إلى نبيه أمر هذا الخندق؟ ولماذا حتى لم يصل النبي لهذه الفكرة؟

فكرة الخندق كانت خارج الإطار المعرفي للنبي، ولكن عندما أشار بها سلمان الفارسي وشرحها أصبحت معرفة، واستحسنها النبي وطبقها. النظر إلى التاريخ والسيرة النبوية سوف يمنحنا القدرة على التعامل مع الأحداث بحيادية وإنصاف، دون تشنج وتعصب وقولٍ على الله ورسوله بما يتعارض مع كتاب الله وسنن الحياة.

أيضا تسمية هذه المعركة بمعركة الخندق لم يرد في كتاب الله رغم أن الخندق هو أبرز معالمها. لقد تناول القرآن هذه المعركة من خلال تسمية المعتدين باسم الأحزاب وهذا الاسم له دلالة حقيقة حيث اتفقت مجموعة من الأحزاب والجماعات على حرب المؤمنين.

معركة حنين

معركة حنين يقول الرواة أنها نسبة إلى وادي حنين بين مكة والطائف ولكن بالنظر إلى تسمية القرآن الحقيقية للمسميات سنكتشف أن الاسم يدل على حنين بمعنى الشوق والود لكشفه القرآن ولم يرضاه ربنا سبحانه وتعالى. أصل كلمة حنين هو (حَنَّ) وهو الإشفاقُ وَالرِّقَّةُ. الآية في سورة التوبة التي ذكرت يوم حنين تفصح عن الكثير والكثير.

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِيْنَ) (سورة التوبة : آية 25).

يقول الله مذكرا عباده الذين اعجبهم كثرتهم، و الإعجاب بالكثرة هنا لم يكن إعجاب محمود حتى إن الله قال لهم فلم تغني عنكم من الله شيئا. لقد فصلت الآية من خلال كلماتها موقف هذه المعركة ومن خلال تسمية اليوم باسم (حنين) سوف ندرك أنه كان يوم حنين وشوق للقبيلة حتى أنهم اعجبهم كثرتهم وهذا العجب هو عجب القبيلة والكثرة حتى ولو على حساب الإخلاص في الدين.

لقد انكشف القوم وذكرهم الله بذلك وأن هذه الكثرة هي كثرة ليس لها أي قيمة. لو كان (حنين) اسم واد أو اسم مكان لكان الأنسب (في مواطن كثيرة وفي موطن حنين)، لكن الآية قال (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ). يوم حنين هو يوم الذي اجتمع فيه أعداء الأمس ولكن يبدو أن الود والحنين للأهل كان هو سيد الموقف فتلقوا درسا صعبا للغاية.

سوف ندرك أن هذه الكثرة لم تكن مفيدة وأن أناس خرجوا مع الرسول ما كان لهم أن يخرجوا معه وهو كفار ومنهم أبو سفيان الذي ما إن رأى الكرة على المؤمنين حتى صاح بأعلى صوته لا تنتهي هزيمتهم حتى البحر.

تفسير حنين بأنه واد بين مكة والطائف تفسير لا يفضح هؤلاء، ولكن عندما وقفنا على معنى حنين وعلى الدلالات في الآية الكريمة اكتشفنا أنه كان هناك سلوك لا يرضاه الله وعاتبهم عليه أشد عتاب.

يمكننا تلخيص وحي النبوة بأنه وحي في الكليات، وتفاعل النبي مع النص القرآني داخل إطاره المعرفي، وهذا يختلف تماماً عن وحي الرسالة، والذي جاء الأغلب منه من خارج الإطار المعرفي للرسول. وحي الرسالة وهو النوع الثالث الذي نحن بصددده، هو وحي باللفظ والحرف، ليس للرسول تغييره أو تبديله أو الاجتهاد فيه، إنما تبليغ فقط.

النوع الثالث: وحي الرسالة

هذا الوحي هو المتمثل في الكتاب الذي بين أيدينا، والذي رأينا كيف أن رسول الله لم يفسر أغلبه؛ بل هناك كلمات بالجملة لم يتطرق إليها النبي، واختلف فيها التابعون من بعده. لفظ الرسول لا يصح إلا لحامل الرسالة، ولا يصح أن يسمى رسولاً دون رسالة. لقد كشف لنا كتاب الله هذا الوحي، وكيفية تعامل الرسول معه، حتى لا يحدث خلط بينه وبين وحي النبوة.

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ

لَمِنَ الْغَافِلِينَ) (سورة يوسف: آية 3).

لم تأت أي إشارة في كتاب الله على أن الوحي الذي أوحاه الله لتبنيه بشكل مباشر كان شيئاً آخر خلاف القرآن. ثم جاء في موضع آخر في كتاب الله وظيفة ومهمة الرسول مع هذا الوحي؛ وهي التلاوة.

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) (سورة الرعد: آية 30) .

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) (سورة الكهف: آية 27) .

كما نرى أن وظيفة الرسول مع الوحي الخاص بالرسالة هي وظيفة محددة؛ وهي التلاوة. ومعنى التلاوة؛ أي تتبع المتلو حرفياً، وهنا في حالتنا تبليغه بالحرف دون زيادة أو نقص. لذلك الذي يتلو شيئاً؛ أي يتبعه دون اجتهاد أو زيادة أو نقص، بينما الذي يقرأ فهو يجتهد ويحلل بقدر معارفه. لذلك لدينا خطأ كبير في التفريق بين لفظ (يقرأ) ولفظ (يتلو)، وهذه الخلط جعل الناس لا يدركون كلمات الله بشكل صحيح.

في الجزء المتبقي من هذا الفصل سوف نحاول التفريق بين فعل (أطيعوا) الذي جاء مع الرسول، وفعل (صلوا) الذي جاء مع النبي، وكذلك فعل (اتبعوا). سوف نحاول كذلك الإجابة على السؤال الأهم، وهو إذا كان هناك معنى مختلف للفظ، فكيف لم يعرفه رسول الله؟ ولماذا الألفاظ في النص الإلهي الموحى للرسول تختلف تماماً عن تعبيرات النبي؟

فعل (أطيعوا)

نلاحظ من خلال آيات الكتاب الحكيم أن فعل (أطيعوا) جاء مع الرسول تحديداً، بينما لم يأت هذا الفعل مع النبي، مما يجعلنا نتوقف عند هذه الملاحظة لنكتشف معنى (أطيعوا) الدقيق. فعل (أطاع) وجذره (طوع) هو خلاف الكره، كما جاء في لسان العرب، وفي مقاييس اللغة، يقال (طاع) أي انقاد معه ومضى لأمره. هناك صفة من صفات هذا اللفظ هي الأساس في فهم مدلوله، وهي الاختيارية. أي أن الطاعة فعل اختياري، ليس فيه إجبار أو كره. لذلك سوف نرى أن جميع ألفاظ الطاعة جاءت مع الله ومع الرسول؛

لأن الإنسان حر الإرادة في قبول ما جاء به الرسول، ومن ثم طاعة الله، أو عدم طاعة الله أو الرسول.

الذين يقولون أن الطاعة معناها الانقياد معذورون؛ فهم يقيسون مفهوم الطاعة على مقاييسهم البشرية، ومن خلال فهمهم للرق، وسلوك العبد المملوك في تلك العصور. الطاعة هي قبول الأمر والرضا به، مع القدرة على رفضه، ولو أن الإنسان قبل شيئاً ما بشكل جبري لا يقال له مطيع. هذه بديهيات لا يجب أن نقف أمامها كثيراً، فالطاعة لا تتحقق إلا مع القدرة الكاملة على الرفض، وحرية الاختيار.

هذه بعض الآيات التي تدل على اختيارية الطاعة:

(مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) (سورة النساء: آية 80).

طاعة الله وطاعة الرسول قائمة بالأساس على قبول الأمر وتعقله، ولا يمكن لإنسان قبول أمر دون عرضه على عقله. لا بد هنا أن نتوقف كثيراً أمام لفظ (الرسول)، والذي هو هنا بمثابة حلقة الوصل بين الله وخلقته.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (سورة الزخرف: آية 54).

هنا نرى أن القوم أطاعوه لأنه استخفهم، ولم يجبرهم؛ أي أنه استخدم الحيل في ردم الأدلة، فطاشت عقولهم، وقبلوا حيله واستسلموا لها مختارين. لو أن الطاعة هنا إجبارية، لما كان على هؤلاء القوم أي نوع من اللوم، ولكن كل اللوم وقع عليهم؛ لأنهم سلموا عقولهم لهذا الفاسق يتلاعب بها، فكانوا قوماً فاسقين.

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: آية 158).

لا يخفى على أحد أن التطوع -وهو لفظ يحمل نفس الجذر- هو أيضاً عمل اختياري، وليس فيه أي إجبار. الطاعة المحمودة في كتاب الله جاءت لله ولرسوله ولأولي الأمر -والذي

سوف نبينه في الفصول القادمة- قائمة بالأساس على الاختيار، والذي بدوره يقوم على تحكيم العقل، ولولا قدرة العقل على الاختيار ما صحت الطاعة.

هناك آية كريمة في كتاب الله تحذر من طاعة بعض من الذين أوتوا الكتاب، وسوف نتعرض لها بالتفصيل عند دراسة أولي الأمر. ولكن يكفي هنا أن نمر عليها سريعاً. ونلفت النظر إلى أن طاعة بعض الذين أوتوا الكتاب يمكن أن تنقلب على المطيع، إذا سلم عقله ولم يختبر ما يقوله الذين أوتوا الكتاب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) (سورة آل عمران: آية 100).

الفرق الواضح بين القرآن والكتاب، هو الكفيل بفهم لماذا طاعة فريق من الذين أوتوا الكتاب يمكن أن تنقلب كفراً على المطيع؛ إذ إن الذين أوتوا الكتاب لديهم معرفة، ولكنها ليست مؤصلة بالدليل والبرهان فهم أهل معرفة وليسوا أهل علم ولذلك طاعة أغلب هؤلاء مجازفة لأن أكثرهم لا يعلم ويقلد وينسخ الهداية دون اختبار لهذه الهداية.

فعل (صلوا)

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (سورة الأحزاب: آية 56).

هذه الآية الكريمة توضح دوراً هاماً للمؤمنين في وجود النبي، وهو الصلاة عليه، فما هي الصلاة على النبي؟

الصلاة هي نوع من التواصل والمساندة، فإذا قال الله أنه يصلي على النبي؛ فهذا معناه أن النبي مدعوم من الله في تصرفاته وأفعاله، وأن هناك عوناً من الله للنبي حتى يستطيع قيادة الفترة التي تولى فيها المسؤولية. لقد رأينا هذا الدعم ماثلاً أمامنا عندما صحح له ربه المواقف التي لم يوفق فيها، مثل تحريم ما أحل الله، أو التعامل مع الأسرى.

مواقف النبي وتصرفاته المتعلقة بالتفاعل مع النص الإلهي يقول لنا ربنا عنها أنها مدعومة من الله، وأن هناك تواصل بين الله وملائكته والنبي، وهذا التواصل هو السبب المباشر لنجاح النبي في فهم كثير من الأمور، ونقلها إلى المجتمع وقتها.

ما زلنا نؤكد أن حركة الحياة بشكل عام تتطلب حركة مستمرة ومتجددة، والنبي كان حلقة من هذه الحلقات، وقد تفاعل مع النص الإلهي بدعم مباشر من الله، ينقل الفترة التي عاش فيها إلى درجة راقية من التفاعل مع النص الإلهي.

ليس مطلوباً من النبي أن يتفاعل نيابة عن العصور التالية؛ لأن مهمة النبي سوف تنتهي بوفاته، وعلى البشرية أن تأخذ دورها في وجود الرسالة. عندما طلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين الصلاة على النبي؛ إنما طلب منهم دعمه ومساندته أيضاً، وهذا هو الاتباع. لم يطلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين طاعة النبي في هذه الآية، لأن الطاعة اختيارية، وقد حدثت بقبول الرسالة. أما وقد قبل المؤمن الرسالة وآمن بها فالواجب المنوط به بعد ذلك هو اتباع النبي والصلاة عليه؛ أي تقديم الدعم له والوقوف بجانبه.

مرة أخرى، الصلاة على النبي تعني بمفهومنا المعاصر الالتزام الحزبي؛ أي قبول مبادئ الحزب والإيمان بها، فلا مكان بعد ذلك لاتخاذ مواقف مغايرة. إنها وظيفة راقية، وإرشاد قرآني عظيم للمجتمعات، للتوافق وعدم الفشل؛ بسبب التوجهات المختلفة. مع ذلك جاء أيضاً التوجيه الرباني لنبيه بالشورى، إذ طلب ربه منه أن يشاور في الأمر، وإذا عزم فليتوكل، وعند ذلك لا يملك المؤمنون إلا الصلاة على النبي؛ أي دعمه ومساندته.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ^ط وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ^ط

عَنَّهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ^ط فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ^ج)
(سورة آل عمران: آية 159).

لو كان تعامل النبي مع مجتمعه وحيّاً خالصاً كما فهم المتشددون، لما طلب الله من نبيه أن يشاورهم في الأمر. إذ كيف يشاور في أمر وحي من الله، ولكنه الرأي والمشورة، وهذا هو التفاعل الذي نُصّر عليه، ونطلب من الناس التروي في فهم الأحداث التي عاشها نبينا الكريم، وعدم خلط الأمور؛ لأنها ليست في صالح السنن الكونية، التي أخبر عنها ربنا في كتابه، وفيها تعطيلٌ لدور الإنسان وتفاعله مع القرآن الذي أشرنا إليه، من خلال سورة الرحمن.

ما يحدث حالياً من الاعتقاد بأن الصلاة على النبي هي أن يقول الإنسان اللهم صل على محمد باللسان، هو أمر غريب بعض الشيء. إذا أمر الله المؤمنين بالصلاة على النبي، فكيف نجد أن المؤمنين يردون الأمر لله مرة أخرى، بقولهم اللهم صل على النبي، وهذا شيء غير منطقي.

من وجهة نظري أن الصلاة على النبي هي عملية مستمرة، فإذا كانت في حياته الوقوف بجواره ودعمه ومساندته، فهي بعد وفاته تبيان مهمته، وفهم دوره، وعدم ترك الأمر لمتواضعي العقول، لجعل النبي رباً من الأرباب. جعل النبي رباً وإعطاؤه صفة التشريع الإلهي الأزلي هو أكبر إساءة لدور النبي.

الصلاة على النبي لا تتم إلا من خلال تبيان ذلك، ورد الناس عن تضخيم دور النبي ليصبح شريكاً لرب العالمين. قول اللهم صل على محمد، لا نجد فيه حرجاً، إن قصد قائله طلب الرحمة لرسول الله، وتذكره بالخير. ولكن هذا القول باللسان لا يعد امثالاً لأمر الله بالصلاة على النبي. رد الإساءة عن مقام النبوة، وبيان حقيقة المغالين في هذا المقام، حتى يعود الناس لرب العالمين، هو عين الصلاة على النبي. إذا كانت صلاة الله وملائكته على النبي سبباً مباشراً في دعم النبي في تفاعله مع الرسالة؛ فإن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين كذلك بالصلاة عليهم، وهذه الصلاة هي كذلك منحهم الدعم والمساندة، لينتقل الناس من الظلمات إلى النور.

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) (سورة الأحزاب: آية 43).

الصلاة على أحد تعني التواصل معه بطريقة ما، ويتحدد على قدر هذا التواصل ما يجب فعله. في التعبير القرآني (الصلاة على) تعني الإحاطة بالمصلي عليه والتواصل معه، وليس مجرد تواصل اعتيادي. فصلاة الله على المؤمنين؛ تعني إحاطته بهم والاتصال بهم، سواء من قبل الوحي أو من قبل الملائكة؛ لتسديد خطاهم وتوفيقهم.

ما حدث في غزوة أحد، وفرار الناس عن النبي لما انكشف الناس، ووقعت الهزيمة، لم يصلي الناس على النبي. إذ لو صلى الناس على النبي وقتها لأحاطوه بالرعاية، وقدموا له كل الدعم، والتفوا حوله.

كثير من الأمور التي يخبرنا عنها القرآن أن الناس كانوا أحياناً يتنازعون حول النبي، وهذا التنازع لا يمكن أن يكون صلاة على النبي؛ إذ إن الصلاة تتطلب التواصل الجيد، ومساندة النبي لكي يؤدي وظيفته. نأتي للسؤال الأخطر وهو:

كيف يمكن أن نفهم اليوم لفظاً بخلاف ما فهمه النبي؟

حتى تتضح الصورة بشكل كامل سوف أسوق مثلاً على هذه الجزئية، وهو مثال تفسير ظاهرة خسوف القمر، وكيف عندما قنا بتحليل اللفظ القرآني وجدنا أن هذه الظاهرة أطلق القرآن عليها لفظ (اتساق)، وليس لفظ (خسوف) كما جاء في الجزء الثاني من كتاب تلك الأسباب.

قال ربنا عن ألفاظ القرآن تحديداً أنها بلسان عربي مبين، وكما قد بينا معنى (عربي مبين)؛ أي أن اللفظ يفصح عن نفسه، ويحمل خصائص وصفات مدلوله. وكذلك أكدنا من خلال المنهج المستخدم في سلسلة كتب تلك الأسباب أن الألفاظ في كتاب الله حقيقية، بينما ألفاظ البشر على مر التاريخ خليط من الألفاظ الحقيقية والألفاظ غير الحقيقية وغير الدقيقة. عندما يأتي الرسول برسالة محددة من الله، خصوصاً إن كانت هذه الرسالة موجهة إلى البشرية

جميعها إلى يوم الدين، فلا بد أن يكون فيها معلومات ورسائل خارج الإطار المعرفي للرسول، وهو على ذلك مأمور بالتبليغ فقط، والناس في كل العصور مأمورون بالتفاعل وبذل الجهد لفهم المقصود.

لسان الرسول لا يلزم أن يكون لساناً عربياً مبيناً، ولكن يلزم أن يكون بلسان قومه الذي أرسل فيهم؛ لكي يفهموا على الأقل الحد الأدنى الذي يؤهلهم للإيمان بكلمات الله. لذلك عندما أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل، لم يقل عن الرسول أنه بلسان عربي مبين، بل قال بلسان قومه. (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (سورة إبراهيم: آية 4).

لسان القوم هو لا شك خليط، وهو الحد الأدنى لفهم الرسالة، بينما لسان آيات الله هو الحقيقة المطلقة، والتي يجب تقدير جميع الألفاظ عليها. لذلك عندما وصف القرآن ظاهرة الخسوف في كتاب الله بالاتساق لم يؤولها النبي، ولم يرد إلينا أي شيء في ذلك، اللهم إلا محاولات ابن عباس وغيره لفهم هذه الآيات.

في ظل نقص المعرفة، وفي ظل غياب منهج علمي لفهم اللفظ القرآني تصبح محاولات الناس لفهم اللفظ من خلال مدلول الكلمات لديهم مقبولة بشكل كبير. لكن مع طوفان المعرفة، ومع تبلور منهج محدد لفهم اللفظ القرآني، يجب إعادة النظر فيما نظنه مسلمات. لذلك عندما يقوم النبي بوصف الظاهرة بالخسوف فهو يتحدث بلسان قومه، بينما عندما يصفها القرآن فهو يصف الحقيقة المطلقة، والتي لا يمكن قبولها بسهولة، إلا في ظل تراكم معرفي معقول لدى البشرية. يأتي الخلط بسبب الاعتقاد برؤية النبي، أو قدرته على فهم وتفصيل كل شيء، وإضافة صفات الإحاطة عليه، سواء في العلم أو القدرة.

هذه النظرة للنبي هي نظرة بدائية، وسمة مميزة للمجتمعات الفقيرة معرفياً، إذ إن هذه المجتمعات تبالغ في قدرات أفرادها، وخصوصاً إن كان هؤلاء الأفراد ذوي مكانة في القبيلة،

فما بالكم بالنبي؟ يبدو جلياً أنه عندما يأس الشيطان من جعل الناس تعتقد بألوهية النبي، دفعهم لاتخاذهم رباً أو نصف إله، بحيث يخبر عن المستقبل بلفظ محدد، ويحكم لهذا بالجنة وهذا بالنار، رغم أن القرآن ذاته لم يتطرق لذلك. النبي تفاعل مع النص الإلهي ومع مجتمعه، فعندما وصف الخسوف بالخسوف لم يكن وحيًا، وإنما تفاعل خاص به صلوات ربي عليه.

لكن عندما حللنا اللفظ ووجدنا أن اللفظ الصحيح الذي استخدمه القرآن هو اتساق، فلا يجب اتخاذ قول النبي حجة على القرآن، لأننا بذلك نجعل القرآن في المرتبة الثانية، ونجعل النبي عالماً بتأويل القرآن، والله سبحانه ينفي ذلك تماماً.

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (سورة: آية 7).

النبي لم يأت ليلغي تفاعل الناس مع النص القرآني؛ بل جاء مبلغاً لرسالة محددة، وتفاعل معها بأحسن ما يكون، فلا سبيل للزيادة، وجعله رباً من الله بأفعال كهذه. لقد وصل الحال بالروايات إلى وصف أحداث تفصيلية، وأمور مستقبلية، على لسان النبي، وملاحم ومعارك لم ينزل في القرآن أي تفصيل لها. إن منهج القرآن لا يؤيد ذلك إطلاقاً، من قص أحداث مستقبلية وتعيين أحداث محددة، وكأن الحياة تحصيل حاصل. المنهج القرآني الذي وعيناه في كل آية من آيات الله يدعو الناس إلى بذل قصارى جهدهم، وتحمل مسؤوليتهم، والتعامل مع النتائج.

للأسف تم تبديل هذا المنهج العظيم، بروايات تخبر عن كل صغيرة وكبيرة، وللأسف هذه الأخبار إنما جاءت بلسان العصور التي صيغت فيها، فنرى المعارك المستقبلية تدار بالسيوف والرماح، رغم أن هذا عصر قد مضى.

لقد جعلوا رسول الله مطلعاً ومخبراً عن كل شيء لم يخبر عنه الله سبحانه وتعالى. يقول أحدهم إن كان النبي قد أخبر كل هذه الأخبار عن المعارك والملاحم آخر الزمان بهذا التفصيل الدقيق، لماذا لم يخبر العرب عن البترول القابع تحت أرجلهم؟، ولماذا لم يخبرهم عن الكهرباء والتقدم التكنولوجي الهائل الذي سوف تعينه البشرية؟.

الإجابة ببساطة لأنه بشر، وليس له ذلك كما قال القرآن، وهو ليس إلهاً كي يكون حاكماً على المستقبل. يبدو لي أن هذه الروايات كانت رد فعل طبيعياً على روايات تاريخية تذكر هذه الملاحم، وتفصيل معارك نهاية الزمان من خلال القصص التاريخي في روايات اهل الكتاب وقتها، فحاول الناس تماشياً مع هذه الثقافة اختراع روايات بنكهة إسلامية، حتى لا يظن الناس أن الدين لم يذكر هذه الأشياء المهمة. ولو عادوا إلى القرآن وخلصوا فيه لقوموا ما قال الناس، وأصلحوا التاريخ الفاسد، بدلاً من متابعتهم عليه، والإقرار بأساطير كهذه، ونسبتها إلى النبي الكريم.

بعد إلقاء الضوء على مهمة النبي، وفهم دور الرسول، ومن قبله فهم دور القرآن، سوف نتقدم خطوة للأمام للتعرف على مفهوم من أعظم المفاهيم في كتاب الله. في الفصل القادم سوف نعيش لحظات مع مفهوم ولي الأمر، وكيف أسس هذا المفهوم لاستمرار اختبار الناس كاختبار عصر التنزيل الأول.

الفصل الثامن أولو الأمر

أنزل الله الكتاب وتعهده بحفظ الذكر، حتى يكون المرجع أو النص المؤسس لكل من يرغب في القراءة. لفظ (اقرأ) نفسه يوجه الناس إلى استعمال العقل؛ لأنه ببساطة انتهى عصر التوجيه المباشر من الله. هل أرسل الله القرآن وتركنا هكذا يمجج بعضنا في بعض لا نهتدي، أم أنه استكمل توجيه والإرشاد الرباني بعامل مساعد آخر؟

العقل البشري غير متساوٍ في القوة لدى الجميع، فهل معنى ذلك أن يتقاذف الناس الآيات يفسر كل منهم حسب ثقافته وحسب هواه، أم أن هناك حاكماً لهذه العملية. لا شك هناك حاكم، وحاكم قوي، قائم بالأساس على قدرة العقل وقوته أيضاً، في التفريق بين الحق والباطل.

هذا العامل الأساسي أو الجسر بين باقي العقول والقرآن هو ولي الأمر. (ولي الأمر) هذا المفهوم الذي تم اغتصابه من قبل السلطة، وتم تحريفه كلياً ليتلاءم مع وصف السلطان، وهو وصف لا يمت بصلة من قريب أو بعيد لوصف الحاكم أو السلطان. كل الذين جعلوا هذا الوصف وصفاً للسلطة الحاكمة ويروجون لهذا المفهوم إنما يفترون على الله الكذب، وضيعوا مفهوماً من أعظم المفاهيم القرآنية، الكفيلة بعودة لا أقول الأمة، ولكن بعودة الإنسان إلى ربه، وإعلاء كلمة الله، بدلاً من حالة الضياع التي نعيشها.

رغم سيطرة مفهوم الحكام على مفهوم أولي الأمر، إلا أننا نجد أن هناك من قال بأنهم العلماء، مثل الإمام مالك، وهناك من قال بل هم العلماء والأمراء.

ولي الأمر

ما هو مفهوم (ولي الأمر)؟ وكيف حَرَّفَ الناس هذا المفهوم؟ ولماذا نعتقد أن إعادة هذا المفهوم إلى وضعه الطبيعي هو بمثابة النقلة النوعية في إعادة الإنسان إلى طريق الله؟ القرآن يرشدنا إلى أن مفهوم ولي الأمر هو متعلق بأمر الله، وقد جمعه الله مع رسوله في السياق نفسه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ^ط فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ^ج ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (سورة النساء: آية 59).

هذه الآية الكريمة التبتت على الكثيرين، ولعمري إن رائحة السياسة تفوح من التفسير التقليدي لها، ولا تحتاج لعظيم جهد لكي يدرك الإنسان هذا الخلط. لكي نفهم من هم أولو الأمر لابد أولاً من فهم ما هو الأمر. ثم لابد أن نتعرف على نوع الطاعة المذكورة في الآية الكريمة؛ حتى تتمايز الأمور، ولا تتداخل المفاهيم.

طاعة الله وطاعة الرسول هي طاعة اختيارية، وليست إجبارية كما ذكرنا في الفصل السابق. طاعة الله وطاعة الرسول هي طاعة معرفية، وليست طاعة إلزامية. الإنسان مخير تماماً بطاعة الله وطاعة الرسول، والقرآن أثبت ذلك، ولا حاجة لنا في إعادة هذا الإثبات.

حرية العقيدة والإيمان مكفولة، وإلا ما كان هناك حساب من الأساس. ما علاقة طاعة ولي الأمر إن كان المقصود بولي الأمر هو الحاكم بالطاعة الاختيارية؟

الحاكم طاعته ليست طاعة معرفية أو طاعة اختيارية، ولكن هي على خلاف طاعة الله وطاعة الرسول طاعة إجبارية؛ إذ الحاكم لا يكون حاكماً إلا في وجود قوانين يلتزم بها الجميع، بغض النظر عن اقتناع أو عدم اقتناع الإنسان بها بشكل شخصي. ليس لي علاقة باستخدام المسمى من قبل بعضهم، أنا هنا أتحدث عن مدلول الألفاظ في كتاب الله.

بالنسبة إلى فرض الصلاة فأنت لك كامل الحرية في أن تصلي أو لا تصلي، وليس عليك أي غرم في حياتك، ولكن عن طريق معرفتك تعلم جيداً أن الصلاة فرض، وأنتك مسؤول عنها أمام الله. بينما احترام إشارة المرور ليس اختياراً، وإنما التزام، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة. إذن طاعة الله هي بالأساس قائمة على حرية الإرادة، ومرتبطة بالمعرفة، بينما الحاكم لا يصح أن نصف العلاقة بينه وبين الناس بعلاقة الطاعة، وإنما بعلاقة الالتزام، حتى دون قناعة كاملة.

اعتبار الحاكم هو ولي الأمر في الآية الكريمة اعتبار ساقط، ولا يصح جمعه مع الله ومع الرسول. الحاكم لا يحكم باسم الله، ولم يحكم أحد باسم الله سوى الأنبياء، وقد أنهى الله حقبة حكم الأنبياء كما بينا، عندما أعلن أن خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم. لاحظ أن وصف رسول الله بالنبي لم يتم إلا بعد هجرته إلى المدينة، حيث أصبح الحاكم الفعلي للمجتمع، لذا صح أن يسمى نبياً إضافة إلى كونه رسولاً.

لذا اعتبار (ولي الأمر) هو الحاكم، ووضعه في المستوى نفسه مع الله ورسوله هو انتكاسة وسوء فهم لوظيفة الحاكم. عدم إدراك مفهوم خاتم الأنبياء، وعدم استيعاب الإعلان الإلهي بانتهاء حقبة الحكم باسم الله، جعل الناس غير قادرين على فهم مفهوم ولي الأمر وإدراكه كما بينه القرآن. لو أدرك الناس ذلك منذ البداية لما احتكر أحد كائناً من كان الحديث باسم الله، أو احتكر أحد القول على الله، أو ادعى أي إنسان أنه مؤيد من الله، لكي يخضع الناس لسلطانه.

لم يتضرر الواقع السياسي لهذه الأمة قدر تضرره من هذا المفهوم المغلوط عن ولي الأمر، وجعل الحاكم متحدثاً باسم الله لا يمكن مراجعته. لكن هل هناك من دليل آخر على أن ولي الأمر ليس الحاكم، وإنما متعلق بشيء آخر؟

بالطبع توجد أدلة كثيرة على ذلك، بل إن مفهوم ولي الأمر أعمق بكثير، وسوف يقيم الحجة على الناس، وسوف يحول جميع العصور إلى عصور شبيهة بعصر التنزيل.

هناك آية واضحة في سورة النساء، أشارت إلى صفة شديدة الأهمية من صفات أولي الأمر، وهي القدرة على استخراج الأشياء والاستنباط.

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا) (سورة النساء: آية 83).

أصل كلمة يستنبطون هو نبط وأصلها النون والباء والطاء وتدُلُّ على استخراج شيءٍ. وَاسْتَنْبَطْتُ الْمَاءَ: اسْتَخْرَجْتُهُ. الألف والسين والتاء تفيد الطلب فمن هنا نجد إن لفظ يستنبطون تعني طلب استخراج الشيء. إذا كان الحديث عن الأمر الإلهي فإننا نتحدث عن قدرة على استخراج معاني ومفاهيم من الأمر الإلهي.

أولو الأمر من خلال هذا النص هم أصحاب القدرات العقلية القادرة على الاستنباط والتحليل، واستخراج الأشياء وبيانها، وليس الحاكم.

بل أن نغادر هذه الآية الكريمة، يبدو واضحاً من سياق الآية أن الرسول المقصود هنا ليس شخص رسول الله، وإنما القرآن نفسه الذي يحمل رسائل متعددة، فكل آية، ولا نبالغ إذا قلنا أن كل كلمة، بل وكل حرف، يحمل رسالة للإنسان، وسوف يظل الإنسان بصفة عامة يستخرج هذه الرسائل إلى يوم الدين وبالطبع أولوا الأمر هم حالة خاصة من البشر ولديهم قدرات متميزة تؤهلهم لاستخراج هذه الرسائل.

هناك بعض الآيات الكريمة التي تشير إلى أن الرسول هو شخص رسول الله، بينما في بعضها تشير إلى أن الرسول هو القرآن، وبعضها يشير إلى أن الرسول هو ناقل الوحي، أو أحد الملائكة. مفهوم الرسول على أنه أيضاً الرسالة بشكل مجمل عبر عنه الراغب الأصفهاني، عندما شرح مادة (رسل)، حيث قال: (والرسول يقال تارة للقول المتحمل، كقول الشاعر: ألا أبلغ أبا حفص رسولاً، وتارة لمتحمل القول والرسالة).

الآية الكريمة التي بين أيدينا توحى بذلك، بأن الرسول هنا هو القرآن، وليس شخص رسول الله؛ إذ كيف نرده إلى الرسول وهو اليوم ليس بيننا. كذلك قول الله تعالى (لعله الذين يستنبطونه منهم)، عائد بالأساس على أولي الأمر، ولا يوجد إشارة للرسول. شيء آخر هام، وهو وجود الرسول شخصياً يلغي معه أي وجود آخر؛ فقول الرسول على أنه شخص ناقل للرسالة يلغي تماماً أي دور لأولي الأمر. الآية الكريمة تشير إلى رد الأمر إلى الرسول وإلى أولي الأمر، ولا يمكن أن يكون لأولي الأمر وجود إلا في غياب شخص الرسول البشري وحضور الرسالة، والتي سميت هنا بالرسول، لملها عدداً كبيراً من الرسائل الربانية، والتي قلنا أنها لن تنتهي أبداً، وهكذا هي مستمرة.

لكن كيف نرد الأمر لله ثم لرسوله ثم لولي الأمر؟

هذه الآية أشكلت على الكثيرين؛ إذ إن الفرق بين رد الأمر لله ورسوله -سواء أهدا الرسول شخص أم الكتاب- غير واضح الحدود.

أولاً: رد الأمر لله هو الإخلاص لله في طلب الحقيقة، وتسليم الأمر لله، بحيث يكون الإخلاص والحياد في معرفة الحقيقة هو العامل الأهم في الوصول لحقائق الأشياء.

العامل الثاني: هو رد الأمر للرسول، وهنا عرض الأمر على القرآن الذي أرسله الله لنا، على نحو لا يجوز تجاوزه أو الاقتراء بما ليس فيه.

العامل الثالث: هو رد الأمر إلى أولي الأمر، وهم الذين لهم القدرة على الاستنباط. إذن الآية الكريمة تحدد لنا ثلاث مراحل يجب أن يسلكها الإنسان في معرفة ما غم عليه، أولها الإخلاص لله، وطلب الحقيقة رغبة لله دون تحيز، وثانيها عرض الأمر على كتاب الله، فإن أعجزه الفهم لجأ إلى المرحلة الثالثة وهي ولي الأمر.

بغض النظر عن كون المقصود بالرسول هو شخص رسول الله، أو هو القرآن، فإن مفهوم أولي الأمر لن يتأثر؛ إذ هم القوم أصحاب الاستنباط والاستنتاج، وليسوا الحكام.

لكن لماذا توهم الناس أن الحاكم هو ولي الأمر، وصار إلى يومنا هذا كحقيقة مسلمة؟
بعد وفاة الرسول كان الحاكم وتحديداً الأربعة الذين تولوا الحكم وإدارة الدولة بعد وفاة
الرسول صلوات ربي عليه هم أكثر الناس قرباً من رسول الله، وبحكم أهل ذلك الزمان هو
أكثر الناس دراية ومعرفة وقدرة على الاستنباط، فكان مقبولاً أن يتصف هؤلاء بولاية الأمر
رغم عدم تطابق اللفظ القرآني تماماً مع مدلوله لدى الناس وقتها.

إن كان المفهوم ليس دقيقاً تماماً، ولكن يبقى له وجاهته في وصف الحاكم بولي الأمر.
يبدو أن هذا الوصف انتقل لكل الحكام بعد ذلك، وتم اتخاذه ذريعة لتثبيت أركان الحكم؛
بسبب اعتقاد الناس بمشروعية الحاكم المستمدة من الله. لا أعتقد أن مفهوماً كهذا تم تقديمه
للحاكم على طبق من ذهب كان يمكنه أن يتخلى عنه بسهولة؛ فهو ركن شرعي أصيل في الحكم،
وإنحاد أي تمرد، وفرض الطاعة على الناس فرضاً.

بعد وفاة الرسول استلم البشر الزمام، وكان من المفترض أن يكون هناك حاكم، وذلك
تطور طبيعي للمجتمعات يفرض الالتزام. وهناك أولو الأمر؛ أي أصحاب العلم، والذي من
المفترض أن تطيعهم الناس طاعة معرفية، في كشف أسرار ورسالات هذا الكتاب العظيم،
حتى تسير البشرية في طريقها الصحيح. ولي الأمر كما بين لنا القرآن ليس صاحب سلطة،
وإنما هو صاحب رؤية أو فكر أو تدبر معتبر.

حتى نضع النقاط على الحروف في مفهوم ولي الأمر، لا بد لنا أن نفهم ما هو الأمر؟
حتى ندرك من هو وليه أو صاحبه.

مدلول لفظ الأمر

بداية جاء لفظ (أولو) بمعنى صاحب تقول التفاسير، أو المتصف بكذا، مثل أولو العزم،
وأولو الألباب. لا أجدني متفق تماماً مع مدلول (أولو) هنا حيث أن مفهوم (أولو) عندي
مشتق من الأولوية، وليس مجرد صاحب. عندما يقول ربنا أولوا كذا فهذا لا يعني صاحب

كذا ولكن يعني الأوَّلَى (من الأوليّة) بكذا. من هنا نقول بكل أريحية أن مفهوم أولوا الأمر أي الأوَّلَى بالأمر أو الأكثر جدارة بالأمر.

لفظ (أمر) ذكر في كتاب الله في مواضع كثيرة جداً، ولكي نحصيها بشكل عملي تحتاج لكتاب خاص بها. سوف نحاول قدر المستطاع فهم اللفظ من خلال جذر الكلمة ثم تحليل بعض الآيات المفصلية في كتاب الله التي تناولت لفظة الأمر ودلت عليه.

كما جاء في قاموس اللغة، فإن لفظ أمر له خمسة جذور لغوية وهي: الأمر خلاف النهي، وأيضاً هو أمر من الأمور، وهو كذلك الأمر بفتح الميم النماء والبركة، والمعلم بسكون العين، والعجب.

تبعاً للمنهج الذي نتبعه، فإن لكل كلمة حالة خاصة، وتعدد الجذور إنما يعود لجذر واحد، ولكن يحتاج لمزيد من التدقيق والبحث. من خلال دمج الجذور الخمسة، وفهم حالة كل جذر، سوف ندرك حقيقة معنى لفظ (أمر). دعونا نستعرض الجذور الخمسة مع قليل من التحليل، ونحاول تحديد الحالة التي يصفها الجذر.

أولاً: الأمر ضد النهي

هذه الحالة هي إعطاء تعليمات بشكل واضح؛ لغرض تحقيق نتيجة ما، أو دفع المأمور لفعل ما. الغرض من الأمر هنا هو إفهام المأمور مهمته، وإلمامه بها، ولو أن الأمر غامض لما صح أن يسمى أمراً من الأساس.

ثانياً: الأمر من الأمور

هذا الأصل كقول الإنسان رضيت بهذا الأمر، وهنا أيضاً نرى أن لفظ الأمر هو مجموعة من الترتيبات، والتي سوف يترتب عليها نتيجة، أو أدت بالفعل إلى نتيجة ما. على سبيل المثال أمر الزواج، هو كل ما يتعلق بهذا الزواج من مسؤوليات ورتيبات، وعندما يقدم شخص على أمر الزواج فمن المفترض أنه على دراية بتبعات ونتائج ورتيبات هذا الأمر، ولو أنه لم يفهم ذلك جيداً لما صح أن يسمى أمراً، بل يسمى أي شيء آخر. لفظ (أمر) ذاته لفظ

عظيم، ينطوي على كثير من التفاصيل، وليس مجرد كلمة تقال، وسوف نقف على معنى هذا اللفظ، عندما نقارن بين لفظ (كتاب) ولفظ (الأمر)، والذي كل منهما ينطوي على المعنى نفسه.

ثالثاً: أمر بمعنى النماء والبركة

هذا المعنى بعيد تماماً عن مفهوم الأمر ربما كان النماء والبركة أحد المعاني الفرعية للفظ الأمر، ولكنه ليس المعنى الرئيس.

رابعاً: الأمر بمعنى المعلم

وهذا الأصل بمعنى الأمانة أو الإشارة بلغتنا المعاصرة، وهي كذلك بعض الدلائل التي تشير إلى شيء ما، يستطيع من خلاله الإنسان استنتاج نتيجة معينة، وفهم هذا الأمر. يقال أيضاً للشخص الذي يقود مجموعة من الأشخاص الأمير؛ نسبة لقيامه بأمر المجموعة التي يقودها. والقيام بالأمر هو الإمام بتفاصيل الأشياء، والتعامل معها باقتدار وحكمة.

خامساً: أمر بمعنى العجب

كقول الله تعالى (لقد جئت شيئاً إمرأً). هنا نرى أن إمرأً لا تعني العجب، وإنما تعني الشيء المدبر بقصد، ومرتب عن عمد، وهو الحالة نفسها التي تشير إليها كلمة أمر. جئت شيئاً إمرأً؛ أي عمدت وقصدت ما فعلت بتدبير وتقدير، وليس بشكل عشوائي.

المتبع لكتاب الله، ولفظ (الأمر) الوارد في كتاب الله، لن يستغرق وقتاً حتى يدرك أن لفظ (الأمر) يعني تعليم معين أو إرشاد محدد يحمل قدر من المعلومات للتعامل مع حالة ما. ميكانيكية عمل الأشياء هي في حقيقتها مجموعة من الأوامر وفهما يتطلب جهداً مبدولاً. عندما يقول ربنا (يدبر الأمر)؛ أي يضع التقديرات والتعليمات، والتي يمكن من خلالها فهم عمل الأشياء، وبالتالي التعامل معها باقتدار.

يبدو من مفهوم الأمر أن هناك تداخلاً بين مفهوم الكتاب ومفهوم الأمر، إذ إن الكتاب هو مجموعة التعليمات والتقديرات التي تختص بشيء معين، بينما قد يظن بعضهم أن

الأمر هو الشيء نفسه. الأمر هو جزء من الكتاب إذ أن كل كتاب في حقيقته هو مجموعة من الأوامر المعنية بوصف الأشياء التي يتضمنها الكتاب وصفاً دقيقاً ومحكماً.

من هنا يمكننا القول أن ولي الأمر هو من له القدرة على التعامل على الأقل مع احد هذه الامور من فهم جوانب هذا الأمر وتحليل علاقاته والإحاطة به قدر المستطاع.

الآيات التالية سوف تزيد الرؤية وضوحاً عن مفهوم الأمر، ومفهوم ولي الأمر.

الآية الأولى:

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ

التَّلَاقِ) (سورة غافر: آية 15).

ذهبت التفاسير إلى أن معنى يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، تعني الوحي على رسل وأنبياء الله. لا بد أن نفرق بين وحي الرسالة وإلقاء الروح من أمره على من يشاء من عباده. وحي الرسالة سَمَّاهُ ربنا تنزيلاً، وهذا التنزيل إما وصفه ربنا بالكتاب، أو بالقرآن، بينما تنزيل الأمر أو إلقاء الأمر هو الخاص بالتدبير، أو بتكشاف شيء أو بعملية الفهم.

الآية التالية ترشدنا إلى هذا المعنى دون مواربة:

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا^ج مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن

جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا^ج وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (سورة الشورى:

آية 52).

نستطيع أن ندرك بسهولة أن روحاً من أمرنا خاصة بمسألة الإدراك والوعي أو المعرفة بالكتاب، وكذلك الإيمان، وليس محتوى الكتاب. الفرق بين وحي الرسالة وروح الأمر، هو الفرق بين القرآن والتفاعل مع القرآن؛ بين التنزيل وبين التأويل.

لذلك وحي الرسالة ملزم، ليس للرسول دخل فيه، بينما روح الأمر هو قدرة الرسول

أو الإنسان على التعامل مع المنزل وفهمه وإدراكه، من خلال إطاره المعرفي. يمكن أن يكون

روح الأمر بالنسبة للرسول هو وحي النبوة، بينما إلقاء الأمر على آخرين خلاف الرسل، أو بعد انتهاء النبوة هو روح الأمر، دون النبوة.

إذا كانت الرسالة تأتي من خارج الإطار المعرفي للرسول، فإن الأمر لا بد أن يأتي من داخل الإطار المعرفي لولي الأمر، حتى يستطيع التفاعل والتعامل معها.

الآية الثانية: (يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (سورة النحل: آية 2).

الآية هنا أيضاً تتحدث عن الشيء نفسه، وهو أن الأمر وحي إلهي، ولكن ليس وحي رسالة؛ لأن الروح كما بينا في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب هي العملية الخاصة بالوعي والإدراك. طالما أن الروح خاصة بالوعي والإدراك فلا بد أن يكون الأمر من داخل الإطار المعرفي لمتلقي الأمر، وهذا يتنافى مع وحي الرسالة.

التعبير القرآني (على من يشاء من عباده) يشير إلى أن الأمر يلقي على العباد بصفة عامة، وليس خاصاً بالرسول تحديداً. التعبيرات القرآنية شديدة الدقة، والآيات مترابطة، ولا يمكن القفز فوق الآيات، واعتبار أن هذه الآية خاصة بالرسول خصوصاً، في ظل وجود تعبير أولي الأمر.

هذه الإشارات لا يمكن تجاوزها؛ إذ إن الأمر ليس رسالة محددة الأطر، بل هو استنباط واستخراج واستنتاج وإدراك. لذلك وظيفة الرسول هي التبليغ، بينما وظيفة ولي الأمر هي محاولة التأويل، والوظيفتان متكاملتان تماماً، إذ كل منهما يقول للناس أنه لا إله إلا الله. لا إله إلا الله تعني لا اختلاف، وتناسق وانسجام. لذلك عندما يحدث اختلاف بمعنى التعارض فلا بد من شخذه المهم، لبيان هذا التعارض، وتفنيده بشكل منطقي وعلمي، لا بشكل تبريري.

مهمة الرسل والأنبياء وأولي الأمر هو أن يندروا أنه لا إله إلا الله، من خلال فهم العلاقات وانسجامها مع بعضها بعضاً لأن مصدرها واحد فلا اختلاف ولا شذوذ ولا عشوائية.

لذلك كل من يساعد في بقاء التعارض والاختلاف من خلال التبرير السخيف، أو ترديد الأساطير، هو في الحقيقة يعمل ضد لا إله إلا الله.

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ^ج وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (سورة النساء: آية 82) (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (سورة الإسراء: آية 85).

هذه الآية يستدل بها المفسرون على غموض الروح، وعدم السؤال عنها، رغم أن الآية صريحة، وهي إجابة عن ماهية الروح، وليس زجراً للإنسان عن السؤال عن الروح. ببساطة شديدة تقول الآية: إن الروح من أمر ربي، أي أن الروح على علاقة وثيقة بأمر الله، ولو استعرضنا الآيات السابقة التي ربطت بين الروح والأمر، لأدركنا أن الروح هي حامل هذا الأمر الذي يوحيه الله لمن يشاء من عباده.

بالطبع مفهوم الروح الذي نتداوله على أنه الشيء الذي يهب الحياة للإنسان، ومن ثم نقول تجاوزاً خرجت روحه دليلاً على موته، هو مفهوم خاطئ بالمرّة؛ فما يهب الإنسان الحياة هو النفس، وعندما تخرج يحين الموت.

الروح كيان خاص بالوعي والإدراك والمعرفة وتمييز الأشياء. الذين يتلقون الأمر من خلال الروح هم فئة معينة كما ذكرت الآيات، على رأسهم أولو الأمر. سوف نفصل هذه المسألة تفصيلاً دقيقاً، عندما نأتي على سورة النجم، والحديث عن الصاحب المذكور في السورة، وعلاقتها بالوعي المعرفي في الكتاب القادم إن شاء الله. ارتباط الروح بالأمر، ومن ثم بالعلم في الآية الكريمة، يوضح لنا أن العملية كلها خاصة بالإدراك والوعي والفهم، والقدرة على التعامل والتفاعل، وليست خاصة برسالة محددة ملزمة.

العلم الذي تناولناه في أكثر من موضع، هو فهم ميكانيكية الأشياء، والتعامل معها، وليس مجرد حفظ تعريفات وتخزينها. العلم هو عملية المعالجة التي تتم على المعلومات أو المعرفة

المتراكمة سابقاً، لذلك جاء ذكر (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) مناسباً تماماً ومتوافقاً مع ذكر الروح والأمر، المتعلقين بالشأن نفسه.

المهدي المنتظر

رغم عدم ورود أي ذكر صريح لما يسمى بالمهدي، أو المهدي المنتظر الخاص بأحداث آخر الزمان، إلا أننا نستطيع من خلال إدراك مفهوم ولي الأمر إيجاد علاقة وثيقة بين ولي الأمر وما يسمى بالمهدي المنتظر. قد يكون مفهوم المهدي المنتظر قد وجد طريقه إلى التراث الإسلامي من خلال محاولة فهم ولي الأمر، وعلاقته بالأمر الذي يتلقاه من خلال الوحي الإلهي، ثم كعادة البشر تم تضخيم القصة، وخروجها عن سياقها، وأصبح لكل مذهب روايات عن هذه الظاهرة، والتي لو عدنا إلى كتاب الله لوجدنا أن لها جذوراً، ولكن ليس كما ترويه المرويات.

يبدو لي أن ولي الأمر هو الوضع الطبيعي، وامتداد عادل لمفهوم النبي. فكما قلنا أن الأمم السابقة كانت تساس بالأنبياء، فإن الأمم اللاحقة سوف يكون فيها أولوا الأمر أي الأجدر والأكثر قدرة على التعامل مع التعليمات أو الإشارات التي تضمنتها آيات الله سواء اللفظية أو الكونية. إنه نوع من العدالة الإلهية، حتى تنال كل أمة نصيبها، ويتعرض أفرادها لاختبار قبول الحقيقة، أو رفضها، أو الإعراض عنها كما تعرضت لها كل الأمم والمجتمعات ولكن الأكثرية دائماً لا يدركون الأفكار الجديدة في وقتها.

هذا ليس أمر مستغرب فلكي يتعامل العقل مع أفكار جديدة، يحتاج إلى وقت لمعالجة الأمور ومن ثم قبولها أو رفضها وكل عقل بشري يختلف في طريقة تعاطيه مع الأفكار الجديدة والوقت اللازم لكي يعالج هذه الأفكار. لا عجب أن كل أمر جديد لا يلقي ترحيب في البداية ولكن بعد مرور وقت طويل يصبح من المسلمات لدى الناس وذلك بسبب تفاوت القدرات العقلية للناس.

نسبة قليلة جدا من الناس من يدركون ويقبلون الأمر الجديد في بدايته، ثم يتبعهم الأقل فالأقل؛ وهناك من ينقض عمره ولا يدرك شئ على الإطلاق. بصفة عامة، تطور

البشرية وتعاقب الأجيال يساعد على هضم الأمور الجديدة ومن ثم اعتناقها. الأسف والحسرة تقع على فئة من أكثر الفئات جهلاً وهذه الفئة لديه ثقة عجيبة في نقد ما لا تعرف ومعارضة ما لم تحط به علماء، فتعطل مسيرة الإدراك والوعي البشري بسبب ثقتهم الزائدة وتصريحهم بهذه الثقة الناجمة عن موروثات لا عن علم ودراسة وتدقيق وفحص.

أشفق كثيراً على هؤلاء المساكين، فهم يحملون أوزاراً مع أوزارهم ليس لهم فيها ناقة ولا جمل سوى عاطفة تدفعهم دفعا لتبني مفاهيم ورثوها دون اختبار. لو إن لي حق النصيحة لقلت لكل شخص يتسرع في معارضة أو مجابهة أمر ما، توخى الحذر فالأمر أخطر مما تعتقد ولا تحمل نفسك ما لا طاقة له به.

ماذا لو أن الأمر الذي عارضته ورفعت راية التكذيب في وجهه كان سليماً وكان رأيك الذي استقيته من آخرين خطأ؟ انت بذلك أيدت الضلال وحاربت الحق وساهمت في طمس الحقيقة وركلت نفسك بقيود أنت في غنى عنها وخضت معركة لا تدري عنها أي شيء. بنفس المنطق أقول لكل من يتبنى فكرة جديدة لم يختبرها جيداً ولم يدرسها ماذا لو أن هذه الفكرة كانت باطلة أن انها كانت محض خيالات لا تقوم على أسس.

كلا النمطين وقع في الفخ وحمل نفسه أوزارا وناصر ما لم يختبر. لا تدافع أو تهاجم إلا بعد قناعة حصلت عليها من البحث والاجتهاد قدر استطاعتك ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ثق في عقلك ولكن قبله اجعل الإخلاص مربكاً لأن الإخلاص هو العذر الوحيد الذي يمكن أن تقدمه لله حين يسألك لماذا ناصر أو أيدت أو عارضت. الإخلاص مسألة لا يمكن لاحد أنة يقيسها سوى الشخص نفسه ولا يمكن لأحد إن يعلم حقيقتها إلا الله لذلك توخى الحذر وبذل قصار جهدك ولا تلقي كلمة لا تدرك عاقبتها.

يظن بعض الناس أنهم بحاجة النبي ولو جاء النبي بكل بآية، ما وسعهم إلا تكذيبه ومعارضته، طالما أن نمطهم الفكري نمط متسرع في الحكم على الأشياء دون استبانته. لقد تطورت العقول وحضر مفهوم أولي الأمر متناسباً مع هذا التطور لكنها طبيعة متأصلة في

البشر، الشك والريبة في كل ما لم يألفوه ولم يجدوا عليه آبائهم. آبائهم السابقين في عصورهم كانوا قلة والاكثرية كانوا مكذبين، إنها سنة من السنن الكونية فن يدرك هذه السنن ويصبح من السابقين.

يختلف النبي عن ولي الأمر في كون النبي مكلفاً تكليفاً صريحاً من الله، بينما ولي الأمر ليس كذلك. ومن يظن أن مفهوم ولي الأمر مفهوم يوجب التقديس والتسليم بما يقول فهو لا يدرك السنن الكونية والإشارات الإلهية التي تدفع الناس دفعاً للرقى والتطور والتحرر المعرفي وعدم اتخاذ الأرباب.

البشرية تسير في اتجاه النضوج، وإدارة شؤونها، وتحمل مسؤوليتها كاملة، وهذه هي عين العبادة لله. كل وصاية بشرية تحت أي مسمى هي مفهوم بدائي، وأي ادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة هو إدعاء طفولي للغاية. الحكم بين الناس وبين ولي الأمر أو العالم أي عالم هو موافقة المفاهيم المطروحة للمفاهيم العقلية، وارتباطها وتماسكها بشكل منصف دون تحيز.

لا يجب أن يكون مفهوم ولي الأمر باباً يدخل منه كل متنطع، بحيث يزعم أنه ولي من أولياء الأمر، ويطلب من الناس السير خلفه. هذا النموذج نموذج مشعوذ، ليس له قيمة؛ إذ تشير الآيات إلى أن ولي الأمر من العلماء، وما يقوله يتوافق مع العلم ولا يتعارض. فوق ذلك أرشد القرآن إلى أنه في حالة حدوث خلاف نرد هذا الخلاف إلى الله؛ أي عدم التحيز، والإخلاص لله في فهم الحقيقة، ثم عرض الأمر على الرسول.

الرسول هنا هو القرآن الباقي بيننا، وليس الرسول شخصياً؛ لأنه غير موجود بيننا. هذا يعني مطابقة ما يقوله ويستنتجه ولي الأمر مع ما جاء في القرآن، والقرآن حصرياً، بشكل علمي دون تحيز وتجرد شديد لمعرفة الحقيقة، فإذا وجد تعارض، هنا يُرد أمره ولا يعول عليه. ولي الأمر أو العالم بصفة عامة الذي تتعارض أفكاره ورؤيته للأمر مع الأدلة والبراهين شديدة الوضوح (لاحظ الفرق بين الدليل وبين الحيلة) لا يعول عليه لا يؤخذ منه شيء. من يصر على قول ليس عليه دليل مقابل الدليل فقد اقترى إثماً عظيماً وحمل بهتاناً كبيراً.

أما إن تطابق الأمر ولم يتعارض مع كلام الله فوجب هنا الطاعة، وهي الطاعة المعرفية، وليست طاعة إجبارية. الطاعة المعرفية تتمثل في استبدال الصواب بالخطأ، وإماتة الباطل وانحرافات، ونشر العلم، وتشجيع الفكر والتدبر.

التحول الذي أشار إليه القرآن الكريم من مرحلة النبي إلى مرحلة ولي الأمر، قائم بالأساس على تطور القدرات العقلية للإنسان بصفة عامة، فمن جانب يستطيع من خلالها ولي الأمر الاستنتاج والاستنباط، وعلى الجانب الآخر يستطيع المتلقي القياس والفرز، وبيان الصحيح من المزيف. هذا الانتقال الرائع أسس لمرحلة جديدة تماماً، وهي مرحلة تقديم العقل، والذي تم تحريفه بامتياز، ووضع بدلاً عنه تقديم النقل.

هل يمكن أن نفتح الباب بتفسير كهذا لكل قائل أن يقول في كتاب الله، ثم يدعي أنه ولي من أولياء الأمر؟

هل سوف ندخل في سلسلة لا تنتهي من الفذلكات والتأويلات كل حسب هواه؟ عرض مثل هذا التساؤل ساذج لأقصى درجة؛ لأن قبول المفاهيم ليست هكذا سهلة مباحة، إلا عند الذين لا يعقلون، أو الذين يتبعون هواهم. وضع القرآن الحدود، وزيادة في التأكيد مدح الله تعالى في كثير من المواضع الذين يعقلون، والذين يتدبرون. المسألة لم تعد وصاية من أحد، ولا ادعاء بامتلاك الحقيقة، وإنما ولي الأمر يبذل قصارى جهده، وهو غير معصوم، ومعرض للخطأ، ومتلقٍ مطالب بتحكيم عقله وبصيرته دون أي أهواء.

هذه الطريقة وحدها هي الطريقة الضامنة لتجدد الأمة، واستمرار انبثاق المعارف في عقول أفرادها إلى يوم الدين.

كيف نعتق أفكاراً معينة والأفكار نسبية وقد يتبين خطأها فيما بعد؟

هناك بعض الأفكار المزججة والتي يمكن إن تطرق عقولنا من فترة إلى فترة، وتسبب كثير من الحيرة بل وأحياناً تسبب تشويش خصوصاً على أولئك الذين لديهم قدر معين من الثقافة.

أحد هذه الأفكار هي كيف لنا أن نعتق أحد هذه الأفكار وماذا يمكن إن يحدث إذا اكتشفنا إن الحقائق التي اعتنقناها اليوم قد ثبت خطأها غداً؟ البعض لا يحب التعويل على المعرفة كثيراً وتراه زاهداً لأقصى حد بسبب تغير الحقائق من وجهة نظره. كثير من الناس يخدع بوجهة النظر هذه فتجده لا يلقي بالأل للتعرفه حوله معتقدا أنه لا داعي لذلك.

هل هذه الحجّة ذات وجهة منطقية، (حجة إن الحقائق متغيرة ولا يجب التثبت بها بل والزهد) أم مخادعة؟

متبني هذه الحجّة حضر في ذهنه شيء ولكن غابت عنه أشياء. الإنسان ليس رباً وليس إله ولا يمكن إحاطته بعلم أو بقدره ما بشكل كامل. المعرفة على مر التاريخ معرفة متراكمة والمعرفة والأفكار تصحح نفسها بنفسها والإنسان بعمره القصير هو حلقة من حلقات التطور المعرفي للبشرية بصفة عامة. تخيل إن الإنسان الأول اعتنق مثل هذه الفكرة الخبيثة، هل كان لنا من أمل في الوصول إلى التراكم المعرفي الهائل الذي وصلت إليه البشرية.

الإنسان مطالب بتبني الأفكار في عصره التي تطابق مفاهيمه العقلية والتخلي عن الأفكار التي ثبت خطأها باستمرار وهذا هو الضامن لتجدد البشرية وتطورها المعرفي. لا حرج أن يتبنى الإنسان في العصور القديمة مسألة أن الأرض مسطحة بسبب نقص الأدوات التي يمكن أن تثبت ذلك.

لا مشكلة على الإطلاق إن يقول الإنسان بالخلق المنفصل مقابل التطور في غياب الأدلة المنطقية والعقلية المقبولة. هكذا جميع الأفكار على جميع المستويات يعتنق منها الإنسان ما يتوافق مع مفاهيمه العقلية في العصر الذي يعيش فيه. هذه الأفكار سوف يتم دراستها باستمرار وعندما يتم إثبات خطأ أيا منها فلا بد للجيل الجديد اختبار أفكاره مرة أخرى واعتناق ما يتوافق مع مفاهيمه العقلية في ذلك العصر.

إنها دورة مستمرة ينتج فيها الإنسان بصفة عامة أفكاراً ويتبنى المطابق منها مع العقل والمنطق وينبذ ما يضادهما. بهذه الطريقة تتطور المعارف وتسير البشرية سيرها الطبيعي من

التطور والتقدم والرقى. الإنسان ليس حاكماً على الحياة وليس له القدرة على ذلك ولذلك لا يكلف إلا وسعه ولا يُحمّل إلا طاقته.

القفز على هامة الزمان ورفض الحقائق الحالية المتطابقة مع العقل والمنطق بحجة أن الحقائق متغيرة ومن يدري أن ما قبله الآن سوف يرفضه الجيل القادم في المستقبل؛ حجة بليد المعرفة عاجز الإدراك يظن نفسه حاكماً على الحياة ومسيطرًا على أدواتها.

إنه نوع من الغرور المفقوت وكسل مقنع بالثقافة وهو سلوك مدمر للمعرفة ومن ثم للبشرية . غالباً لا يدرك الإنسان حجمه الحقيقي ويبالغ في تقدير ذاتهن ويظن أنه مركز الكون وأن كل شيء يدور حوله وهو ليس إلا حلقة من حلقات هذا الكون. هذا الإنسان يقضم أكثر مما يهضم ويساهم في ثبات البشرية المعرفي وتجدها عن طريق ترغيب الزهد في المعرفة في شكل فلسفة ارتدادية و منطق معوج.

شيء من التواضع وعدم المبالغة في تقدير الذات سوف يمنح الإنسان فرصة جيدة في اختبار ما بين يديه حالياً، وأقصد حالياً كل عصر من العصور، ومن ثم قبول ما يتوافق مع العقل والمنطق ورفض ما يتعارض معهما بمقاييس العصر الذي يعيش فيه هذا الإنسان.

هذه الفكرة تمنحنا كذلك احتراماً للعصور السابقة أو على الأقل عدم تحامل من خلال قياس معارفها على معارفنا حيث كثير من المفكرين المعاصرين يظنون على المستوى الديني أن السابقين كانوا أفاقيين أو جهلة أو مدلسين. كل عصر مليء بهذه الأنماط ولكن التعميم خطير. ليس معنى أن إنسان العصر القديم دون بعض المعلومات التي نظنها اليوم خرافات، انها كانت خرافات بالنسبة له.

لا شك أن ما دونه المفكر القديم أو الباحث القديم كان وقتها موافقاً للمفاهيم العقلية في عصره، فلا يجب التحامل الشديد عند نقد القديم وإغفال هذا البعد شديد الأهمية. المشكلة تكمن عند من لا يدرك التطور المعرفي فيظن أن القديم أكثر علماً وإدراكاً، فيحاول الطرف الأخر تسفيه القديم وازدراء انتاجه . المسألة ليست معركة؛ سوف ينتهي هذا التشابك في اللحظة التي يتم عندها فهم التطور المعرفي للبشرية ودور الإنسان في هذا التطور.

إنسان كل عصر لديه مهمة نبيلة وهي قبول ما يوافق العقل وعندما يظهر خطأ يجب أن يساهم في دحض هذا الخطأ بالقدر الذي يستطيع. للأسف الشديد هم قلة في كل عصر من يدركون ذلك والأكثرية مستميتة في إبقاء الوضع على ما هو عليه، إما باعتناق الأفكار القديمة رغم وضوح خطأ استدلالها وهذا التيار يمثله التراشيون. أو تسفيه المعرفة الجديدة والتقليل من شأنها وهذا التيار يمثله ثلة من المفلسين فكرياً وأدعياء الثقافة.

حتى تكتمل الصورة لا بد أن نوضح الحدود بين ثلاثة مفاهيم رئيسية نوجز ما توصلنا إليه في هذا الكتاب والكتب السابقة لهذه المفاهيم ، حتى لا يخذع الناس وينجرفوا خلف كل قائل، وخلف كل من يحاول التجديد، دون أي رابط أو رقيب.

المفاهيم الثلاثة التي يجب أن ندرك معناها وفحواها، هي مفهوم أولي الأمر، ومفهوم الراضين في العلم، ومفهوم الأميين. ومن خلال بيان الفرق بين هذه المفاهيم أعتقد أنه لن يكون هناك ارتباك في تبيين الحقيقة والسير خلفها.

المفهوم الأول: أولو الأمر

ولي الأمر كما بينا هو الأجدر من العلماء والأكثر دراية بمكنون الأشياء، الذين لديهم قدرة على الاستنباط والاستنتاج، إضافة إلى ذلك هناك الإلهام الإلهي، أو الروح الذي يختص الله بها هؤلاء أو ما يمكن ان نسميه توفيق الله في فهم امر ما.

قد يمكننا فهم دور أولي الأمر، عندما ندرك أن بعض الأشخاص قد حباهم الله بقدر من الفهم والإدراك، بخلاف الآخرين، وهذا الفهم لا بد أن يكون منطقياً ومعقولاً ومتوافقاً مع كتاب الله.

ورود لفظ الأمر بصيغة المفرد، لمحة عجيبة لا بد أن نقف عليها ولا ندعها تمر هكذا. القرآن مليء بالنظريات المعرفية، والكون كذلك مشحون بالآيات البديعة والتي تشرح وتفصل كل شيء. ليس معنى أن يفتح الله على يد أحدهم في أمر ما، أن هذا الإنسان محيط بكل أمر وعالم بكل شأن.

قد يكون إمام هذا الإنسان بأمر ما إمام جيد وهذا لا يعني أن لديه إمام مطلق بكافة الأشياء. إنه تنبيه للناس بعدم الانخداع، فليس معنى أن إنسان أجاد وفتح الله على يديه أمر ما فقد أصبح خبيراً بكل أمر يصل ويجول فيه كيف يشاء ويتابعه الناس على ذلك. إنها الإشارة الدائمة التي نقرأها في آيات الله عن اختبار كل معرفة جديدة وعدم التسليم دون تحقق.

المفهوم الثاني: الراسخون في العلم

الراسخون في العلم؛ أي الثابتون في العلم، وهو مفهوم متكامل تماماً مع مفهوم أولي الأمر. الراسخون في العلم هم الأقدر على فهم ما جاء به ولي الأمر، والتعامل معه. الراسخون في العلم هم حلقة الوصل، ودورهم تأصيل الفكرة، ودراستها، وتقديمها للناس بكل السبل. أستطيع ضرب مثال للتفرقة بين مفهوم ولي الأمر ومفهوم الراسخين في العلم لتقريب الصورة. مثل ولي الأمر مثل العالم المؤسس لنظرية جديدة، ومثل الراسخين في العلم مثل المتعاملين مع هذه النظرية، ومن يكشفون كل جوانبها ويدرسونها. من غير الراسخين في العلم سوف تظل النظرية مجرد كلمات، ولكن تولى الراسخين في العلم دورهم سوف يحقق مراد الله تعالى منها، بحيث يتم اختبارها، وتهذيب جوانبها، وتقديمها للناس كمعرفة تضاف للمعارف المتراكمة لديهم.

المفهوم الثالث: الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني

هذا المفهوم تم شرحه بالتفصيل في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب الطور، ولا ضير أن نمر عليه سريعاً لنذكر به.

خلاصة ما تم استنتاجه من هذا المفهوم هو أن الأمي كل من يأتي بفكرة جديدة. ليس شرطاً في الفكرة التي يأتي بها الأمي أن تكون صحيحة، بل يمكن أن تكون فكرة جديدة ولكنها غير صحيحة. الفرق بين الأميين وأولي الأمر هو أن أولي الأمر أكثر شمولية من مفهوم الأميين. كذلك مفهوم أولو الأمر لم يذكرهم القرآن بأوصاف سلبية لأن لهم اتصال روحياً كم

بينما مفهوم الأمي فيه احتمالية انخطأ، وهم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني حيث تتجاوزهم كثير من العوامل.

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (سورة البقرة: آية 73)

لكن كيف يحصل الأمي على فكرة جديدة، ولكنها ليست صحيحة؟

يحدث ذلك بكثرة عندما يتغلب على الأمي التحيز المعرفي، أو عندما لا يستخدم منهجاً صحيحاً في استنتاج الفكرة، أو عندما يكون راغباً في إثبات فرضية معينة بغض النظر عن النتائج؛ أي تطويع النتائج لما يعتقد. هؤلاء الأميون وصفهم الله بأنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني. مشكلتهم أن أمانيهم غلبتهم، فجاءت استنتاجاتهم تبعاً لأمانيهم فتشوشت الأفكار.

للأسف الشديد العالم يموج بالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ويستطيع كل متدبر عاقل اكتشافهم، بمجرد عرض ما يقولون على العقل، وتتبع نتائجهم.

إن كما نغيب على التقليديين تحجر عقولهم وقدراتهم المتواضعة في معالجة الأفكار، و يتفخرون هم بأنهم دارسون، رغم وضوح تقليدهم ونسخهم لمن سبقهم دون أي مجهود فكري. فإن الأميين بمفهومه السليبي هم الذين يفكرون دون دراسة وتملكهم غرور معرفي زائف.

البشرية ليست بحاجة لهذه الأنماط الشاذة والمنفردة والتي غالباً متعصبة لأقصى درجة في تبني وجهات نظرها (الأميون) أو وجهات نظر غيرها (التقليديون). إننا بحاجة ماسة لمن درس، ودربته الدراسة على التفكير بل وممارسة التفكير بحرية وتجرد. لا تفكير سليم دون دراسة وبحث؛ ومن يفعل ذلك يساهم في الفوضى المعرفية ويصبح نصيراً وعوناً للأساطير.

كذلك لا دراسة بدون تفكير ونقل ونسخ دون معالجة عقلية لما ينقل هذا الإنسان ومن يفعل ذلك يعود البشرية إلى عصر القروود. لو أن مؤسسات تتبنى الدراسة دون الفكر فهي مؤسسات فاشلة يسبقها المجتمع بخطوات فترها تسير خلف المجتمع وكل إنتاجها ما هو إلا رد فعل لما يفرزه المجتمع.

لما لا إذا كانت وظيفة هذه المؤسسات مقتصرة على اجترار نصوص وفلسفات قُتلت بحثاً، ليس فيه أي إبداع. بينما المؤسسات العلمية القائمة على المبادئ العلمية الصحيحة تجدها تقود المجتمع وتسبقة بخطوات بما تقدر من أفكار ورؤى جديدة.

يجب أن يفرق الناس بين البلاغة اللغوية وبين الأصالة الفكرية؛ لا يخدع بالبلاغة اللغوية مقابل الأصالة الفكرية إلا العامة والجموع غير المستنيرة. إنه فرق جوهري بين المثقف وبين العامي حيث يستطيع المثقف تمييز الفكرة بناء على الأدلة والبراهين، بينما يخدع العامي بالتعبيرات و السرد والحبكة الدرامية والجودة البلاغية.

عن طريق التفريق بين مفهوم أولي الأمر، والراسخون في العلم ، والأميين إضافة إلى مفهوم أصحاب الحجر (التحجر) الذي تم شرحه في الفصل السابق، لن تعود هناك أي مشكلة في تتبع الحقيقة، واكتناز المعرفة، ومناصرة الفكرة السليمة. أما من أعرض وتولى واتكل على معرفة غيره، واطمأن بها، أو اتخذ جانب الأنعام في ألا يبصر ولا يسمع ولا يدع الهدى يطرق قلبه، فهؤلاء اختاروا طريقهم بكل إرادتهم، وعليهم تحمل نتائج تقاعسهم.

مفهوم ولي الأمر قادنا مباشرة لفهم سورة القدر، وكيف أن هذه السورة العظيمة تؤسس لمرحلة جديدة، وتشير إلى حالة فقدانها بالكلية، وهي حالة العدل الإلهي في إيصال الفكرة للناس، ومن ثم اختبارهم في قبول الفكرة الصحيحة، أو رفضهم للفكرة غير الصحيحة، حتى يتم تمييزهم بشكل مستمر وسليم. سورة القدر جعلت عصر التنزيل الأول عصراً مستمراً، والاختبار قائم في كل وقت، والناس كما هم غافلون.

الفصل التاسع ليلة القدر

لقد وضعت سورة القدر حدوداً يقف العقل أمامها حائراً في مفهوم الأمر، بل وفي تحديد المدد الزمنية التي يتوالى فيها الأمر من الله إلى أولي الأمر.

هذه السورة التي حصرها أصحاب النقل في ليلة يُقبل فيها الدعاء في شهر رمضان، غير منتهين إلى الإشارات القرآنية العظيمة على أحداث مهمة تسجلها وتشير إليها. هناك تعبيرات تثير الإعجاب والتساؤل، ولكن يبدو أن الناس غير متحمسين للمعرفة، أو لما تخبئه الكلمات، وما تدل عليه.

لو طرحنا سؤالاً على هذه السورة العظيمة عن دلالة قول الله تعالى: (ألف شهر)، ولماذا ألف شهر؟ وما علاقة الروح والملائكة بالأمر؟

لأدركنا أموراً عظيمة يقف العقل أمامها حائراً.

إننا أمام حالة متكررة لحالة التنزيل الأول، يوم نزل القرآن على رسول الله. إننا أمام حالة فرز مستمر على دورات زمنية متكررة، تعطى للناس فرصة التعبير عن ذواتهم، فمنهم من يقبل، ومنهم من يرفض، ومنهم من يعرض.

من منا لم يجلب بخاطره أمنية أن يكون على عهد رسول الله، فصدقه ونصره بكل ما أوتي من قوة. إن خطر على قلبك هذا الخاطر، فسوف تدرك بعد قليل أن حالة التنزيل الأول، والذي تميز فيها الناس، متكررة باستمرار، حتى يأخذ كل جيل نصيبه، ويميز الله الخبيث من الطيب.

سورة القدر جسدت هذه الحالة، وأشارت إليها كما سوف نرى، من خلال الألفاظ القرآنية الدقيقة.

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5) (سورة القدر).

مسمى السورة نفسه، وهو القدر، يأخذنا ناحية التقديرات المؤسسة لكل كبيرة وصغيرة في هذا الكون؛ إذ إن لفظ (القدر) نفسه بمفهوما المعاصر هو تلك التقديرات والقوانين التي تحكم عمل الأشياء. يستطيع أرباب العلوم الطبيعية فهم معنى القدر بسهولة ويسر؛ فالأشياء المقدره هي أساس العلم والقوانين في نظام محكم يسيّر كل شيء. نحن أمام حالة فريدة تشير إلى تنزيل متعلق بـ التقديرات، خلال مدة زمنية معينة بشكل مباشر.

لأن الله سبحانه وتعالى قدر كل شيء تقديراً؛ فلا سبيل إلى تغيير هذه التقديرات. فتغيير التقديرات نقص، تنزه ربنا عن ذلك، إنما التنزيل المتعلق بالقدر فهو تفسير له، أو إشارة، أو مساعدة في فهم هذه التقديرات. الآية الأولى في هذه السورة العظيمة تؤكد هذه الفرضية بامتياز

الآية الأولى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

المقصود هنا هو نزول القرآن كله في هذه الليلة، والمعروف أن القرآن نزل على فترات على قلب رسول الله. هذه اللفتة سوف نجد صداها بعد قليل، عندما تأتي على الأمر وكيف ينزل. لا شك أن القرآن كلماته وألفاظه هي انعكاس لهذه التقديرات، وليس تغييراً لها، لذلك تنزيل القرآن كان بالأساس مساعدة لفهم هذه التقديرات. القرآن مليء بالآيات التي تشرح أموراً كثيرة، وذلك ما دعانا للقول أن التنزيل في ليلة القدر هو تنزيل خاص بفهم الأقدار، أو القوانين، وليس تغييرها كما يظن بعضهم.

فهم التقديرات هو المدخل الرئيس لتطور البشرية، وإذا تم بالطريقة الصحيحة، ومن خلال قراءة سليمة لآيات الله، فسوف يكون دليلاً عقلياً على وجود الله منزل هذا الكتاب.

هل المقصود في الآية القرآن الكريم؟

نعم المقصود بقول الله سبحانه (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) هو كتاب الله، وقد فسر هذا الفرض آيات في سورة ص بشكل مباشر:

(حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) (سورة ص: الآيات 1-6)).

سورة ص بدأت بالإشارة إلى الكتاب المبين، ثم أشارت في الآية الثانية إلى هذه الليلة المباركة، التي تنزل فيها الكتاب، وهي لا شك ليلة القدر المذكورة في سورة القدر؛ بسبب الآية التالية التي أشارت إلى أن هذه الليلة يفرق فيها كل أمر حكيم. ها نحن أمام ليلة لها ذكر في موضعين في كتاب الله، وتشير إلى أن كتاب الله تنزل فيها، وفيها أيضاً يتنزل الأمر، أو يفرق كل أمر حكيم.

سورة ص استمرت بشرح الأمر وماهيته، وأنه أمر من عند الله يرسله الله، وهو ما قلنا أنه إلهام إلهي في المواضع السابقة. أما لماذا يرسله ربنا؟ ولماذا في هذه الليلة المباركة؟ فقد وضحتها الآية التالية، بأن هذا التنزيل وهذا الأمر رحمة من الله.

لا شك أن بيان المعاني وفهم الغامض من الآيات سواء الكونية أو اللفظية، وعلم ما لم يُعلم، هو عين الرحمة من الله التي تعتبر هدية للبشرية تساعد في تطورها وأداء مهامها.

الآية الثانية: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

التعبير القرآني (ما أدراك) أسلوب استفهام، يأتي بعده تفصيل أو جواب عن الشيء المستفهم عنه. وقال الراغب الأصفهاني: (كل موضع ذكر في القرآن وما أدراك، فقد عقب ببيانه). هذا التعبير دائماً ما يشير للأشياء ذات الشأن الكبير، مثل: الحاقة، وسقر، ويوم الفصل، وعليون، ويوم الدين، وليلة القدر.

ليلة القدر ليلة لها أهمية ومكانة في التنزيل الحكيم؛ لأنها ميقات تنزيل رحمت الله، سواء أكانت هذه الرحمت القرآن نفسه، أو الأمر الذي وعد الله عباده بأنه سوف يتنزل في ليلة القدر.

الآية الثالثة: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

هذه الآية الكريمة حملت لفظ (الشهر)، والذي اعتقد بعض الباحثين أن مفهوم الشهر ليس هو الشهر القمري؛ وإنما المعنى بذلك هو إظهار القرآن وإظهاره.

السورة الكريمة لا تتحدث عن القرآن حصراً، وإنما تتحدث عن القرآن نموذجاً للتنزيل في ليلة القدر، وتشير كذلك إلى تنزيل آخر خاص بالأمر. الفهم الدقيق لمدلول لفظ (الشهر) سيؤدي بنا إلى فهم الحالة المقصودة.

مدلول لفظ (شهر)

لفظ (شهر) في اللغة يعني الوضوح والظهور، ويقال شهر سيفه أي أظهر السيف. هذه الحالة العامة التي يصفها اللفظ كما دلت على ذلك المعاجم وتتفق معها. لكن هل الشهر المذكور في السورة ينطبق على المدة الزمنية المعروفة لدينا. هناك دلائل في كتاب الله تشير إلى أن لفظ (الشهر) يشير إلى مدد زمنية كما جاء في سورة البقرة.

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة البقرة: آية 185).

(لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة البقرة: آية 226).

من خلال الآيات السابقة نجد أن مفهوم الشهر بالمدة الزمنية هو المفهوم المناسب والمنطقي، ولا يمكن تجاوز هذا المفهوم إلا بقريئة قوية. من خلال المنهج الذي نستخدمه نعلم

جيداً أن اللفظ يمثل حالة معينة لها خصائص وصفات حقيقة، قد تنطبق هذه الحالة على عدة مسميات، منها المادي ومنها غير المادي. يُصرف اللفظ إلى المعنى الأشهر منه، إن لم يكن هناك سياق يشير إلى غير ذلك.

أما في حالة وجود سياق فحالة اللفظ تفهم من خلال السياق، دون الإخلال بالحالة التي يصفها اللفظ. حتى نزداد يقيناً دعونا نجر نحو مفهوم (الشهر) على أنه ظاهرة، وكيف يصف المسمى.

بالنسبة إلى السنة الميلادية ليس هناك أي علامة أو دليل يشير إلى أن الشهر فيها مقسم بطريقة تعني الظهور أو الوضوح، وإنما تبدو كتقسيمات حسابية، ليست مرتبطة بظاهرة معينة. أعني هنا أن الشهر الميلادي نفسه غير مرتبط بظاهرة منفردة، ولكن هو جزء من السنة الشمسية، المرتبطة بدورها بدوران الأرض حول الشمس. من هنا نجد أن مسمى الشهر وحالته التي تصف الظهور والوضوح، غير منطبقة على ما نسميه الشهر الميلادي. ولمن يريد الاستزادة يمكنه البحث عن تاريخ تقسيم السنة الميلادية إلى اثني عشر شهراً في محركات البحث؛ ليعلم أن التسمية ليس لها علاقة بحالة ظهور أو وضوح لشيء معين.

لكن ماذا عن الشهر القمري؟

لفهم معنى ارتباط الشهر نفسه بظاهرة ما، وليس مجرد تقسيم دون مدلول، سوف نحاول فهم دورة القمر. دورة القمر حول الأرض تستغرق 5.29 يوماً تقريباً، ولكي نفهم كيف تنطبق كلمة شهر على دورة القمر، سوف نحاول المرور على هذه الدورة في عجلة.

يبدأ ما يسمى الشهر القمري بعد ما يسمى الاقتران. الاقتران هو وقوع الشمس والقمر والأرض على خط واحد، بحيث يكون موضع القمر بين الشمس والأرض. الاقتران هو لحظة كونية واحدة بالنسبة للأرض، وليس في ذلك أي اختلاف.

هنا نلاحظ أن القمر اختفى تماماً عن نظر الراصد على الأرض. يظهر القمر مرة أخرى عند انفصاله عن الشمس، وبمجرد انفصاله يصبح ظاهراً وواضحاً، وهنا يمكن تسميته

(الشهر). يستمر القمر في دورته هذه لمدة 5.29 يوماً، وبعدها يحدث الاقتران التالي، ويختفي بين الشمس والأرض.

من هنا نجد أن لفظ (الشهر) مطابق تماماً للحقيقة الفلكية التي تميز دورة القمر؛ إذ إنه يظهر بعد الاقتران، ويستمر وهو ظاهر وواضح حتى دخوله الاقتران التالي، وهذه الفترة هي المسماة شهراً. هذه الدورة لا تنطبق على الشهور الميلادية؛ إذ إنها تقسيم لا يعتمد على دورات فلكية، مدتها مثلاً 30 يوماً أو 31 يوماً؛ وإنما معتمدة بشكل أساسي على مجموع الأيام التي دارتها الأرض حول الشمس. لذلك مفهوم الشهر القرآني ينطبق تماماً على دورة القمر، ولا ينطبق على المدة التي نسميها تجاوزاً شهراً في السنة الميلادية.

لا بد أن نلاحظ أن القرآن حدد الشهر بدورة القمر حول الأرض، وربط هذا الشهر بعمليات معينة، مثل الصيام والأشهر الحرم، بينما حدد السنة بدورة الأرض حول الشمس، وليس ضرورياً أن تكون الشهور مطابقة تماماً لعدد أيام السنة، بل إن وضع الشهور بهذه الطريقة له سر، خصوصاً إذا علمنا أنها مرتبطة بصيام الإنسان والأشهر الحرم.

الذين يدعون لتثبيت شهر رمضان في السنة، بحيث يأتي في وقت محدد، ولا يدور مع الفصول كما هو الآن، عن طريق زيادة عدد معين من الأيام، فيما يعرف بالنسيء، لم يقفوا على معنى الشهر ومفهومه القرآني. لو تم تثبيت الشهر القمري فسوف تختل صفة الشهر وخصائصه، ولن يصبح بعد ذلك شهراً بالمفهوم الحقيقي الذي عبر عنه القرآن.

ليس لدينا شك أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين جسم الإنسان وحركة القمر، وبين مظاهر عديدة على الأرض وحركة القمر؛ لذا نعتقد أن الوضع الأمثل للصيام هو تتبع الشهر القمري ودورانه بهذا الشكل على كافة الفصول. نقص المعلومات عن العلاقات بين الإنسان ومكونات الكون من ناحية، وعدم فهم اللغة القرآنية بشكل سليم من ناحية أخرى، جعل بعضهم يعتقد بخطأ العرب في حساب الشهور القمرية، ومن ثم اقترح زيادة شهر نسيء؛ حتى يتم تثبيت الشهور القمرية، وتصبح هذه الشهور موافقة الفصول، المرتبطة بالأساس بحركة الشمس.

لكي يكون الشهر شهراً لا بد أن ينطبق عليه الظهور والوضوح، وينتهي بالاختفاء، كما يقال لصاحب السيف شهر سيفه، ويظل مشهوراً طالما هو خارج غمده، فإذا أغمده صاحبه وأخفاه انتهى وضعه، ولم يعد مشهوراً. السيف منذ لحظة خروجه من غمده وحتى رجوعه إلى غمده هو في الحقيقة في حالة شهر، وكذلك القمر بمجرد خروجه من حالة الاقتران وحتى دخوله في حالة الاقتران التالية هو في حالة شهر.

لماذا علينا الالتزام بوصف الشهر، وارتباطه الوثيق بدورة القمر كما هي؟

كما ذكرت أن لفظ (الشهر) جاء في كتاب الله مرتبطاً بالصيام والأشهر الحرم، وهي عمليات صيانة للجسم من خلال الصيام، وصيانة البيئة من خلال الأشهر الحرم.

أولاً: شهر رمضان

الصيام لا شك هو عملية خاصة بجسم الإنسان، ويتبعها تغيرات معينة، ولكي تؤدي هذه التغيرات أكلها، يبدو أنها لا بد أن تكون مرتبطة بدورة القمر، والذي يدور بهذه الكيفية، بحيث كل 33 سنة يصبح الإنسان قد مر به رمضان طوال فصول السنة. بدلاً من التنظير والادعاء بأن رمضان يجب تثبيته في وقت محدد، حتى إن بعضهم اقترح أن يكون في بداية الخريف من كل عام، بحيث يكون النهار مساوياً لليل، وهي المدة المعقولة للصيام؛ بدلاً من ذلك أرى أن البحث عن تلك العلاقة وفهمها، التي تربط بين الصيام وتحرك فترات الصيام خلال فصول السنة كاملة، هي الأجدر بنا.

نعلم جميعاً أن كل ما في الكون يتحرك، وتحريك فترات الصيام مع الفصول قد يكون أكثر انسجاماً مع الكون، وأكثر فائدة للجسم الذي هو بالأساس جزء من هذا الكون. الحقيقة ليس لدينا دليل علمي على أن تحريك فترات الصيام على مدار السنة ذو فائدة معينة؛ لأن الصيام لا يثير شهية الباحثين في الغرب المهتم بالبحث، وأيضاً لأن الصيام بهذه الطريقة يقع في نطاق باحثين يتعاملون مع القرآن كنص تاريخي، ولا يقدرّون على استخراج فائدة علمية من مكنوناته.

هذا التصميم الدقيق للفظ القرآني، وارتباط الصيام بلفظ الشهر، والذي هو حصرياً دورة القمر، يجعلنا نتشبت بالصيام؛ لأنه من ضمن المكتوبات التي كتبها الله، وبدا واضحاً أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الصيام وتحرك الشهور خلال فصول السنة. إنه علاقة من علاقات الكون الغامضة التي كشفها لنا منزل هذا الكتاب وطلب منا البحث خلفها وفهم أبعادها.

من يقول بتثبيت الشهور القمرية لتصبح كما الشهور الميلادية لا شك أنه يحاول فهم لماذا تدور الشهور القمرية هكذا وطالما أن دورنها هكذا بلا منطق حتى يومنا هذا فهو يعتقد ان تثبيتها هو الوضع الصحيح.

المنطق المنفرد والذي لا يدعمه دليل قوى قد يقود إلى الزلل ولذلك عندما نطلب من كل باحث التريث عند بحث أمر ما وإدراك مسلمة من المسلمات البسيطة وهي إن كانت تجلي لنا شيء فقد غاب عنا أشياء وأشياء.

تحليل لفظ الشهر، بالإضافة إلى فهم المبدأ العام لحركة الكون يجعلنا نؤكد أن الشهر هو شهر قمرى مرتبط بظهور القمر وبإخفائه ولو لم تنطبق هذه الظاهرة على دورة القمر لما صح من الأساس أن يسمى شهر.

ثانياً: الأشهر الحرم

صيانة البيئة متمثلة أيضاً في كف الإنسان عن الاعتداء بكافة أنواعه في الأشهر الحرم، سواء على الإنسان أو على البيئة، وهذا الكف، أو فترة النقاهة إن جاز لنا التعبير، مرتبطة بحركة الشهور على طول السنة أيضاً، وستكون قد مرت الأشهر الحرم بجميع فصول السنة خلال 33 سنة. الأمر ليس اعتباطياً أو غير مقصود أو أنه خطأ كما يعتقد بعضهم، أو الذين لا يرون إلا جانباً واحداً من الصورة، بل هو أمر ضمن الميزان الكوني، ويدخل ضمن الحسابات الدقيقة في هذا الكون.

قد نجد اعتراضاً على مسألة الأشهر الحرم وعلاقتها بالبيئة؛ إذ إن مواسم تزاوج الحيوانات يجب أن تقع خلال هذه الأشهر. الحقيقة أن تزاوج الحيوانات وتكاثرها يختلف باختلاف

الحيوان نفسه؛ فمنها ما يتناسل أكثر من مرة في السنة، ومنها ما يعتمد بالأساس على توافر الغذاء. كذلك لم يقل أحد أنه يجوز للإنسان أن يصطاد في الأشهر غير الحرم الصغار أو الإناث الحوامل، فهذه العادة يجب أن يضبطها المجتمع؛ إذ إنها حالة ظاهرة للعيان في إضرارها بالبيئة، وإخلالها بالتوازن.

الإرشاد القرآني يأتي شاملاً ومتكاملاً، حتى إن الكثير من العلاقات لا تبدو واضحة عند الإنسان، ولكن القرآن تعامل معها، وحدد حدود التعامل معها، وسوف يتكشف بالعلم سلامة التعبير القرآني. إنها دعوة لترك التحيز والانفعال عند فهم اللفظ القرآني وتحليله، لئلا نجعل بعض القيم والأعراف الإنسانية، والتي قد تكون غير حقيقة، تطغى على فهم اللفظ والمراد منه. إننا ننطلق من الكلمة القرآنية لفهم علاقات الكون، والمحافظة على اتزانه، وانسجام مكوناته.

يجب أن نفرق بين تعبير (الشهر) الذي ذكره الله في كتابه، وربطه بالصيام وبالشهر الحرام، وتقسيمات السنة الميلادية كما يحدث الآن. تقسيم السنة الميلادية بهذه الطريقة التي نراها؛ لتسهيل الحساب والأعمال ليس فيه شيء، وهو وضع طبيعي، ومن إنتاج الإنسان، وهو شيء محمود.

كل ما في الأمر أنه لا يجب الخلط بين التقسيمات القائمة على السنة الشمسية ومفهوم الشهر في القرآن، والمرتبطة بعمليات معينة تخص جسم الإنسان، وتخص البيئة المحيطة بالإنسان. لم يقل أحد لا تستخدم الشهر الميلادي في حساب الزراعة، أو في حساب الشركات والإدارات المختلفة، لكن علينا أن نفهم أن دوران الصيام والأشهر الحرم التي خصها الله بلفظ (الشهر)، هو دوران من ضمن المنظومة الكونية، ومتناسق معها، ولا يجب العبث بها. من المفاهيم الغائمة والتي لا تكاد تبين، لفظ (النسيء)، والذي ألقى بظلاله على مفهوم (النساء)، من خلال تفسيرات المعاصرين. لكن مع تتبع لفظ (شهر)، ومع فهم وظيفة (النسيء)، ظهر لنا مفهوم جديد تماماً، استطعنا من خلاله فهم اللفظ.

مدلول مفهوم (النسيء)

في لسان العرب أصل كلمة (نساء) تعني التأخر، ويقال نَسِئَتِ المرأة؛ يعني تأخر حيضها. في قاموس اللغة لابن فارس جاء ما نصه أن النون والسين والياء لها أصلان صحيحان، الأول هو إغفال الشيء، والثاني ترك الشيء، والأصل الأول - كما قال ابن فارس - جاء منه نسييت الشيء؛ أي لم أتذكره. يقول ابن فارس أيضاً: قد يكون النسيء من هذا الأصل.

هذا هو رأي أهل اللغة، والذي عليه في الغالب إجماع على أن المقصود بالنسيء هو التأخير، ولكن مع التدقيق في آيات القرآن سوف نكتشف بعداً آخر لمفهوم النسيء، يظهر في الآيات التالية:

الآية الأولى: (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (سورة التوبة: آية 37).

الآية الكريمة تتحدث عن فعل فعله الذين كفروا، يؤثر على الشهور القمرية، بحيث يجعلها ثابتة لا تدور مع القمر، وإنما تشبه ما يسمى (الشهور) في السنة الشمسية. قال المفسرون في هذه الآية أن النسيء هو زيادة أيام على الشهر، بحيث تصبح الشهور ثابتة في النهاية، أو متوافقة مع ما يرغبون. هذا الفعل وصفته الآية الكريمة بالكفر، والكفر هنا معناه حجب الحقيقة عن عمد وقصد. الأمر الطبيعي في الشهور هو الدوران على الفصول. في اختراع الناس هذا النسيء لتثبيت الشهور، مما يخل بالهدف منها، ويؤثر على العلاقة الكونية بين الشهور والعمليات، سواء الفسيولوجية أو البيئية.

لا شك أن النسيء هنا في الآية الكريمة يتحدث عن الشهور، وما فعله الناس بهذه الشهور، بدليل الآية السابقة التي حددت الشهور اثنا عشر شهراً.

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (سورة التوبة: آية 36).

من هنا يبدو جلياً أن النسيء هو عملٌ ما، يثبت الشهور، ولا يجعلها تتحرك، وكأنه وتد يحفظ الشهور من دورانها الطبيعي، لكي تصبح متوافقة مع الفصول.

نستطيع القول مما سبق أن النسيء في حد ذاته هو عملية تثبيت وحفظ الشيء، وليس التأخير، كما أوردت قواميس اللغة. قد يكون التأخير مقبولاً إذا أخذنا في الاعتبار أن كل شيء متحرك، فإذا تم تثبيته بطريقة ما، فلا بد لهذا الشيء أن يتأخر عن مثيله، ولكن يبقى هذا المفهوم مفهوماً فرعياً، بينما المفهوم الكلي لكلمة (النسيء) هو حفظ وتثبيت الشيء.

تأكيد هذا المعنى سوف ندركه بمجرد فهم (المنسأة)، المذكورة في سورة سبأ، والتي سوف أفرد لها سطوراً معدودة في نهاية الفصل؛ تجنباً لتشتيت القارئ؛ وكذلك لفظ النساء. بعد بيان لفظ (شهر) وأن المقصود به دورة القمر كاملة حول الأرض، وهو الشهر القمري كما نعرفه، فإن السؤال القادم هو: لماذا ذكرت الآية أن ليلة القدر هذه خير من ألف شهر؟ لماذا ألف شهر تحديداً؟

عن طريق الحساب التقريبي لهذه المدة وجدنا أنها تساوي ثلاثة وثمانين عاماً وثلث العام. إذا أخذنا في الاعتبار أن كلمات وألفاظ القرآن الكريم جميعها رسائل للإنسان، تشير إلى معلومات، وليست كما يفهمها بعضهم بشكل سطحي، وبشكل متشابه؛ أي ظاهري، سوف ندرك أن تعبير (ألف شهر) إنما يحمل دلالة معينة. الآية التالية وخصوصاً لفظ (تنزل) سوف يفتح لنا مجالاً لفهم تعبير (ألف شهر).

الآية الرابعة: (تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ) .

لفظ (تنزل) جاء في صيغة المضارع الذي يفيد الاستمرار، واقتران التنزيل بالأمر، والذي قلنا أنه يختلف عن الرسالة (القرآن) يشير لذلك ويعطينا إشارة على استمرار تنزيل هذا الأمر. مع فهم المقصود بولي الأمر في الفصل السابق يتضح لنا أن هناك تنزيلاً في هذه الليلة على بعض البشر، كوحي أو إلهام إلهي مستمر ما استمرت الحياة ووجود الإنسان. قال المفسرون: إن ليلة القدر هذه تتكرر كل سنة في شهر رمضان، وأن تعبير (ألف شهر) يعني أن العمل فيها يوازي عمل ألف شهر.

القرآن يقول أن ليلة القدر ليلة تنزيل الأمر، وهذا الأمر تحمله الملائكة والروح. من خلال هذه المعطيات نستطيع القول أن الأمر ليس رسالة حرفية وإنما هو مسألة متعلقة بالوحي وإدراك مكنون هذه الرسالة. في آية أخرى ذكر ربنا أن الملائكة والروح تنزل على من يشاء من عباده .

(يُنزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (سورة النحل: آية 2) . (الأمر) هنا جاء واضحاً بأنه ليس الرسالة، وإنما إدراك ووعي خاص بالرسالة. تنزيل الأمر خاص بالتأويل أو فهم الآيات؛ إذ الرسالة اكتمل نزولها.

الآن نجد أن الآية السابقة تحدثت عن مدة زمنية قدرها ألف شهر، من ضمن هذه المدة ليلة. هذه الليلة بما فيها من تنزيل الأمر هي أفضل من ألف شهر. لم تقل الآية أن الليلة تساوي ألف شهر أو تعدل ألف شهر، وإنما التعبير الدقيق هو (خير من ألف شهر)، وهو تفضيل.

طالما أن التعبير القرآني يقصد تفضيل هذه الليلة على ألف شهر فهنا وجب علينا أن نسأل: هل المقصود ألف شهر ماضية، أم ألف شهر مستقبلية؟

المستقبل لم يأت بعد، وبما أن التطور المعرفي يزداد، وأن الأمر الذي يتنزل في هذه الليلة هو أمر خاص بالوحي الإلهي، فلا بد أن المقصود هو الألف شهر الماضية. هذا يعني أن

كل ليلة قدر هي في حقيقتها خير من كل ألف شهر ماضية، بمعنى تتكشف فيها أشياء لم تكن مكتشفة أو مفهومة، في أيّ من المدد الزمنية السابقة.

تعبير (ألف شهر) جاء غير معرّف؛ ليدل على أن الأمر الذي يتنزل في هذه الليلة فيه من الخير ما لم يكن في السابق بصفة عامة. التعبير القرآني (كل أمر) يوحي أن شأن هذه الليلة ليس شأنًا عاديًا، وأن التنزيل المقصود متعلق بتغيرات كبيرة للغاية، بل نستطيع القول بأنه تغيير جذري، يؤثر تأثيراً كبيراً فيما حوله.

هل هذه الليلة كل سنة؟

لا يوجد في السورة ما يدل على ذلك، ولكن الأقرب، ومن خلال سياق الآيات، نميل إلى أن هذه الليلة تتكرر كل مدة زمنية، قدرها ألف شهر، أو 3.83 سنة، وهي مدة جيل كامل تقريباً. لا يمكن أن يكون مفهوم ليلة القدر بهذا المفهوم المتداول، إلا إذا كان التعبير القرآني (ألف شهر) تعبيراً مجازياً.

لكن هذا الكتاب الذي ينطق بالحق لا يؤيد ذلك، ونؤمن أن تعبيرات القرآن حقيقية وليست مجازية. بمجرد وضع الفرضيات التالية سوف نتحقق من مسألة ليلة القدر، وعلاقتها بألف شهر.

الفرض الأول: كلمات القرآن حقيقية، وليست مجازية.

الفرض الثاني: الزمن مرتبط بالحدث؛ فزمن بدون حدث، هو عدم.

الفرض الثالث: لكي تكون الليلة خيراً من ألف شهر، لا بد أن يكون الألف شهر خالين من هذه الليلة، وإلا سوف تصبح المعادلة غير صحيحة. مثال: يوم الجمعة خير من أسبوع، يكون المقصود أن يوم الجمعة خير من الفترة ما بين يوم السبت حتى يوم الخميس، لا يدخل فيها يوم الجمعة، وإلا وقعنا في متوالية غير منتهية. إن قلت: يوم الجمعة خير من شهر فالشهر نفسه فيه على الأقل أربع أيام جمع. لكن لو قلت أن يوم الجمعة خير من أيام الأسبوع على مدار شهر، فيصبح وزن يوم الجمعة يساوي وزن الشهر مطروحاً منه أيام الجمع.

لماذا لا يمكن اعتبار أن لفظ (ألف شهر) لفظ عام؛ بحيث نقول مثلاً هذا الكتاب أفضل من ألف كتاب؟ الكتاب أو الأشياء المنفصلة يجوز فيها ذلك؛ بسبب انفصال وحداتها، وهي بحد ذاتها أحداث منفصلة، بينما الزمن متصل مرتبط بالأحداث، فلا معنى للزمن بدون الحدث. كذلك الخيرية تقصد ما يقع في هذه الليلة مقارنة بما يقع في الألف شهر، فالخيرية مرتبطة بالأحداث.

ليلة القدر ليست أبداً متعلقة بمضاعفة الأجر والثواب، بل تتعلق بتغيرات جذرية تحدث في إدراك ووعي للبشرية، وتغيرات وتحولات عظيمة عن طريق تدخلات إلهية مباشرة، في دورات متكررة على مدار التاريخ الإنساني. سوف تستمر هكذا إلى يوم الدين، هذه الدورات مدتها جيل كامل، مدة كل دورة تقريباً 84 سنة.

أعظم هذه الهبات الإلهية على الإطلاق هو نزول القرآن في هذه الليلة، والذي في الغالب نحتفل بذكره في شهر رمضان من كل عام. يصح لنا أن نقول أننا نحتفل بذكرى نزول القرآن، والذي كان في إحدى دورات ليلة القدر.

المرعب في الأمر أن هذه الدورات المتكررة تضع الناس بصفة دائمة تحت اختبار كاختبار التنزيل الأول، وأغلب الناس لا يدركون ذلك، رغم أن منهم من يخوض الاختبار بجدارة. معنى أن ليلة القدر متكررة، وأن حقائق جديدة تتكشف كل جيل تقريباً، فهذا يعني أن الناس في كل جيل مطالبون باتباع الحقائق، والتغلب على التحيز الذي اكتسبوه بالوراثة.

الآية الخامسة: (سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ) هذه الآية تصف حالة هذه الليلة، حيث الاخلاص والصفاء الروحي الذي يميزها. قد يكون المقصود بالفجر هو الفجر التقليدي، وهو ما بين الليل والصبح، أو أن الفجر هو بزوغ أمر الله الذي جاء به الروح والملائكة. في كلا الحالتين نستطيع القول أن الله متم أمره، وهذا الأمر لن يفقهه الجاهلون، وسوف ينكره الكافرون، وينصرف عنه الغافلون.

من خلال ضم الآيات السابقة، يمكننا تلخيص الحالة التي عبرت عنها السورة الكريمة في السطور التالية: لم يتبق بعد عصر النبوة إلا عصر أولي الأمر، وهو الامتداد الطبيعي لعصر

النبوة، إلا أن مفهوم أولي الأمر هو مفهوم إنساني، يتفاعل مع الأمر الإلهي، ولا يتكلم باسم الله.

الاتصال الإلهي مستمر لهداية البشرية، وتقديم الدليل تلو الدليل على وجود الإله، حتى يأخذ كل جيل نصيبه غير منقوص في الوصول للحقيقة واعتناقها، وأن يكون شاهداً عليها، والعمل بها من خلال تنزيل الأمر. تنزل الملائكة والروح بالأمر على من يشاء الله من عباده، وهم أولو الأمر على فترات زمنية، مقدارها 3.83 سنة، وهي تقريباً فترة جيل كامل.

بقدر الرجاء الذي يحمله تفسير هذه السورة العظيمة لكل باحث عن الحقيقة في أي طائفة وفي أي معتق، بقدر الصدمة التي تحملها للذين لا يرغبون في المعرفة، ويدافعون عما لا يعلمون، حتى أولئك الذين يظنون أنفسهم أئمة وهداة.

كلمات السورة تقول بكل وضوح أن الكل سوف يخوض الاختبار، والكل مطالب بتحري الدقة والتخلص من التحيز، الكل بلا استثناء، والكل موقوف ومحاسب على قدر معارفه وإمكاناته. الإشكالية العظيمة التي تواجه الإنسان هي نظرتة إلى غيره، واهتمامه بحال غيره ووضعها، اقتراضات تساهم في تجميع الحقائق والاستسلام للأمر الواقع.

عندما تطرق آذان الإنسان معارف جديدة، سوف يحاول الهروب بكل السبل، بوضع اقتراضات وتساؤلات تمنحه فرصة للتهرب من مسؤوليته، مثل: وما بال القرون الأولى؟ ما بال الآباء والأجداد؟ ما بال الذين لم تصلهم تلك المعارف؟ كيف يحاسب الله الناس الذي لا يتحدثون العربية بالأساس؟ هل كل السابقين على خطأ؟

لقد حل القرآن هذه الإشكاليات، عندما قال عليكم أنفسكم. أنت لست مطالب بالتفكير في الطريقة التي تم اختبار غيرك بها، سواء في الماضي أو في الحاضر أو في مكان آخر. فالاختبار مستمر، والفرز على قدم وساق، والأفضل أن ينشغل الإنسان بنفسه؛ لأن لكل أمة أعمالهم، وكل إنسان ألزمه الله طائره في عنقه.

يبدو أن صفة الأنسنة والتي تدفع الإنسان لتكوين مجموعات يأنس بها؛ دفعته كذلك لخلق مجموعات معرفية يحتمي داخلها، ويأنس بمعارفها السائدة؛ مما جعله يرفض نقد هذه المعارف. إن كان الإنسان مطالباً بأن يكون إنساناً اجتماعياً، ليطمئن على وجوده ويأمن، إلا أن تطبيق المبدأ نفسه في المعرفة مُهلك، والتقليد كارثي، والالتكأ على الآخرين مدمر، وهو مطالب بالتفرد، وخوض اختبار المعرفة منفرداً. على قدر استعدادة لخوض الاختبار، وقدر تحصيله المحايد والمخلص، سوف يكون جزاؤه.

ليس من الذكاء أن نرفض الحقيقة لأن آخرين في أزمنة أو أماكن أخرى لم تصلهم، فهؤلاء لديهم نظام ومعارف تم أو يتم اختبارهم فيها. الحمقى فقط هم من ينشغلون بالآخرين، أو يحاولون إيجاد مبررات واهية لرفض المعرفة، والبقاء في نقطة الصفر. أي ثقة هذه التي تجعل الشخص يستسلم ويلقي بمصيره بين أيدي إنسان مثله، يطالبه بالاستسلام والقبول دون تفكير. لو أخذت ما أقول بالتسليم دون عرضه على عقلك، والتفكير فيه، وبذل الجهد لاستخلاص الحقائق، التي ليس فيها تعارض أو تناقض مع كتاب الله، فأنت لم تفعل شيئاً، وسلّمت عقلك وتكاسلت.

انتهاء النبوة يعني أن الناس أصبحوا جاهزين للفهم والمعرفة والتفاعل، والتمييز بين الحقيقي وغير الحقيقي، وولي الأمر ما هو إلا حلقة وصل، يبين للناس المعرفة. الراسخون في العلم كذلك، هم حلقات وصل تساعد الناس على فهم بعض الأشياء. إنما العبء الثقيل عليك أنت نفسك، فأنت من سوف تهضم كل ما هو متاح، وتستخرج الحقائق التي سوف تخوض بها اختبارك، وتلقى بها ربك. ما يفعله ولي الأمر أو الراسخ في العلم ما هو إلا لفت انتباه الناس، لأشياء غابت عنهم، فإما أن تنتبه، وإما أن تظل هكذا لا ينفعك التنبيه أو النذر.

لا شك أن عصر التنزيل الأول، الذي جاء مع رسول الله صلوات ربي عليه، كان القرآن أعظم ما جاء فيه نصاً ولفظاً من رب العالمين. تفاعل الرسول مع القرآن كما بينا في

فصل النبي؛ مما أكسب الأمة قدراً من المعرفة، أهلها في غضون سنوات قليلة للتقدم، وتصدير مفاهيم غاية في الروعة لمحيطها، مثل المفاهيم الجديدة عن المساواة، والعدالة، وعدم العنصرية. مع مرور الوقت، وتجدد الزمان، كان لزاماً على الأمة أن تتفاعل مع النص الإلهي، لتستخرج وتستنبط مفاهيم جديدة، تكسبها مزيداً من التقدم والانطلاق. هذا التفاعل هو تفاعل ضروري، يفرضه القرآن، ويدفع إليه الإرشاد الرباني، وتشير إليه كل التعبيرات القرآنية والسنة الكونية.

تاريخياً نعلم جيداً أنه بعد وفاة الرسول بوقت قصير كان هناك حراك مستمر وتفاعل مع القرآن؛ إذ وُجدت كثير من المفاهيم التي لم تكن مطروحة، مثل فكرة القدر، والجبرية، وأفكار فلسفية تبحث أموراً غاية في العمق. هذه الأفكار معظمها لم يحالفه الحظ؛ بسبب طبيعة المجتمعات وقتئذ، وبسبب طبيعة الأشخاص الذين احتكروا الحديث باسم الله. لم يكن سهلاً على الناس في المجتمعات البسيطة تقبل أفكار جديدة، حتى لو كانت توافق كتاب الله، طالما لم تأت عن طريق المعاصرين لرسول الله، أو التابعين الذين تلقوا المعرفة من المعاصرين لرسول الله.

الخلط بين مفهوم العلم والمعرفة، لم يدع الأفكار تنتشر، ووقف حاجزاً صلباً أمامها. كل نقل هو معرفة، والمعرفة نتيجة طبيعية للعلم. بينما العلم هو تفاعل جديد، لذا إذا اكتفى الناس بالمعرفة تعطل العلم واضمحل، بل وانحرفت المعرفة بمرور الوقت. لكي تستقيم المعرفة لا بد لها أن تتكامل مع العلم؛ فالعلم يعتمد على المعرفة، وينطلق نحو إيجاد إجابة على التساؤلات المطروحة، وطرح تساؤلات جديدة، ومن ثم إضافة معارف جديدة. من دون التجدد وطرح الأسئلة باستمرار يضمحل العلم، ولا يبقى للمجتمعات إلا معارف جامدة تم استهلاكها، وكثير منها لا يصلح للتداول.

لقد كان الصراع وما زال، وسوف يستمر بين أرباب المعرفة وأرباب العلم، وهذا الصراع بدا واضحاً في عهد رسول الله، بين ما جاء به رسول الله، وما عهده الناس وتعارفوا

عليه. ما إن انتقل رسول الله إلى جوار ربه حتى ظهر هذا الصراع، مع أول بزوغ للأفكار الجديدة، أو قل مع أول تأويل منسجم مع العقل والمنطق، ولا يتعارض مع كتاب الله، مقابل روايات بسيطة، جعلها مستقاة من النصوص التاريخية للهلل الموجودة وقتها.

لقد بدا أن هناك صراعاً شرساً بين المجددين والرافضين للتجديد، بشكل لا يمكن إنكاره، انعكس هذا الصراع على واقع الأمة. لقد كان القائلون بالتجديد أقرب لكلمات الله ومراد الله، وقد كان المستمسكون بقراءة الجيل الأول أقرب للعهد السابق لنزول القرآن، عهد الرافضين لأي فكرة غير سائدة، متعللين بالهيج نفسها التي تعلل بها القوم في بداية الدعوة، إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون.

سرعان ما تحول المبدأ العظيم الذي جاء به رسول الله من حرية التعبير وحرية الفكر وحرية السؤال إلى سراب، بحجة المحافظة على الدين. بدلاً من أن تتوسع المفاهيم الثورية التي جاءت مع القرآن الكريم، وتفاعل معها رسول الله، ضاقت المساحات بحكم طبيعة المجتمعات المحافظة، والتي لا تقبل التغيير بسهولة.

لدينا شواهد لا بأس بها على أن ثورة فكرية صاحبت القرن الأول والثاني للدعوة، ولكن للأسف لم تكن محل ترحيب، وقوبلت بعاصفة من الاستهجان والاستنكار لا مثيل لها. أضف إلى ذلك أن أسئلة العصر الأول لم تكن بالعمق الفلسفي الذي يمكن معه سبر أغوار الكلمات والتعبيرات القرآنية. لقد كانت أسئلة بسيطة عن الحلال والحرام، ولكن مع انتشار الإسلام في البلاد ذات الثقل الحضاري النوعي، بدأت الأسئلة في الانهمار، وبدأت حوائط الصد في التكون. بسبب عدم إدراك الخاصية الأساسية للقرآن الكريم، وهي قابليته للقراءة المستمرة؛ تم نهر السائل، ورفض أي قراءة جديدة، أو محاولة للمعرفة؛ بحجة أنها سوف تشوش على الناس.

تعامل الرعيل الأول مع السؤال ومع الفكر كان تعاملاً يعكس طبيعة هذه المجتمعات، التي لا تعرف الفلسفة، وليس لديها أي فكرة عن العلوم. التفاعل مع القرآن يحتاج أرضية

معرفية ثرية، وهذه الميزة هي التي جعلت من القرآن متجدداً باستمرار، وقابلاً للقراءة على مر العصور.

من الأمثلة على الصدام المبكر بين التجديد والتقليد هو ما حدث مع فرقة القدرية. هذه الفرقة أغلبنا لا يعرف عنها سوى أنها فرقة ضالة، تكلموا في القدر بما يخالف الدين. بالطبع ما وصلنا عن هذه الفرقة هو وجهة نظر مخالفيهم، رغم أن أغلب أفكارهم تتداولها اليوم بشكل كبير جداً، ويتم النقاش حولها بشكل شبه مستمر. بشكل عام لسنا هنا للحكم على أفكار هذه الفرقة، ولكن سوف نتناول المبدأ العام الذي كان محور فكر هذه الفرقة.

هذه الفرقة كانت تقول بحرية إرادة الإنسان في الفعل أو عدم الفعل؛ أي أن الإنسان مخير في أفعاله وليس مسيراً، ولو كان مسيراً لما حاسبه الله على هذه الأفعال. ما وصلنا من خلال كتابات التاريخ أن فرقة القدرية أنكروا القدر، وأنكروا علم الله السابق بالأمر، عبارات مبهمة كهذه يبدو جلياً أن لها غرضاً آخر غير الغرض الفكري. التخيير ومسألة أن يخلق الإنسان أفعاله سوف يصطدم بشدة بالمبدأ السياسي، الراعي لجعل الناس مستسلمين خاضعين، بحجة قدر الله عليهم ولا سبيل لرده.

حتى وإن كان لدى متبني الفكرة بعض الخلل في بناء فكرته، فهذا أمر طبيعي للغاية في تاريخ البشرية، حيث تحتاج أي فكرة وقتاً كافياً لمناقشتها، وتصحيح أوضاعها. لكن ما حدث كان شيئاً مؤسفاً، وشيء يندى له الجبين؛ إذ تم دفن هذا الفكر في مهده، وتم نبذ أصحابه من قبل الأغلبية، واضطهاد بعضهم وقتلهم، في صورة من صور الإرهاب الفكري المدمر.

تم طرح الفكرة أول ما طرحت على يد معبد الجهني وغيلان الدمشقي. يقول الإمام الذهبي عن معبد الجهني أنه تابعي صدوق، ولكنه سن سنة سيئة، فكان أول من تكلم في القدر، وقال عنه ابن معين وابن أبي حاتم من رجال الحديث أنه ثقة وصدوق، ومع ذلك تزخر كتب التاريخ بسب وشم الرجلين.

معبد الجهني هذا ثار على الحجاج بن يوسف الثقفي مع ابن الأشعث؛ لأنه كان يرى أن هؤلاء الناس ظالمون، وعطلوا ما جاء به رسول الله، مما أدى في النهاية إلى مقتله، وتعليقه على باب دمشق، في عهد عبد الملك بن مروان.

أما غيلان الدمشقي، فقد أمر هشام بن عبد الملك بقطع يديه ورجليه بعد أن أخذ الفتوى من الأوزاعي، في مشهد أشبه بالمرحية؛ لأن الرجل كانت لديه رؤية عن الحرية. وحرية الإرادة تصطدم بمنهج الدولة الأموية وقتئذ، المتبنية لمبدأ الجبرية، وأن الإنسان لا حيلة له في ما يحدث له؛ لكي يبقى الناس تحت سلطانهم، دون أي مقاومة لأي نوع من الظلم، بحجة أن هذا هو قضاء الله وقدره كما فسروه.

طبيعة المجتمعات وقتئذ حددت كيفية التعامل مع كتاب الله، وحجمت الفكر بشكل كبير؛ اعتقاداً أنها تحمي هذا الكتاب وأن كان لها مآرب أخرى. مع مرور الوقت، وتغول السلطة، أصبحت الأمور أكثر سوءاً، بل أصبحت السلطة تستمد شرعيتها من الدين، فكان لا بد لها أن تسير العامة، وتقضي على أي فكرة جديدة؛ بحجة أنها تهدم الدين المتعارف عليه. فترة الازدهار التي شهدتها الدولة الإسلامية هي تلك الفترة ما بين القرن الثالث والسابع الهجري، والتي شهدت أعظم انفتاح فكري في ذلك الوقت، والذي ما لبث أن تقهقر بسبب الظروف السياسية وقتها.

سورة القدر تضع النقاط على الحروف، وتشير إلى مهمة كل جيل في التفاعل مع القرآن، وترشد الناس إلى الأمر الإلهي الذي تنزل به الملائكة والروح على فترات، لتمنح الناس دفعة إلى الأمام. نستطيع القول أن سورة القدر تشير لتلك المرحلة ما بعد الرسل والأنبياء، وتحديد بدقة الفترات الزمنية التي سوف يحدث فيها التجديد. وكما كان بنو إسرائيل يقتلون الأنبياء بغير الحق، فكذلك هذه الأمة تضطهد مجددتها، بل وتقتلهم أحياناً بغير الحق.

أولو الأمر هم الامتداد الطبيعي للرسل والأنبياء، غير أن الرسل والأنبياء كانوا يقولون هذا من عند الله، وأولو الأمر يقولون هذا ما فهمته من آيات الله. الرسل والأنبياء منذ فجر

التاريخ قد أيدهم ربهم بالآيات المادية الواضحة والمجسمة، الدالة على صحة ما جاءوا به. قلَّ هذا التجسيد، حتى إن نبينا الكريم لم يأت بآية مادية، بل جاء بآيات لفظية، يستطيع كل ذي عقل أن يتبين منها الحق من الباطل، اعتماداً على قدراته العقلية. كذلك أولو الأمر كل ما يعرضونه يستطيع الإنسان مقارنته وقياسه، وقبوله أو رفضه، بناء على قدراته العقلية، إن كان حقاً مسلماً.

سوف نتعرف على مفهوم (المسلم) كما جاء في القرآن، لنذكر أنه لكي تقبل المفاهيم التي جاء بها أولو الأمر لا بد أن تكون مسلماً حقيقياً، وأن المسميات التي تتداولها اليوم ما هي إلا انعكاس سياسي لا أكثر على دين الله.

لا شك أن التجدد في قراءة كتاب الله، واستخراج مفاهيم جديدة، مستمر إلى يوم الدين، فيتم فرز الناس كيوم التنزيل الأول. فإذا كان الفرز في عهد الرسول صلوات ربي عليه دار حول الإيمان بالتنزيل، فإن الأجيال التالية سوف يتم الفرز فيها على أساس التأويل. من الناس من سيظل قابلاً خلف موروثه، رغم ظهور مفاهيم جديدة أكثر منطقية، وأكثر انسجاماً مع آيات الله، ومنهم من يسبق إلى المفهوم الجديد؛ راغباً إلى الله، وطمعاً في المعرفة. سورة القدر ألغت مفهوم المؤمن الوراثي، ولم يعد يجدي نفعاً أن يلد إنسان في بقعة معينة، لأبوين مكتوب في بطاقة الهوية أنهما "مسلمان" فيظن نفسه كذلك، وهو لم يبذل جهداً في الوصول إلى الله من خلال المعرفة. الأجيال جميعها سوف تتعرض للفرز، وتعرض عليها الأفكار، فمن قبل الفكرة المتوافقة مع المبادئ العقلية ومع كتاب الله فقد نجا، ومن رفضها فقد حجز مقعده مع أسلافه المكذبين.

كل مكذب وغافل ومقلد ومعاند، يصر على مفاهيم تعارض كتاب الله، فهو قد أخرج نفسه من المعادلة الربانية، وألحق نفسه بفضيل لا علاقة له بما أنزل على محمد صلوات ربي عليه، واتخذ من دون الله أرباباً.

لا شك أن الرسول صلوات ربي عليه واجه عاصفة من الرفض والاستهجان والإنكار والسخرية والتكذيب، ومحاولات التميع، وإفراغ الرسالة من محتواها بكل السبل. لقد امتحن الناس في قبول الرسالة، فهل معنى أن الرسالة وصلتنا هكذا، ولم نُختبر كما اختبر الأولون، أننا في حل من ذلك، وأن لنا فضلاً على العالمين. سورة القدر أنهت هذا الجدل، وأشارت إلى الحالة المتجددة التي صنعها القرآن، وكيف جعلت الناس في اختبار متجدد وفرز دائم.

أصناف الناس التي واجهت الرسالة في بدايتها هم نفس الصنوف التي سوف تواجه الأمر الذي أشار إليه ربنا في كتابه، من إيمان وكفر وتكذيب وتغافل وسخرية. المبدأ واحد، وهو أمر إلهي إلى الناس، تستيقنه نفوسهم، ثم ينظر الله كيف يعملون، وكيف يتفاعلون معه، ليميز الخبيث من الطيب. ليس غريباً أن نجد مفهوماً قرآنياً جديداً لم يكن واضحاً في الماضي، ثم يفتح الله على من يشاء من خلقه، فيتم محاربة هذا المفهوم الجديد، ليس بالدليل، وإنما بالأمانى والتحيز.

حرية الاعتقاد واحد من تلك الأمثلة الواضحة في كتاب الله، ومع ذلك فئات كثيرة تصر على أن قتل المرتد نصره للدين. السبي للنساء والأطفال، الذي لا يوجد له أي ذكر في كتاب الله، وتم تفيده، ومع ذلك قطاع عريض يعتقد بأن السبي جزء أصيل من الدين، ولكن الزمن لم يعد صالحاً له. الرجم الذي يصر كثير من رجال الدين عليه، رغم أن أبحاثاً قيمة أثبتت أنه لا علاقة له بكتاب الله، وقد تناولناه في أكثر من فصل.

النسخ الذي يعطل آيات الله، وليس له وجود في كتاب الله، وتم بيانه في أكثر من موقع، ومع ذلك هناك إصرار عجيب من بعضهم على أنه جزء أصيل من الرسالة التي بعثها الله. أمثلة كثيرة ومفاهيم متجددة دائماً، ينقسم الناس حولها، كما انقسم الناس منذ فجر التاريخ حول مفاهيم مشابهة. هكذا يتم الفرز؛ فريق يحكم العقل دون الهوى، وفريق يصر على ما قال آباؤهم وكبرائهم. لا يمكن أن تساوي بين من يقبل المفاهيم الجديدة، ويبدل الجهد والوقت في الفهم والمعرفة، رغبة إلى الله، وكسول يكتفي بما أملاه عليه آخرون، لا يملك حياله

صرفاً ولا عدلاً. لا يستون أبداً، ويا ليت الغافلين أو المعرضين يعلمون ما يفعلون بأنفسهم
وبأتباعهم.

أين الحقيقة بين كل هذا الكم من الأفكار؟

لا شك ان هناك سؤال مشروع لدى الكثيرين هو أين الحقيقة، وكيف أميزها بين كل
هذا الكم الهائل من المعلومات، وكلُّ له أدلته؟

لا أحد يستطيع الإجابة على سؤال كهذا، إلا الشخص نفسه، فمن أخلص بصدق
دون تحيز، وأراد الحقيقة وسعى لها سعيها، فهو لا شك سيصل إليها. عدم التحيز كفيل بأن
يمنح الإنسان قدرة كبيرة على التفريق بين الدليل والحيل، وبين البراهين والحجائل والمكائد،
ويمكنه الالتجاء والاحتماء بالإخلاص. آفة كل معرفة التحيز، ونقيض الفهم التحيز، ومورد
المهالك التحيز. التخلص من التحيز يتطلب تدريباً شاقاً، وخصوصاً في المجتمعات التي تربت
على التحيز للأشخاص، وعلى التلقين، وعلى ابتلاع مسلمات لا منطقية، فقط لأن فلان العلامة
قالها.

يحتاج الإنسان أن ينظر إلى الآخرين بشكل متوازن، دون تقديس أو تحامل، وأن يعلم
أن الله مِّيزه كذلك بقدرة العقل، وكل ما يحتاجه الشجاعة والإخلاص، والرغبة الصادقة في
المعرفة. أتعجب كثيراً من أولئك الذين يقصدون بعض رجال الدين، ويستمتتون في الدفاع
عن أفكار خطيرة لهؤلاء، بحجة أنهم الأكثر علماً، ومن ثم يناصرونهم بشكل بائس. لا يدرك
هؤلاء خطورة ما يفعلونه على مصائرهم، وكيف أنهم يشاركون في حمل أوزار بشكل مجاني،
وهم لا يعقلون.

عندما يفتي رجل الدين بقتل المرتد عقائدياً، أو بقتل الإنسان في أمور لم ترد في كتاب
الله، وأمور ليس لها قيمة حقيقية، وبأن خسرتها، عندما تجد أحدهم ملأ كتبه بفتاوى مثل
هذه؛ فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن الرجل ربما غاب عنه أشياء، أو أن الظرف السياسي

والاجتماعي أجبره على ذلك. لا نبث عن أعدار لأحد ، ولكن نقول: هذه أمة قد خلت، لها ما كسبت، وسوف نسأل نحن عما نفعل.

عندما تجد شباباً صغيراً، ورجالاً تعوزهم المعرفة، يدافعون باستماتة عن مثل هذه النماذج تتساءل: لماذا؟ لماذا يصبر هؤلاء المساكين على حمل أوزار غيرهم. ما الذي يجعل جيل ذو معارف متقدمة واطلاع اوسع واثق لهذه الدرجة، ولا يمنح نفسه فرصة للتروي و فرصة للتفكير؟. لماذا يتنازل هؤلاء بحض إرادتهم عن دورهم ومسؤوليتهم، بل ويساهمون في تدعيم وبسط المفاهيم الخاطئة، رغم بيان عدم صوابها وعدم دقتها؟. لن تجد إجابة شافية غير أن هؤلاء لا يريدون أن يعرفوا، أو أنهم استثقلوا المعرفة، واستسهلوا التقليد.

بنص سورة القدر، ومفهوم ولي الأمر، فقد ولى عهد الأشخاص، وحل بدلاً عنه العقل. فلا مكان لمن عطل عقله، ويظن أنه بالتمسك بالأشخاص قد نجا. القرآن يحذر من ذلك، فلا يعتقد المساكين أن التحذير للكافرين في العصور الغابرة فقط، فهو لهم ولن أتى بعدهم، ولنا ولن يأتي بعدنا. تدبر آية واحدة في كتاب الله قد تفتح لك آفاقاً جديدة، وتكفيك مجلدات كثيفة، فقط إن توافرت الرغبة الصادقة في المعرفة لله.

سوف أضرب مثلاً هنا، عن كيف جاء الأمر الإلهي، وكيف تفاعل معه الناس على قدر معارفهم، والظروف المحيطة بهم.

لم يصدر الأمر للناس بقتل أحد داخل المجتمع بشكل قطعي في كتاب الله إطلاقاً، وضع تحت إطلاقاً مائة خط، وإنما كان توجيهاً للمجتمع باستخدام الخيارات المتاحة قدر الإمكان، وتقليل الخسائر قدر المستطاع. لدينا في كتاب الله آيتان فقط تتحدثان عن أمر القتل، وكيفية تعامل المجتمع مع هذا الأمر.

الآية الأولى هي آية القصاص.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ^ط الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ^ج فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَحِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ^ق ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ^ق فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة البقرة: آية 178).

قد تم شرح هذه الآية بالكامل في الجزء الثالث من سلسلة كتب تلك الأسباب، وبيننا فيها أن القصاص إنما هو إعطاء مساحة للمجتمع للتشريع، والتعامل مع جريمة القتل داخل حد أعلى وهو القتل، وحد أدنى هو العفو. لقد سجلت آية القصاص كما بينا الحالات الثلاثة الرئيسة للقتل: وهي القتل كتكليف (العبد بالعبد) ومثال ذلك رجل الشرطة، والقتل في الظروف العادية (الحرب بالحر)، والقتل دفاعاً عن النفس (الأنثى بالأنثى). سوف نتناول في السطور التالية الآية الثانية، والتي نستطيع من خلالها فهم مقصد التوجيه الإلهي للبشرية، وهي الآية المذكورة في سورة المائدة.

الآية الثانية: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا ^ط أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ^ج مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ^ج ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ^ط وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (سورة المائدة: آية 33).

في هذه الآية نجد أنه لا بد من توافر شرطين أساسيين لإنزال العقاب، وهما:
 الشرط الأول: محاربة الله ورسوله، وهذه الجزئية تحتاج لبيان كيفية محاربة الله ورسوله من خلال كتاب الله، وليست هكذا قولاً مرسلًا يستطيع كل كسول استخدامه في إصباغ التهم بالناس. ربما باحث صادق يتولى هذا الأمر، ويستخرج من كتاب الله كل الحالات التي ينطبق عليها توصيف محاربة الله ورسوله، بعيداً عن الرؤى والفلسفات، والقياس غير الدقيق.
 الشرط الثاني: هو السعي في الأرض فساداً، وهذا الشرط أيضاً يحتاج لما يحتاج إليه الشرط الأول، من بيان نواحي الإفساد في الأرض، وتوضيحها؛ لتجنب استغلال هذا الشرط

من الأدعياء، واستحلال دماء الناس. ونحتاج فهم معنى السعي، وكيف للإنسان أن يسعى في الأرض فساداً.

لن نتطرق هنا في هذا الفصل أو الكتاب إلى تفسير هذه الآية وتحليلها؛ تجنباً للإطالة وتشتيت الانتباه. سوف أقوم بالتركيز هنا على الحالة العامة التي تشرحها وتشير إليها الآية الكريمة، وهي وجود شروط معينة لإنزال العقاب، وكيف أن هذه الشروط مركبة، وليست بشكل مباشر، بالإضافة لوجود اختيارات واحتمالات للعقاب، وليس عقاباً قاطعاً جازماً. لا بد من توافر شرط محاربة الله ورسوله، ثم يتبع هذا الشرط السعي في الأرض فساداً، إذا تحقق هذان الشرطان وجب على المجتمع تغليظ العقوبة؛ لأن هذا الفعل إنما هو فعل متطرف لأقصى درجة. الذي يحقق الشرطين يكون قد اجتمعت فيه شرور الدنيا، فمن لا يعترف بخالقه، ولا بقيم أخلاقية، ولا بقوانين مجتمع، هو أشبه بالكلب العقور، وجميع المجتمعات تتعامل مع هذا الصنف بأقصى درجات العقاب؛ لأن وجوده خطر داهم على أمن وسلامة المجتمع.

لقد ضرب لنا ربنا هذا المثال الذي يمثل الحالة العليا من الإجرام، لتتدبر كيف تتعامل معها ربنا، ونهتدي بهدي القرآن في التعامل مع حالات شبيهة لهذه الحالة.

بعدما حدد كتاب الله شرطين لإنزال العقوبة، أعطانا أربعة احتمالات لهذه العقوبة. يجب أن نتوقف كثيراً أمام هذه الاحتمالات، ونسأل أنفسنا: لماذا أربعة احتمالات؟ ولماذا لم يأمر ربنا مباشرة بعقاب معين بشكل محدد ورازم؟ لماذا لم تأت الآية الكريمة تخبرنا أنه من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً يُقتل بأمر نهائي قاطع؟

الاحتمالات التي ساقها الآية الكريمة تدرجت من القتل؛ إذ هو أعلى درجة، وليس هناك أعلى من قتل هذا المجرم، القتل هنا هو الحد الأعلى. الاختيار الثاني أو الاحتمال الثاني للعقاب وهو الصلب، لاحظ أن الصلب وقع تالياً بعد القتل، فلا يمكن أن يكون مساوياً للقتل، وسياق الآية نفسه يؤكد ذلك؛ حيث التدرج الواضح في العقاب. إذن الصلب لا بد

أن يدرس جيداً؛ لبيان المقصود منه، ولا يجب التساهل وتوصيفه بشكل متسع؛ حتى لا نقع في التقول على الله بدون علم. الاختيار الثالث هو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، وهذا الحد أيضاً يبدو أنه أقل من الصلب، ولا بد أن يدرس بشكل متأن؛ لبيان معنى القطع، والمقصود بالتعبير القرآني من خلاف. الاختيار الرابع أو الاحتمال الرابع للعقاب، وهو النفي من الأرض.

لا أحد يستطيع القول أن النفي يساوي العقوبات السابقة، ولكن لا شك أنه أخف هذه العقوبات. تدبر الآية على مهل وفهم تدرج العقوبات مع تعدد الجرائم، هي التي دفعتنا للقول بأن الآية تضمنت رحمة وإشارة للمجتمع لتولى المسؤولية بحسب ما يستحق الفعل وعدم المبالغة غير المبررة، رغم بشاعة الجرم المرتكب.

وجود الاحتمالات بهذا الشكل يعطي المجتمع مساحة كبيرة للتعامل وتقرير العقاب المستحق، بناء على الخطوط العامة التي وضعها الآية، وبناء على حاجته، وبالطبع هذا يفرض أن المجتمع سليم وغير فاسد. في حالة المجتمعات الفاسدة فإن كل شيء يتبدل، ولا يصبح لكتاب الله أي مردود، وبالتالي يتحكم الهوى والظروف فيما يقرره الناس، أو ما يقرره أصحاب القوة والسلطة.

عند قراءة الآية التالية للآية الكريمة محل دراستنا، سنكتشف أن القرآن الكريم والتوجيه الرباني ذهب أبعد مما نتخيل، بل لم تسجل أكثر القوانين رحمة وتسامحاً وتساهلاً مثل هذه الحالة، وهي استثناء الذين تابوا، من احتمالات هذا العقاب قبل القبض عليهم، عندما قال في الآية التالية:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ^ط فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة المائدة: آية 34).

لماذا لم يتدارس الفقهاء هذه الآية، ويستنبطوا هذه المعرفة التي تشير إلى سلطة المجتمع في التقرير، وتلك المساحة الشاسعة في التعامل مع المواقف المختلفة. هذا التوجيه الرباني هو

تمام الرقي، والدليل القاطع على أن البشرية في تطور مستمر، وأن الله أراد للإنسان أن يتحمل المسؤولية، ويتلقى التكليف بكل أمانة.

بالنظر إلى المسائل الفقهية المختلفة التي عاجت مسائل أبسط بكثير مما جاء في هذه الآية، سندرك حجم الفجوة بين الإرشاد الرباني والتفاعل الإنساني. بل سندرك حجم التقصير الذي وقع على عاتق الإنسان الذي لم يبذل جهده في بيان وتصحيح المسار قدر المستطاع.

لك أن تتخيل في ظل وجود هذه الآية، والإرشاد الرباني الواضح، نخرج أحدهم وقال بكل ثقة: من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً فإنه يستتاب، أو يقتل، كأنه أمر قاطع وجازم.

أرجو أن تسأل نفسك سؤالاً، و كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، هل القائل بذلك امتثل أمر الله، أم أنه احتكر الأمر الإلهي، وقطع وجزم وافترى على الله كذباً، وضيق أمر الله؟.

رغم أن الآية الكريمة أعطت مثلاً لجرم عظيم، بل يكاد أن يكون الدرجة القصوى من الإجرام، ومع كل هذا كان التوجيه القرآني هو إعطاء المجتمع خيارات للتعامل مع هذه الحالات، وفق تقديرات عادلة، وليست قرارات متشنجة.

لقد أفتى بعضهم بقتل الناس في أمور هينة، لا تصل إلى ما وصلت إليه الآية الكريمة، محتكرين الرحمة الإلهية، ومصادررين التشريع الإلهي لصالحهم.

أين هذا التوجيه الرباني من فتوى القائل "من لم يقل إن الله فوق سمواته على عرشه فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل" مسألة كهذه مسألة فلسفية، ليس فيها محاربة لله ولا لرسوله، ولا سعي في الأرض فساداً، ومع ذلك تم إصدار حكم القتل كمن يشرب الماء.

فتوى أخرى "من قال إن الله لم يكلم موسى تكليماً يستتاب، فإن تاب، وإلا يقتل" مرة أخرى مسألة تأويلية اجتهادية، ليس فيها محاربة لله ولرسوله، بل هي مسألة فكرية بحتة، والتحريض على من يتناولها بهذا الشكل هو عين الإرهاب الفكري، والاقتراء على الله.

ضربت هذا المثال لأبين كيف سيتعامل الناس مع الحقائق الجديدة، القائمة بالأساس على تدبر كتاب الله، مقابل مسلمات يتداولونها وينسبونها لكتاب الله ودين الله. ضع أمام عينيك هل هذا التدبر موافق لكتاب الله والمفاهيم العقلية لديك، أم أنك تجد فيه انعدام المنطقية وقفزاً على الحقائق؟

لن يتولى أحد الإجابة عن هذا السؤال سواك، ولن يحاسب أحد بدلاً منك. الناس مختلفون، وسوف يتعاملون بأنماط فكرية مختلفة، فمنهم من لا يرغب أن يشغل باله بمسائل كهذه، ويعتقد أنه يكفي ما ورثه من أبويه، وما تعارف عليه مجتمعه، فلهذا ما تولى. مع كل معلومة جديدة، ومع كل تدبر جديد، أنت أمام اختبار جديد، إما أن تسلم ثم تؤمن، أو تكفر وتكذب، أو تصبح هوداً أو يهودياً أو نصرانياً أو من أصحاب الأعراف. سوف نفرّد الفصول القادمة للتعرف على هذه النماذج، وكيف تتعامل مع الحقائق، أو الذكر والنذر التي تأتيهم صباحاً ومساءً.

(وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ^ط وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) (سورة الإسراء: آية 13).

يحتاج الإنسان لمزيد من الثقة بعقله، والتي أشار إليها القرآن الكريم عندما حث على التدبر والتعلم والتعقل.

مشاهد قرآنية عديدة تشعل جهاز الإنذار، ولكن الإنسان الظلوم الجهول لا يعيرها أي اهتمام، معتقداً أن المخاطب أحد غيره. المشاهد التي تصف إعراض الناس عن القرآن تسقطها الأغلبية على العصر الأول، ولا تدرك أن هذه النماذج تتكرر على مر التاريخ، وأن هذه الأنماط من البشر تعج بها المجتمعات.

الأنماط التي ترفض الحقيقة رغم جلائها هي نفسها في كل عصر، تبرر لنفسها الإصرار على الموروث، والتمسك بالسائد، ورفض أي جديد، بسبب الضحالة المعرفية الغارقة فيها. سوف

نحاول في السطور القادمة استعراض بعض المشاهد القرآنية، ومن ثم فهمها، من خلال مفهوم ولي الأمر ومفهوم ليلة القدر. المشهد الأول

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَّهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ط جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)) (سورة فصلت: الآيات 26-29).

في الآية الكريمة إشارة إلى فصيل لا يريد أن يمنح نفسه فرصة لكي يسمع، ويوصي أتباعه بذلك، يريد أن يعطل أهم حاسة لدى الإنسان وهي السمع. الوظيفة الرئيسة للحواس مثل السمع والبصر هي القدرة على التقاط أكبر قدر من المعارف، ومن ثم معالجتها عن طريق العقل للوصول لنتيجة.

حجب السمع والبصر هو حجب لأهم أدوات المعرفة، وبالتالي يقع الإنسان في الضلال دون أن يدرك. هذه الحالة التي يطالب فيها الكافرون أتباعهم بتجنب سماع القرآن تتكرر كل زمن، عندما تحدث قراءة جديدة لآية من آيات الذكر الحكيم. لا تقرؤوا هذه الكتب، لا تسمعوا لهؤلاء، اجعلوا بينكم وبينهم حجاباً حتى لا تنفذ أفكارهم إليكم.

هذه أبرز الحجج التي يسوقها الكهان ليقبى الناس تحت سلطتهم، فلا يعرفون إلا من خلاهم، ولا يرون إلا ما يرى كهانهم. إن كان هؤلاء الكهان مجرمين في دعوتهم لحجب المعرفة، فإن أتباعهم لهم نصيب غير منقوص من الضلال والإثم؛ لأنهم لم يحاولوا الإفلات من سيطرة البشر على عقولهم، واستسلموا بحض إرادتهم لهم.

الآيات الكريمة تخبرنا أنه لن ينفع الإنسان اعتماده على غيره، أو ثقته في إنسان آخر مهما كان هذا الإنسان. الفيصل هو عقلك، فإن سلمته لآخر أضلك، فعليك مثل وزره، وإن

سعت سعيك فلك الأجر حتى وإن لم تصل. لفظ القرآن يدفعنا للقول أن المقصود هو حالة القراءة المستمرة والفهم والتدبر وليس مجرد سماع منطوق الآيات.

المشهد الثاني

(وَإِذَا تَمَتَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) (سورة الأنفال: آيات 31-33)).

خطوة بخطوة وحرف بحرف، فكما قال الأولون يقول المتأخرون وينقلون حججهم، إن كان الذين ظلوا قالوا: إن هذا إلا أساطير الأولين، فقد قال مثل ذلك المتأخرون: إن هذا إلا تنفيذ المستشرقين. حجج تعيسة، هدفها بالأساس بخس الفكرة، وهي دائماً حاضرة على لسان الذين لا يملكون قدرة على تنفيذ الأفكار بشكل علمي ومنهجي، فما لهم سوى التقليل من شأنها بطريقة صبيانية.

هذه الآية الكريمة تشير إلى هذا النمط الممتلئ غروراً وكبراً، لا يريد أن يسمع، ويدعي المعرفة، ولديه تبرير في رفض كل فكرة. هلا تركت من قال، ونظرت فيما قيل؛ حتى وإن قال ما قال أكبر المجرمين.

انظر فيما قال وفيما ادعى وفند ما قاله، وكن منصفاً، ففي الإنصاف وحده النجاة. لن تجد مثل هذه الأقوال حاضرة في المجتمعات العلية السليمة، ولكن تجدها حاضرة وبقوة في المجتمعات القائمة على التلقين، والفقيرة معرفياً.

ماذا لو أن أساطير الأولين هذه فيها شيء من الصحة؟ لماذا لم تختبرها؟ لماذا لا تختبر ما جاءك من المعرفة، حتى لو بدا لك أنه يشبه أساطير الأولين؟ إن المعرض عن الحقيقة لأسباب واهية غير الدليل والبرهان، هو مثال حي لمن يستعجل عذاب الله، وكن يقول اللهم إن كان

هذا هو الحق من عندك فأتنا بعذاب أليم. لماذا لم يقل المسكين اللهم اهدنا للصواب؟ لأنه متحيز بالأساس، ولن يقبل الحقيقة مهما جاء معها من سلطان مبين من البراهين. سوف يبحث عن كل الحجج، سوف يتعاطى عن الأدلة الساطعة، سوف يجد ألف مخرج، فهكذا كل الظالمين.

المشهد الثالث

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ ^ط فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (سورة الأنعام: آية 33).

هذا نمط الجاحد المعاند، الذي يرى الحق ظاهراً، ولكن حاجة في نفسه لا يعترف بهذا الحق، وإنما يختار الانضمام إلى صفوف الظالمين، والركون إلى المكذبين. للبحود أسباب عديدة، منها تصورات ذهنية أو مصالح معينة. لا أجد مثلاً لهذا الجحود أكثر وضوحاً من مثال من إذا داهمته الفكرة، لم يجد لها سبيلاً إلا إنكارها اعتماداً على قائلها.

لقد قال بذلك أسلافه عندما حصحص الحق، فحاولوا شخصنة الفكرة والرسالة ورفضوها لأن الشخص الذي صدرت عنه ليس من أصحاب الخطوة والوجهة التي يقيسون بها الرجال. كانوا يتمنون أن ينزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم لأنهم غير قادرين على فرز الفكرة بشكل مجرد دون ارتباطها بالصورة النمطية للأشخاص أصحاب الكلمة المسموعة.

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (سورة الزخرف: آية

31).

ما دخل الفكرة بحاملها، إلا البحث عن مبرر لرفضها وجحودها.

المشهد الرابع

هذا المشهد يحتوي على عديد من الآيات الكريمة التي تعبر عن الحالة التي يصفها، وهي لا شك الحالة الأشهر؛ بسبب انتشار هذا الصنف بين الناس. الصنف الأشهر بين الناس هو صنف الواثق في الماضي، التابع لما وجد عليه أبويه وعشيرته، يسير كما يسرون، ويؤمن بما هم مؤمنون، ويكفر بما كفر به أسلافه دون تفكير.

إنها طريقة سهلة ومريحة ينتهجها الأغلبية؛ توفيراً للطاقة والجهد. البحث عن الحقيقة مكلف ومجهد، ولكن التقليد مريح وسهل، ويمنح الإنسان فرصة لفعل أشياء أخرى. الإنسان بطبيعته يفضل أن يلهو ويفقد الوقت بدلاً من البحث عن المعرفة؛ لأن البحث عن المعرفة سلسلة لن تنتهي، ويترتب عليها مسؤوليات جديدة.

إنه الهروب من العبادة، والتي أشرنا إليها في الجزء الثالث من سلسلة كتاب تلك الأسباب، والخلود إلى الجمود، أو التآسي بأصحاب الحجر الذين كذبوا المرسلين. لقد ذم كتاب الله هذا النمط في أكثر من موضع، وأشار إلى ضلاله وبعده عن المنهج الرباني، القائم على العقل والتدبر.

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (23) قَالَ أُولُو جُنُودِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24)) (سورة الزخرف: آيات 22-24).

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَانَ آبَائِهِمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)) (سورة البقرة: الآيات 170-171).

(إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَانَ آبَائِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)) (سورة المائدة: الآيات 104-105).

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَأَنَا لِمُفْوَاهِهِمْ
نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَأِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110)) (سورة هود: الآيات 109-110).

الآيات في كتاب الله التي تصف الأنماط المكذبة والغافلة، والتي لا تستجيب لما يحياها،
وتصر على ما بين أيديها، هي علامة مميزة لجميع الأمم، ولو أن الأمم انتهت لهذه الكارثة المعرفية
لتغير وجه الكرة الأرضية. لا أحد يرغب في المراجعة، والكل يكتفي بما لديه؛ ولذلك هذا
الصنف مهدد بأنه قد يكون خارجاً بالأساس من تحت مظلة الإسلام.

المشهد الخامس

الصنف الذي يصفه هذا المشهد القرآني هو صنف الغافلين، والغفلة هي أخطر سلوك
على الإطلاق، تؤدي بصاحبها إلى أسفل سافلين، سواء على مستوى النشاط اليومي أو على
مستوى المصير الأخروي. للأسف هذا الصنف صنف منتشر وسائد بين الأعمار الصغيرة؛
بسبب مصادر تشتيت الانتباه المتعددة التي تحيط بهم من كل مكان. هذا النموذج لا يقلد
الآباء بل يقلد أقرانه، لا يعنيه مفهوم المعرفة، ولا يكثر لها، وغالباً لا يقرأ، ويعتقد أن
القراءة نوع من أنواع الفدلكة، ويرى أن البحث خلف الأشياء تعقيد، والحياة أبسط من
ذلك.

هذا الصنف صعب الهداية؛ بسبب انصرافه إلى كل ما يجلب المتعة ويلفت الانتباه،
وبعد عن كل ما يجهد العقل بالتفكير. يتفرع من هذا الصنف صنف المستهزئ، وصنف
المعرض. وخطورة هذا الصنف أنه يعدي بشكل كبير، لما يبدو عليه من سعادة حصل عليها
بالأساس من عدم الاكتراث.

هؤلاء الغافلون الذين تراهم ينظرون ولا يبصرون ولا يفقهون هم وقود جهنم؛ لأنهم
تخلوا عن وظيفتهم بحض إرادتهم.

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (سورة الأعراف: آية 179).

المهمة القادمة للإنسان لا تحمل هؤلاء الغافلين، وإن بدا عليهم أنهم أناس جيدون؛ إلا أن عدم اكتراثهم بالمعرفة يجعلهم في عداد الشوائب التي ليس لها نفع. الحياة الدنيا لا شك أنها اختبار وذات فائدة ومهمة معينة، يتم إعداد الإنسان كما يُعد الطالب في الجامعة لسوق العمل. الطالب الغافل هو نموذج خطير قد يسبب كوارث، رغم أنه قد يكون محايداً وليس بسبيء الخلق.

من أهم صفات هؤلاء الغافلين هو الركون للحياة الدنيا، حتى إذا مرت أمامه معرفة أو حقيقة لا ينتبه إليها، ويعتبرها مضيعة للوقت.

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) (سورة يونس: آية 7).

هؤلاء في الحقيقة لا يرجون لقاء الله، وإن قالوا غير ذلك. لو رجا هؤلاء لقاء الله لبحثوا عن مراد الله وتكليفاته، أما القول المجرد من الفعل أننا نرجو لقاء الله فهو قول لا يدعمه أي دليل، وترديد كهذا دليل أكبر على الغفلة التي يعيشها هؤلاء.

الآية التالية تشير إلى صفة خطيرة من صفات هؤلاء الغافلين، وهي يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

(يَعْلَمُونَ ظُهُورًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (سورة الروم: آية 7).

كثير من هؤلاء الغافلين تجدهم بارعين ومتفوقين في أشياء معينة، أو في مظهر من مظاهر الحياة، لكنهم غافلون تماماً عن سبب وجودهم والغاية منه. بالتأكيد أنا لا أتحدث

هنا عن إقامة الشعائر، بل أتحدث عن أصل المشكلة، وهو الاكتفاء المعرفي، وعدم الرغبة في البحث عن الحقيقة، أو حتى الاستماع إلى الحقائق وفرز صوابها من خطئها.

قد يظن بعضهم أن هذا الأمر يحتاج لوقت كبير، لكن الحقيقة غير ذلك بالمرّة. مجرد فرز الحقائق ومقارنة الأشياء للوصول لقناعة سليمة ليست بهذه الصعوبة. ليس مطلوباً من هؤلاء أن يكونوا باحثين من الدرجة الأولى؛ ولكن على الأقل عليهم أن ينتبهوا لما يمر أمامهم، ولا يزهّدوا بالمعرفة.

الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون هم عوامل جذب لكثير من العامة؛ إذ يتخذهم العامة نماذج جيدة للنجاح في الحياة، ويقتدون بهم في الاكتفاء المعرفي. أكتفي بهذه الأمثلة، ولو أراد القارئ الاستزادة فما عليه إلا أن يتلوا آيات الله، ويقرأ سياقها، ويعلم أنها آيات عاملة إلى يوم الدين.

كل من أدرك المفاهيم الجديدة المتوافقة مع كتاب الله، والمتوافقة مع المفاهيم العقلية، قد خاض الاختبار بالفعل، و لينظر في أي فريق هو. لن يستطيع أحد تصنيفه؛ لأن المسألة بالكامل تعتمد على تفاعلاته الداخلية، وكيفية تلقيه المعرفة، والحيادية التي يتعامل بها مع الأفكار.

بالنهاية قد يتبادر سؤال إلى أذهان بعضهم: وما الذي يجعلني أثق في مثل هذا الكلام؟

هذا التعامل مع الأفكار هو تعامل طفولي للغاية؛ فليس مطلوباً من الإنسان إن يثق أو لا يثق، بل المطلوب أن يتفاعل بالتفكير، وأن يخوض تجربته. ما تقرأه أو تعاشه من خبرات، وكذلك الأحداث حولك، ما هي إلا نذر، أو بالمعنى المعاصر جهاز إنذار.

تعامل مع هذا الإنذار بحيادية، وحاول إيجاد طريقك وقناعتك التي سوف تقف بها أمام الله فرداً. ليس مطلوباً أن أنقل لك كل ما يدور في عقلي، ولا حتى أن تفهم فهمي؛ فلكي تفهم ما أعنيه بالضبط يجب أن تكون أنا. تعيش خبراتي وتملك أدواتي وتحيا الظروف

نفسها التي عايشتها. تعامل مع ما كل ما يطرق بابك على أنه نذر، وتذكر كيف يتصرف من داهمته النذر. سوف يقودك عقلك وإنصافك وإخلاصك إلى الحقيقة، فهذا وعد الله للمخلصين. الآن لدينا سؤال هام، هو: ما مصير من مات ولم يدرك هذه المفاهيم؟ وهل أشار كتاب الله إلى هذه التماذج؟

هذا السؤال سوف يقودنا مباشرة لمفهوم أصحاب الأعراف، والذي سوف نتناوله في الفصل القادم، ثم ننتقل بعده لأعظم مفهوم شهد تشويهاً؛ هو مفهوم المسلم. (مدلول لفظ منسأة ولفظ نساء)

عند تحليل كلمة (الشهر) في بداية هذا الفصل، وجدت نفسي أمام كلمتين متعلقين بلفظ (النسيء) وهما كلمة (منسأته) وكلمة (النساء). سوف أضع في السطور التالية نتائج هذا التحليل بشكل مبسط وموجز، معتمداً على تحليل لفظ (نسيء) الذي وجدنا أنه يعني حفظ شيء وثبتيته وليس تأخيره. دعونا نفهم كيف عبر لفظ (منسأته) ولفظ (النساء) عن هذه الحالة.

أولاً: لفظ منسأته

جاء هذا اللفظ في سورة سبأ متعلقاً بنبي الله سليمان. (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) (سورة سبأ: آية 14).

الآية تخبرنا أن الجن لم يعلموا بموت نبي الله سليمان، إلا عندما أكلت دابة الأرض منسأته، فما هي المنسأة؟

يقول المفسرون أن (المنسأة) هي العصا الغليظة، والتي كان يستند عليها نبي الله سليمان، وأنه كان يشرف على عمل الجن متكئاً على عصاه، ثم مات وظل الجن يعملون، وهم يظنون

أنه يراقبهم، ولم يدركوا موته إلا بعد أن أكلت دابة الأرض منسأته، نخرَّ على الأرض، ومن هنا تبينَّت الجن موته، وهذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب.

هذه الرواية فيها كثير من المغالطات، وتشبه الأسطورة، ولو تتبعنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن نبي الله سليمان، لأدركنا على الفور أن هناك خطأ ما في تفسير هذه الآية.

أولاً: نبي الله سليمان ملك، وذو ملك عظيم، فما الذي يجعله يشرف بنفسه على العمل كل هذا الوقت؟ ولكن من المنطق أنه يتفقد العمل، ولا يستمر في الإشراف عليه كما تدعي الرواية.

ثانياً: لهذا الملك العظيم جنود وحاشية عظيمة، وهي بالطبع حوله، ولو مات بهذا الوضع لأدركت الحاشية ذلك بسرعة، ولم يكن ليقضي كل هذا الوقت حتى يتبين الجن موته من وقوعه.

ثالثاً: تبين الآية من خلال لفظ (لبثوا) الذي يشير إلى طول الفترة، أن الجن استمروا فترة طويلة في العمل والعذاب المهين، وهذا ما لا يتوافق مع الرواية، ففي الغالب لن ينقضي وقت طويل حتى يكتشف المحيطون بنبي الله سليمان موته.

رابعاً: دابة الأرض تحتاج لوقت طويل حتى تأكل عصاه التي يتوكأ عليها، قد تصل إلى شهور أو سنين حتى تدمرها، فلا يعقل أنه استمر كل هذا الوقت دون أن يعلم به أحد.

خامساً: الموت وحده كفيلاً بأن يسقطه بسبب فقدان التوازن، لو كان بالفعل متكئاً على عصاه كما تدعي الرواية، ولكن لو قالوا أن المنسأة كرسي أو عرش لربما كان الأمر مستساغاً.

سادساً: لفظ (عصا) ذكر في القرآن، ولكن في هذه الآية لفظ (منسأة) هو المستخدم، لذا لا بد أن يكون معنى اللفظ مختلفاً، ويخفي داخله خصائص وصفات أصل الكلمة وهو (نساء).

من خلال تفنيد الأدلة وتتبع الآية وفهم أصل كلمة (نساء)، وهي حفظ وتثبيت الشيء؛ فإننا نرحب أن المنسأة التي أكلتها دابة الأرض هو صندوق دُفن فيه نبي الله سليمان أو جسده الذي تم حفظه لوقت طويل في شيء معد لذلك، وهو المنسأة.

كون نبي الله سليمان ملكاً عظيماً، وكون الجن مسخرين للعمل بأمره، فهذا لا يعني أنهم قريبون منه، ولكن يعملون في مملكته، ولما مات نبي الله سليمان لم يصلهم الخبر، وظل هؤلاء الجن يعملون وهم يعتقدون بوجود نبي الله سليمان. فلما أكلت دابة الأرض الصندوق الذي يحفظ الجسد، وخر الجسد وصل الخبر إلى الجن فعلوا بموته. الفترة بين موت نبي الله سليمان واكتشاف الجن موته تبدو منطقية؛ لأنهم بالفعل لبثوا في العذاب المهين دون أن يدركوا موته، وهذا يدل على أنها كانت فترة طويلة نسبياً.

دابة الأرض تشير إلى أن المنسأة كانت في الأرض أو تلامس الأرض؛ لذلك أكلت دابة الأرض منسأته. الفترة التي تستغرقها دابة الأرض لكي تدمر أي شيء تحتاج لوقت طويل نسبياً، وهذا يتوافق مع كون المنسأة تابوتاً أو صندوقاً تم حفظ الجسد فيه، وليست عصا.

لذلك نقول وبكل ثقة أن منسأة نبي الله سليمان هو الصندوق الذي حفظ فيه الجسد وغالبا من الخشب، وتم تثبيت الجسد فيه، وهذا المعنى يتوافق تماماً مع لفظ (نساء) الذي تم استنتاجه أنه حفظ وتثبيت الشيء.

ثانياً: لفظ نساء

من خلال فهم لفظ (نسيء) يمكننا الآن القول أن النساء إنما سميت نساء بسبب صفة ملازمة لها، وهي حفظ وتثبيت شيء ما، وهذا الشيء لا شك هو الجنين. لفظ (النساء) متعلق بوجود رحم قادر على حفظ وتثبيت الجنين، وليس كما يعتقد بعضهم أن التسمية بسبب حب النساء للأشياء المتأخرة، مثل: كل ما هو جديد، أو عملية التسوق، واقتناء كل ما هو متأخر.

نلاحظ في آيات القرآن الكريم أن لفظ النساء جاء في الغالب في وصف حالات الزواج والطلاق والحمل، وكل ما يخص العملية البيولوجية المتعلقة بالرحم والقدرة على الحمل. لفظ (نساء) لا بد أن يتوافق مع القدرة على الحمل، ولذلك لا يجوز إطلاق لفظ النساء على الصغيرات اللاتي لم يكتمل نموها، ومن هنا من يفتي بجواز زواج الصغيرة هو في الحقيقة لا يمت لكلمات الله بصلة، وإنما عادات اجتماعية جاء القرآن يهذبها، ويضعها في إطارها الصحيح.

موضوع النساء موضوع معقد وطويل، وليس هنا محله، ولكن سوف نمر سريعاً على ثلاث آيات مثيرة للجدل؛ لنفهم ما المقصود بالنساء، بعدما تبينا لفظ (النساء) وعلاقته بالنساء.

الآية الأولى: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَّىٰ النِّسَاءَ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا) (سورة النساء: آية 27).

استدل بعضهم بهذه الآية على زواج الصغيرات، لكن المتبع للفظ (النساء) سيجد أنه لا يصح وصف النساء بالنساء إلا إذا توافرت القدرة على الحمل بشكل صحيح، وهذا ينفي تماماً القول بزواج الصغيرة. عدم فهم كلمات القرآن والاعتماد على تصورات السابقين، هو السبب المباشر في تلك الفتاوى والآراء الغريبة والشاذة والتي لا تمت لكتاب الله بصلة.

الآية الثانية: (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة النور: آية 60).

فسر المفسرون هذه الآية بأن القواعد من النساء هن كبيرات السن، ولكن من خلال لفظ (نساء) نجد أن لفظ النساء لا بد أن يستقيم مع القدرة على الحمل، ثم لا بد من فهم (القواعد) حتى تكتمل الصورة.

جاء لفظ (القواعد) في كتاب الله في موضعين، إضافة للموضع الذي نحن بصدده. وهو يعني الشيء القوي الثابت الذي يتركز عليه شيء آخر.

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
(سورة البقرة: آية 27).

قواعد البيت هي الأعمدة التي يتركز عليها البيت.

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ نَحْرًا عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) (سورة النحل: آية 26).

هنا أيضاً القواعد تعني الشيء الثابت الذي يحمل البنيان. من هنا يصح القول أن مفهوم (القواعد من النساء) تعني القويات أو صاحبات المسؤولية، وغير الراغبات في الزواج، وأن الزواج ليس في حساباتهن. لا يستقيم القول بأن المقصود بالقواعد من النساء هن الكبيرات أو في أرذل العمر؛ فهؤلاء لا ينطبق عليهن وصف النساء المتعلق بالقدرة على الحمل، ولا ينطبق عليهن لفظ (القواعد)؛ فهن بطبيعتهن هذه ضعاف يحتجن إلى من يرعاهن، ولسن قواعد يستطعن حمل شيء ما.

لفظ (قعد) كما جاء في قاموس اللغة له أصل واحد، وهو يساوي الجلوس. بالنظر إلى كتاب الله وكيف ورد جذر (قعد) من خلال الآيات التي تحدثت عن رفع القواعد سوف نلاحظ أن اللفظ يشمل صفة هامة؛ وهي القدر والقوة. لذلك القاعد لا بد أن يكون قوياً وقادراً، وهذا يتنافى مع التصور السائد أن النساء القواعد هن المتقدمات في العمر؛ إذ صفة القوة والقدرة غير متوفرة، بل هن ضعيفات. بالنظر إلى الآية الكريمة في سورة النساء التي وصفت القاعدين من الرجال، سوف ندرك صفة القوة والقدرة في هذا اللفظ.

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) (سورة النساء: آية 95).

لقد عاب القرآن على القاعدين بسبب قدرتهم، ولأن لفظ القاعد بجد ذاته يحمل صفات القوة والقدرة؛ لذلك القاعدون هنا تحمل الجلوس أو التخلف مع القدرة. قد يظن البعض أن إضافة أولى الضرر يشير إلى أن القاعدين ليسوا أصحاب قوة وقدرة وإلا ما فائدة إضافة أولى الضرر؟

الضرر هنا هو عامل طارئ تسبب في إعاقة القدرة والقوة وليس وضع دائم . لكي يرفع ربنا الحرج عن القاعد بسبب طارئ ما أصابه مع قدرته جاءت الإضافة هنا كنوع من رفع الحرج. قد يكون الضرر خوف من فقدان شيء معين أو ظرف ما لا ينفي عنه القدرة والقوة في الخروج ظاهرياً. مثال ذلك الإبن الوحيد لا يبين قد يكون قادر ولديه القوة على الخروج ولكن لو خرج لسبب ضرر لا بوية .

الضرر هنا ليس معناه إعاقة بدينة فهؤلاء لا حرج عليهم وليسوا ضمن هذه الآية. الآية تتحدث عن أصحاب الضرر الذين لديهم قوة وقدرة ولكن هناك مانع آخر خلاف القوة والقدرة وذلك بسبب حساسية لفظ قاعد كما ذكرنا ومدلوله.

هذا مثال من الأمثلة التي نقدمها على أن كلمات القرآن تفهم من خلال قياس بعضها على بعض ، ولا تفهم من خلال تصورات الناس عنها، والتي غالباً هي تصورات مرتبطة بالمجتمعات، متأثرة بثقافة كل مجتمع.

الفصل العاشر الأعراف

ما مصير الذين لم يدركوا حقيقة الأشياء؟ ما مصير من ماتوا قبل إدراك خطأ بعض المعتقدات، بسبب أنها معتقدات سائدة ويردها الناس على أنها مسلمة؟ ما مصير من حيل بينهم وبين الحقيقة بأي طريقة كانت، مثل التشويش المعرفي، أو البعد الجغرافي، أو أي سبب كان؟ لكي نجيب على هكذا تساؤلات لا بد أن ندرك أننا نحن كذلك لا نمتلك الحقيقة، أو قد نمتلك جزءاً من الحقيقة، ولكن الحقيقة المطلقة؛ هي تأويل كلمات الله وليس إليها سبيل بشكل كامل ومطلق، ولا يعلمها إلا الله. فهم هذه البديهية وهي عدم امتلاك الحقيقة المطلقة، تساعد الإنسان في أن يظل في الوضع الآمن إذا انتهج ثلاثة أمور أو توافرت فيه ثلاثة شروط:

أولاً: التطلع إلى المعرفة باستمرار، بشكل محايد دون هوى.

ثانياً: قبول النتائج السليمة، مهما كانت متناقضة مع نظامه الفكري الموروث.

ثالثاً: تطبيق ما فهمه، والعمل به قدر استطاعته.

هذه الثلاثة شروط ليست من خيال الكاتب وإنما تم استنباطها من خلال كتاب الله ومن خلال تحليل كلمات رئيسية تصف الإنسان وموقفه من المعرفة مثل لفظ مسلم ولفظ كافر وكذلك أصحاب الأعراف. إذا توافرت هذه الشروط في الإنسان فقد وصل إلى مرحلة العبودية بمفهوما القرآني لله. يختلف الناس عن بعضهم بعضاً باختلاف وزن هذه العوامل لديهم. لكي ينجو الإنسان لا بد أن يتوافر فيه الحد الأدنى من هذه الشروط. سوف نقدم الدليل على هذه الشروط، من خلال فهم معنى (المسلم الحنيف) في الفصل القادم.

هذه الشروط هي القدرة على تأمين وضع الإنسان، داخل حيز (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) سواء مات أم لم يميت.

الطريقة الوحيدة لكي ينجو الإنسان بنفسه هي السعي المتواصل مع تجنب الكبر الغرور، فإن وصل الإنسان لليقين فقد سعد، وإن لم يصل فسعيه بحول الله مشكور. رغم أن حدود الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون حددها كتاب الله بكل دقة، إلا أن رحمة الله تجلت في أعظم ما يكون عندما أعطت فرصة لأصحاب الأعراف.

سورة الأعراف في بعض من آياتها أشارت إلى نوع من البشر لا يقومون بما يلزم لدخول الجنة، ولكن لا يعملون عمل أهل النار. لا يملكون الحد الأدنى من الشروط السابقة التي تؤهلهم للمنطقة الآمنة داخل الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ربما بسبب عوامل نفسية، أو بسبب ظروف خارجة عن إرادتهم، ولكن في الوقت نفسه ليسوا من الكافرين أو الظالمين أو المكذبين.

إنها مرحلة وسطية، أو مرحلة من التعادل، و جاء وصف الأعراف لكي يصف هؤلاء القابعين في هذه المنطقة، ويصف رحمة الله بهم. إنهم أناس لا يسعون للوصول للحقيقة، وفي الوقت نفسه لا يسعون في الأرض فساداً.

إنهم مجموعات من البشر في كل المعتقدات، وهم مجموعة ليست قليلة، فجاءت سورة الأعراف تشير إليهم، وتجب على سؤال هام، وهو ما مصير هؤلاء؟
إنهم أصحاب الأعراف، وما أدراك ما أصحاب الأعراف؟

لفهم من هم أصحاب الأعراف سوف نحاول سبر أغوار الآيات الكريمة في سورة الأعراف، من الآية 35 إلى الآية 49. هذه الآيات الكريمة وجهت خطاباً إلى بني آدم بشكل عام، ثم تحدثت عن الفئات الثلاثة الرئيسة من بني آدم. وهم أصحاب النار، وأصحاب الجنة، وأصحاب الأعراف. ليس هناك مصير آخر لبني آدم، وإنما مصيره هو أحد هذه الفئات. تابع القراءة، وبالنهاية يمكنك أن تحدد وحدك دون الاستعانة بالآخرين في أي الفئات أنت. سوف نتناول بالتحليل في السطور التالية الأركان الأربعة الرئيسة التي تناولتها هذه الآيات، وهم بنو آدم من حيث التعميم، والفئات الثلاثة التي سوف يؤول مصيرهم إليها.

أولاً: بنو آدم

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي^{لَا} فَهَنَّا اتَّقُوا وَأَصْلِحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة الأعراف: آية 35).

الآية الكريمة توجه الخطاب إلى بني آدم جميعاً؛ أي لجميع البشر، ولم تخصص المؤمنين أو غير المؤمنين. الآيات الكريمة تضع الخطوط العريضة للقبول، وتشير إلى فرص النجاة بشكل مثالي دون تعصب، وتراعي النظام المعرفي للبشرية جميعها، وتأخذ في الحسبان جميع الظروف التي تحيط بالبشر، والتي من الممكن أن تؤثر في اعتقاداتهم.

آيات كريمة تضع النقاط على الحروف، ولا تدع لأحد احتكار الهداية، وتؤكد أن الله رب العالمين وليس رب فئة دون أخرى، وتشير إلى مساحات من الرحمة الإلهية لم نعهد لها في خطاب رجال الدين وخصوصاً أولئك أصحاب الخطاب الإقصائي.

الآية الكريمة لا تتحدث عن عبادات معينة أو أفعال بعينها؛ وإنما تتحدث بشكل مجمل عن سلوك الإنسان تجاه المعرفة، وكيفية تعامل الإنسان مع ما يجمله. هل هذا الإنسان حريص على المعرفة والوصول للحقيقة، أم أنه لا يهتم لشأنها، أو يكابر ويكذب دون وجه حق؟

الآية الكريمة موجهة للناس بشكل عام، وتبين كيف أن هناك صنفاً من هؤلاء الناس يكذبون ويستكبرون إذا قص عليهم الرسل آيات الله كما سوف نرى في الآية التالية. فمفسرون (يقصون عليكم آياتي) بأنها تلاوة آيات الله، ولكن المنتبه للفظ (قص) لا يمكن أن يعتقد أن التلاوة والقص متساويان.

فما هو قص آيات الله؟

قص الآيات أي تتبعها بالفحص والعرض، والرسل الذين يرسلهم الله إلى بني آدم مستمرون إلى يوم الدين. الذين يتتبعون آيات الله اللفظية أو الكونية ويفصلونها، وما يتبع هذا التفصيل من مسؤوليات هو المقصود في هذه الآية الكريمة. سوف أضرب هنا مثالين

لآية كونية وآية لفظية، وكيف يقصها أهلها. ليس المقصود هنا هو المعنى المشهور للرسول؛ بل هو المعنى العام للفظ، بسبب سياق الآية. لأن رسل الله المذكورين في كتاب الله مكلفون بالتبليغ، والتبليغ يختلف عن القص. الرسل هنا في هذه الآية الكريمة هم الذين يحملون رسالة تتبع الآيات وفهمها، وتبليغها للناس.

المثال الأول: الآيات الكونية

أثبت العلم الآثار السيئة المترتبة على انبعاث ثاني أكسيد الكربون، وما يمثله من خطر على النظام البيئي. هذا التفصيل هو تفصيل إحدى آيات الله وبيانها للناس، وكيف يمكن أن تسبب خللاً في النظام البيئي. إلقاء المخلفات في مصادر المياه تسبب تلوث هذه المصادر؛ مما يؤدي إلى تدمير البيئة المائية، ويؤدي كذلك إلى الإضرار بصحة الإنسان نفسه. إلقاء المنتجات البلاستيكية في البحار والمحيطات يتسبب في تدمير البيئة البحرية. هذه الأمثلة وغيرها هي تفصيل آيات الله الكونية وقصها. إذا جاء رسل الله الذي يقصون هذه الآيات ويفصلونها للناس، فهنا يكون لزاماً على الناس أن يتقوا ويصلحوا. التقوى هنا عدم التجاوز، والكف عن الأذى، والإصلاح هو محاولة معالجة ما حدث، وإعادة التوازن قدر المستطاع. الآية الكريمة بثرت المتقين والمصلحين بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هذا هو الحد الأدنى لدخول منطقة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أما الغفلة أو عدم الاكتراث أو الأنانية مؤشرات خطيرة للغاية، وأما المعرضون والمكذبون وجاحدو الحقائق فمتربعون على قمة الجانب الآخر حيث لا تقوى ولا إصلاح.

المثال الثاني: الآيات اللفظية

في مسألة السبي والرق، تابعت الأدلة المنطقية والعقلية من كتاب الله، على أن هذا السلوك لا علاقة له بكتاب الله؛ وإنما وضع اجتماعي في زمن معين. كل من يصر على الاقتراء على الله وإلصاق هذه التصرفات بكتاب الله هو من يجب أن يخاف ويحزن، وخصوصاً إذا أرسل الله إليه من يقص عليه آيات ربه. قص الآيات هنا يعني تتبعها أو البحث خلفها،

واستنباط حقائقها بقدر ما أتيح من معارف لكل متدبر. الأمثلة على الآيات اللفظية أكثر مما يمكن عدده هنا.

الشاهد هو قولنا أن الإنسان بطبيعة الحال إذا وصلته معلومة متوافقة مع المفاهيم العقلية، يلزمه العمل بها، والكف عما سواها، وإصلاح ما يستطيع، حتى ينطبق عليه قول الله سبحانه (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون). الآية الكريمة تعطي الحد الأدنى الذي يجب أن يكون عليه الإنسان من بني آدم، وهو الرضوخ للمعرفة التي تؤهله لكف الأذى وإصلاح هذا الأذى. كل إنسان في كل عصر يأتيه خبر من آيات الله اللفظية وآياته الكونية، لذلك نقول أن الحد الأدنى هو قبول البراهين، دون عناد أو تكبر أو تكذيب دون معرفة.

بعد الخطاب الموجه للبشرية في هذه الآية، جاءت مجموعة آيات تصف ثلاث فئات من الناس لا ثالث لهم، ويدخل ضمنهم جميع البشر. فئة المعرضين عن المعرفة وهم أصحاب النار، وفئة المقبلين على المعرفة وهم أصحاب الجنة، وفئة بينهما وهم أصحاب الأعراف. سنتعرف على الفئات الثلاثة حتى نستطيع فهم من هم أصحاب الأعراف بشكل كامل.

ثانياً: أصحاب النار

جاء خبر هذه الفئة وتفصيلها في ستة آيات كما يلي:

الآية الأولى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (سورة الأعراف: آية 36).

الآية الكريمة تتحدث عن نتيجة تكذيب ما يقصه الرسل؛ أي ما تتبعوه وبحثوه في آيات الله، وحاولوا فهمه، وليس المقصود هنا تكذيب التبليغ كما ذكرنا آنفاً. طالما أن الآيات لم تنسب للكتاب فلا يمكن تفسيرها إلا من خلال السياق، والسياق يتحدث عن البشر بصفة عامة. الآية تتحدث عن الحقائق التي يكتشفها الرسل في كل العصور، والذين يحملون رسالات محددة إلى البشرية، فتأتي فئة لا علم لها، فتكذب هؤلاء الرسل، ومن ثم تعرض عن الآيات، وتغلق العقل دونها. الآية الكريمة تشير إلى أن الاستكبار والتكذيب غير القائم على دليل

معقول، كفيلاً بأن يجعل صاحبه من أصحاب النار خالداً فيها. عدم الرضوخ للحق استكباراً هو الآفة المهلكة لمصير الإنسان. كثير من المفسرين جعلوا المقصود بالاستكبار عن الآيات مرادفاً للآيات في المصحف، رغم أن لفظ (الآيات) نفسه وصف الآيات اللفظية والآيات الكونية.

الآيات اللفظية تتلوها في كتاب الله، والآيات الكونية نراها ماثلة أمامنا، والاستكبار والتكذيب بكلا النوعين هو إحدى تذاكر الدخول إلى النار. لماذا التكذيب بالآيات والاستكبار سبب مباشر لدخول النار؟

تكذيب الآيات الكونية والاستكبار عنها يعطل مسيرة العلم والمعرفة، وينشر الجهل، وأثره قد يمتد لأجيال. بينما تكذيب الآيات اللفظية يعطل كلمات الله، ويعطي الفرصة لكل متقول أن يقول على الله ما لا يعلم، ومن ثم الاقتراء على الله.

لك أن تتخيل كم المعرفة التي فقدناها عندما أنكرنا مئات الآلاف من الأدلة على التطور؛ بسبب بعض الجدليات التي لا تؤثر في صلب النظرية، ولم نحاول بحث الأمر بشكل حيادي، بعيداً عن الروايات التاريخية ورؤية أشخاص ما لهم علم ولا معرفة بهذا الأمر. وكم انحرافات التي يرددها الناس؛ بسبب تكذيب كروية الأرض الثابتة علمياً بشكل لا يمكن دحضه، وكمن شخص تشوش فكره بسبب هذا العنت.

على الجانب الآخر لك أن تتخيل كم الدماء التي أريقَت بسبب فتاوى التكفير، والتي لا تمت بصلة لكتاب الله، سوى أن بعض الناس تبنا أيديولوجية كهذه، ونسبوا زوراً لكتاب الله. كم من الذنوب ارتكبت لأن هناك أناساً استكبروا في قبول الحق، وكذبوا ما لم يحيطوا به علماء. ما يمكن أن يفعله الاستكبار والتكذيب أكثر مما نتخيله؛ فهو حجر أساس في تشكيل ثقافة المجتمعات، وبقدر ما يكون أهل المجتمعات بارعين في التكذيب، مغموسين في الكبر، يجيدون لي الحقائق وحبك الحبائل، بقدر ما تتأخر وتنزوي هذه المجتمعات. إنه سلوك يستحق أصحابه النار بكل جدارة؛ لأنه تأثير مدمر على مستقبل البشرية.

الآية الثانية: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أَُولَئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) (سورة الأعراف: آية 37).

هذه الآية الكريمة توضح لنا شدة ظلم هذا الإنسان الذي يكذب بآيات الله أو يفترى على الله كذباً. الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها، ومرتبطة كذلك بما بعدها؛ إذ الحديث موجه لهؤلاء الذين يستكبرون ولا يقبلون الحقيقة.

الآيتان التاليتان تشيران إلى السلسلة الملعونة التي يتحجج بها هؤلاء المكذبون و يتكئون عليها، وهي حجة السابقين والأولين، والتي تكون دائماً حاضرة كدليل مزيف مقابل الأدلة العقلية.

الآية الثالثة والرابعة: (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)) (سورة الأعراف: آيات 38-39).

ليس هناك من سبب مقنع يجعل الإنسان يثق في أناس سابقين، لا يدري عن ظروفهم شيئاً، ويلغي المنطق والعقل ويظن انه قد ادى ما عليه. ما الذي يدفع الإنسان إلى الاعتقاد بصحة رأي غيره، ويتخلى عن عقله بكل هذه البساطة؟

إنها مخاطرة غير محمودة العواقب، والله يخبرنا عن محاجة هؤلاء بعضهم بعضاً في النار، ولعن بعضهم بعضاً. الاتباع الأعمى لا بد أن يؤول بهم إلى لعن بعضهم بعضاً، ولا نجاة من هذا المصير إلا بالعقل وتحكيمه، فما وافق المفاهيم العقلية يقبل، وما تنافر معها رددناه ولا نلقي

له بالأ، مع الأخذ في الاعتبار أن النص المؤسس لكل ذلك هو كتاب الله. لا يمكننا رفض تفسير أكثر منطقية وعقلانية لأن فلان قال بخلاف ذلك. فلان هذا سوف يُسأل عما قال، والمقصد كذلك سوف يُسأل عن اتباعه لفلان، ولماذا استكبرت وكذبت عندما جاءتك آيات ربك، ووثقت بقول فلان دون أن تدع الفرصة لعقلك أن يعمل؟.

القرآن الكريم زاجر بهذا التحذير من الاتباع الأعمى، وللأسف الناس يسقطون هذا التحذير على فترة زمنية معينة، ولا يتصورون أنهم هم مخاطبون كذلك بهذه الآيات. هذه الثقة بل الغرور منع الناس من تدبر الآيات بشكل سليم، مما جعلهم يستسهلون قبول أقوال تعفيهم من المسؤولية.

الآية الخامسة: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ^ج وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (سورة الأعراف: آية 40).

من الملاحظ أن هذه الآية تشبه إلى حد كبير الآية التي بدأت في وصف هذه الفئة، وتحدثت عن المكذبين المستكبرين واستحقاقهم للنار (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ^ط هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (سورة الأعراف: آية 36).

بينما هذه الآية تختلف في التعبيرات، وتشير إلى شيء آخر، وخصوصاً التعبير المحير (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ). كيف فسر المفسر هذا التعبير، وماذا يعني له؟

هناك تفسيران رئيسيان لهذا التعبير القرآني، التفسير الأول هو أن المقصود بالجمل هو الحيوان المعروف من الإبل، والتعبير هو تحذير للمكذبين بأن دخولهم الجنة مستحيل، كدخول البعير من ثقب الإبرة.

التفسير الثاني يعتقد أن المقصود بالجمل هو حبل السفينة الغليظ، وبذلك يكون المثال أكثر تناسقاً، وهو أيضاً تحذير للمكذبين بأنهم لن يدخلوا الجنة، كما لن يدخل حبل السفينة الغليظ من ثقب الإبرة.

هذا التعبير القرآني مثير للحيرة؛ فالتفسير التقليدي لا يستقيم مع تعبيرات القرآن الأخرى ذات الدلالات الرائعة، إذ إن المفسرين جاؤوا بتفسيرات ظاهرية للغاية، أو تفسيرات متشابهة، لم تحاول فهم الآيات بشكل أعمق، ولم تربط الآية التي سبقت هذه الآية بها، وذكر فيها أيضاً المكذبون والمستكبرون.

لدينا ألفاظ في هذا التعبير القرآني لا بد أن نقف عليها، ولا ندعها تمر هكذا دون فحص دقيق، مثل: يلج- الجمل- سم- الخياط. بعد أن نقوم بتحليل هذه الألفاظ سوف نفهم لماذا جاءت هذه الآية في وصف فئة أهل النار بهذا التعبير.

أولاً: لفظ يلج

أصل الكلمة هو (ولج)، ومعناها في اللغة الدخول، أو شيء يعبر شيئاً آخر. (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (سورة الحج: الآية 61). عندما يقول الله سبحانه يلج الجمل في سم الخياط؛ فالمعنى أن الجمل يعبر سم الخياط، أو يمر من خلاله، وهذا المعنى هو المعنى الذي تقول به كتب التفسير، وكل ما فعلناه صياغة الفعل بشكل آخر، فبدلاً من وصف الولوج بالدخول وصفناه بالعبور. وهذا المعنى سوف نجد صداه بعد أن نفهم ما المقصود بالجمل.

ثانياً: لفظ الجمل

كلمة (جمل) لها أصلان بحسب مقاييس اللغة: الأصل الأول تجمع، وعِظَمُ خَلْقٍ، والأصل الثاني حسن. كلمة جمل يمكن فهم معناها من الآية القرآنية في سورة الفرقان، والتي جاء فيها ذكر كلمة مشتقة من (جمل)

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ

تَرْتِيلاً) (سورة الفرقان: آية 32).

(جملة واحدة) تعني شيئاً مجتمعاً، وهو معنى متفق مع أصل الكلمة التي وردت في قاموس

اللغة، والتي تعني تجميع شيء. كلمة (جمل) تعني شيئاً مجملاً أو شيئاً كلياً، ويبدو أن لفظ الجمال

الذي يصف الحسن إنما وصف بذلك لأنه يصف كلية الأشياء ومجملها. وكأن الشيء الجميل هو الشيء المجمل أو الكامل، الذي ليس فيه نقص.

(الجميل) في الآية الكريمة لا يعني الحيوان المعروف؛ فقد ذكر القرآن هذا الحيوان بلفظ البعير، ولفظ الإبل، ولفظ الناقة، ولم يرد ذكر الجمال إلا في هذه الآية الكريمة. الجمال في الآية يعني مجمل الأشياء. فيكون تعبير (حتى يلج الجمل) تعني حتى يتخلل الإجمالي أو المجمل سم الخياط. لكن أي إجمالي؟ وما هو سم الخياط؟

الإجمالي هو إجمالي ما يقوم به الإنسان، أو مجمل تصرفات هذا الإنسان، خصوصاً أن الآيات بدأت بالحد الأدنى للقبول، داخل حيز الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهو التقوى والإصلاح. مع فهم (سم الخياط) سيزداد الأمر وضوحاً، ونصل إلى المقصود من هذا التعبير العظيم.

ثالثاً: لفظ سمّ وخياط

أصل كلمة (سمّ) كما في قاموس اللغة هو مدخل في شيء، أو ما يمكن أن يعرف بالثقب أو الثغر أو المسام بتعبير علمي.

لفظ (خياط) أصلها خيط، وتعني الامتداد في الشيء، ولو أردنا أن نكون أكثر دقة فهو الفاصل، أو الحد الدقيق. الخياط عندي ليس الإبرة؛ لأن الإبرة تسمى الخيط، ولكن أجد أن الخياط هو مجموعة خيوط مترابطة، لا تمثل ثوباً؛ لأن فيها مساماً وثقوباً. أرى الآية تتحدث عن فرصة دخول هؤلاء المكذبين المستكبرين الجنة، وليست تحدياً لهم. سم الخياط يبدو لي أنه الغشاء المصنوع من خيوط نسجوها من الاستكبار والتكذيب، ولا يرون من خلفه الحقيقة، رغم ما فيه من ثقب.

فيكون المقصود بالتعبير القرآني: لا يدخلون الجنة حتى تعبر مجمل أعمالهم من هذا الغشاء الذي وضعه أمامهم، غشاء الاستكبار والتكذيب. هذا الغشاء على ما فيه من ضعف، فهو

لا يجب الحقيقة، إلا أنه بالقوة التي تجعله يجب كل أعمال الخير الأخرى، فيمنعهم من دخول الجنة.

هذه الآية في رأيي تختص بأولئك الذين يفعلون الخير بقدر معين، ولكنهم يكذبون ويستكبرون عن آيات الله. فالآية تحذرهم من ذلك، وتشير إلى أن مجمل أعمال الخير التي قد يفعلونها ربما لا تقوى على المرور من هذا الغشاء (الخياط) الرقيق المتهاك، الذي جعلوه أمامهم، ولو فطنوا لتخلصوا منه بكل سهولة، من هذا الحاجب الضعيف المتهاك.

الآية التالية ربما تساعدنا في فهم (الخياط)، حيث جاء لفظ (غواش)، وأصلها (غشا) وهي من الغشاء. فكما جعل هؤلاء المكذبون أمامهم غشاء يجبرهم عن الحقيقة، رغم ضعفه وهوانه في الدنيا، فجاء جزاؤهم متوافقاً مع ما فعلوه في الدنيا، فهم يجزون بغواش يوم القيامة. معنى (غواش) أي أشياء لا تحجب الرؤية بشكل كلي؛ بل يستطيعون من خلالها رؤية نعيم أهل الجنة، والتحاور معهم، كما سوف نرى، لتزداد حسرتهم وألمهم.

(لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ^ج وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)) (سورة الأعراف: آيات 40-41).

الآيات الكريمة الخاصة بوصف أصحاب النار تحدثت عن صفتين رئيسيتين، هما: الاستكبار والتكذيب، وهما أصل الكفر الذي يمنح صاحبه تذكرة دخول النار بكل اقتدار. بالمقابل سوف نتعرف من خلال الآيات التالية على الصفات الأصيلة التي تميز بها أصحاب الجنة.

ثالثاً: أصحاب الجنة

جاء ذكر أصحاب الجنة في الآيات 42 و 43، ومن أهم مميزات أصحاب الجنة أنهم آمنوا وعملوا الصالحات، وصدقوا الرسل إذ قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ^ط

فِيهَا خَالِدُونَ (42) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنَّ تِلْكَ الْجَنَّةُ أُورِثَتْهُمَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)) (سورة الأعراف: آيات 42-43).

هاتان الآيتان توضحان صفات أهل الجنة، ومن أهم الصفات هو الإيمان والعمل الصالح وتصديق الرسل، والتي تقابل الاستكبار والتكذيب. الإيمان هنا وصف لاطمئنان القلب لعمل ما، فهو وصف عام. الآيات تتحدث في الإطار العام الذي يؤهل الإنسان لدخول الجنة؛ وهو الإيمان.

القلب لا يطمئن إلا لما يوافق منظومة القيم المتعارف عليها، إضافة إلى المعرفة الجديدة المكتسبة، والتي حصل عليها الإنسان نتيجة جهد وبحث. كذلك بينت الآيات أن الإيمان المؤهل للجنة لا بد أن يتكامل بالعمل الصالح قدر المستطاع، كما أرشدت لذلك الآيات (لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا).

ثم انتقل بنا القرآن ليرينا مشهد الحسرة التي سوف يقع فيه الظالمون، عندما ينادي أصحاب الجنة على أصحاب النار، ثم يسدل الستار عندما يؤذن بينهم مؤذن أن لعنة الله على الظالمين.

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45)) (سورة الأعراف: آيات 44-45).

الآيات توضح أن من أهم صفات هؤلاء الظالمين هو الصد عن سبيل الله، ورغبتهم الشديدة في الاعوجاج. إنه التأثير الماحق للاستكبار والتكذيب، حيث ترى لي عنق الحقائق والتدليس؛ مما يؤدي بالنهاية إلى الصد عن سبيل الله. كما ذكرنا أن الاستكبار والتكذيب من أهم صفات أهل النار؛ لأنه مدعاة لإضلال آخرين، وظلم كبير يقع على الآخرين؛ بسبب تبني

منهج الاستكبار، وتكذيب ما لم يحط به الإنسان علماً. المشهد العام ليوم القيامة لم يبق فيه إلا فئة أصحاب الأعراف فمن هم؟

رابعاً: أصحاب الأعراف

بعد أن تحدثت الآيات عن أصحاب النار وأصحاب الجنة، وبينت لماذا استحق كل فريق ما استحقه، جاء الدور على الفئة الثالثة وهي أصحاب الأعراف. من سياق الآيات يتضح أن أصحاب الأعراف لم يعملوا بعمل أهل الجنة، ولا هم كذلك عملوا بعمل أصحاب النار.

أصحاب الأعراف لم يؤمنوا إيماناً كاملاً بتابعهم ما جاءت به الرسل، ولم يعملوا الصالحات وفقاً لما بينه لهم الرسل. أصحاب الجنة مطالبون بأن يكونوا منتبهين للرسائل الإلهية التي تقوم سلوكهم، وتبين لهم ما غاب عنهم، ولا يكونوا من الغافلين أو المتهاونين. تطرقنا في الفصل السابق لمفهوم الرسول بشكل بسيط، وهنا سوف نلقي مزيداً من الضوء على صفة الرسول. الرسول مفهوم عام، ولا يمكن فهمه إلا من خلال السياق، ولو جاء منفصلاً فإنه يصرّف إلى المعنى الأشهر، وهو رسول الله المأمور بالتبليغ المباشر.

مفهوم الرسل قد يكون خارج البشر من الأساس، كما جاء في الآية الكريمة التالية، والتي هي أيضاً في سورة الأعراف.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) (سورة الأعراف: آية 133).

الآية الكريمة تشرح كيف أن الله أرسل هذه الكائنات تحمل رسالة عذاب لهؤلاء القوم، الذين أجزموا واستكبروا وكذبوا بالآيات. مفهوم الرسل الخاص بالتأويل وليس بالتنزيل، جاء مفصلاً في سورة الأعراف أيضاً، وعلى الناس اقتناص الرسائل الإلهية لو كانوا يعلمون.

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ) (سورة الأعراف: آية 53).

هذه الآية وضعت النقاط على الحروف؛ إذ إنها أشارت بشكل مباشر إلا استمرارية مفهوم الرسل، فالرسول هو من يحمل رسالة، وهذه الرسالة خاصة بمحاولات تأويل وفهم آيات الله تحديداً. يبدو جلياً من الآية أن المكذبين كذبوا الاستنباط من آيات الله، دون دليل ولا برهان؛ لذلك عندما يأتي تأويل الآيات وبيان حقيقتها سيدرك هؤلاء المجرمون أنهم كانوا في الطرف الآخر.

الطرف الذي يعاند ويكابر ويعمل ضد بيان آيات الله وفهمها، وأنهم كانوا أبعد ما يكون عن مراد الله. على الجانب الآخر نجد كذلك أصحاب الأعراف ليسوا من أصحاب النار، إذ إنهم ليسوا مكذبين أو مستكبرين عن آيات الله أو ظالمين، كما بينت الآيات الكريمة. لو تتبعنا وصف الأعراف الذي جاء به المفسرون، لوجدنا أن وصفهم لم يخرج عن خمس حالات:

الحالة الأولى: مجموعة من الناس لهم مكانة خاصة، وقد شملتهم عناية الله.

الحالة الثانية: هم الذين تستوي حسناتهم وسيئاتهم، ولأجل ذلك لا يدخلون الجنة ولا النار، بل يمكثون بينهما، ثم تكون عاقبتهم الجنة، مشمولين برحمة الله.

الحالة الثالثة: هم الملائكة المتمثلون بصورة الرجال، يعرفون الجميع.

الحالة الرابعة: فئة من كل أمة عدول، وهم الذين يشهدون على أممهم.

الحالة الخامسة: مجموعة صالحة من حيث العلم والعمل.

الحالات المذكورة والتي وصفت الأعراف في التفاسير متباينة بشكل كبير، فبينما نجد من وصفهم بالملائكة نجد آخرين وصفهم بأناس استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على عدم وضوح مفهوم الأعراف بشكل قاطع.

عند محاولة فهم مدلول كلمة (الأعراف) من خلال اللغة، ومن خلال مدلول الكلمة في كتاب الله، سوف يتضح لنا أن الأعراف أو رجال الأعراف هم فئة عظيمة من الناس، في كل العصور وفي كل الأوقات. أصل كلمة (الأعراف) هو عرف، وكما في قاموس اللغة لها أصلان: الأصل الأول: تتابع الشيء متصلًا ببعضه ببعض، والأصل الثاني: سكون وطمانينة.

من خلال كتاب الله، وبحث أصل كلمة (عرف)، سنجد أن كون الإنسان يعرف تعني أن هناك شيئاً واضحاً، وهذا الإنسان يسكن إلى هذا الشيء، أو يطمئن، فيعرفه. الاطمئنان والسكون جزء أصيل من المعرفة، والخائف لا يعرف، والمضطرب لا يعرف. من هنا يمكننا دمج أصلي كلمة عرف في أصل واحد، وهو الشيء الواضح أو الظاهر، والذي يمكن الركون إليه أو الرجوع إليه.

عرف من المعرفة، وهي التراكم المعلوماتي الواضح، والذي يستطيع الإنسان التعامل معه بكل بساطة. ذكرنا فيما سبق أن الفرق بين المعرفة والعلم فرق كبير، فإذا كانت المعرفة هي التراكم المعلوماتي، فإن العلم هو معالجة التراكمات المعلوماتية، واستخراج نتيجة جديدة. لذلك لا يصح إطلاق لفظ (عالم) إلا على أولئك الذين لديهم قدرات خاصة على التحليل والاستنتاج والاستنباط. أما الذين يتعاملون مع التراكمات المعلوماتية ويستخدمونها في حياتهم، فهؤلاء ينطبق عليهم لفظ (يعرفون) ولا ينطبق عليهم لفظ (يعلمون).

المدرس في المدرسة الذي ينقل المعرفة للتلاميذ هو (يعرف)؛ لأنه تعامل مع ما هو موجود بالفعل، ونقله إلى غيره، ورجل الدين الذي ينقل ما في الكتب هو (يعرف)، ولا ينطبق عليه لفظ (يعلم)؛ لأنه في الحقيقة ناقل للمعرفة، وليس منتجاً للمعرفة.

كلمة (الأعراف) هي جمع عرف بضم العين، والعرف هو ما تعارف عليه الناس، بسبب وضوحه لديهم، وتتابعهم عليه، واطمئنانهم إليه. من هنا يمكننا القول إن الأعراف تعني الأشياء المتعارف عليها في المجتمعات، وهي الأشياء التي تطمئن لها النفوس وتسكن إليها.

ما الفرق بين (يعرف) بوصفه فعلاً وبين (العرف) بوصفه اسماً؟

(يعرف) يعني أن هناك شيئاً واضحاً تستيقن منه نفس الإنسان، وتتعرف عليه، ومن ثم يعرف الإنسان هذا الشيء. أما (العرف) فهو الاطمئنان للشيء المعروف، والتعامل معه. العادات والتقاليد في المجتمعات هي نتيجة مباشرة لتعرف هذه المجتمعات على شيء، ومن ثم استساغته والاطمئنان إليه، فصار عرفاً بالنسبة إليها، وبالنسبة إلى الأجيال المتعاقبة. هل يكفي أن يكون أصحاب الأعراف هم أصحاب العادات والتقاليد بشكل مطلق؟ بالطبع لرجال الأعراف مواصفات، أولها: أنهم لا يعادون أصحاب الجنة بأي شكل من الأشكال، أو على الأقل محايدون.

(بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) (سورة الأعراف: آية 46).

ثانيها: أنهم ليسوا ظالمين.

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (سورة الأعراف: آية 47).

لو وقع هؤلاء في الظلم بأي شكل من الأشكال لخرجوا من فئة الأعراف إلى فئة الظالمين، وبالتالي أصحاب النار.

ثالثها: أنهم لا يستكبرون؛ لأنهم استنكروا استتجار أصحاب النار، كما جاء في الآية التالية:

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ) (سورة الأعراف: آية 48).

الملاحظة الرابعة على أصحاب الأعراف: أن هناك فئة من الناس تظن أنهم ليسوا من أهل الجنة. الآية الكريمة لم تحدد هذه الفئة التي تظن وتقسّم أن رجال الأعراف ليسوا من

أهل الجنة. يمكننا القول أن هذه الفئة هي الفئة التي تحتكر الهداية، والتي لا ترى أحداً أحق بالله منها، ولا ترى إلا نفسها، والله أعلم بأحوالها.

(أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ
(49)) (سورة الأعراف: آيات 46-49).

ما مدلول ذكر التعبير القرآني رجال الأعراف والذي لم يأتي مع الجنة والنار؟ . لقد جاء ذكر رجال الأعراف ولم يرد ذكر رجال الجنة أو رجال النار. مدلول لفظ (رجال) لا يشير إلى الجنس، وإنما يشير إلى وقوف هؤلاء على الأعراف، أو ما تمسكوا به، وما تعارفت عليه مجتمعاتهم، دون ظلم أو استكبار أو رفض للحقيقة.

مفهوم الأعراف في كتاب الله يحل إشكالية في غاية التعقيد، عن أهل تلك المجتمعات الذين يتبعون ما تعارفت عليه المجتمعات، دون أذى لأحد أو ظلم. وهم على ذلك لم يتعرفوا إلى الله بالشكل الصحيح مائة بالمائة، إما بسبب نقص المعرفة، أو بسبب حجب تعاليم الإله الصحيحة عنهم، أو لدخول بعض الأساطير التي منعتهم من اتباع الحق.

لو نظرنا في أحوال أصحاب هذه المجتمعات لاحترات العقول؛ إذ إن كثيراً جداً من هؤلاء محسنون ولا يظلمون أحداً، بل وليس لديهم موقف من الآخرين، ويتعاملون مع الأمر بالأعراف والتقاليد التي تربوا عليها. كذلك يبدو أن النظام المعرفي لهؤلاء لم يستطع الفرز بشكل صحيح؛ لذا بقوا على ما تعارفت عليه مجتمعاتهم، دون تعمد إخفاء الحقيقة أو ضلال مقصود. هذه الفئة أشار القرآن إليها بأنها رجال الأعراف، والتي أشار ربنا إلى أنه يشملهم برحمته؛ بسبب حسن نواياهم، وعدم تعمدهم الإضرار أو الظلم.

تعالوا نطبق الشروط التي ذكرناها في بداية هذا الفصل على وصف الأعراف؛ لنستوضح موقف هذه الفئة بشكل بسيط.

أولاً: التطلع إلى المعرفة باستمرار، بشكل متجرد دون هوى.

ثانياً: قبول النتائج السليمة، مهما كانت متناقضة مع نظامه الفكري الموروث.

ثالثاً: تطبيق ما فهمه والعمل به قدر استطاعته.

يبدو أن فئة الأعراف لا تتطلع إلى المعرفة؛ وذلك قد يكون بسبب قدراتهم العقلية، أو بسبب ضغط المجتمعات، أو نتيجة مباشرة للسببين معاً. هذه الفئة تقف موقف المحاييد من النتائج الجديدة؛ إذ إنها لا تستطيع التفريق بشكل سليم وحازم، فهي لا تكذب ولا تصدق. تطبق ما تعارفت عليه مجتمعاتها واطمأنت إليه، دون ظلم أو تجاوز، أو تكذيب ما لم تحط به علماً.

لا بد أن نضيف إلى هذه السمات الرئيسة أن هؤلاء - كما ذكرنا - لا يكذبون ولا يظلمون ولا يستكبرون. فئة الأعراف فئة موجودة في كل البيئات، وفي كل الملل، وفي كل الأزمنة. الإنسان الذي يعيش في مجتمع لم يصله فيه معلومات كافية، أو أنه غير قادر على فهم الأمور بشكل سليم، واكتفى من ذلك باتباع ما يتبعه مجتمعه، وكان على حذر من الظلم والاستكبار، هم المعنيون هنا. هناك خيط رفيع بين أصحاب الأعراف وبين الغافلين؛ إذ إن أصحاب الأعراف قدراتهم وظروفهم لم تسمح لهم باستجلاء الحقيقة وتبعتها، بينما الغافلون تهاونوا عمداً أو طلباً للاسترخاء وتجنباً للمجهود.

بالنهاية هذه الفئات ليست للتصنيف السياسي، وإنما هي تصنيف فكري، لا يعلم حقيقته إلا الله. الله وحده هو الذي سوف يحكم من هم أصحاب الأعراف، ومن هم الغافلون، ومن هم أصحاب الجنة، ومن هم أصحاب النار، والإنسان مطالب ببذل الجهد قدر استطاعته، وعليه نفسه لا يضره غيره.

يرز سؤال بسيط هنا: هل بعد قراءتي لهذا الفصل يكفيني أن أكون من أصحاب الأعراف؟ قد يعتقد الإنسان أنه يكفي ذلك؛ فهو لا يريد التكاليف المرهقة التي كلف الله بها عباده.

بمجرد فهم الإنسان لمفهوم الأعراف وفهم سماتهم، فقد خرج من هذا المفهوم؛ فهو قد أدرك حقيقة هذا الوصف، فيلزمه الاستمرار في البحث؛ ليكون من أصحاب الجنة. بمجرد

أن يظن الإنسان أنّ بإمكانه أن يكتفي بكونه من أصحاب الأعراف عن قصد وفهم، هو عين الظلم لنفسه. الظلم هنا سوف يخرج من مفهوم أصحاب الأعراف، ويرشحه بقوة لأن يكون من أصحاب النار.

المسألة ليست أحزاباً يستطيع الإنسان اختيار ما يناسبه، بل هي درجات ومناهج فكرية، والإنسان مطالب بالسعي والوصول إلى أعلى نقطة فيها. من تقاعس أو تخلف، وكانت لديه القدرة، فقد هوى وضل ضلالاً مبيناً.

بعد فهم أصحاب الأعراف يلزمنا الآن الدخول لفهم من هو (المسلم)، وإلى ماذا يشير التعبير القرآني (المسلم الحنيف)، وكيف نفهم التعارض الذي جاء في كتب التفسير، عندما تعارض مفهوم (المسلم) في القرآن، مع التوصيف التاريخي لهذا اللفظ.

الفصل الحادي عشر مسلماً حنيفاً

في هذا الفصل سوف نحاول فهم مدلول (المسلم) ومفهوم (الإسلام) من خلال كتاب الله، ودون تحيز، محاولين فك التعارض وحل الإشكاليات التي سببها المفهوم التاريخي للإسلام ولللفظ (المسلم). دعونا نبدأ من الآية الشهيرة . (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (سورة آل عمران: آية 85).

تأويل هذه الآية الكريمة كان سبباً مباشراً في إغلاق باب الرحمة الذي جاء فياضاً في كثير من مواضع كتاب الله. أول تأثير لتأويل هذه الآية هو جعل أصحاب الأعراف فئة انقضت قبل نزول الرسالة الخاتمة، وليس لها علاقة بأي فئات حالية على وجه الكرة الأرضية. هذا التأويل سبب إشكالات لا حصر لها، من أهمها: ما ذنب أولئك الذين لم تصلهم المعرفة بشكل سليم، وحيل بينهم وبين الحقيقة لأي سبب كان.

كتاب الله ليس فيه اختلاف، فلا يمكن أن يوجد تعارض بين الآيات، وإنما أحياناً ضيق الأفق والتحيز يجعل آيات الكتاب متعارضة أو فيها اختلاف. المبدأ السليم في فهم آيات الله هو الفهم الشامل، الذي يلغي هذا التعارض، ويصل به إلى تصور عام يلغي هذا الاختلاف.

لفظ (الإسلام) مشتق من الجذر سلم، وأصله الصحة والعافية كما جاء في قاموس اللغة. من خلال آيات الكتاب سنجد أن لفظ سلم جاء في مواضع عديدة، نكتفي بموضع واحد لبيان مفهوم اللفظ، ثم نخرج على بعض الآيات للتأكد من تحقيق شروط اللفظ في الآيات.

(إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيراً لَفَشَلْتَهُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (سورة الأنفال: آية 43).

لفظ (سَلَم) في الآية الكريمة يشير إلى تخليص شيء من شيء. مفهوم الصحة والعافية الذي جاء في قاموس اللغة لا يخرج عن مفهوم التخلص، والبراءة من الأمراض أو كل ما يؤثر في الصحة. من هنا يصبح مفهوم السلام هو التجرد والتخلص من كل التجاذبات.

لذلك يمكننا القول: إن مفهوم الإسلام هو مفهوم انخلاص أو البراءة أو عدم التحيز لشيء ما. هذا هو المفهوم العام للفظ (إسلام)، وبالتالي المسلم هو الشخص غير المتحيز، أو غير المشرك، أو الذي ليس لديه حكم مسبق على الأشياء. الإسلام إطار عام، وليس تصنيفاً؛ لذلك يمكن فهم لفظ (الإسلام والمسلم) من خلال الصفات والخصائص التي يتميز بها هذا اللفظ، ومن خلال السياق الذي جاء فيه اللفظ.

إذا كان الحديث عن الإسلام لرب العالمين؛ فالمقصود هو إخلاص الوجه لرب العالمين، والبراءة من كل ما يعكس صفو هذه العلاقة، مثل الشرك وأنواعه المختلفة. لقد جاء هذا المعنى واضحاً في الآية التالية في سورة آل عمران.

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (سورة آل عمران: آية 19).

الآية الكريمة تشرح مفهوم الإسلام باستفاضة، وهو التخلص من الشرك وعدم التحيز، وهو القانون العام الذي ارتضاه الله للناس. لذلك نجد أن مفهوم الإسلام في الآية محل دراستنا هو البراءة والتخلص من الشركاء وعدم التحيز، وهو المرحلة التي تسبق الإيمان بالله، وفي كثير من الأحيان الإسلام بصفة عامة يسبق التعرف على رب العالمين كما سوف نرى. الإسلام هو المظلة الرئيسة، وهو المحطة الأولى، والتي دونها لا يمكن للإنسان الدخول في الإيمان. كل تحيز يمنع صاحبه بشكل تلقائي من قبول الحقيقة هو في الحقيقة نقيض الإسلام. مجرد الاستعداد الصادق لقبول الحقيقة هو في حقيقته إسلام.

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (سورة آل عمران: آية 85).

هذه الآية الكريمة يتأكد معناها من خلال الآية التي سبقتها.
(أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)
(سورة آل عمران: آية 83).

الآية تتحدث عن أن كل من في السموات والأرض أسلم لله طوعاً وكرهاً، وخارج هذه المعادلة هو الإنسان؛ لأن الحديث موجه له بصفة عامة كما هو ظاهر في بداية الآية. لا شك أن من في السموات والأرض أسلم لله؛ لأنه يسير تبعاً لقوانين منتظمة ليس فيها تحيز، و المخلوق الوحيد الذي يعرف التحيز هو الإنسان؛ بسبب حرية الإرادة التي يمتلكها. لا يمكن لأحد أن يفهم (أسلم من في السموات والأرض) بالمفهوم التاريخي، المحدد بالأركان الخمسة. أسلمت الشمس تعني أنها تسير وفق قوانين منتظمة وليس لها أن تقرر يوماً ما، أنها لن تشرق على قوم كافرين، أو أنها سوف تقلل من حرارتها بسبب رأيها في بقعة جغرافية. كل شيء أسلم لله أي يؤدي وظيفته باحترافية دون تحيز لشيء معين ودون وجهة نظره الخاصة أو أفكاره المسبقة.

دين الله الذي ارتضاه لعباده، والفترة التي فطر الناس عليها، هي البراءة والنقاء عند فهم الأشياء ومعرفتها وعملها، أو عدم التحيز. انظر للطفل الصغير حديث الولادة، والذي يمثل قمة الإسلام. كل ما يجنيه الطفل في سنواته الأولى يعتمد بالأساس على عدم التحيز؛ أي أنه يستقبل ما يلقي إليه، وليس لديه فكرة مسبقة تجعله يرفض المعلومات المكتسبة. شيئاً فشيئاً يكبر الطفل، ويبدأ مبدأ التحيز في الظهور، فيبدأ في رفض بعض الأشياء بناء على فكرة سابقة. عندما يتم تطعيم الطفل بأيدولوجيات معينة، مهما كانت هذه الأيدولوجيات، فهنا يتم غرس أول بذور التحيز في نفس الصغير. التعليم الجيد والبيئة المعرفية الجيدة هي البيئة التي تساعد هذا الإنسان على عدم التحيز، والحكم على الأفكار بشكل حيادي، وهذا هو مبدأ الإسلام الأساسي. عندما جعل الفقهاء لفظ (الإسلام) في الآية الكريمة تصنيفاً، بدلاً من كونه منهجاً أو طريقة سلوك وتصرف، لم يستطيعوا تفسير كثير من الآيات بشكل منطقي وسليم، يتوافق

مع مفهوم الإسلام كما جاء في القرآن. مثال هذه الآيات الآيتان المذكورتان في سورتي البقرة والمائدة.

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيْنَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة البقرة: آية 62).

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِيْنَ وَالنَّصْرَى مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلْ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة المائدة: آية 69).

كيف يمكن التوفيق بين الآيتين السابقتين والآية في سورة آل عمران (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (سورة آل عمران: آية 85) ..

لاحظ أن الذين أسلموا لم يدخلوا ضمن حدود هاتين الآيتين، مما يدفعنا للقول أن الإسلام هو الإطار العام الذي تندرج تحته كل هذه الأنماط الفكرية. سوف نأتي على بيان هذه الأنماط بالتفصيل في الفصول القادمة، ولكن هنا دعونا نبحر قليلاً في فهم مدول الإسلام والمسلم.

بعض الباحثين عندما تعرضوا لهاتين الآيتين افترضوا أنهما تتحدثان عن حالة ما قبل الإسلام. هذه الحجّة أيضاً ضعيفة؛ لأن الآية تجمع الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين جميعاً، مما يدل على وجود كل هذه الأصناف معاً في نفس الزمان.

قد يختطف أحدهم مفهوم الإسلام الذي قد بيناه في هذه الآيات، حتى يقيم الحجّة على أنه لا داعي لاعتراف الإسلام، ويمكن له أن يعتنق أي ملة.

هذه الطريقة المعوجة في التعامل مع المفاهيم، لا يقول بها من يملك قلباً نقياً وعقلاً راجحاً، إننا نتحدث عن المظلة العامة، وهي عدم التحيز، أو التجرد في معرفة الحقيقة، وكل عناد أو مكيدة من أي نوع أو غفلة تخرج صاحبها من مفهوم الإسلام بالأساس.

الإسلام بمفهومه القرآني هو المحطة الرئيسة التي يجب أن ينطلق منها الإنسان إلى المعرفة، دون تحيز أو تحامل، والتي سوف تقوده مباشرة إلى الإيمان.

ورد في الآية الكريمة لفظ (يبتغ) (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ)، وهو اللفظ الذي له مدلول يفيد الطلب الشديد، ولم يأتِ الابتغاء في كتاب الله محموداً، مما يدل على أن فيه تجاوزاً. معنى أن الإنسان يبتغي غير الإسلام؛ أي يطلب بشدة، وفي شكل من أشكال التجاوز، غير الإسلام؛ أي أنه يرفض التجرد بكل إصرار، ويصر على التحيز، هذا الشخص هو المخاطب بأن الله لن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. عدم التحيز هو المسالمة في أبهى صورها، والتحيز هو اعتداء على النفس أولاً، والذي يؤدي إلى الاعتداء على الآخرين واحتقارهم.

الإسلام بمفهومه القرآني هو حالة سامية إلى أبعد حد، تهيئ الإنسان للخضوع للحقيقة، ومن لا يملك هذه الميزة فقد خرج من مفهوم الإسلام القرآني. من هنا يمكننا فهم مفهوم الأعراف، وهو الحالة الخاصة التي بينها سابقاً، إذ هذه الفئة لا تبتغي غير الإسلام، بل هي تقريباً لا تبتغي شيئاً بالأساس، فهي فئة محايدة، ضعيفة التفاعل مع الأشياء.

في السطور التالية سوف نستعرض بعض آيات الكتاب، التي تشير إلى مفهوم المسلمين بمفهومه الشامل؛ وهو عدم التحيز، والبراءة من الشرك، والإخلاص في معرفة الحقيقة.

الآية الأولى: (رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) (سورة الحجر: آية 2).

الذين كفروا هم أهل جحود الحقيقة، والمستكبرون هم أهل التحيز في أجلى صورته، وقد تمنوا لو كانوا مسلمين تحديداً، وهو الحد الأدنى الذي يضمن لهم النجاة، ولم يقولوا مؤمنين أو مصليين أو متقين. تمنوا الحد الأدنى الذي يؤهلهم لما بعده، وهو كونهم مسلمين؛ أي غير جاحدين أو مستكبرين أو متحيزين.

الآية الثانية: (وَإِذَا يَتلى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) (القصص:

آية 53).

الآية الكريمة توضح أن القوم كانوا قبل أن تتلى عليهم آيات الله مسلمين، وكونهم مسلمين قد أهلهم لتلقي الآيات والإيمان بها. لا يمكن أن يكون مفهوم الإسلام هنا هو المفهوم الذي حدده الفقهاء بالأركان والعبادات والتفصيلات؛ وإنما هو حالة استعداد لقبول الحق، ونبذ الباطل، والتجرد وعدم التحيز. فقد يكون الإنسان مسلماً قبل التعرف على الله بشكل كامل، وهذا ما قلنا عنه هنا. الإسلام هو أساس المعرفة السليمة، وهو أساس الوصول إلى الله.

أنبياء الله كانوا جميعاً مسلمين، وهذا ما أهلهم لتلقي الرسالة. المتابعة الجيدة لآيات القرآن سوف تخبرنا أن نبي الله إبراهيم كان مسلماً قبل أن يصل إلى اليقين؛ إذ كان أبعد ما يكون عن التحيز. نبينا الكريم كذلك، تخبرنا النصوص التاريخية أنه كان مفارقاً لقومه فيما يفعلون، باحثاً عن الحقيقة، وهذا هو الإسلام.

الآية الثالثة: (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ) (سورة الزخرف: آية 69).

الآية تتوافق تماماً مع كون المسلم هو الشخص الباحث عن المعرفة، غير المتحيز أو المشرك، فهم آمنوا بالآيات وكانوا قبل الإيمان بالآيات مسلمين. كونهم مسلمين بمعنى غير متحيزين جعلهم مستعدين لقبول الحقيقة. لا يمكن لكافر بمعنى جاحد أو مشرك؛ أي لديه حسابات أخرى أن يؤمن بالآيات بسهولة؛ بسبب تحيزه الواضح، هذا الإيمان لا يتأتى إلا للمسلمين الذين يبتغون المعرفة والحق، وغير مؤدلجين بالمعنى السلبي.

الآية الرابعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (سورة البقرة: آية 208).

الخطاب هنا للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم، فما معنى ذلك؟

من المعروف أن الإسلام يسبق الإيمان، أو الإسلام هو الذي يؤهل الفرد لتقبل الإيمان؛ إذ يستطيع من خلال عدم تحيزه قبول الحقائق بشكل منصف، والتعامل معها. هذه الآية تشير إلى أن عملية الإسلام عملية مستمرة؛ لأن عملية تكشُّف الحقائق مستمرة إلى يوم

الدين، فلا يغر أحدكم أنه وصل إلى الحقيقة ويركن إلى ذلك. لا بد للإنسان أن يكون مسلماً طول الوقت في قبول الحق، والإذعان إليه، حتى لو وصل إلى درجة الإيمان واليقين.

الآية التالية لهذه الآية تؤكد ما ذهبنا إليه (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة البقرة: آية 209) .

هذه الآية تشير إلى احتمالية الزلل، والزلل لا يأتي إلا إن كان هناك تفاعل مستمر وتعرض للاختبارات بشكل متتابع التي تتطلب فرداً مسلماً باستمرار يستطيع التعامل مع الموقف واستخلاص المعرفة والتعامل معها وليس رفضها تحت بنود وذرائع مختلفة. كثيرة تلك الآيات التي طلب فيها الأنبياء من ربهم أن يقبضهم مسلمين، وكذلك طلب كثير من الصالحين.

ألم يكن الأفضل أن يطلبوا من الله أن يقبضهم مؤمنين؟ التعبير الأدق هو مسلمين أي في حركة دائمة من الحيادية التي تجعلهم متقبلين الحقائق رافضين لكل ضلال دون تحيز بأي شكل. عملية الإسلام عملية مستمرة حتى مع رسوخ الإيمان. الإسلام ليس لفظ يقال أو شهادة تمنح بل هو تصرف وسلوك مستمر في التعامل مع كل المتغيرات حول الإنسان.

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) (سورة الأعراف: آية 126).

أن يتوفى الله الإنسان مسلماً بالمفهوم القرآني؛ أي غير متحيز لأي موقف كان، وهو حسن الخاتمة الحقيقي؛ إذ لو مات الإنسان وهو متحيز لأمر ما فقد ظلم نفسه، فما بالك لو مات متحيزاً إلى غير الحق، و متعصباً ضده دون أن يعلم؟

الآية الخامسة: (وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) (سورة يونس: آية 84).

في هذه الآية يطلب نبي الله موسى من قومه التوكل على الله إن كانوا مسلمين، وهذا المفهوم يؤكد أن مفهوم الإسلام والمسلم أشمل وأعم بكثير مما نعتقد. فهذا هو نبي الله موسى

يطلب من قومه أن يكونوا دائماً مسلمين، أو متقبلين للحقيقة دون تحيز. آفة كل أمر هو التحيز، وفساد كل فكرة التحيز؛ لأنه يعمي أعين أصحابها عن الحقائق، ويجعلهم يسيرون خلف أهوائهم. إن كان نبي الله موسى صلوات ربي عليه طلب من قومه أن يكونوا مسلمين، فكذلك فعل نبي الله عيسى صلوات ربي عليه.

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران: آية 52).

شهدوا بأنهم مسلمون، هو الاستعداد لقبول الحق دون أي أفكار مسبقة، ودون أي اغراءات.

الآية السادسة: (وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (سورة يونس: آية 90).

لم يكن يصح لفرعون أن يقول: (أنا من المؤمنين)؛ إذ الإيمان يأتي بعد الإسلام، لذلك قال فرعون (أنا من المسلمين)؛ أي من الذين سوف يقبلون الحق بإنصاف ودون تحيز. من أين يأتي التحيز ضد الحق؟ التحيز يأتي من تعارض المصالح، أو فقد السلطة، أو استجاراً كما فعل إبليس. فرعون لم يكن يقبل الحق لهذه الأسباب؛ لأن قبول الحق سوف يسلبه سلطته، ويجعله في مرتبة أقل من موسى، وهذا ما لم يقبله فرعون أبداً. لم يكن ينقص فرعون إلا أن يكون فعلاً من المسلمين؛ فقد جاءته البينات في أكثر من موقف، وأشهرها موقف السحرة، ولكنه تحيز ضد الحقيقة واستكبر، ولم ينتهج نهج المسلم. لذلك عندما قال إنني من المسلمين لم يقبل الله منه ذلك؛ لأنه لم يكن أبداً من المسلمين، بل كان أكبر المستكبرين.

الآية السابعة: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران: آية 64).

الآية بكل بساطة تطلب أن يكون الذين هم من أهل الكتاب مسلمين؛ لأن الإسلام مدعاة لقبول الحق. إذا تجرد القوم لطلب الحقيقة فهذا هو الإسلام، أما إذا تحيز القوم فيحل الظلم والتكذيب والاستكبار. طلب الله منا عند مجادلة أهل الكتاب أن نؤكد على كوننا مسلمين، لأن الإنسان أحوج ما يكون لمنهج الإسلام عند المجادلة. قبول الحق بحيادية تامة يتطلب أن يكون الإنسان في أعلى درجات الإسلام من التجرد وعدم التحيز.

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (سورة العنكبوت: آية 46).

أهل الكتاب هنا تعني أهل المعرفة وليس أهل العلم كما بينا في أكثر من موضع، وأهل المعرفة غالباً متحيزون لما يعرفوا لذلك هم صنف بعيد عن فكرة الإسلام بسبب هذا التحيز. تذكيرهم بأن يكونوا مسلمين في قبول الحقيقة واجب ولكن يبدو أنهم لن يفهموا وسوف يظلوا هكذا متحيزين.

الآية الثامنة: (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران: آية 80).

هذه الآية الكريمة توضح وتؤكد مفهوم المسلمين؛ إذ إن الله سبحانه يحذر من اتخاذ الملائكة أو الأنبياء أرباباً؛ لأنه يتعارض مع كون الإنسان مسلماً. اتخاذ الرب يعني الخضوع لسلطة حتى وإن كانت بحجة الرعاية، والإسلام حالة من التجرد، لا ينبغي لها ولا يمكن أن تجتمع مع السلطة تحت أي بند.

كون الإنسان مسلماً يتطلب مناخاً من الحرية، لكي يتمكن من اختبار الأشياء وتقييمها، دون أي تدخل قد يفسد عملية الإسلام.

الآية التاسعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران: آية 102).

هذه الآية الكريمة أيضاً تؤكد على مفهوم استمرارية الإسلام بوصفه منهج حياة. منهج حياة يحمل الإنصاف التام في التعامل مع الأشياء، والتجرد وعدم الرضوخ لهوى النفس أو الرضوخ لأي مؤثر.

الآية العاشرة: (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَّتِّهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) (سورة النمل: آية 81).

لا شك أن المؤهلين لسماع آيات الله هم المسلمون؛ بمعنى الذين ليس لديهم تحيز ضد هذه الآيات، أو ضد قبول الحق.

الآية الحادية عشر: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) (سورة النحل: آية 102).

تنزيل الكتاب لتثبيت الذين آمنوا، وهم الذين وصلوا واطمأنت قلوبهم للحق بالفعل ، ثم هدى وبشرى للمسلمين الذين يتعاملون مع ما حولهم بحيادية دون تحيز ولم يصلوا للإيمان بعد. عندما يسمع المسلم آيات الله، وهو بالفعل غير متحيز، ومستعد لقبول الحقيقة تحت أي ظرف، سوف تكون الآيات بالنسبة له هدى؛ لأنها سوف تمنحه ثقة أكبر، وتدفعه خطوة نحو الإيمان. الآيات تصبح بشرى بمعنى دلائل وعلامات، يستطيع من خلالها المسلم التقدم خطوة للأمام.

المفهوم التقليدي للإسلام والمسلمين تعارض بشكل كبير مع كثير من الآيات في كتاب الله كما رأينا، وكيف أن الإسلام منهج يؤدي إلى الإيمان، وأن الإنسان لا بد له كي يقبل الحقيقة أن يكون مسلماً. كل أهل الأرض سوف تأتي عليهم لحظات يكونون فيها مسلمين، ولكن استمرارية عملية الإسلام لا يتمتع بها الكثير من أهل الأرض. حالة البقاء في منطقة الإنصاف وعدم التحيز، والاستعداد لقبول الحق، للأسف لا يتمتع بها إلا القليل من الناس. لذلك كان دعاء كل الصالحين، وأمنية الأنبياء أنفسهم؛ أن يتوفاهم الله مسلمين. للأسف الشديد محتكري الحديث باسم الله هو أكبر عائق أمام فكرة الإسلام لأنه بكل ثقة

يدفعون الناس دفعا نحو التحيز والإنغلاق. لو أنصف هؤلاء وقرأوا كتاب الله، لكرسوا حياتهم في دفع الناس للتفكير، وتحفيزهم على الإنصاف في التعاطي مع كل ما هو متاح من معلومات. لا يمكن للإنسان المحايد الحقيقي في حالة التعامل مع المعلومات والمعرفة أن يضل ولكن المتحيز يضل ويرتكب كل الموبقات باسم النيات الطيبة. الآية الثانية عشر: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (سورة فصلت: آية 33).

هذه الآية الكريمة تحدثت في شقها الأول عن مؤمن؛ إذ وُصف هذا المؤمن أنه يدعو إلى الله ويعمل صالحاً، وهذا هو ذروة الإيمان، ومع ذلك تشير الآية إلى أن الأكل والأفضل هو كون الإنسان من المسلمين، وإعلاؤه لذلك. رغم أنه ممن يدعو إلى الله ويعملون الصالحات، فلا بد أن يداوم على كونه من المسلمين في تقبل الحقائق وعدم التحيز.

صفة المسلم ليست وراثية، وليست وصفاً لأتباع طريقة معينة، وإنما وصف لحال تعامل الإنسان مع المعرفة في محيطه، أي كان نوع هذه المعرفة. لا بد أن يكون تعامل الإنسان مع المعرفة بنوع من الإخلاص والتجرد، والرغبة الحقيقية في الوصول للحقيقة، حتى ينطبق عليه مسمى (مسلم). أما الذين تناولوا المعتقدات كما هي، أو الأفكار كما هي، فهؤلاء لا ينطبق عليهم مفهوم المسلم حتى يصلوا إلى مرحلة التجرد هذه. أنا هنا أتحدث عن معنى اللفظ، وصفة المسمى وخصائصه كما يشير إليه كتاب الله، أما المدلول السياسي وما يترتب عليه من فقه فهذا شأن آخر، يسأل عنه مناصريه ومؤيديه.

يمكننا أن نقول أن المسلم هو المحايد المعرفي الإيجابي، إذ يدور مع الحقيقة ويقبلها دون أدنى تحيز. سوف يكتمل مفهوم المسلم بتحليل مفهوم الحنيف الذي جاء ملازماً للفظ مسلم في كتاب الله في كثير من المواضع.

مدلول لفظ حنيف:

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
(سورة آل عمران: آية 67).

لا شك أن اليهودية والنصرانية والإسلام بمعناه الفقهي جاء بعد نبي الله إبراهيم صلوات ربي عليه، ولا يمكن أن يصف القرآن مسميات زائدة كهذه، ولكنها وصف لحالة الإنسان المعرفية. لم يكن يهودياً؛ لا تعني أنه من أتباع موسى أو من اليهود بوصفهم المتعارف عليه، وإنما لم يكن يهودي الفكر، ولم يكن نصرانياً بشكل منهجي (وسوف نأتي على لفظ اليهود والنصارى في الفصول القادمة). كان نبي الله إبراهيم حنيفاً مسلماً.

إن كان لفظ (مسلم) يعني الشخص غير المتحيز أو المنصف في التعامل مع الفيض المعرفي؛ فإن لفظ (حنيف) سوف يكمل الصورة.

في قاموس اللغة والمعجم اللغوية جاء لفظ (حنيف) على أنه ميل أو اعوجاج، وقيل أن معنى حنيفاً في وصف نبي الله إبراهيم تعني مائلاً إلى الدين المستقيم. لا بد من ملاحظ أن الدين المستقيم أو الطريق المستقيم لا يحتاج إلى الميل إليه، وإنما يحتاج إلى التوجه إليه بكل الجوارح، وهذا بالفعل ما حدث مع نبي الله إبراهيم، الذي تخلص من الشرك، وتوجه بكل جوارحه لاستكشاف الحقيقة، وليس مجرد ميل إلى الحقيقة أو الطريق المستقيم. لفظ (حنيف) وتفسيره على أنه ميل -لا شك- يكتنفه كثير من الغموض؛ لأن الميل كما نفهم هو حالة تناقض الاستقامة.

كلمة (حنيف) من الأمثلة التي نرى فيها فشل المعجم الذريع في تحديد هويتها، بينما القرآن أشار إليها وحدد خواصها، ولكنها تحتاج لشيء من الدراسة والتريث في فهم معناها. بالطبع لا يجزئ أحد على نقد المعجم، وخصوصاً القديم منه، ولكن يتجرأ الكثيرون على توصيف التعبيرات القرآنية تبعاً للمعجم، رغم وضوح حالة الكلمة في القرآن.

لحسن الحظ أن الكلمات التي فشل المعجم في تحديد هويتها ليست كثيرة والله الحمد، وفي الوقت نفسه نجد القرآن قد أحاط بها، وأعطى وصفاً لها، يمكن أن يهدي الدارسين لإعادة صياغتها، وتنقيتها من الشوائب التي لحقت بها.

لو استعنا بالجذر الثنائي لكلمة (حنيف) وهو (حن) وتعني الإشفاق والرقّة، ثم أضفنا صوت الفاء وما فيه من اندفاع. يتبين لنا أن الكلمة تعني ميلاً، ولكن ليس اعوجاجاً؛ وإنما ميلٌ للتطلع. لو حاولنا فهم الكلمة من خلال الأبعاد والاتجاهات، فإننا لا نجد كلمة (حنيف) تعني مائلاً لليمين أو لليسار؛ بل مائلاً للأمام، وهي هنا تصف حالة لا مادية يمكن أن نصفها بالتطلع.

فيمكننا القول أن لفظ (حنيف) تعني متطلعاً لشيء ما، وليس مائلاً أو معوجاً، وهو اللفظ المتوافق مع حالة نبي الله إبراهيم وشخصيته الفريدة. جاء لفظ (حنيف) في القرآن في عشرة مواضع، ثمانية منها متعلقة بنبي الله إبراهيم صلوات ربي عليه.

الوصف يكاد ينطق ويقول إنني من ضمن صفات نبي الله إبراهيم، الزاخر بها القرآن، ولكن لأن العرب سمو الأحنف هو من فيه اعوجاج في رجليه، أو الذي يمشي مائلاً، لم يستطيعوا فهم الكلمة، وقالوا عنها مائلاً أو معوجاً، وهذا خطأ يمكن تفهمه؛ بسبب اعتمادهم أن العرب هم أصل اللغة، بينما عندما وضعنا القرآن في المقدمة وجعلناه معياراً للغة استطعنا إدراك أبعاد الكلمة. الصفة الرئيسة لنبي الله إبراهيم هي عدم التحيز لشيء ما، والبحث الدائم عن الحقيقة، والتطلع بشغف إلى معرفة الخالق، وكما قد بينا هذه المشاهد بشكل مفصل في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب. الآيات التالية تشير إلى هذا المعنى، ويزيده وضوحاً سياق الآيات.

الآية الأولى: (قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة البقرة: آية 135).

لفظ (ملة) أصله الميم واللام والحرف المعتل كما جاء في قاموس اللغة، وتعني الزمن الطويل. وأقام ملياً؛ أي دهرًا طويلًا. وتملّيت الشيء؛ إذا أقام معك زمانًا طويلًا. من هنا يصبح ملة إبراهيم الشيء الملازم لإبراهيم، أو الشيء المميز لإبراهيم، وتعني كذلك الطريقة المتبعة من قبل إبراهيم، أو منهج إبراهيم. فماذا كان إبراهيم؟ كان حنيفاً، وما كان من المشركين.

الإشراك هو الوقوع في التجاذبات والميل. فيصبح لفظ (حنيفاً) هو خلاف الشرك هنا، وهو التخلص من كل هذه التجاذبات، والتطلع إلى النور القادم. لفظ (حنيف) هنا يتوافق مع ما توصلنا إليه، من أن اللفظ يعني التطلع إلى شيء ما، وليس الميل بمعناه السلبي.

الآية الثانية: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة آل عمران: آية 95).

الملاحظ في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى لم يقل اتبعوا إبراهيم أو كلام الله، ولكن طلب من الناس اتباع ملة إبراهيم؛ أي منهج إبراهيم، والتي فصلناها، وهي تطلعه الدائم لمعرفة الحقيقة، وتبرؤه من كل مظاهر التحيز. لم يكن إبراهيم لديه فكرة مسبقة يريد أن يثبتها، ولكنه كان سائراً خلف الحقيقة، ولما أعياه البحث هداه الله، كما قص علينا القرآن قصته. إن منهج إبراهيم صلوات ربي عليه هو منهج جميع الأنبياء، وهو منهج المسلم الحنيف. لو أنصف الناس لكان قولهم اتبعوا ملة نبينا الكريم؛ أي منهجه الذي تميز به جميع الأنبياء. من هنا نستطيع وبكل ثقة أن نقول أن الإنسان مطالب بشيئين أساسيين، هما: الرسالة نصاً ولفظاً من الله، وملة الأنبياء أو سنة الأنبياء أو منهج الأنبياء وهو الإسلام الحنيف، وليس تصرفات الأنبياء وتفاعلهم مع الرسالة.

لو طبقنا معنى (حنيفاً) في باقي الآيات، وهو التطلع للمعرفة والسعي خلفها، سنجد أن سياق الآيات انتظم بشكل رائع.

الآية الثالثة: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (سورة النساء: آية 125).

جاء لفظ (حنيفاً) في هذه الآية بعد أن وجه الإنسان وجهه إلى الله وهو مسلم؛ بمعنى غير متحيز، وليس لديه أفكار يريد أن يثبت صحتها ويدافع عنها، بل هو في إنصاف تام في تقبل المعرفة وفرزها. لفظ (حنيف) أضاف الخطوة التالية وهي التطوع الدائم للمعرفة وللحقيقة. كامل المنهج الذي ارتضاه الله لعباده هو عدم التحيز، مع التطوع للمعرفة، وهذا هو معنى (مسلماً حنيفاً).

الآية الرابعة: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة الأنعام: آية 79).

هذه الآية أيضاً تشبه الآية السابقة، ولكن لم يأت فيها لفظ الله، هذه الآية الكريمة إلى الناس وكل الذين لديهم آلهة بأسماء مختلفة، لكنهم تخلصوا من كل هذا، وتوجهوا إلى الذي فطر السموات والأرض بشكل حنيف؛ أي متطوعين إلى الحقيقة دون أي فكرة مسبقة. كل آية في كتاب الله تصف لنا جانباً من الصورة، تنقلنا إلى الرحابة والرحمة الربانية التي تسع كل الناس، بشرط الإخلاص في السعي، والاجتهاد والتطلع إلى معرفة الحقيقة.

كأن هذه الآية تقيم الحجّة على الذين أعطوا أسماء مختلفة للخالق، وتخبرهم إن كنتم ورثتم تصوراتكم الذهنية عن الإله، وأسميته بأبي اسم كان؛ فمن تمام عدم التحيز هو التوجه لفاطر السموات والأرض بغض النظر عن الإسم الذي ورثتموه. إن كان الناس مختلفين في اسم الإله فغالبيتهم العظمى وحتى الملحدون منهم يقولون بأن هناك سبباً لخلق السموات والأرض؛ لذا طلبت هذه الآية من كل هؤلاء عدم التحيز، والتطلع إلى المعرفة، لكي يصلوا إلى الحقيقة.

لم تطلب الآية غير ذلك، وهذا المنهج كفيل أن يأخذ بيد الإنسان إلى الحقيقة إن أخلص ولم يتحيز. أما الذين لديهم درجة من التحيز وغير قادرين على الإفلات منها، فلا تملك

لهم من الله شيئاً. أتمنى أن يصل مفهوم المسلم الحنيف إلى كل إنسان على هذه الأرض؛ لتكون من الذين يبلغون آيات الله للناس، حتى إذا قامت عليهم الحجة لم يبق لهم إلا الاجتهاد في الوصول إلى الحقيقة ومن يبتغ غير هذا المنهج الذي أرشد إليه ربنا، والذي أيدته كل المراكز البحثية والمؤسسات العلمية وجعلته ذروة سنام البحث السليم؛ فقد اختار بكامل إرادته النكوص عن الحق.

ليس مطلوباً من الإنسان إلا أن يكون محايداً إذا طرقت بابه معرفة ما وهذا هو الحد الأدنى الذي أشار إليه ربنا. أما من أراد الاستزادة فعليه أن يكون حنيفاً أي متطوعاً ومتشوقاً للمعرفة. كل اخيار الأرض وأهل العلم الحقيقيين متفقين على ذلك تماماً ولا يشذ عن ذلك إلا الجاهلين. أجلُّ تبليغ وأعظمه هو تبليغ هذا المنهج؛ ليعلم الناس أنهم مطالبون بالمعرفة والوصول إلى الحقيقة. دعوا الناس وكتاب الله والمنهج الرباني، واجعلوا فرقاً بين كلام رب العالمين و تفاعل البشر مع هذا الكلام، سواء كانوا أنبياء أم غيرهم؛ رغبة إلى الله. إن الذين خلطوا كلام الله بالتاريخ، وجعلوا المنهج الرباني العظيم تصنيفاً طائفيّاً سيجزون ما يفعلون.

فكرة الإسلام والحنفية كما جاءت في القرآن هي فكرة من أعظم الأفكار، وهي شرف لكل متعلم أن يوصف بالحيادية والتطلع للمعرفة. هي فكرة يطلبها كل الناس ولا يستنكف عنها إلى الجاهلون. إنه فكرة تتكامل تماماً مع مفهوم الحرية وتتقاطع مع العنصرية والقبيلة والطائفة وكل أنواع التمييز. فكرة الإسلام لا يمكن أن تنبت في بيئة قاهرة أو مستبدة. لكي يكون الإنسان محايد بشكل كامل لا بد أن يكون آمن على نفسه لا يهدده أي مؤثر يجعله يحميد ويحيز حفاظاً على حياته أو حفاظاً على مكتسباته أو طلباً للحياة الكريمة.

اختلاط المفاهيم أساء لدين الله، ومنع الناس من الوصول إلى رسالة رب العالمين، حتى إن مفاهيم مثل الجهاد فهمت على غير مرادها المقصود في كتاب الله. حقيقة الجهاد، هو ليس إجبار الناس على اعتناق فكرة، حتى لو كانت الوحداية، وقول لا إله إلا الله. الجهاد هو إعطاء الناس الحرية الكاملة في أن يكونوا مسلمين بالمعنى

القرآني، وهو غير المتحيز، عن طريق منحه حرية التفكير، وتوفير المناخ الآمن الذي يجعله لا يخشى شيئاً، وبالطبع توفير بيئة معرفية قائمة على التفكير والنقد، وليس التلقين.

كذلك توفير مصادر المعرفة، وتشجيعه على التطلع والبحث. الجهاد هو رفض كل أمر من شأنه أن يعيق الإنسان عن كونه مسلماً حنيفاً. الأمم التي تجبر الناس على معرفة معينة هي أمم ظالمة، والمجتمعات التي توجه الناس يجب مجاهدتها، وبيان ظلهمها.

الأمة المسلمة هي الأمة التي تتيح للإنسان أن يكون فيها مسلماً حنيفاً، بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، وهذه الحرية هي الكفيلة وحدها بجعل الناس مؤمنين، وليس إجبارهم. يجب أن نفرق بين المنهج القرآني وإدارة الدولة، ولا يجب الخلط بينهما. الفقه هو نوع من القوانين التي تسيّر الدولة في وقت معين، فلا يجب أن يتم اعتبار الفقه هو الدين؛ إذ يتم التعاطي مع القرآن وكلمات الله بناء على الرؤية الفقهية لبعض المذاهب. إنه وضع مقلوب، والصحيح أن تتم صياغة رؤية للمجتمع في كل فترة، بناء على قراءة كتاب الله، وليس العكس كما يحدث الآن.

هذا الكسل والاستسهال عواقبه وخيمة، والله سبحانه وتعالى أرشد إلى ذلك، وقال إن الله ينصر من ينصره.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (سورة محمد: آية 7).

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الروم: آية 47).

تصدير فكر أن الله أمر المسلمين بنشر دينه بالطريقة التي ترينا عليها، وقرآناها في كتب القدماء، هي فكرة في غاية الخطورة، ولا تمت للمنهج القرآني بصله، وإنما كانت اجتهادات بعض المفسرين في ظل أوضاع مجتمعية مختلفة، وظروف سياسية غاية في التعقيد. نحن مطالبون بنشر وتبليغ المنهج الذي جاء في كتاب الله، وأن نصف للناس معنى المسلم الحنيف، وكل من يقصر

في ذلك فقد احتمل إثماً مبيناً، وكلُّ حسب قدراته. لدينا عمل شاق وطويل، والغفلة عنه أو الإعراض أو إيجاد المبررات قد ولى وقتها.

ها هي الحجة، وها هي الأدلة، قدمنا الدليل تلو الدليل، ولم يبق إلا اختبار هذه المعرفة، وأن يسلك الإنسان سلوك المسلم الحنيف معها، حتى يتبين له الحق، فإذا تبين الحق دعا إلى الله، وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين.

الآية الخامسة: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة النحل: آية 123).

في هذه الآية سنجد أن الله يخبرنا أنه أوحى إلى نبيه أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً، ومن المعروف أنه لم تكن هناك تعليمات أو كتب تعود لعصر نبي الله إبراهيم. الآية توضح تماماً ما هي ملة إبراهيم؛ وهي الحنيفية، ومعناها التطلع للمعرفة، أضف إليها كونه من المسلمين. هذه هي سنة نبينا، ومنهجه الذي يجب أن تتبعه، ومن رغب عن هذا المنهج فقد سفه نفسه. لقد جاءت في كتاب الله صراحة دون موارد، أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه.

(وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (سورة البقرة: آية 130).

كل هذا الكم من الإشارات الربانية، والآيات البينات، التي تدعو الناس للتمسك بملة إبراهيم، ثم فسرت ما هي ملة إبراهيم، بل وأشارت أن نبينا الكريم نفسه اتبع هذه الملة؛ إذ إنها المنهج السليم في التعامل مع المعرفة، والوصول للحقائق. ومع كل ذلك تم تحريف كل هذه المعاني العظيمة، وصرنا إلى الحالة التي لا تخفى على أحد. ما الذي يمنع الناس من إعادة النظر ومحاولة الفهم، مستخدمين هذا المنهج العظيم نفسه؟ هذا المنهج لن يستوعبه ويدرك عظيمته وفعالته إلا عقول أنعم الله عليها بالإنصاف.

الآية السادسة: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة الروم: الآية 30).

أقم وجهك للدين؛ تعني استقم للقوانين التي وضعها الله. حنيفاً؛ أي متطوعاً للمعرفة بشغف مستمر. فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ تعود على حنيفاً؛ أي أن كون الإنسان حنيفاً من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذه الحقيقة تؤكد جميع المشاهدات اليومية.

كون الإنسان غير متحيز فهذه طبيعته الأولية، ولكن تتغير هذه الطبيعة بمرور الوقت، وكون الإنسان حنيفاً؛ أي متطوعاً لأن يعرف هي فطرة وغريزة داخلية، وقد تتخرف هذه الفطرة قليلاً أو يصيبها الصدأ بسبب بعض الظروف المجتمعية، ولكنها تظل سمة أساسية من سمات الإنسان. ما علينا إلا أن نوفر له حرية تداول المعلومات، ونعلمه قدر المستطاع طريق التفكير لا التلقين، ونشرح له المنهج الإلهي العظيم، ثم ننتظر النتائج.

تنزيه كلام الله عن كل مصدر يتداخل معه، والتأكيد على أصالته وتأسيسه، سوف يحل جميع الإشكاليات التي يثيرها المشككون في كتاب الله. الإصرار على عدم سماع صوت آيات الله، والتحيز لما نعرف يضر القائلين بذلك، وينشر الضلال ويشرعه. العالم المتقدم كله أدرك اليوم مفهوم المسلم الحنيف، غير أنه يستخدم ألفاظاً أخرى لتوصيف هذه المفاهيم، وأصبح مفهوم المسلم لدى الكثيرين هو الشخص المتحفظ، وهو مفهوم على النقيض من مفهوم المسلم كما جاء في القرآن.

بالنهاية دعونا نخرج على عبارة بلاد الإسلام وبلاد الكفر الذي يسيطر على عقول الكثيرين، وتم استقاؤها من تصورات الناس في عصور سابقة.

بلاد الكفر وبلاد المسلمين

لا يلزمنا هنا شرح المفهوم التقليدي لبلاد الكفر وبلاد الإسلام؛ لأن هذا المفهوم معروف للجميع تقريباً، وهو تصنيف للبلاد التي يدين أصحابها بدين الله، حسب فهمهم النابع من

القرآن وروايات وتفسيرات الفقهاء. أستطيع أن أفهم هذا المفهوم للحاجة السياسية، والشؤون الإدارية، ولكنه لم يتلفت أبداً لمفهوم الإسلام كما جاء في القرآن.

رغم أن مصطلح بلاد الكفر وبلاد الإسلام ليس له وجود في كتاب الله، وإنما هو اصطلاح لتسهيل حركة الناس في أزمنة محددة، إلا أننا نستطيع أن نقول وبكل ثقة أن البلاد التي ينص دستورها على حماية حرية الفرد في اعتناق ما يرغب، وإتاحة وصوله للمعلومات، وعدم إجبار أحد على فعل ما لا يرغب في فعله، فهو دستور أقرب لمفهوم الإسلام.

بينما أي دستور يجبر الإنسان على اعتناق اعتقاد معين مهما كان، أو يجبر الناس على فكرة بعينها، ويعاقب مخالفيها، فهو دستور ظالم، لا يمت لفكرة الإسلام ومخالف له.

الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل ونعمة الإسلام الحنيف يجب ألا يصمتوا أمام جموع العامة التي استقت اعتقاداتها بالوراثة، ولم تبذل جهداً في اختبار ما ورثته، ولا تعرف بالأساس معنى الإسلام والحنفية. تداول المفاهيم السليمة سيغلق الباب أمام أصحاب الهوى والمشككين، الذين يقولون في كتاب الله ما لا يعلمون. الفضاء المعلوماتي مليء بالخرافات والتجديف على حد سواء، والكل يحاول إيجاد حلول حسب رؤيته، فلا منهج متبع، ولا تجرد في فهم الحقيقة؛ وإنما خيالات وأمانى. لذلك كونوا مسلمين حنفاء لله وقولوا للناس حسناً.

نختم هذا الفصل بتوضيح الفرق بين العامي والمثقف، لأن الكل يدعي المثقف، والجميع يهرب من وصف العامي. بالعامية.

العامي والمثقف

عندما يتم عرض مسألة ما أمام الجموع، فإن المثقف هو من يبحث عن الدليل، ويطلب البراهين الموافقة للمفاهيم العقلية، بغض النظر عن القائل وما هي مكانته التاريخية.

المثقف يستطيع بسهولة التفريق بين الدليل والرأي، ولذلك الميزان لديه معتدل.

بينما العامي لا يستطيع فعل ذلك؛ فهما واجهته بالأدلة تجده يهرب ويحتمي بأقوال

الآخرين، ويعتقد أن مجرد قول فلان هو في حد ذاته دليل.

العامي يختلط الأمر لديه بين الرأي والدليل، ولا يستطيع وزن أمرٍ إلا من خلال النظر إلى قائله.

المثقف يطبق مفهوم الإسلام بحذافيره، فلا تحيز لديه، والخضوع للدليل والبرهان هو الفيصل.

العامي لا يمت لمفهوم الإسلام بصلة؛ بسبب تحيزه المعرفي، والذي -للأسف- لا يستطيع المسكين اكتشافه، إلا من خلال بذل مجهود كبير للخروج من القوالب التي لا يستطيع التفكير إلا من خلالها.

منهاج التعليم القائم على التفكير يساهم في صنع المثقف، والتعليم القائم على التلقين يصنع العامة، ويعزز ثقفتهم المزيفة.

لم يتبق لنا في هذا الفصل إلا مفهوم الإيمان، والذي سوف نخرج عليه من خلال سطور قليلة.

مفهوم الإيمان

من خلال جذر الكلمة (أمن)، ومن خلال تتبع هذا الجذر في كتاب الله، سنجد أن مفهوم الإيمان هو الاستقرار والاطمئنان لشيء ما.

لكي يستقر الإنسان لمعرفة ما أو فكرة لا بد أن يسبق هذا الإيمان إسلام؛ وهو عدم التحيز، ثم الحنفية؛ وهي تطلع للمعرفة وما يتبعها من بحث. دون الإسلام ثم الحنفية لا يمكن للإنسان أن يصل للإيمان. الإنسان الذي وجد معرفة معينة أو فكرة معينة تربى عليها ثم اعتنقها له مسمى آخر سوف نكتشفه في الفصول القادمة. الإيمان ليس نهاية المطاف، بل لا بد أن يكون مشمولاً بالإسلام والحنفية في كل وقت. الإنسان المخلص في البحث، ومتبع ملة إبراهيم كما بينها، لا بد له أن يصل إلى حالة الإيمان.

المتبع لكتاب الله، والباحث عن الحق متبعاً ملة إبراهيم، ومن ثم أدى ما عليه من تكاليفات بحث، واستقرت الأفكار في قلبه، هو لا شك مؤمن، ويدخل ضمن الذين آمنوا. بالمقابل سنجد أن شخصاً آخر غير متحيز، واتبع المنهج الرباني، بالتالي سوف يطمئن لبعض الأفكار والمعتقدات، وهنا يدخل في زمرة الذين آمنوا.

السؤال هنا: هل الإنسان الذي يرى تناقضات فيما يعتقد وابتلعها يسمى مؤمن؟

الحقيقة أن الإيمان نسبي، والكفر نسبي، والتحيز نسبي، والإسلام نسبي؛ فقد تجد إنساناً مطمئناً لفكرة ولا يطمئن لأخرى، أو كافر بفكرة معينة و مؤمن بفكرة أخرى وهكذا. الضامن الوحيد للوصول للحالة المثالية للإيمان هي استمرار اتباع منهج المسلم الحنيف . اتباع منهج المسلم الحنيف هو الضامن الوحيد لزيادة جرعة الإيمان لدى الإنسان؛ لأن الإنسان في رحلة مستمرة من البحث والتنقيب عن الحقائق. في اللحظة التي يتوقف فيها الإنسان عن اتباع منهج المسلم الحنيف سوف تبدأ جرعة الإيمان في النقص، ولو استمر هكذا معتمداً على رصيده الوراثي سوف يفاجأ بعد فترة أنه ليس من الذين آمنوا، إنما يحمل شكوكاً واحتمالات لم يبذل جهداً لاستفهامها، للوصول لمرحلة الإيمان والاطمئنان بها.

لو اعتبرنا أن أفكار الإنسان عبارة عن مجموع مائة بالمائة؛ منها 30 بالمائة مسلم (غير متحيز وحيادي في تقبل الأفكار) 20 بالمائة كافر ببعض الأفكار و15 بالمائة مكذب و 10 بالمائة معرض؛ بالنهاية ينجو من غلب إسلامه على كل هذا. لسنا ملائكة فنحن رغما عنا متحيزون لبعض الأفكار، كافرون كافرون ببعضها، مكذبون بأشياء غافلون عن كثير معرضون عن بعضها؛ عزائنا أننا نحاول قدر المستطاع أن يتغلب إسلامنا على ما سواه حتى نكون من المسلمين والذين يقولون ربنا توفنا مسلمين.

الصورة النمطية التي يرددها رجال الدين عن مفهوم (المسلم والمؤمن) هي حالة خاصة جداً، لم تصل للعمق المعرفي لهذه المفاهيم كما جاءت في كتاب الله. ربما مفهوم (المسلم والمؤمن) انطبق بشكل لا مثيل له على الرعيل الأول الذي عاصر رسول الله، وبالتحديد الفترة التي قضاها في مكة والسنوات الأولى من عمر الدعوة في المدينة المنورة. لا شك أن مفهوم المسلم كان شديد الوضوح في هذه الفترة؛ إذ نجد رجالاً أمثال السابقين للإسلام من أهل مكة، وأشخاصاً أمثال سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وأبو ذر الغفاري، وبلال، وعمار، ورجال من المدينة، جمعهم عدم التحيز لما يعبد آباؤهم، والتطلع للمعرفة والحقيقة.

لذلك لما رأوا النور الذي أنزل مع رسول الله لم يترددوا، وقبلوا ما فيه، فتحولوا من مفهوم المسلمين إلى مفهوم المؤمنين. هذه الصورة العظيمة انتقلت بعد ذلك بالتبعية لكل من ولدوا في هذا المجتمع، أو حتى لبعض المنتفعين الساعين إلى مصالحهم. هذا الخلط بين المفهوم القرآني للمسلم والمؤمن والمفهوم الاجتماعي خلط الأمور، وما زال يخلط الأمور، وعاقبته وخيمة.

بعد وفاة الرسول بدأ التفاعل مع القرآن، وبدأت مفاهيم جديدة تُستنبط من كتاب الله، واستمر الوضع هكذا، وسوف يستمر إلى يوم الدين؛ ل يتم فرز المسلمين من المؤمنين من جهة، واليهود والذين هادوا والنصارى من جهة أخرى. من ابتغى الحيادية في تعامله مع المعرفة ورفض التحيز فقد وقع تحت مظلة الإسلام ومن تحيز لما يعتقد أنه حقيقة واغلاق عقله على ذلك فهو لا يمت بصلة لمفهوم الإسلام. يمكنك بكل بساطة اليوم تمييز لماذا هناك أمم وأقوام لا ينصرهم الله ؛ لأن هؤلاء ابتغوا غير الإسلام دينا واعتنقوا منهجاً سياسياً اسمه اسلاماً على غير ما جاء في كتاب الله.

الفصل الثاني عشر اليهود

بعد أن حاولنا فهم معنى الإسلام ومعنى المسلم، سوف نحاول في هذا الفصل فهم لفظ اليهود، وما هي الحالة التي يشير إليها هذا اللفظ.

التفاعل مع كتاب الله يتم عن طريق الإطار المعرفي للبشر في كل زمان ومكان. لك أن تتخيل أن مجموعة مكونة من مليون شخص أطلقت الدولة عليهم مسمى مسلمين، فهل هذه التسمية صحيحة؟ هل كل الأفراد في هذه المجموعة غير متحيزين ومتجردون عند التعامل مع الأفكار؟

تسمية الدولة أو السلطة أو تسمية المجتمع هي تسمية تخدم الغرض الذي أعدت من أجله، ولكن تسمية القرآن تسمية حقيقية، لا تنطبق إلا على من توافرت فيه شروط الإسلام كما بينها القرآن. جميع التسميات ينطبق عليها هذا المبدأ؛ إذ إنها تسميات حقيقية في كتاب الله، وليست تسميات تبعاً لمفهوم هذه الكلمات عند البشر، حتى وإن تأثرت بعوامل عديدة جعلتها عنصرية أو طائفية أو حزبية.

المشاهدات اليومية العادية سوف تخبرك أن من تطلق عليهم لفظ اليهود أو النصارى حسب التوصيف الفقهي مختلفون بشكل كبير جداً في مناهجهم الفكرية، ولا يمكن وضعهم جميعاً تحت منهج فكري واحد. الاعتقاد بأن القرآن يسمي التسميات هكذا بالجملة، ولا يقيم لها بالاً، هو اعتقاد بدائي للغاية ولا يجوز. قد يكون المعتنق للطقوس اليهودية - حسب تسميتنا - يهودي المنهج الفكري فعلاً، وهذا ليس معناه أنهم الوحيدون الذين ينطبق عليهم هذا التوصيف. الصحيح أن كل من توافرت فيه صفات المسمى وخصائصه هو ذو منهج يهودي أو نصراني. كذلك الذي يتبع منهج المسلم أو عدم التحيز من أي فئة فهو مسلم، وعندما يطمئن ويستقر على مفهوم فهو مؤمن.

توصيفات غاية في الدقة في كتاب الله، يجب التعامل معها بكل حذر؛ حتى ننقل ونبليغ آيات الله بكل أمانة دون تحيز أو احتكار للمعرفة.

العنصرية والطائفية هي أكبر عائق يهدد وجود البشرية؛ إذ ينتشر الكره والعنصرية باسم الله، وتنشب الصراعات، ويهلك الأبرياء. جميع الفرق المتناحرة ترى أنها على الصواب، وأنها تقدم خدماتها للإله. قراءة القرآن وترتيل آياته بشكل علمي، وفهم معاني هذه التسميات، من خلال كتاب الله، سوف يمنع التنطع، الذي يزج الناس جملة واحدة في خانة الكفر و خانة العدا، ويرميهم في النار قولاً واحداً. فهم هذه التصنيفات سوف يساعد المسلمين بالمفهوم القرآني في كل مكان على تقبل بعضهم بعضاً، وفهم أسباب الطائفية، وفهم المناهج الفكرية المختلفة عنهم، ومعرفة كيفية التعامل معها.

ماذا إن التزم كل إنسان بكتاب الله ولم يتجاسر على خلق الله، ولم يحتكر هذه التقسيمات، ولا سيما أنها تقسيمات تقوم بالأساس على قدرة الإنسان المعرفية؟. هذه المسميات في كتاب الله قائمة بالأساس على النظام المعرفي للإنسان، وتعامل هذا الإنسان مع المعرفة حوله، وتعاطيه مع مجتمعه. فكما أن المسلم هو وصف لكل إنسان غير متحيز، مقبل على المعرفة، ليس لديه فكرة مسبقة يريد إثباتها، نجد على الجانب الآخر أن الكافر هو الممتلئ بالتحيز، وينكر كل حقيقة ومعرفة رغم وضوحها وجلالها. أما المشرك فهو ذلك الشخص غير المستقر، الذي يخلط الأمور بشكل عجيب، فإذا ظهرت الحقيقة أمامه بشكل واضح لا بد له أن يدمج معها شيئاً آخر؛ لأنه غير قادر على التعامل مع الحقيقة بشكل مجرد.

أعلى درجات الإشراك هو الإشراك بالله؛ إذ تجد أن الإنسان يؤمن بكلمات الله بدرجة ما، ولكنه في الوقت نفسه يدعم تأويلات قد تناقض كلمات الله. هذه الحالة واضحة عند كثير من المتدينين؛ إذ تجد أن هذا المسكين يؤمن بقول الله في كتابه بحرية الاعتقاد، ولكن في الوقت نفسه يؤمن بقتل المرتد. قتل المرتد عقائدياً لا يمت بصلة لكتاب الله. ومع ذلك تجد كثيراً من هؤلاء المتدينين يؤمنون بنص كهذا يخالف كتاب الله وهذا نوع من أنواع الشرك.

خطورة هذا النوع من الشرك أنه بالمعرفة قد يتحول إلى كفر، مما يندر بخطيرٍ جسيم على مستقبلِ هذا الإنسان. يتحول الشرك إلى كفر بمجرد أن يعرف الإنسان خطأ ما يعتقد؛ إذ تتوافق المفاهيم الجديدة مع المفاهيم العقلية لديه، ولكن يا للحسرة بسبب التحيز المعرفي يصرُّ إصراراً غير مبررٍ على صحة ما يعتقد، في إنكارٍ واضحٍ للمعرفة الجديدة، معتمداً فقط على ثقةٍ مزيفةٍ في معرفته الموروثة، وهنا يصبح الشرك الخفي كفرةً بواحاً.

كل متجردٍ للحقيقة متبجٍ لها باحثٍ عنها هو مسلمٌ حنيفٌ، وكل من يخلط هذا بذاك ولا يستطيع التفريق بنفسه وقع في الشرك، وكل من أنكر المعرفة وحدها داخلٌ تحت مظلة الكفر. لا يهم ما يقوله أو ما يبدو عليه أو ما هي طائفته في بطاقة الهوية. لا يهم ما يرتديه وما يفعله من طقوس فالأمر متعلق بتفاعله المعرفي مع محيطه. الأمر كله متعلقٌ بقدرة الإنسان المعرفية، ولذلك كان جميع الأنبياء مسلمين؛ لأنهم كانوا باحثين عن الحقيقة غير متحيزين.

قبل أن ندلف إلى تحليل كلمة (يهود) لابد أن نشير إلى أن فهم كلمة (مسلم و كافر ومشرِك) تحديداً لابد أن يتبعها فهمٌ لسياق الخطاب. التعريف الذي تناولناه في الفصل السابق والذي تناولناه في هذا الفصل، يتحدث عن معرفة الحقيقة، والاعتقاد، ومعرفة الله. ولكن إن جاء سياق الإسلام مخصصاً في الحديث عن الحرب مثلاً؛ فهو يعني عدم الاعتداء، وعدم التحامل، والإنصاف في التعامل.

إذا جاء وصف الكفر في تعاملات الناس مع بعضها؛ فإن الكفر هنا يعني جحد حقوق الناس، وظلمهم، وقطع حقوقهم عمداً وبإصرار شديد. كذلك لابد من الوقوف على مفهوم الشرك، والفرق بين الشرك المعرفي والشرك الذي يعتبر خيانة، مثال ذلك: العلاقات المتعددة، أو حتى العمل ضد صالح المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان. لذلك عندما ندرس آيات الكفر في كتاب الله وآيات القتال لابد أن نبث ونفرق بين أنواع الكفر، وهل هو كفرٌ معرفي أم

هو كفرُ الحقوق؟ وهل الإِشراكُ إِشراكٌ معرفي أم إِشراكٌ خيانية؟ ولا يمكن تعميم الأحكام؛ مما يسبب فوضى لا حصر لها.

لاشك أن ألفاظ مثل (الكفر والشرك وأهل الكتاب) لو حاولنا تتبعها كما جاءت في كتاب الله، لو صَحَّت كثيراً من المسائل الغامضة؛ لذلك هي تحتاج لجهدٍ كبير. ويكفي هنا هذه الإشارة الخفيفة، وإن كان هناك فرصةٌ سانحةٌ سوف نخصِّصُ لها كتاباً كاملاً نفضلها تفصيلاً دقيقاً، أو يلتقط أحد الباحثين الخيط فيحمل على عاتقه مهمة هذا البحث.

في السطور القادمة سوف نحلل لفظ (يهودي) لنحاول الوقوف على هذا المعنى، ونحاول التفريق بين المعاني القرآنية وما يعتقده الناس، وبنوا عليه تصوراتهم.

مفهوم اليهود

لفظ يهود أصلها هود ويعني السكون (البطء) كما جاء في قاموس اللغة. الفرق بين لفظ هود ولفظ هاد هو حرف العلة، حيث جاء حرف الواو في المنتصف في كلمة هود، بينما جاء حرف الألف في منتصف كلمة هاد. إذا كان حرف الألف يدل على مد الشيء وعلى الحركة الممتدة، فإن حرف الواو من خواصه الضم الممتد مما يشير إلى الاستحواذ.

حتى يمكننا فهم لفظ (هود) ومشتقاته، لا بد أن نقارن بينه وبين لفظ (الإيمان)؛ إذ يبدو أن كليهما يشبهان بعضهما. الإيمان هو الاستقرار والطمأنينة، بينما هود هو السكون، ومنه الهدوء والهدى، وهو الاسترشاد بشيء. الإيمان كما بينا في الفصل السابق هو عملية اطمئنان، ولكنها نابعةٌ من الداخل، نتيجة تفاعلاتٍ معرفية. بينما الهدى فهو اطمئنان نتيجة لمصدر خارجي، ولذلك نقول أن الإنسان يهتدي بالمصباح، كما اهتدى نبي الله موسى بالنار عند عودته من مدين.

(إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى

النَّارِ هُدًى) (سورة طه: آية 10).

كذلك الهدى متناسب مع لفظ الاتباع، بينما الإيمان لا يصح أن يتبع. أو بمعنى أقرب، الهدى يمكن أن يقلد، بينما الإيمان حالة خاصة بكل فرد.

(وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة القصص: آية 57).

الإيمان حالة راقية تعتمد على قدرة الإنسان الذاتية، وعلى ارتباط وثيق بتطور قدرات الإنسان. بينما الهدى حالة أقل؛ لأنه يحتاج لمصدر خارجي للقياس عليه.

من أجل ذلك كان الوصف الأشهر لأتباع نبي الله موسى صلوات ربي عليه هو الذين هادوا؛ لأن البشرية في ذلك الوقت لم تكن بالراقي العقلي والمعرفي الذي يؤهلها لمرحلة الإيمان بمفهومه القرآني. بينما في حالة أتباع نبينا صلوات ربي عليه فقد وصفوا بالذين آمنوا؛ لأن البشرية وصلت لمرحلة تستطيع الوصول لحالة الإيمان الداخلي. هذا لا يلغي أن هذه الأنماط جميعها موجودة في البشرية، ولكن بنسب متفاوتة اعتماداً على قدرات الفرد المعرفية.

سوف نلاحظ أن مفهوم (الذين هادوا)، ومن ثم (اليهود)، مرتبط بالهدى بوصفه مظهراً وتصرفات خارجية أكثر منها سلوكاً داخلياً. إنها حالة تشبه حالة الطفل الذي يقلد أباه في كل أمر محمود، فهو في الحقيقة يهتدي بأبيه، ولو جاز لنا التعبير فهو من الذين هادوا، ولكن لكي يصل إلى مرحلة الإيمان يحتاج لمزيد من النضج والبحث والتجارب الذاتية.

لا شك أن لفظ (هاد) يختلف عن الجذر (هود) كما ذكرنا، باختلاف حرف العلة في المنتصف، والذي رأينا تأثيره شديد الوضوح في كتاب الله. بينما لفظ (هاد) أو (هادوا) جاء أحياناً كثيرة في مواضع محمودة، إلا أن لفظ (اليهود) بزيادة الياء في البداية جاء دائماً في مواضع مذمومة. يبدو أن تأثير حرف الواو ودلالته على الاستحواذ، ودلالة حرف الياء في البداية، أضافت للفظ صفات الاستحواذ، واستمرارية هذا الاستحواذ، عن طريق إضافة الياء في البداية.

يبدو أن لفظ (اليهود) يصف مجموعات احتكرت الهدى، واستحوذت عليه، رغم أنه ليس تفاعلهم الذاتي، بل هو هدى مصدره خارجي. سوف نلاحظ ذلك بسهولة عند تتبع آيات الكتاب وفهم سياقها. في الآيات المشهورة التي تحدثت عن الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، نجد أن تركيب (الذين هادوا) هو المستخدم، وليس لفظ (اليهود):

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة البقرة: آية 62).

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة المائدة: آية 69).

يبدو من الآيات الكريمة أن تركيب (الذين هادوا) داخل تحت مظلة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بعكس لفظ (اليهود). يبدو أن الذين هادوا رغم أنهم غالباً يحتاجون نسخة من الهداية لاتباعها، إلا أنهم لا يحتكرون الهداية بمفهومها الشامل، وغير متشددين في ذلك كما لفظ اليهود، رغم أنهم نسخ مقلدة لهدى غيرهم. يمكننا القول أنهم حالة أقرب إلى حالة الوراثة منها إلى حالة التفاعل العقلي المطلوب. كذلك يمكن اعتبار الذين هادوا هم السواد الأعظم من أتباع الملل؛ إذ إنهم مع وجود نسخة معينة من الهداية فهم يتبعونها بغرض الهدى، ولكن دون تفكير وبحث.

لذلك كان نصيبهم في الآية الكريمة أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لأن الأمر يتعلق بقدرات معينة، وقد تكون ظروف منعتهم من التطور والرقى. إذا اختلطت هذه الهداية المقلدة بشيء من الكفر أو التكذيب أو الاستكبار ولو حتى القليل فهنا تكمن المشكلة. نظام الذين هادوا المعرفي هش للغاية، ويمكن أن يوقعهم في الضلال بكل سهولة؛ بسبب غياب القدرات العقلية التي تؤهل للإيمان الكامل.

لذلك نجد أن الذين هادوا ليس شرطاً لهم أن يكونوا على بينة من أمرهم على طول الخط؛ بل إن القرآن يحكي عن هؤلاء القوم مواقف ليست في صالحهم مثل الآية في سورة النساء.

(مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِاللِّسَانِ طَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (سورة النساء: آية 46).

الذين هادوا هنا يحرفون الكلم عن مواضعه بقصد؛ لأن الآية الكريمة وصفتهم بالكفر في نهايتها. الآية جاء فيها وصفان، وهما الذين هادوا ووصف الكفر، فلا بد أن يتعلق وصف الكفر هنا بصفته، وهي الذين هادوا. لقد وضحت الآية لماذا كفر هؤلاء الذين هادوا؛ لأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه. ويبدو من وصفهم أنهم يحرفونه بغرض الهداية، أو هكذا يعتقدون. إننا امام نموذج من البشر يبغون الهداية، ويبدلون الحقائق، ومن ثم يجيدون عن الطريق المستقيم، رغبة في الهداية أو هكذا يظنون. هؤلاء الذين يبدلون الحقائق عن قصد وعمد ملعونون، وموصفون بالكفر، حتى لو كانت نيتهم الهداية. هذه النماذج تموج بها جميع الطوائف، وهي أناس يغيرون الحقائق ويبدلون، وهم في الحقيقة راغبون في الهداية، ولكن عقولهم صورت لهم أن عدم قول الحقيقة كاملة أو تغير الحقيقة بشكل ما أكثر فائدة ونصحاً للمجتمع.

نياتهم حسنة، ولكن أفعالهم التزوير المختلط بتبرير الهدى كارثي. لدينا أمثلة كثيرة على هذه النماذج في التاريخ الإسلامي، سوف يدركها كل من يقرأ كتب التاريخ، ولا حاجة لنا بذكر هذه الأمثلة هنا. هؤلاء الذين هادوا أكثر الناس خطورة على كلمات الله وعلى معتقدات الناس، وخصوصاً في المجتمعات البسيطة المتواضعة معرفياً. لأنهم بكل بساطة يضلون الناس بما لهم من مظهر الهداية، ولكنهم ضالون؛ لأنهم يغيرون ويبدلون قول الله بشكل متعمد، و يؤلونه بما يخدم رؤيتهم، وهم يعتقدون في ذلك الهداية. الآية التالية تعطينا لمحة أكثر عمقاً على تصرفات الذين هادوا:

(فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) (سورة النساء: آية 160).

حرم الله عليهم طيبات بسبب تشددهم؛ لأنهم انحرفوا عن جادة الطريق، وهم يعتقدون أنهم مهتدون، فكان عقاب الله لهم من جنس ما عملوا. عندما شدد هؤلاء على أنفسهم، وحرفوا التوجيهات الربانية بحجة الهداية، حرم الله عليهم طيبات هي بالأساس كانت حلالاً. إنه التحذير الإلهي من التحريف والتشدد، حتى بحجة الهداية؛ لأن ذلك ظلم للنفس عاقبته وخيمة. الآية التالية تعطينا لمحة أخرى عن أفعال الذين هادوا، وكل هذه الأفعال تتعلق بكونهم يطلبون الهداية، ولكنهم متجاوزون في ذلك.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ يُتَوَّهْ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (سورة المائدة: آية 41).

لعل هذه الآية تؤكد لنا معنى الذين هادوا، وهم الأقرب للذين آمنوا إيماناً ظاهرياً؛ أي أن إيمانهم ليس ذاتياً كما ذكرنا في بداية تحليل لفظ هادوا. لا شك أنهم سماعون للكذب، لا يستطيعون التفريق بين الحقائق والمكائد، وهذه أهم سماتهم؛ بسبب سطحية الطريقة التي اهتموا بها وهي التقليد والنسخ. كل الآيات تشير إلى أن هؤلاء القوم نموذج أقل تطوراً في المجتمعات، ولكنه لا يصل لدرجة اليهود كما سوف نرى.

لعل الجانب المضيء لدى هؤلاء هو رغبتهم في الهداية، ولكن يبدو أن هناك بعض الحواجز المعرفية التي تمنعهم من ذلك. مع تطور البشرية وتطور طريقة التفكير لا بد أن يقل أو يختفي نموذج الذين هادوا، ويحل محله الذين آمنوا. إذا أسلم الناس وفهموا مفهوم الإسلام

لا بد أن يتحولوا إلى الذين آمنوا، وإذا تغلب عليهم هواهم ومصالحهم انتقلوا إلى جانب الذين كفروا في البيئات التي يغلب عليها الطابع المادي. أما إذا كانوا في بيئات ضحلة معرفياً ولكنها ليست سيئة التصرفات والسلوك، فغالباً ما يكون السائد هو نموذج الذين هادوا، ويندر تبعاً لذلك نموذج الذين آمنوا المحتاج لمجهود بحثي.

من هنا نجد أن الله جمعهم مع الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ربما لرغبتهم في الهداية، ولكنهم انحرفوا بسبب قلة علم أو نقص معرفة، مما جعلهم في كثير من الأحيان يبدلون الكلام، ويحرفون الحقائق. هذه النماذج توجد في كل المجتمعات وكل المعتقدات، رغبة في هداية الناس، ولكن فعلهم غير قويم. إنه تحذير من الله إلى أولئك الذين يعتقدون أنهم مهتدون بأن يلتزموا بالطريق القويم، ولا يحاولوا الإفتاء أو الاقتراء على الله بحجة هداية الناس. خصوصاً إذا كانت هذه الهداية التي يعتنقونها ليست نتاج بحث وتحليل وجهد جهيد، ولكن هي أقرب للتقليد.

المنطقة الآمنة لهؤلاء طالما أنهم لا يقدرّون على التمييز السليم والفرز، هو عدم خوضهم فيما لا يعلمون، وأن يكتفوا بأنفسهم قدر المستطاع حتى لا يقعوا في فئة الضلال والإضلال. سوف نكتشف مع الآية التالية الفرق بين الذين أسلموا والذين هادوا، ودرجة كل فئة.

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (سورة المائدة: آية 44).

الذين أسلموا في الآية الكريمة هم النبيون، وأسلموا لأنهم ليس لديهم أي نوع من التحيز. أما الذين هادوا فهم تابعون هنا للذين أسلموا. هذا الاتباع متوافق تماماً مع مفهوم الذين هادوا الذي استخلصناه من الآيات السابقة، إذ إنهم لا يهتدون إلا بوجود نموذج خارجي، أو مصدر

هداية يقيسون عليه هدايتهم. تبرز هنا إشكالية أن الذين هادوا جاؤوا مع التوراة، فكيف نقول أن الذين هادوا هو وصف لمنهج فكري في كل المجتمعات وفي كل الأزمنة؟

لا شك أن الذين هادوا هنا هو وصف عام له صفات وخصائص، انطبق على فئة من المخاطبين بالتوراة، فسموا بالذين هادوا. ومثال ذلك لفظ المسلمين الذي وجدناه في كتاب الله ينطبق على أتباع نبي الله موسى، وأتباع نبي الله عيسى صلوات ربي عليهم أجمعين. فكما أن لفظ المسلمين ليس مخصصاً لأتباع رسولنا الكريم بنص القرآن، فكذلك جميع الأوصاف الأخرى هي أوصاف عامة، قد تنطبق على حالات خاصة كما تبين الآيات.

الفرق الجوهرى أن لفظ الذين هادوا -لا شك- كان ينطبق على غالبية الناس في القديم، في حين أن المجتمعات كلها تقدمت حل الذين آمنوا محل الذين هادوا.

لفظ اليهود

على الجانب الآخر نجد أن لفظ اليهود هو لفظ مذموم على طول الخط؛ بسبب البعد الجديد الذي اكتسبه اللفظ، وهو بعد الضم الممتد، أو لفظ الاستحواذ المشتق من حرف الواو، وكذلك حرف الياء الذي جاء في بداية الكلمة، والذي يوحي بالاستمرار.

لفظ اليهود كما سوف نرى هو حالة ثقة مستمرة في الهدى، بل واحتكار الله مما دفع القوم إلى التجرؤ على الله بل وإتخاذ أنفسهم وسطاء بين الناس وبين الله، والقول على الله بشكل فظ، والاعتقاد أنهم خير الناس قاطبة، وإخراجهم لكل ما عداهم من دائرة الهدى.

إنه نموذج خشن للهداية، وصعب المراس، لا يعترف بغير هدايه، ويحتقر كل ما سواه. إذا انطبقت هذه الأوصاف على أي شخص فهو -لا شك- يهودي الفكرة. وإنما وصفت المجتمعات المتعنتة باليهودية بسبب هذا التعنت، واحتكار المعرفة، وعدم اعترافها بالآخر. إذا تخلى الإنسان عن هذه الأوصاف لا يصح أبداً وصفه باليهودي؛ وإنما ينتقل تلقائياً إلى الأوصاف الأخرى في كتاب الله، حتى وإن كان مكتوباً في بطاقة التعريف الخاصة به أنه يهودي.

لو أن هذا الشخص باحث عن الحقيقة بصدق وإخلاص فهو -لا شك- مسلم، ولو أنه جاحد للمعرفة متحيز فهو واقع في الكفر لا محالة. اليهودي كما جاء في القرآن هو النموذج المتطرف في كل ملة، بل هو أقصى نموذج للتطرف وعنوانه. سوف ندخل إلى الآيات التي جاء فيها ذكر اليهود؛ لتتعرف بشكل كامل على هذا الوصف، وكيف استخدمه القرآن الكريم.

الآية الأولى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (سورة البقرة: آية 113).

الآية الكريمة تشير إلى احتكار اليهود للحقيقة، وحكمهم بذلك. وإنما حكموا بذلك بسبب قلة علمهم كما تنص الآيات. كل من يصدر الأحكام بهذه الطريقة دون تفريق فهو واقع في وصف اليهود، وسوف نتعرف على من هم النصاري عندما نأتي على هذه الآية في وصف النصاري.

الآية الثانية: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (سورة البقرة: الآية 120).

لن ترضى عنك اليهود هنا لأنهم محتكرون للمعرفة؛ بسبب ظنهم أنهم أكثر الناس هداية. إنها طبيعة كل متطرف لا يرضى عن الآخرين إلا من على شاكلته. لاشك أن فئة اليهود في كل عصر هي الفئة المتمسكة بما هي عليه، وتظن أنها مهتديه بشكل حصري، مما يدفعها لاحتقار الآخر ونبذه.

الآية الثالثة: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة آل عمران: آية 76).

هذه الآية الكريمة تبرئ نبي الله إبراهيم من كونه يهودياً أو نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً. كما بينا أنه كان غير متحيز، وباحثاً عن الحقيقة. فلو كان يهودياً لما وصل إلى الحقيقة، بل اكتفى بما هو عليه قومه، وتعصب لما يملكه من معرفة، وظن أنه من أهدى الناس.

الآية الرابعة: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (سورة المائدة: الآية 18).

صفة كل المتطرفين أنهم يظنون أنهم مقربون من الله؛ ولذلك يرتكبون كل الموبقات باسم الله. هذه الآية تنبه أولئك الذين يعتقدون هذا الاعتقاد بأنهم مقربون بشكل ما من الله، أو أنهم أبناء الله وأحباؤه، بأنهم ليسوا كذلك؛ إذ لو أنهم كذلك لما وقع عليهم العذاب. العذاب هنا هو عذاب في الدنيا أو نكد الحياة؛ لأن الآية تشير إلى هذا التساؤل في الدنيا، ونحن لم نصل للآخرة بعد. من يظن أنه من أحباء الله لا بد أن يتساءل لماذا تصيبه المصائب بسبب تصرفاته التي يعتقد انها من الدين؟

سوف يقول لك رجال الدين أن المصائب التي تصيب هؤلاء، من الإيمان، وأنها اختبار من الله. وسوف ندخل في دائرة الشر، ومن خلق الشر، وكيف يصيب الله الناس بالمصائب. وقد أفردنا لها فصلاً كاملاً في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب، ولا سبيل لإعادته مرة أخرى.

يكفي أن نقول أن الله وعد المؤمنين بالحياة الطيبة في الدنيا، نعم في الدنيا؛ فعندما تحدث منغصات في حياتك الدنيا حاول أن تكتشف من أين جاءت هذه المنغصات، وحاول معالجتها، لا أن تتعاطى مسكات توهمك أنها ابتلاء واختبار من الله. لا أقول أن احتكار الهداية والتعصب هي سبب كل بلاء، ولكن لها تأثير ملموس ووزن كبير في تكدير حياة الإنسان وعدم توفيقه. الآية الكريمة تشير إلى الذنوب التي يقترفها هؤلاء اليهود، وهي بالطبع مرتبطة بوصفهم باليهود؛ لأن تطرفهم الشديد هو الذنب الذي اقترفه هؤلاء.

الآية الخامسة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (سورة المائدة: الآية 51).

الآية الكريمة تنهى عن تولى هؤلاء القوم، أو بالأحرى تُرغّب بالابتعاد عنهم. لماذا نبهت الآية على عدم توليهم، ورغبت في الابتعاد عنهم؟

لأن التقرب من هذه النماذج يشعرهم بصحة ما ذهبوا إليه، وأنهم على الحقيقة، مما يزيد في طغيانهم وفي إصرارهم على التطرف. الابتعاد عن النماذج المتطرفة وتجنبهم يزيد من عزلتهم، ويمنحهم فرصة لمراجعة مواقفهم إن كانوا يعقلون. أما توليهم أو مناصرتهم فهو كارثة على البشرية. هذا المبدأ يقوم به كل المعتدلين في كل المجتمعات؛ إذ نجد أن الأشخاص الأسوياء لا يقبلون ولا يناصرون المتطرفين؛ لأن مناصرتهم تدمير للمجتمع، وجر للمجتمع إلى الهاوية المعرفية.

الآية السادسة: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقِينَاءَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (سورة المائدة: آية 64).

هذه الآية الكريمة جاءت مخصصة لليهود دون النصارى، إذ تشير الآية إلى تقوّل اليهود على الله، وجرأتهم على وصف الله بما لا يليق. القول بأن يد الله مغلولة هو قول كل المتطرفين الذين احتكروا الإله، واحتكروا رحمته، وجعلوها على مقاس معارفهم ومقاس تصوراتهم الذهنية. كل من حجّم قدرة الإله وجعلها مغلولة هو واقع تحت وصف اليهود، وهم المعنيون باللعن.

ليس شرطاً أن يقول اليهود التعبير القرآني نفسه، ولكن المعنى هنا تصورهم عن يد الله. الغلّ مقابلٌ للبط؛ فالذين يَحْجَمُونَ رحمة الله أو الذين يُقَسِّمُونَ للناس أن الله لن ينالهم برحمة منه، هم يقولون أن الله لا يبسط رحمته. وهو قول خطير، لا يقول به عاقل.

لو أنصف الإنسان لما انحدر إلى هذه المنطقة الخطيرة التي تجعله مصدراً للأحكام، ومحتكراً لرحمة الله. هناك تعبيرات يستخدمها بعضهم تعطي معنى أن الله يده مغلولة وغير مبسوطة، خصوصاً من يكفرون الناس بالجملة ويصبون العذاب صباً على من يخالف معتقداتهم وتصوراتهم. يمكن أن يقول الإنسان رأيه ووجهة نظره كما يشاء في تصرفات الآخرين، ولكن عليه الحذر الشديد من أن ينسب شيئاً إلى الله أو يتقول على الله.

لا يفعل ذلك إلا ضيق الأفق محدود التفكير، وهم الصنف الأعنف في احتكار الحقيقة، هم اليهود المعينون في التوصيف القرآني حتى لو كان أحد هؤلاء يدعى عالم زمانه في طائفته.

الآية السابعة: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (سورة المائدة: آية 82).

في هذه الآية الكريمة توصيف لموقع اليهود من الذين آمنوا. فلماذا اليهود والذين أشركوا هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؟

ولماذا هم أشد عداوة للذين آمنوا خاصة؟

كما ذكرنا أن الذين آمنوا لا بد أن يكونوا مسلمين بدايةً، فمن غير المظلة الرئيسة لا يمكن الوصول إلى الإيمان الحقيقي. فالإسلام هو عدم التحيز، وعندما يصل الإنسان إلى قناعة تامة يصبح مؤمناً بها. لو تشبث الإنسان بالفكرة وتحيز لها وتطرف، فسوف يتحول من صف الذين آمنوا إلى منطقة اليهود. ولكن إن كان على استعداد لقبول فكرة أخرى تخالف ما يعتنقه،

تكون أكثر ملاءمة وأكثر موافقة للمفاهيم العقلية لديه، فإنه يصبح مسلماً. عندما تستقر الفكرة في ضميره يصبح مؤمناً بها.

من هنا نستطيع القول بأن الفرق الجوهرى بين المؤمن واليهودى هو أن المؤمن متحرك منسجم مع حركة الكون، بينما اليهودى ساكن مكتفٍ بما حققه ومتعصب له. المؤمن دائم البحث لتأمين مصيره، بينما اليهودى منشغل بالآخرين؛ لأنه يعتقد أنه أكثر هداية منهم.

عداء اليهود للذين آمنوا نابع من نظرة اليهود للذين آمنوا؛ إذ يرونهم متغيرين غير موثوق بهم. بينما اليهود ثابتون بل مكتفون بما ورثوه وحققوه من نسخ وتقليد نموذج الهداية عند الآخرين. أيضاً عداء اليهود هو رد فعل طبيعى على الذين آمنوا؛ فالذين آمنوا يكونون في مرحلة اطمئنان لأفكارهم، وأكثر اتساقاً معها، وأكثر وثوقاً بها، مما يثير حفيظة اليهود أصحاب المنهج الإقصائى الذى يرفض كل جديد.

عندما جاءت الرسالة في بدايتها إلى رسول الله صلوات ربي عليه كانت هذه المسميات واضحة؛ فكل الذين يبحثون عن الحق كانوا في الحقيقة مسلمين، وعندما دخل الإيمان في قلوبهم واستقر أصبحوا مؤمنين. فلما أصبحوا مؤمنين أثاروا حنق اليهود الذين ورثوا الهدى، وتعصبوا له، واعتقدوا أنهم أهدى الناس.

كان العداء واضحاً بين الذين آمنوا واليهود؛ لأن ثمة منافسة على المكانة لدى الله. لكن ما نود أن نشير إليه أن اليهود بطبيعتهم إقصائيون، لا يريدون أحداً سواهم مع الله، أما الذين آمنوا فليسوا كذلك. ولكي يحذر الذين آمنوا من أن يتحولوا إلى يهود لا بد أن يعوا تلك الحقيقة، ويتعدوا عن الإقصاء، ويستمرروا في البحث وتحري الحقيقة، حتى تطمئن لها نفوسهم.

إنها منافسة على الهدى من جانب اليهود، والتي يجب أن يتجنبها الذين آمنوا. فالذين آمنوا دائماً قلوبهم وجلة ويخشون ربهم، ولا يأمنون مكر الله؛ ولذلك هم مشغولون بهداية أنفسهم عن منافسة الآخرين.

الآية الثامنة: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (سورة التوبة: آية 30).

هذه الآية الكريمة تضع اللبنة الأخيرة في تأكيد مفهوم اليهود، وهم كما قلنا محتكرو الحقيقة، الذين يظنون أنهم أكثر الناس هداية، وأقرب الناس إلى الله، مما أقعدهم عن طلب الحقيقة وطلب المعرفة. قالت اليهود عزير ابن الله، فهل قال اليهود المعروفين باسم اليهود اليوم أو في الماضي، أن عزيراً ابن الله؟

عزير

الإجابة لو تتبعنا قصة عزير هذا، وهل قال اليهود عنه أنه ابن الله، سواء اليهود الأوائل أم المتأخرون، لن نجد أحداً منهم يقول أن هناك شخصاً اسمه عزير ينعته اليهود بأنه ابن الله. عندما تقرأ للمفسرين الذين حاولوا تفسير هذه الآية سوف تجد حيرتهم واضحة بشكل كبير. جميع أقوال المفسرين عن عزير هذا أقوال مرسلة ومشتتة، لا تقوم على أي حقيقة.

بعض المفسرين يعتقد أن شخصاً اسمه عزرا - وهو شخص مبعث عند اليهود، ويصفونه بالكتب، أو حتى بعزرا النبي - هو المقصود بعزير. مع ذلك يقول اليهود أنهم لم يقولوا على عزرا هذا يوماً أنه ابن الله. كما قلنا أن القرآن يعطي مسميات حقيقة، وعندما يذكر عزيراً لا بد أن نبحث ما المقصود بعزير هذا.

أصل كلمة (عزير) هو عزرا، وأصلها التعظيم والنصر، ويظهر معنى عزرا في قول الله تعالى في سورة الفتح:

(لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (سورة الفتح: آية 9).

ي لسان العرب لابن منظور نجد أن (عزرا) تعني التوقيف على الشيء، حيث جاء في

لسان العرب (والعزْرُ التوقيف على باب الدين).

من هنا نجد لفظ (عزير) أقرب لكونه صيغة مبالغة للفعل (عزر) مما يعني أنه الشخص ذو المكانة العظيمة والجليلة في شأن ما. السؤال هنا: ما هو الشيء الذي يحتل فيه هذا العزير هذه المكانة؟ سياق الآية يتناول وصف اليهود، فلا بد أن يكون عزير هذا من بين اليهود، بل وهو رأس من رؤوسهم على العموم.

مما سبق يمكننا القول أن عزيراً هو وصف للشخص الأكثر تمسكاً بالمنهج، وأكثرهم إصراراً عليه؛ لذلك قال عنه اليهود أنه ابن الله، لما رأوا منه التمسك والمبالغة بما يعتقدون. الفئة التي ينطبق عليها توصيف اليهود تجدها بالفعل تجلّ الشخص الأكثر تمسكاً بمنهجها، بل وتتقرب إلى الله بحبه كما تقول هذه الفئات، وتدلل كل أفعالهم على اعتقادهم أن هذا الشخص أكثرهم قرباً لله. إنه نوع مركب من الجهل؛ فاحتكارهم للهداية جعلهم يجنون أكثرهم جهلاً، ويضعونه بمثابة الأقرب إلى الله.

إنها دائرة ملعونة من الضلال، يمنح فيها العزير ثقة لأتباعه، ويمنح الأتباع ثقة وزهواً وانتصاراً زائفاً لهذا العزير، إنها صورة لتكامل الجهل لا مثيل لها. لفظ (عزير) متوافق تماماً مع وصف اليهود الذي توصلنا إليه من خلال الآيات الكريمة، وليس اسم شخص محدد تعتبره طائفة اليهود المشهورة كابن لله. هذه الفئة فئة مذمومة في كتاب الله؛ لأنها فئة تنفّر الناس من فكرة الإله، وتجعل الإله متحيزاً وعنصرياً، مما يقنط الناس من رحمة الله.

لا شك أن الفئة التي عارضت رسول الله صلوات ربي عليه في المدينة ينطبق على أغلبهم لفظ اليهود بجدارة، وخصوصاً تلك الفئة الواثقة من الهداية التي ورثتها. ولكن في الوقت نفسه لا يمكن أن يكون كلهم بلا استثناء يهوداً بالمعنى القرآني.

سوف نعطي مثالين لتوضيح الفرق بين المسميات داخل هذه الفئة نفسها:

المثال الأول: هو عبد الله بن سلام، وهو حسب الوصف التقليدي كان يهودياً وأسلم. لمر سريعاً على قصة عبد الله بن سلام وكيف أسلم، كما جاء في البخاري.

عن أنس بن مالك قال: (أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟، وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟، قال: أخبرني به جبريل آنفاً، قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال: أما أول أشرط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد الحوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت اليهود، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟، قالوا: أعاده الله من ذلك، فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قالوا: شرنا وابن شرنا، وتتقصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله).

الذي يمكن أن نستشفه من القصة أن عبد الله بن سلام لم يكن يهودياً أبداً، وإنما كان مسلماً؛ لأنه بدا واضحاً أنه غير متحيز للحقيقة التي لديه، فلما طرقت مسامحة حقائق أو قل معلومات جديدة لم ينكص بل تطلع وحاول فهم المقصود والمعنى. فلما أعطى لنفسه فرصة التفكير دون تحيز لما يعرفه ويعرفه قومه عرف واستيقن أنه الحق. ما لبث أن أعمل الرجل عقله وفتح قلبه فاستقر الإيمان فيه؛ لذلك وصف بن سلام باليهودي حتى قبل لقائه برسول الله لا يصح؛ تبعاً لمفهوم اليهود في كتاب الله. الرجل لم يكن يهودياً أبداً بل كان مسلماً ولما وافقت لديه الحقائق الجديدة المفاهيم العقلية قبلها على الفور فأصبح مؤمناً. هكذا كل إنسان باحث عن الحقيقة بإخلاص في غير تحيز هو مسلم رغم أنف كل السجلات المدون فيها غير ذلك، في أي مجتمع، وفي أي طائفة، وفي أي بقعة جغرافية.

على الجانب الآخر قصة حيي بن أخطب، كما جاءت في سيرة ابن هشام.
 (تحكي أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب - رضي الله عنها - عن ذلك فتقول:
 "كنتُ أَحَبَّ ولد أبي إليه وإلى عمِّي أبي ياسر، لم أَلْقَهُمَا قَطُّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه.
 فلَمَّا قَدِمَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، ونزلَ قِبَاءً في بني عمرو بن عوف، غدا عليه
 أبي حُيُّ بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغَلَّسِينَ؛ أي: ساروا بَغَلَسٍ، وهو ظُلْمَةٌ آخر
 الليل. قالت: فلم يَرَجِعَا حتى كانا مع غروب الشمس، فأَتَيَا كَالَيْنِ كسلانين ساقطينِ يَمَشِيَانِ
 الهويني، فهشَّشْتُ إليهما، كما كنتُ أصنعُ، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما، مع ما بهما من
 الغم. قالت صفية - رضي الله عنها -: وسمعتُ عمي أبا ياسرٍ وهو يقول لأبي حُيِّ بن أخطب:
 أهو هو؟ (أي: هل محمد - صلى الله عليه وسلم - هو النبي الذي ننتظره، الموجودة بشارته في
 كتبنا؟)، قال حيي بن أخطب: نعم والله. قال أبو ياسر: أتعرفه وتُثبِتُه؟ قال حيي بن أخطب:
 نعم. قال أبو ياسر: فما في نفسك منه؟ قال حيي بن أخطب: عداوته والله ما بقيت)

من خلال هذه القصة سوف ندرك أن حيي بن أخطب كان ينطبق عليه التركيب
 القرآني (الذين هادوا)؛ لأنه ذهب بالفعل إلى رسول الله ليراه، ولكن بمجرد رؤيته تحول إلى
 الكفر؛ لأنه جحد واستكبر رغم أنه استيقن الحقيقة.

حتى لو كان ينطبق على حيي بن أخطب صفة اليهودي قبل لقائه رسول الله لأنه كان
 متعصب لما يملك من المعلومات أو ما يظن انه حقائق، إلا أن هذا الوصف لم يعد ينطبق عليه
 بعد هذا اللقاء، وتحول للكفر.

إننا نضرب هذه الأمثال لتوضيح النماذج الفكرية المختلفة، وأنها ليست وظائف ثابتة،
 وإنما منهج فكري. قصر هذه التوصيفات على فئات معينة دون النظر إلى المناهج الفكرية التي
 يمثلونها هو رؤية بشرية خالصة، لا تتوافق مع اللفظ وصفاته في كتاب الله. مهمتنا أن نبين
 للناس المنهج القرآني، وليس علينا هدى أحد، والله يحكم بين العباد.

الذين يصرون على تقسيماتهم السياسية على أنها تقسيمات كتاب الله هو ينقلون كتاب الله من كونه كتاب هداية للناس إلى كونه كتاباً عنصرياً متحيزاً ضد فريق بالجملة. الناس متفاوتون بشكل يصعب تصديقه وعملية تصنيف الإنسان من أصعب ما يكون لأنه يفكر. إذا كانت التصنيفات السياسية والفقهية مهمة لتسير المجتمعات فلا ضير في ذلك ولكن على الأقل لا تقحموا كتاب الله في هذه التصنيفات وبلغوا الناس كيف تناول كتاب الله هذه الفئات من خلال تقسيمها معرفياً وليس طائفياً كما يحدث الآن.

لعل فهم هذه التوصيفات في كتاب الله يجعل الإنسان حذراً أن يقع في نغ الكفر أو اليهودية وهو يظن نفسه أكثر الناس إسلاماً. قد تكون هذه التوصيفات بشرى للذين يبحثون عن الحقيقة بإخلاص بأنهم مسلمون وهم مصنفون طائفياً من فئات أخرى، فيعلموا رحمة الله بهم التي حوتها كلماته ولكن لأسباب عديدة طُمت هذه الحقائق وضل الناس عنها. ليس علينا هدى أحد ولكن نقول ما اجتهدنا في بيانه ونعتقد في صوابه خلال مدارس كلمات وتعبيرات كتاب الله.

الفصل الثالث عشر النصارى

بعد أن تناولنا مفهومي الذين هادوا واليهود، سوف نتطرق من خلال السطور القادمة إلى مفهوم النصارى، والسمات الرئيسية التي يمثلها هذا الاسم، وعلى من ينطبق تحديداً.

اسم (نصارى) مشتق من الجذر نصر، وأصله إتيان خير وإيتاؤه. في لسان العرب يشير لفظ نصر إلى الإعانة ونصر المظلوم. من خلال تتبع اللفظ في كتاب الله سنجد أن لفظ (نصر) يعني حالة من التعاون والمساندة على الخير، وهو ما يتطابق مع جذر الكلمة بشكل تام. حتى يمكننا فهم معنى كلمة (نصارى) لا بد أن نوضح الفرق بينها وبين كلمة (أنصار)، ومن ثمّ يمكننا فهم الآيات التي تحدثت عن النصارى، وفهم من المقصود بالنصارى.

ذكر لفظ (أنصار) في كتاب الله في سبع آيات بمجموع ثماني مرات، وكانت تشير إلى أنصار نبي الله عيسى (الحواريون) صلوات ربي عليه، وأنصار نبي الله محمد صلوات ربي عليه. كذلك جاء اللفظ مضافاً للظالمين، في إشارة قرآنية إلى أن الظالمين ليس لهم أنصار. جذر كلمة (نصارى وأنصار) هو نصر، ولكن الاختلاف في أن لفظ (أنصار) بدأ بالهمزة، لفظ (نصارى) انتهى بحرف الألف المقصورة.

اسم الفاعل (ناصر) مشتق من الفعل نصر، ويدل على حدوث الفعل منه، وهو مفهوم متعدٍ وجمعه (أنصار)، والمبالغة (نصار) التي تدل على قوة ودعم يبذل من أجل الآخرين. ومن هذا الوجه سُمي المسلمون الأوائل من أهل المدينة (أنصاراً)؛ لأنهم نصرُوا الدعوة بأموالهم وأنفسهم بعد أن آمنوا بها. معنى ذلك أنهم تحركوا بقوة لنصرة النبي.

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) (سورة التوبة: آية 100).

كذلك سمي الحواريون الذين نصرُوا نبي الله عيسى بالأنصار؛ لأنهم بادروا إلى نصرته نبي الله عيسى، وكانوا أيضاً مدفوعين بقوة تحركهم، وهي قوة الاقتناع بدعوة نبي الله عيسى.

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران: آية 52).

كما ذكرنا سُمِّي أتباع نبي الله عيسى في بداية الدعوة بالأنصار، وما لبث هذا الاسم أن تغير إلى النصارى، فما هو التحول الذي جعل الاسم يتغير من أنصار إلى نصارى؟

كلمة (نصارى) مفردتها (نصران) على وزن فعَعلان، وهي ليست اسم فاعل، وإنما صفة مشبهة باسم الفاعل، وهي مفهوم لازم، مثل: شبعان، حيران، ظمآن، غضبان، وتدلّ على صفةٍ حالٍ لازمةٍ بذات الإنسان.

دلالة كلمة (نصارى) تدل على توجيه الدعم والقوة بشكل تلقائي، أو بقوة دفع العادة المتكررة، أو بمعنى آخر مناصرة متوارثة، وذلك خلاف لفظ (أنصار) الذي يشير إلى المبادرة. من هنا نجد أن كل من ينصر فكرة لم يختبرها، وإنما تناولها بالوراثية، فهو واقع تحت مفهوم النصارى. بينما من يناصر فكرة اختبرها وآمن بها بشكل تام، فهو واقع تحت مفهوم الأنصار وليس النصارى.

الفرق بين مفهوم (الذين هادوا) ومفهوم (نصارى) هو أن مفهوم (هادوا) فيه سكون وبطء، بينما مفهوم (النصارى) فيه حركة. أو بمعنى أكثر وضوحاً؛ الشخص المؤمن بفكرة بشكل وراثي دون اختبارها، وهو محايد تماماً تجاهها ولا يناصرها، ينطبق عليه لفظ (الذين هادوا). بينما الشخص المؤمن بفكرة وراثية أيضاً دون أن يختبرها، ولكن يناصرها بشكل ما، هو من النصارى.

لاحظ أنّ من مفهوم (الذين هادوا) ومفهوم (النصارى) كلاهما يفتقر للدليل والبرهان في إيمانه. هذا المعنى نجد صدهاء في قول الله سبحانه وتعالى عن الظالمين، بأنّ ليس لهم أنصار.

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) (سورة البقرة: آية 270).

الظالمون ليس لهم أنصار على الحقيقة؛ لأن نصره الظلم تأتي في غياب الدليل والبرهان أو تغييبه. لا يمكن أن تجد أنصاراً للظالمين؛ لأن لفظ (أنصار) نفسه يمتنع بسبب خواصه وصفاته، التي يلزم معها برهان ودليل، وقوة محرّكة. بينما الظلم يقوم على الحيل لا على الأدلة. السقوط في الحيل باعتبارها أدلة هي مسؤولية الإنسان نفسه، فلا داعي لأن تذهب النفس حسرات على أولئك الذين يستبدلون الأدلة بالحيل، ويستقبلون البراهين بالجدال.

الآية تقرر حقيقة انتفاء وجود أنصار للظالمين، ولكن حسب تحليلنا للفظ (نصارى) يمكن أن يطلق لفظ (نصارى) على من يدعم الظالمين، فهم يدعمون فكرة -غالباً- وراثية بالنسبة إليهم.

بعيداً عن الدين يتضح مفهوم (النصارى) في النظام القبلي؛ إذ لو افترضنا أن شيخ القبيلة له داعين ومؤيدين من قبيلته، فهم في الغالب نصارى وليسوا أنصاراً. كذلك لو طبقنا مفهوم أنصار ونصارى على المستوى الحزبي في الشؤون السياسية؛ فالمدافع عن الحزب في كل الأوقات بغض النظر عن الخطأ والصواب، هو من نصارى الحزب. بينما الذي يدافع عن المواقف الصحيحة، ويعارض المواقف الخاطئة، ينطبق عليه مفهوم الأنصار.

كذلك يمكن فهم الفرق بين المفهومين إذا رأينا من يناصر شخصاً أينما حل، فهو ليس من أنصار هذا الشخص، ولكن التعبير الصحيح أنه من نصارى هذا الشخص. بينما من يؤيد الفكرة بغض النظر عن الشخص، ينطبق عليه مفهوم أنصار.

سوف نحاول في السطور التالية استعراض لفظ (النصارى) الوارد في كتاب الله، وفهم مدلوله في ضوء ما حصلنا عليه بواسطة الجذر اللغوي.

الآية الأولى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة البقرة: آية 62).

هذه الآية الكريمة وضعت النصارى في فئة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، واستبعدت كما ذكرنا فئة اليهود. التعريفات المتداولة لمفهوم النصارى ومفهوم اليهود تتعارض مع هذه الآية؛ لأن مفهومنا الحالي عن اليهود أن لديهم فكرة التوحيد واضحة أكثر بكثير ممن يتم توصيفهم بالنصارى. بناءً على ذلك فإن هذه الأوصاف لا تنطبق بشكل قرآني على ما تم توصيفه لحاجة اجتماعية أو سياسية.

النص القرآني لا يفرّق بين أحد، ويعطي أوصاف نماذج وأنماط معينة، فن انطبق عليه هذا الوصف فهو واقع تحت هذه الفئة، كما ذكرنا ذلك أكثر من مرة. مفهوم النصارى أو الذين يناصرون فكرة ما بالوراثة داخلون في نطاق الآية الكريمة.

لكن كيف نوفق بين مفهوم آية (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وهذه

الآية؟

مناصرة الفكرة بشكل وراثي مهما كانت هذه الفكرة، لا تجعل الإنسان في موقف حرج ما لم يتحيز لهذه الفكرة بشكل متعمد ويطلب بشدة التحيز الذي هو ضد مفهوم الإسلام، أو يجحد أفكاراً أخرى بدون دليل أو برهان.

إذا جحد الإنسان معرفة ما رغم وضوحها، فقد انتقل من مفهوم النصارى إلى مفهوم كُفّر الفكرة، ولا ينطبق عليه مفهوم الإسلام. ولكن طالما هو منصف في أحكامه، غير متحيز، ولكن لسبب ما فإن نظامه المعرفي غير قادر على استخلاص فكرة معينة؛ فهو واقع تحت مفهوم النصارى، ولا يخرج عن مفهوم الإسلام، والذي هو المظلة الرئيسة.

إذا اعتقد الإنسان المناصر لفكرة ما بتفوقه، وأنه أهدى من الآخرين، واحتكر رحمة الإله، وتطرّف في ذلك، فقد خرج من مفهوم النصارى إلى اليهودية. الآية الكريمة رتبت الفئات الأربعة من حيث الهداية، فأكثر هذه الفئات هداية هم الذين آمنوا؛ لأن إيمانهم ذاتي قائم على قدرات متطورة. الفئة الأقل من الذين آمنوا هم الذين هادوا، ولكنهم أعلى درجة

من النصارى؛ بسبب قلة تشددهم. ثم يأتي بعد ذلك النصارى، وهي الفئة الأقل من حيث الهداية، ثم الصابئون.

فئة النصارى هي فئة وسطية بين الذين هادوا واليهود؛ إذ إنهم ليسوا بقدر تعصب وتشنج فئة اليهود ولكنهم في ذات الوقت لديهم درجة من التعصب أكثر من الذين هادوا.

الآية الثانية: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (سورة البقرة: آية 111).

هذه الآية الكريمة تلقي الضوء على المفهوم الشامل للفظ (هود) ولفظ (نصارى)، ونلاحظ أيضاً في هذه الآية استبعاد لفظ (يهود) تماماً؛ لأنه لفظ يصف الفئة المتطرفة و المحتكرة للهداية. لا بد أن نتساءل من هم الذين قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى؟

من المعروف أن التسميات الحالية لا تستخدم هذه الآية بشكل صريح؛ إذ إن اليهود بوصفهم الحالي لا يعتقدون بدخول أحد غيرهم الجنة، وكذلك النصارى بوصفهم الحالي لا يعتقدون بدخول أحد غيرهم الملكوت. إذن الآية تتحدث عن فئة واحدة فيها اليهود والنصارى، وليست اتحاداً فيدرالياً بين يهود ونصارى يقسمون الجنة فيما بينهم نكاية بالمسلمين.

كذلك ورد لفظ (الذين هادوا أو نصارى) بدون ال التعريف يجعلنا نقول إن كلا اللفظين في الفئة نفسها. الذين قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى هم بالفعل (هوداً أو نصارى) بنص الآية الكريمة.

لا بد من ملاحظة الذين هادوا و النصارى لهم نفس المنهج الفكري تقريباً إذ كلاهما لم يؤمن إيماناً حقيقياً قائم على الدليل والبرهان والبحث. كلاهما استقي ظاهر ايمانه من تقليد الآخرين ولكن يختلف كلاهما عن الآخر في درجة التعصب لما يعتقد. فإن كان الذين هادوا يشملهم الهدوء والسكون فإن النصارى ليسوا كذلك بسبب طبيعة الاسم الذي منحهم قوة واندفاع بدرجة ما.

منهجين فكريين متقاربين تماماً وذلك مما يدفعنا للقول أنهم يظنون أن اللجنة مقصورة على نماذجهم أو بمعنى أكثر وضوح مقصورة على أصحاب الإيمان الوراثة، ومناصري هذا الإيمان الوراثة. إنه الصراع بين الموروث والعقل في كل الملل؛ إذ يظنُّ أصحاب الملة الواحدة أن الإيمان الوراثة هو المنقذ، ويجب التمسك به ومناصرتة. بينما يقول رب العالمين أن الإسلام الحنيف؛ أي عدم التحيز والتطلع دوماً للمعرفة والحقيقة، هو السبيل الوحيد للنجاة.

الآية الثالثة: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (سورة البقرة: آية 113).

رغم أن الآية السابقة تقول أن هناك من يظن أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، إلا أن هذه الآية ترصد لنا اشتباكاً بين اليهود والنصارى.

لا يمكن فهم الآيتين السابقتين عن طريق استخدام المسميات البشرية؛ لأن المسميات البشرية جعلت الذين هادوا واليهود شيئاً واحداً، ولكنَّ الغوص في الكلمات لا يقول بذلك أبداً؛ بسبب وجود الفروق بينهما. هذه الآية الكريمة من أعظم الأدلة على أن المسميات في كتاب الله ليست كما يظن الناس وإلا لو كانت المسميات كما يصنفها الناس حالياً لاصبحت هذه الآية والآية السابقة في تعارض واضح.

إذ كيف يذكر ربنا في الآية السابقة أنهم قالوا لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ثم يأتي هنا ويقول إن اليهود قالت ليست النصارى على شيء والنصارى قالت ليست اليهود على شيء. لا يمكن فهم ذلك إلا من خلال فهم طبيعة الاسم وخصائصه وصفاته ولا يمكن أن يتساوى الذين هادوا مع اليهود ولا يمكن أن يكونا نفس الفئة.

هذه الآية اشتباك بين الفئة المتطرفة المقيتة التي تحتكر الهداية (اليهود) والفئة المناصرة للإيمان الوراثة. الآية الكريمة تحكي سجلاً بين فئتين، يبدو أنهم لا يقبلون بعضهم بعضاً، وإن

كنت أرحح أن قول النصارى (ليست اليهود على شيء) ما هي إلا ردة فعل لما قاله اليهود؛ بسبب طبيعة النصارى الأقل حدة.

الآية الرابعة: (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (سورة البقرة: آية 120).

هذا الخطاب للمسلم أو الإنسان الباحث عن المعرفة، غير المتحيز. فإذا جاءه علم ما واطمأن به، سوف يختلف عما يعتقد اليهود من التزمّت والتشدد، وما يعتقد النصارى من فكرة مناصرة الموروث، وعلى هذا الأساس لا يمكن لهذه الفئات أن ترضى عن صاحب هذا الفكر الجديد. طبيعة الذين تلقوا معتقداتهم بالوراثة لا تقبل أي خروج عن المألوف يعتقدون أنّ كل تجديد هو طعن في الدين؛ ولذلك لا تجدهم أبداً يرضون عن الأفكار الجديدة أو من يعتنقها.

الآية الخامسة: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة البقرة: آية 135).

كما قد تعرضنا لهذه الآية الكريمة عند الحديث عن معنى الإسلام ومعنى الحنيفة، وسوف نركز هنا فقط على مفهوم النصارى. الآية تشير إلى المنهج الصحيح، وتحديد الحنيفة؛ وهي التطلع للمعرفة والفهم، مقابل الركون للموروث، سواء ركون ساكن مثل الذين هادوا، أم ركون مع المناصرة مثل النصارى. لاحظ هنا أيضاً أن لفظ اليهود مستبعد تماماً؛ لأن اليهودية درجة شديدة من التزمّت.

الآية السادسة: (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدِهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (سورة البقرة: آية 140).

لا سبيل للقول أن أنبياء الله المذكورين في الآية الكريمة كانوا هوداً أو نصارى بمفهومنا الحالي؛ إذ إنّ اليهودية والنصرانية لم تكن معروفة وقتئذ. ولكن تصبح الآية ذات معنى إن كان مفهوم الذين هادوا ومفهوم النصارى هو مفهوم عام، ويصف نمطاً من البشر في تعامله مع الأفكار. الآية تخبرنا أن أنبياء الله المذكورين في الآية لم يكونوا وراثيين أو مناصرين لما ورثوه؛ وإنما كانوا باحثين و منفتحين على كل جديد.

هذا المعنى يكاد يعلن عن نفسه في حالة نبي الله إبراهيم، ولكنّ الجديد هو ذرية نبي الله إبراهيم، والتي يبدو أنها كانت تنتهج النهج العظيم نفسه الذي انتهجه نبي الله إبراهيم، في البحث عن الحقيقة وطلب المعرفة. لو اعتقدنا أن مفهوم الذين هادوا هنا أو مفهوم النصارى هو المفهوم الذي نتداوله لوقعنا في إشكالية كبيرة إذ يصبح الوصف هنا في غير محله. كيف ينفي القرآن صفة عن قوم هي بالأساس لم يعرفها الناس إلا بعد هذا العصر. لا يمكن أن يكون ذلك كذلك إلا إذا كانت هذه المسميات تصف أنماط فكرية وليست طوائف كما نفهمها اليوم.

الآية السابعة: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (سورة المائدة: آية 14).

الآية الكريمة تشير إلى صفة هامة من صفات النصارى، وهي تراث نصرّة الأفكار. والتوارث في حد ذاته دون إعمال العقل عرضة للتزييف والتحريف، وبالتالي نسيان بعض الحقائق. نسيان الحقائق يخلق الاختلاف بالتأكيد؛ إذ تنقسم هذه الفئات إلى فئات متناحرة، كلُّ حسب ما يتذكر من معلومات ومن حقائق. العداوة غالباً تتم بين أصحاب النقل، إذ يصيرُ كلُّ فريقٍ على صحة ما نقل. ولو أنهم عَرَضُوا ذلك على العقل، وفرزوا ما بين أيديهم، لزال الاختلاف وانتهت العداوة.

الآية تشير إلى أن هذا النمط الفكري نمط كثير الاختلاف بعضه البعض. لا شك أن الاختلاف سببه عدم تبني هذا النمط الفكري نهج الأدلة واعتماده على التلقين و النسخ والتقليد والرؤى الشخصية.

الآية الثامنة: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (سورة المائدة: آية 18).

كما قد تعرضنا لهذه الآية الكريمة عند الحديث عن اليهود، وقلنا إن كل أصحاب الإيمان الوراثة سواء كانوا متشددين أم مناصرين، فإنهم يعتقدون بقربهم من الله؛ بسبب ما يبذلونه من جهد، ويعتقدون أن الله يحب ذلك؛ وبالتالي هم أحبابه وبنائوه؛ بمعنى الأقرب إليه. يشترك اليهود والنصارى في مسألة التشدد؛ مما جعل فئة النصارى أقل هداية من فئة الذين هادوا، ولكنهم لا يتساوون مع فئة اليهود.

الآية التاسعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (سورة المائدة: آية 51).

النشاط اليومي والتاريخي لا يؤيد أن اليهود والنصارى بمفاهيمنا التقليدية بعضهم أولياء بعض، حيث المناصرة والدعم على وجه الحقيقة؛ فما يحدث هو عكس ذلك. لكن في حالة فهم الألفاظ من خلال الإشارات القرآنية، سندرك أن هاتين الفئتين هما أقرب الفئات إلى بعضهم مقابل الذين آمنوا.

عندما يصبح الأمر متعلق بالموالاتة فإن النصارى أصحاب الإيمان الوراثة الأقل تشدداً سوف يميلون لفئة اليهود الأكثر تشدداً لأن بينهم مشترك وهو التراث الذي ينهلون منه.

الآية الكريمة تحذر المؤمنين من اتخاذ هذه الأنماط الفكرية المتحجرة أنصاراً أو أعواناً لأن نصرهم لا ينفع، ولا عونهم؛ بسبب طريقة تعاطيهم مع الأمور. تعطيل العقل والركون إلى

الموروث والدفاع عنه هو ظلم كبير؛ ظلم للجيل الحالي، وظلم للجيل القادم، وجر على التفكير، ونوعٌ من أنواع تغذية التحيز الذي يسببُ كلَّ ضلال.

الآية العاشرة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة المائدة: آية 69).

هذه الآية الكريمة تشبه الآية الأولى التي تم شرحها، فلا داعي للتكرار، ولكن سوف نقف عليها في نهاية الفصل؛ لبيان وجهة نظر جديدة في إعراب لفظ (الصابئون).

الآية الحادية عشر: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ
أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ) (سورة المائدة: آية 82).

كما قد شرحنا وصف اليهود، ولماذا اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا؛ وذلك بسبب
تعنتهم الشديد، وتشددهم، واحتكارهم للحقيقة. الآية أيضاً تشير إلى أن فئة النصارى أقرب
مودة للذين آمنوا، وعلت ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون.

ما جعلهم خارج دائرة الكفر أنهم لا يستكبرون، وهي الصفة التي يتصف بها
المتشددون غالباً في مواجهة الأفكار الجديدة. لعل عدم الاستكبار هذا هو ما نجى هذه
الفئة، وجعلها تقع في حيز الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أما اليهود فهم خارج هذا
الحيز.

لكن ما دلالة وجود لفظ (القسيسين والرهبان)؟ ولماذا انعكس هذان اللفظان على
جعل النصارى أقرب مودة للذين آمنوا؟

أولاً: لفظ قسيس

أصل كلمة (قسيس) قس، وتعني تتبع الشيء. نلاحظ أيضاً تقارب الصوت مع لفظ
(قص)، وهو أيضاً تتبع الشيء. لكن من خلال مقارنة صوت الصاد القوي وصوت السين
الأضعف نجد أن القص هو التبع بقوة، بينما القس هو التبع الضعيف، أو اليسير.

من هنا نجد أن لفظ قَصَّاص هو الشخص الذي يتتبع الشيء بقوة وإصرار، بينما (القسيس) بالقياس هو الشخص الذي يتتبع الشيء، ولكن ليس بالقوة المطلوبة.

طالما أننا نتحدث عن المناهج الفكرية والأنماط التي تعتنق هذه المناهج، فإن القسيس هو من يحاول تتبع الأشياء وفهمها بشكل ما. هذا القدر البسيط والذي يتوافر للقسيس يجعله متواضعاً نوعاً ما؛ لأنه باحث عن الحقيقة، ولكن بشكل ضعيف. مجرد توافر الرغبة في تتبع الحقيقة أو تتبع المعرفة أحدثت رقعة في التعامل مع الآخر؛ إذ أصبحت فئة النصارى أقرب مودة، لأن منهم نمط القسيس. لا بد أن نلاحظ أن مسمى (قسيس) الحالي لا يشترط أن يكون منطبقاً على اللفظ القرآني.

القرآن يعطي وصفاً لنموذج بشري، إذا توافرت فيه صفة تتبع المعرفة سُمي (قسيساً)، وإن لم تحصل له هذه الصفة، لا يمكن أن يُسمى (قسيساً). يجب أن نفرق تماماً بين الوصف القرآني والوصف البشري للأشياء، القائم على ظاهر الأشياء، بينما القرآن يصف حقيقة الأشياء.

قد ينطبق على القسيس الذي نعرفه اليوم لفظ (المسلم) إذا كان متجرداً لمعرفة الحقيقة، وغير متحيز، أو ينطبق عليه لفظ (اليهودي) إذا كان متعصباً متشدداً محتكراً للإله ورحمة الإله، وقد يكون (كافراً) إن كان منكراً للحقيقة عمداً.

ثانياً: لفظ رُهبان

(رهب) لفظ يدل على الخوف كما جاء في قاموس اللغة ولسان العرب. لا بد أن نفرق بين الخوف والرهب؛ فالرهب حالة رقيقة، بينما الخوف حالة يغلفها الفزع. على ذلك يكون الراهب هو الشخص الذي يخاف ويرهب شيئاً ما، وطالما نتحدث عن المناهج الفكرية فهو لا شكَّ الشخص الذي يرهب، أو يحاول عدم الوقوع في المحذور. إنه صاحب قلب رقيق، يجعله أقلَّ عداءً بكثير للذين آمنوا، بخلاف الشخص المتزمت المتشدد الذي يحتكر الإله، والمندفع في كره كل من يخالفه.

بعد بيان مفهوم القسيس والرهبان، يتضح لنا لماذا فئة النصارى أقرب مودة للذين آمنوا؛ وذلك لأن منهم نموذج القسيسين، الذين لديهم الرغبة في المعرفة، وإن لم تكن قوية، ونماذج أخرى تملك رقة في القلب، تجعلها لا تُضمِرُ العداءَ اتقاءً للوقوع في المحذور.

الآية الثانية عشر: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (سورة الحج: آية 17).

هذه الآية الكريمة تؤكد ما ذهبنا إليه، من أن فئة النصارى من الفئات التي قال فيها الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ إذ إنهم بشكل من الأشكال بريئون من صفة الكفر.

بعد بيان مسمى (النصارى) ومن قبله (اليهود) و(الذين هادوا) نستطيع التأكيد على أن هذه المسميات تختلف عن المسميات البشرية؛ فمسميات القرآن تصف نماذج وأنماطاً فكرية، بينما التسميات البشرية هي تقسيمات عنصرية، بزغت نتيجةً لحاجة المجتمعات لتنظيم بعض المعاملات الاجتماعية، والتنظيرات السياسية.

هذه التقسيمات العنصرية أنتجت عقليات مشوهة؛ تُكفِّرُ بالجملة، وتطلق الأحكام، مستندة حسب زعمها إلى كتاب الله، وهي في الحقيقة مستندة إلى تصورها التاريخي عن كتاب الله.

أنا هنا لا أحابي أحداً، ولا يعنيني أمر فئة بعينها، ومن الممكن أن من نصنفه حسب التصنيف التقليدي على أنه يهودي، قد يكون حسب التصنيف القرآني مسلماً، أو من الذين هادوا، أو من النصارى، أو من الكافرين. كل ما هنالك أنني أتمنى أن يفرق الناس بين المدلول البشري و المدلول القرآني. وليس معنى أن فئة انطبق عليها هذا المسمى في وقت ما يصبح ملازماً لها بغض النظر عن سلوكها ومناهجها الفكرية.

ما يؤيد كلامي أن القرآن لم يصف النصارى بمفهومهم القرآني أنهم كفار، وإلا ما دخلوا في قول الله تعالى: (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون). بل إن القرآن عندما وصف

حالة من حالات الكفر قال: (قد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، أو إن الله هو المسيح ابن مريم).

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ^ط وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ^ط إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ^ط وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) (سورة المائدة: آية 72). (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ^ط وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ^ج وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة المائدة: آية 73).

الذين يقولون هذا القول ليسوا من فئة النصارى، ولكن وصفهم الله بالكفر، وهذا الوصف وصف عقائدي، لا ينبي عليه قتال أو أي نوع من الاعتداء.

مسألة التكفير العقائدي بالجملة مسألة مستحيلة، ومن ينتهجها شخص لا يفهم النص القرآني، وغارق في التراث التاريخي حتى أذنيه. لو فرضنا أن شخصاً يريد أن يطلق حكم الكفر بناء على هذه الآيات التي بين أيدينا. في البداية لا بد أن يكون الحكم على شخص واحد بشكل منفرد، بناءً على إقرار الشخص ذاته، مع إدراكه ما يقول؛ بحيث لا يجوز أن يقول الشخص أنه يقصد أن المسيح ابن الله بمعنى المقرب أو أي شيء آخر.

عملية التكفير عملية صعبة للغاية فيما يخص المناهج الفكرية، ولكن كُفِرَ الحقوق وإنكارَ حقوق الآخرين هو الواقع في نطاق الإنسان، ويستطع تقديره بشكل سليم والحكم فيه. على كل مجتمع حماية نفسه من هؤلاء الكافرين الذين يمحذون حقوق الآخرين. التفريق بين الكفر العقائدي وكُفِرَ الحقوق سوف يضع النقاط على الحروف، فلن ترى أناساً يدعون لقتال مجتمعات لا تبادرهم بأي سوء، ويصمتون على من يهضم حقوقهم ويسومهم سوء العذاب.

خَلَطَ المفاهيم جعل الناسَ يتخَبَّطون، وفي كلِّ وادٍ يهيمون، يعادون أبرياء، ويخضعون للظالمين؛ بسبب توصيفات بشرية لم تصلْ لحقيقة اللفظ القرآنيّ. وذلك يؤيد قولنا أن لفظ (النصارى) توصيفٌ لمنهجٍ فكريٍّ مختلف عن منهج الكافرين. والقول بأنهم شيء واحد لا يمكن أن يصدر ممن يتدبر آيات الله كما جاء في الآية التالية.

الآية الثالثة عشر: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (سورة التوبة: آية 30).

لم تذكر الآية أن اليهود من الذين كفروا؛ لأنهم بالتأكيد لا ينكرون الحقيقة عمداً واستكباراً؛ ولكن قدراتهم المعرفية ضعيفة، ولو أنهم أنكروا الحقيقة لما سموا يهوداً من الأساس. كذلك في قول النصارى المسيح ابن الله بمعناه القرآني، ليس كفراً صريحاً، ولكنه مضاهاة لقول الذين كفروا، والفرق كبير بينهم.

القول بأنّ المسيح ابن الله بمعنى المقرب من الله، كما يعتقد اليهود في أنفسهم أنهم أبناء الله وأحبائه؛ هو لا شك تجاوز، ولكنه ليس كفراً. بينما القول أن الله ولداً هو القول العظيم، أو أن الله ثالث ثلاثة، وأن المسيح نفسه هو الله.

الأقوال متعددة، والناس على اختلافهم مختلفون في ذلك، فلا يمكن إطلاق لفظ التكفير بالعموم. كذلك لفظ (النصارى) لا يعني أنهم كفرون، ولكن إن قال هؤلاء أن المسيح ابن الله في غير المعنى البيولوجي، فهو تجاوز ومضاهاة لقول الذين كفروا وليس كفراً. المسيحيون في كتاب الله

دعونا الآن نشرح لماذا مفهوم المسيحيين لم يذكر في كتاب الله.

مفهوم المسيحيين هو مفهوم بشري خالص، لا يعكس حقيقة المسمى، ولكي يكون مسمى حقيقياً لا بد أن يكون المسمى منتسباً إلى المسيح كما ذكر القرآن أو يحمل صفات

وخصائص الاسم. لذلك لا يوجد هذا التصنيف في القرآن ولم يذكره، لأنه ببساطة تصنيف غير حقيقي.

من المضحك أن رجال الدين يستخدمون تعبير المسيحيين مرادفاً للنصارى، ويضعون الجميع في سلة الذين كفروا دون أن يرمش لهم طرف، ودون أن يحاولوا فهم ما تعني هذه المسميات في آيات الله. لو رتلوا القرآن لما قالوا على الله ما لا يعلمون، ولما أسأوا لدين الله، وما جعلوا القرآن عظيم.

في السطور المتبقية سوف أتناول وجهة نظر مختلفة لحالة إعرابية محيرة لأهل اللغة. الآيتان التاليتان وقع إعراب (الصابئين) فيهما بشكل مختلف كما سوف نرى.

الآية الأولى: (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيْنَ مِنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة البقرة: آية 62).

الآية الثانية: (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِيْنَ وَالنَّصْرَى مِنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة المائدة: آية 69)

معنى الصابئين: المتحولون من دين إلى دين، أو من ملة إلى ملة. وهذا المعنى يتوافق مع جذر الكلمة، ولا غبار عليه. نلاحظ في الآية الأولى أن لفظ الصابئين جاء منصوباً، لأنه معطوف على اسم إنَّ، وهي الحالة الإعرابية الصحيحة، حسب قواعد اللغة العربية المستخدمة حالياً.

في الآية الثانية جاء لفظ (الصابئين) مرفوعاً، وهو في الحالة نفسها، معطوف على اسم إنَّ، وكان من المفترض أن يكون منصوباً.

أهل اللغة لديهم تخريجان مشهوران لهذه الحالة:

التخریج الأول: وهو اعتبار أن جملة (الصابئون) في الآية الثانية اعتراضية، فكأنها جملة

جديدة، وتعرب مبتدأ مرفوعاً. التخریج الثاني: العطف على اسم إنَّ قبل دخول إنَّ!. لن اعلق

على تخريج كهذا، يستطيع أي منصف من أهل اللغة إدراك أن هذه التخريجات فيها ما فيها وهي تبريرات سيئة للغاية.

هذه الحالة من الحالات التي تدق جرس الإنذار لإعادة فهم الحالة الإعرابية بناء على القرآن، بل وفهم الحالة الحقيقية التي يصفها التعبير القرآني بكل دقة، وبعمق لا مثيل له. لفهم هذه الحالة الإعرابية لا بد أن نفهم الحالة التي تصفها الآية الأولى، ثم الآية الثانية.

حرف إنَّ له عمل أساسي؛ وهو التوكيد. وترتيب الفئات المذكورة في الآية الأولى وحسب تحليل الألفاظ كما ذكرنا، هو الذين آمنوا ثم الذين هادوا ثم النصارى.

الصابئون هم المتحولون من دين إلى دين، أو من ملة إلى ملة، أو من منهج إلى منهج. هذه الفئات التي جاءت في الآية داخل حيز المبشرين من الله بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الفئات التي تلي النصارى - كما بينا - مثل اليهود والكافرين لا تدخل في هذا الحيز.

قال المفسرون في لفظ (الصابئين) أنهم فئة معينة، وتم تصنيفها كما صُنِّفَت فئة اليهود والنصارى. بحسب فهم الكلمة سنجد أن الصابئين هي حالة كل متحول من حالة فكرية إلى حالة أخرى. المستقرون على منهج فكري معين لا يصح تسميتهم بالصابئين؛ وإنما الصابئ من هو في طور التحول فعلياً، حتى يكون اللفظ حقيقياً معبراً عن المسمى.

في الآية الأولى جاء لفظ (الصابئين) آخر الفئات، واصفة المتحولين من الفئة الأقل إلى الفئة الأعلى، والعكس بالعكس. في حالة التحول من الفئة الأقل وهي اليهود والكافرين غير المشمولين في الآية إلى الفئة الأعلى وهي النصارى، فإن الآية تخبرنا بشكل مؤكد أن هؤلاء داخلون ضمن حيز من قال فيهم الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أما تحول فئة النصارى إلى فئة اليهود فهو تحول من الأعلى إلى الأقل، وهؤلاء لا تنطبق عليهم الآية من الأساس؛ لأن فئة اليهود أو الفئة الأقل بصفة عامة ليست مشمولة في هذه الآية. لهذا السبب نجد حرف (إنَّ) قد عمل عمله، وهو التأكيد، وجاء لفظ (الصابئين)

موافقاً للحالة الإعرابية. كأن الآية تؤكد على أنّ الصابئين موقعهم في هذه الآية أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

الآية الثانية وقع لفظ (الصابئين) بالرفع (الصابئون)، بين الذين هادوا والنصارى. تعالوا نطبق القاعدة وهي التحول من منهج إلى منهج.

في حالة التحول من فئة النصارى إلى الذين هادوا، والمفترض أن النصارى أقل هداية من فئة الذين هادوا وهم الأعلى، فالتحول هنا شيء مقبول وسليم. على ذلك سيكون الصابئون هنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

على الجانب الآخر سيكون هناك تحول في الاتجاه الثاني، وهو من الذين هادوا إلى النصارى، وهو تحول من الأعلى إلى الأقل. هذا التحول تحول ضلال، فيصبح الصابئون هنا غير مشمولين بالآية، لأنهم انتقلوا من حالة هداية أعلى إلى حالة هداية أقل.

يمكننا القول هنا أن تأكيد دخول الصابئين في حيز الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ليس تأكيداً تاماً؛ لذلك لم تعمل إن عملها، ولم تؤكد لفظ (الصابئين)، فجاءت علامتها الإعرابية مخالفة للنصب المتفق مع عمل إن بنسبة مائة بالمائة.

هذا يعنى أن جزءاً من الصابئين داخلون في حيز الآية، وجزء آخر لن تنطبق عليه الشروط؛ لذلك لم يؤكد حرف إن حالة الجملة تأكيداً قاطعاً كالجملة السابقة، وجاء لفظ (الصابئون) بالرفع مشيراً إلى أن حرف (إن) لم يعمل عمله؛ لأن التعبير يصف حالة حقيقية.

لفظ (الصابئين) جاء في آية أخرى بالترتيب نفسه، ولكن جاء منصوباً بالعلامة الصحيحة، وقد سبقه الذين هادوا، وجاء بعده النصارى.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (سورة الحج: آية 17).

حرف إن عمل هنا، وأكّد اللفظ؛ لأن الحالة مختلفة تماماً، وهي أن الله سوف يفصل بينهم يوم القيامة. لم تذكر الآية أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما الآيات السابقة، ولكن أكدت أمراً مؤكداً بأن الله يفصل بينهم يوم القيامة.

نكرر أن الإعراب في القرآن يعكس حالة حقيقة؛ ولذلك لا بد أن يؤخذ في الاعتبار ما تعنيه الألفاظ وحالتها، حتى يتم فهم الحالات الإعرابية الشاذة، والتي سببت إشكاليات لا حصر لها وحرماً كبيراً. سوف أعطي مثلاً آخر لتوضيح الفكرة، وهو المثال المحير الذي جاء في سورة طه:

خاطرة حول إن هذان لساحران

(قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ) (سورة طه: آية 63).

اسم الإشارة (هذان) جاء في هذه الآية مخالفاً علامة الإعراب، والتي من المفترض أن تكون (إن هذين لساحران). سوف أنقل من تفسير الطبري القول في هذه الآية؛ لنعلم كم الاختلاف الذي دار حول هذه الآية، ثم أشرع في تحليلها بناء على المنهج الذي استخدمه في تحليل اللفظ القرآني.

" قوله تعالى: قالوا (إن هذان لساحران) قرأ أبو عمر (إن هذين لساحران)، ورويت عن عثمان وعائشة -رضي الله عنهما- وغيرهما من الصحابة، وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم من التابعين، ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدري فيما ذكر النحاس. وهذه القراءة موافقة للإعراب، مخالفة للمصحف. وقرأ الزهري والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه (إن هذان بتخفيف (إن) لساحران) وابن كثير يشدد نون (هذان). وهذه القراءة سلبت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، ويكون معناها: (ما هذان إلا ساحران). وقرأ المدنيون والكوفيون

(إن هذان لساحران) بتشديد (إن)، فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب. قال النحاس فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة.

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ (إن هذان إلا ساحران)، وقال الكسائي في قراءة عبد الله: (إن هذان لساحران) بغير لام، وقال الفراء في حرف أبي (إن ذان إلا ساحران) فهذه ثلاث قراءات أخرى تُحمل على التفسير، لا أنها جائز أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف. قلت: وللعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنباري في آخر كتاب الرد له، والنحاس في إعرابه، والمهدوي في تفسيره، وغيرهم أدخل كلام بعضهم في بعض. وقد خطأها قوم حتى قال أبو عمرو: إني لأستحي من الله أن أقرأ (إن هذان). وروى عروة عن عائشة -رضي الله عنها- أنها سُئلت عن قوله تعالى: لكن الراسخون في العلم، ثم قال: والمقيمين، وفي (المائدة) إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون، و(إن هذان لساحران)، فقالت يا بن أخي! هذا خطأ من الكاتب. وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: في المصحف لحن وستقيمه العرب بألسنتهم. وقال أبان بن عثمان: قرأت هذه الآية عند أبي عثمان بن عفان، فقال لحن وخطأ، فقال له قائل: ألا تغيروه؟ فقال: دعوه فإنه لا يحرم حلالاً ولا يحلل حراماً انتهى الاقتباس من التفسير.

كما نرى أن هناك إشكالية كبيرة في هذه الآية، وقد تناولها أهل اللغة المعاصرون بتخریجات عدة، ليس لها علاقة بحالة الجملة وما تصفه الجملة. لم تأخذ التخریجات المليئة بالثقوب أن القرآن يصف حقائق مجردة، ويمكن البحث عن هذه التخریجات ومراجعتها لمن أراد الاستزادة.

في هذه الآية كذلك نرى أن التعبير القرآني يعكس حالة حقيقية، وهي حالة فرعون عندما قال ما قال. عمل حرف (إن) التأكيد، ولكن فرعون نفسه لديه شك في كون نبي الله موسى وأخيه هارون بالفعل ساحرين، أو أنهم ليسوا بساحرين، فعندما نقل القرآن هذه الحالة نقل حقيقة الحالة، إذ بدا فرعون ظاهرياً مستخدماً التوكيد، ولكن حالته الحقيقية ليست بهذا

التأكد. من أجل ذلك جاءت (إن) لتصف قوله على حقيقته، ولم تعمل فتنصب اسمها، واصفة الحالة التي عليها من عدم التأكد.

بمجرد اعتبار كتاب الله هو الحقيقة المطلقة بشكل عملي، وليس مجرد قولٍ خالٍ من المضمون، سوف يتغير كل شيء. سوف يتغير فهم الألفاظ، وتتغير قواعد الإعراب، وتستقيم اللغة بشكل لم يسبق له مثيل، وسوف يبوح كتاب الله بأسراره، ويصبح دليلاً عقلياً على وجود الخالق.

الفصل الرابع عشر العصر

كثيراً ما استوقفتني سورة العصر وتعبيراتها البسيطة، وتساءلت ما المقصود بهذه السورة، وماذا يعني العصر؟ هل العصر حقاً هو وقت، أم أنه يعني الزمن أو الدهر؟ وما دلالة تسمية سورة كاملة بهذا الاسم؟ ما إن تم تحليل لفظ العصر إلا وبانت عظمة هذه السورة وروعة تعبيراتها. في البداية دعونا نفهم ما معنى (سورة) التي وصف بها ربنا سور القرآن الكريم؟ لأن فهم لفظ سورة، والوقوف على هذا المصطلح الذي لم تعهده العرب، سوف يجعلنا نتعامل مع القرآن بشكل مختلف عما نتعامل به حالياً. ورد في معنى كلمة سورة عدة معانٍ، منها اللغوي، ومنها الاصطلاحي بحسب الفهم التقليدي:

المعنى اللغوي

السُّور: الحائط، والسُّور: جمع سورة: وهي كل منزلة من البناء، ومنه: سورة القرآن، لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى، والجمع: سُور (بفتح الواو)، ويجوز أن يجمع على: "سورات" بسكون الواو وفتحها. والسورة في كلام العرب: الإبانة لها من سورة أخرى، وانفصالها عنها. وسميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة، وقيل: سميت بذلك لشرفها وارتفاعها؛ كما يقال لما ارتفع من الأرض: سور، وقيل سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده؛ كسور البناء. (كلمة بغير همز). وقيل: من السور (بالهمز): من قول العرب للبقية: سور، وجاء في أسار الناس: بقاياهم، وقيل: سميت بذلك لتمامها وكمالها؛ من قول العرب للناقاة التامة: سورة.

المعنى الاصطلاحي

(الطائفة المترجمة توقيفاً؛ أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، أو هي: طائفة من آيات القرآن جُمعت، وضم بعضها إلى بعض حتى بلغت في الطول المقدار

الذي أراد الله تعالى لها) بعد استعراض الفهم التقليدي وتقسيماته، دعونا نحاول فهم هذا اللفظ من خلال منهجنا الذي نستخدمه في فهم اللفظ القرآني.

السؤال الأول الذي يجب أن نطرحه هو: ما معنى كلمة (سورة)؟ وما خصائصها وصفاتها؟ أصل الكلمة هو سور، وهي تعني العلو والارتفاع، والسور جمع سورة، وهي كل منزلة من البناء، بحسب قواميس اللغة.

لدينا في القرآن لفظ (سار) وأصله سير، ولفظ (سورة) وأصله سور، وهما لفظان متقاربان، إذ الاختلاف الوحيد هو الحرف الأوسط، والذي جاء في لفظ (سير) ياءً، وفي لفظ سور واواً. ما هو السير كما جاء في القرآن؟

السير هو الانتقال من مكان إلى مكان. الشخص الذي يسير هو شخص ينتقل بشكل كلي من مكان إلى مكان آخر، وهذا المعنى جاء كثيفاً في كتاب الله، وعلى سبيل المثال:

(فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) (سورة القصص: آية 29).

سير نبي الله موسى هنا هو انتقال متكرر من مكان إلى مكان، وغالباً ما يطلق السير على المسافات الطويلة، والتي تتطلب توقفاً متكرراً. إذا تتبعنا لفظ (سور) في القرآن، فسوف نجد أن هناك ثلاث آيات كريمة، يمكننا من خلالها فهم خصائص هذه الكلمة وصفاتها.

الآية الأولى: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهْرُهُ مِنْ قَبْلِ الْعَذَابِ) (سورة الحديد: آية 13).

ضرب السور كما هو واضح من الآية الكريمة هو مدُّ خطٍ فاصلٍ بين فريقين. إذا كان

السير هو انتقالٌ من نقطة إلى نقطة بشكل متقطع، فإن لفظ (سور) هو انتقال من نقطة إلى

نقطة بشكل متصل. حتى يتضح المعنى نفترض وجود ستارةٍ ما، إذا نقلت هذه الستارة من نقطة إلى نقطة أخرى فهذا هو السير، أما إذا امتدت الستارة من نقطة إلى نقطة أخرى فهنا أصبحت سوراً. النتيجة الطبيعية للسير هو الانعزال عن نقطة البداية، عن طريق إطالة المسافة بين النقطتين؛ أي مدُّ البعد الجغرافي. أما نتيجة السور هو عزلٌ بين نقطتين، مع بقاء التقارب الجغرافي.

الآية الثانية التي يمكن من خلالها الغوص بشكل أكبر لفهم لفظ (سورة) هي الآية في سورة ص.

الآية الثانية: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ) (سورة ص: آية 21).

تسَوَّر القومُ المحرابَ؛ تعني أنهم أحاطوا بنبي الله، وصنعوا ما يشبه السور حوله. التسوُّرُ هنا هو عزل الشيء المُسوَّر عن الخارج، عن طريق الإحاطة به بشكلٍ ما.

الآية الثالثة: (فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) (سورة الزخرف: آية 53). رغم أن بعض المفسرين قالوا عن لفظ (أسورة) هنا أنها لفظ غير عربي، إلا أن أصل الكلمة (سور) والحالة التي تصفها الأسورة -وهي الإحاطة بالمعصم- يتكاملان؛ فتعطينا لمحة عن أن السورة هي الشيء الذي يحيط بشيء آخر.

من خلال ترتيب المعطيات التي بأيدينا نستطيع أن نقول: إن لفظ (سورة) من خصائصه الامتداد من نقطة إلى نقطة أخرى، والإحاطة بالشيء، بحيث يكون وحدةً منفصلةً ومعزولة عن محيطها بشكلٍ ما. الآن سوف نطبق لفظ (سورة) على سور القرآن؛ لترى إلى ما تشير. لكي تسمى سورة في القرآن بسمى (السورة) فلا بد أن تشملها خصائص المسمى وصفاته؛ بمعنى أن سورة القرآن يجب أن تكون متصلة من أول آية إلى آخر آية، وتحيط بشيء ما، وهو بالتأكيد موضوع السورة.

هذا يعني أن كل آيات السورة لها علاقةٌ ما ببعضها، ورغم أن كثيراً من المفسرين يعتقدون أن كثيراً من سور القرآن تناقش قضايا مختلفة داخل السورة الواحدة، إلا أن تحليل لفظ (سورة) لا يؤيد ذلك إطلاقاً. إن كلاً لا ندرك العلاقة بين الآيات بعضها ببعض، فهذا ليس معناه أن السورة تناقش موضوعات منفصلة؛ بل يعني أننا لم ندرك هذه العلاقات؛ لذا يجب تكثيف البحث في هذا الاتجاه.

لو أضفنا إلى لفظ (السورة) الخاصية الفريدة التي تحملها كلمات الله، وهي الإعجاز والبلاغة، لأدركنا أن لفظ (سورة) يعني بمفهومنا المعاصر مفهوم النظرية بلا أدنى تردد. السورة بهذه الخصائص والصفات تعني بمفهومنا المعاصر مفهوم النظرية.

النظرية أو وجهة النظر هي وصف لظاهرةٍ ما، بشكل موجز وبلغ، وفي أقلِّ عددٍ من الكلمات، بحيث تعبّر هذه الكلمات عن الظاهرة بشكل سليم. النظرية البشرية قد يعثرها الخلل؛ لأنها ببساطة شديدة وجهة نظر بشرية، ربما غاب عنها بعض المعلومات، أو لم تأخذ في الحسبان بعض العلاقات بين مكونات الظاهرة التي تصفها، أو أنها لم تستطع استيفاء جميع الخصائص والصفات التي تحيط بالظاهرة بشكل متكامل.

بينما السورة ومعناها القرآني هي وصفٌ من الخالق، أو النظرية التي وضعها الخالق لوصف شيء ما، والإحاطة به بشكل متكامل، وهذا الوصف هو وصف حقيقي ودقيق للغاية؛ لأنها وصف من صاحب العلم المحيط. هل أدركتم الآن هذا الكنز الثمين، والذي لم يقدره الكثيرون حق تقديره؟. كنزٌ لا يقدر بثمن، كتّاب به 114 سورة، أو قلّ نظرية تصف الكون وعلاقاته المتشعبة، وعلاقة الإنسان بهذا الكون، سواء على المستوى المادي أم المستوى غير المادي. ومع ذلك أهمل هذا الكتاب، لدرجة لم نصل لفهم لفظ (سورة) وما تشير إليه إلى يومنا هذا.

حتى أقرب لك الأمر، تخيل أن علماء العالم اجتمعوا وكتبوا كتاباً فيه نظريات كل شيء، نظريات في العلوم الطبيعية، نظريات في العلوم الإنسانية، نظريات تصف علاقة الإنسان

بكل ما حوله، نظريات تصف علاقة مكونات الكون بمنتهى الدقة. ثم صاغوا هذه النظريات في عبارات لا أروع ولا أجمل من ذلك، من ناحية جمال تعبيرها، ودقة كلماتها وإحكامها. ثم دفعوا هذا الكتاب إلى أهل قرية ما، وقالوا لهم دققوا النظر في كل كلمة في هذا الكتاب؛ فهو عبارة عن وصفٍ وتفصيلٍ لكل شيء.

فتحوّلت بعد فترة عبارات هذا الكتاب ونظرياته إلى مبارزة موسيقية بين بعضهم بعضاً، وأصبح مجرد حفظ العبارات التي وردت في الكتاب غايةً في حدّ ذاتها. وصار من يحاول فهم هذه العبارات، أو من يشير إلى ما تحتويه مثيراً للقلق والفتن.

تخيّل أن أهل القرية يرددون صباحاً ومساءً قانون نيوتن الأول: "الجسم الساكن يبقى ساكناً، والجسم المتحرك يبقى متحركاً، ما لم تؤثر عليه قوى ما"

يرددون القانون بكل المقامات الموسيقية المتاحة، ويدفعون أولادهم لحفظ القانون بكل ما أوتوا من قوة. ترديد القانون الفيزيائي بمقام النهاوند لن يصنع منك عالماً ولا قارئاً لقوانين الطبيعة. هذا ليس تقليلاً من إتقان النطق بالقرآن وتجويده، بقدر ما هو وضعٌ للأمور في نصابها، حتى لا تظنّ الأجيال القادمة أن هذا هو المطلوب منهم تجاه آيات الله.

يجب أن يعلم كلُّ جيلٍ أن عليه مسؤولية البحث والتدبر، وبذل الجهد في فهم آيات الله. يجب أن تعلم الأجيال أن آيات الله ليست حكاياتٍ شعبيةً يتسامرون حولها، أو أشعاراً تثير الشجون والحنين فقط. لا شك أن مجرد الاستماع لآيات القرآن بصوتٍ جميلٍ متعةٌ، وهي صفةٌ من صفات هذه الآيات العظيمة، ولا يمكن أن ننكر على أحدٍ هذا، بل تؤيده ونشجعه، ولكن المطلوب هو إدراك المراد منه، ووضع كل أمرٍ في نصابه حتى لا تضيع الأولويات.

إنها عبارات وكلمات خالق الكون، يصف من خلالها كل شيء، مكانها تحت المجهر، وفي أروقة المعامل، وعلى طاولة بحث العابرة من كل جيل. الجموع الغفيرة التي ترى في التدبر

ثقلاً وهماً، وفي الفهم تكلفاً وجهداً، لا يرون حاجة ملحة في أن يعرفوا ماذا يعني قانون نيوتن الثاني وماذا يصف.

ماذا سوف يعود عليهم إن عرفوا أن القانون الأول لنيوتن يصف القصور الذاتي للأجسام، أو أن القانون يفسر حركة الطائرة إذا غير الطيار وضع الوقود، أو يصف السقوط الحر لجسم في الجو، أو إطلاق صاروخ عبر الغلاف الجوي.

كل هذا الهراء الفكري مثير للقلق، وباعثٌ على الإزعاج. لك أن تتخيل كيف ينظر العلماء الذين وضعوا هذه القوانين إلى أهل هذه القرية؟ كيف لم يستطع أهل هذه القرية إدراك أهمية ما بين أيديهم، وتعاملوا مع الكتاب بشكل بسيطٍ للغاية.

كيف لم يُثر انتباههم كم هذه التعبيرات التي تتحدث عن نشأة الأشياء ومآلها، وكيف لم يلتفتوا إلى كم التراكيب اللغوية العجيبة، والكلمات الفريدة، التي تصف الأشياء وتحدث عنها. اليوم أصبح مفهوماً إلى حد كبير لماذا يشتكي أهل القرية من الجهل والظلم، وسوء العيش والنكد والضعف. هكذا هم بعض الناس؛ إن أعطيتهم مكتبةً أحرقوا كتبها في برد الشتاء، وإن منحتم سفينةً صنعوا من خشبها كوخاً تعيساً على الشاطئ.

نظريات معرفية يروج بها كتاب الله، كل سورة نظرية، أولها مرتبطٌ بآخرها، وتحيط إحاطةً تامةً بموضوع معين، هو في الغالب اسم السورة. نعم، اسم السورة هو الموضوع الرئيس الذي تتحدث عنه السورة القرآنية، وتدور الأحداث حوله، ويكمن في هذا الاسم أعظم الأسرار، بل إن تحليله بطريقة صحيحة سوف يكشف الكنوز المختبئة خلف كل آية من آيات هذه السورة.

لقد أعطينا أمثلة كثيرة على هذه النظريات المعرفية في كتاب الله. عندما تم تحليل كلمات سورة الفيل وجدنا أنها تحكي وتشير إلى نظرية الانقراض الكبير، الذي حدث منذ ملايين السنين. سورة الفلق التي وصفت وجود الشر، وكانت مثلاً واضحاً على نظرية الشر.

سورة الكوثر التي دارت حول الموهبة التي يمتلكها كل إنسان، وتلك الميزة التي يتميز بها كل واحدٍ عمَّن سواه.

إن كانت السور القصيرة سهلة بعض الشيء في تتبعها، وفهم الجوانب التي تناولها، إلا أن السور الطوال صعبة التتبع بشكل كامل؛ بسبب كَمِّ العلاقات المتشابكة التي ترسمها هذه السور.

لقد تحدثنا في هذا الكتاب عن سورة الرحمن، وأشرنا لهذه الحقيقة، ولكن لم نستطيع بالفعل تفسير كل الآيات؛ لأنها بالفعل تحتاج لمجهود جبار، بل وتحتاج لتكاتف الجهود من فريق كامل، وليست بشكل فردي. هكذا كل السور في كتاب الله، تحتاج لفرق متكاملة تضم أغلب التخصصات لفهم علاقة آياتها بعضها ببعض. إن كنا قد استطعنا الإشارة إلى بعض السور القصيرة، وفهم تعبيراتها بسبب قصرها، إلا أن خضوع هذه السور مرةً أخرى لفرق متخصصة سوف يكشف الكثير والكثير مما لم نستطع إدراكه أو غاب عنا.

أحد تلك النظريات المعرفية المهيبة هي سورة العصر، وهي من السور القصيرة، والتي تشمل معلومات غزيرة وكثيفة، وأحياناً مرعبةً لمن يمر عليها مرور الكرام.

العصر

هذه السورة تضيف عمقاً معرفياً جديداً لمفهوم المسلم الخفيف، الذي تناولناه في هذا الكتاب، وتتكامل تماماً مع المفهوم الشامل للإسلام الذي أشار إليه القرآن. عندما تم تفسير كلمة (العصر) تارة بأنها الزمن، وتارة بأنها وقت الصلاة المعروفة؛ اعتماداً على التصورات البشرية دون مرجع حقيقي، جاءت التفسيرات دون رابط حقيقي، لا علاقة بين كلمات السورة ولا بين آياتها.

عند محاولة فهم كلمة العصر من خلال كتاب الله ذاته، فاضت الرحمة من بين ثنايا تلك السورة العظيمة، وفي الوقت نفسه ارتفعت إشارات التحذير، وانطلقت أصوات التنبيه؛ بسبب الخسارة المتوقعة التي أشارت لها السورة.

كلمة (العصر) ذاتها هي السر! إنها تعني الخلاصة أو الملخص، وليس وقت العصر أو الدهر أو الزمن، كما تم فهمه. سورة إسمها الملخص أو الخلاصة أو الموجز تستحق أن تقف أمامها كثيراً لأنها حقاً سورة لخصت المطلوب من الإنسان وكيفية النجاة. في السطور التالية سوف نقدم الدليل على أن لفظ العصر يعني الملخص ولا يعني الزمن أو الدهر.

أصل كلمة (العصر) كما في قاموس اللغة لها ثلاثة أصول: الأصل الأول: دهر أو زمن، والثاني: ضغط شيء حتى يتحلب (استخلاص)، والثالث: تعلق بشيء وامسك به.

عندما استشهد المعجم على أن العصر يعني الدهر كانت سورة العصر إحدى أهم استشهاداته، حيث قال أن العصر هنا هو الدهر أو الزمن. لكن المتبع للفظ (العصر) في كتاب الله سيجد أن معنى العصر هو خلاصة الشيء أو نهايته. ربما استعار الإنسان هذا المفهوم لوصف حقبة زمنية ما، بغرض التعبير عن خلاصة هذه الحقبة، أو أهم ما فيها. مدلول كلمة (العصر) في كتاب الله جاء في أربعة مواضع، جميعها بلا استثناء تصف خلاصة أو عصارة الشيء، وليس لها أي علاقة بمفهوم الدهر:

الآية الأولى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا بَتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (سورة يوسف: آية 36). أعصر خمرًا، أي أستخلص الخمر.

الآية الثانية: (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) (سورة يوسف: آية 49) يعصرون هنا أيضاً؛ بمعنى يستخلصون شيئاً من شيء.

الآية الثالثة: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا) (سورة النبا: آية 14)

يقول المفسرون: إن المعصرات هي الرياح التي تعصر السحاب لينزل منه الماء. رغم أن لفظ (المعصرات) يحتاج لدراسة منفصلة؛ لبيان ما هي المعصرات التي ينزل منها الماء، إلا

أن الشاهد هو أن المعصرات هي ما تعصر الأشياء، وهو متوافق تماماً مع معنى العصر، وهو استخراج شيء من شيء، أو خلاصة الشيء.

الآية الرابعة: (والعصر) (سورة العصر: آية 1)

الآية الأولى في سورة العصر

العصر هنا أيضاً لا يخرج عن كونه الخلاصة أو المستخلص، وليس معناه الزمن أو الدهر؛ لأنه ليس هناك أي دليل على كونه الدهر، حتى إن الدهر جاء ذكره في كتاب الله من قبل:

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجاثية: آية 24).

كلمة الزمن غير موجودة في كتاب الله، ولكن هناك كلمة بديلة عنها هي الأمد، كما في سورة الحديد:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (سورة الحديد: آية 16).

نرجح بشدة أن العصر بمعناه المتداول حالياً -وهو فترة من الزمن- ما هو إلا معنى فرعي من المعنى الأصلي، وكأنه يشير إلى أهم ما في هذه الفترة. فعندما نقول عصر الحديد مثلاً؛ فإننا نشير إلى أهم ما في هذه الفترة، وهو اكتشاف الحديد أو استخلاصه. كذلك عصر الازدهار العلمي فهو يعني الاكتشافات العملية التي صاحبت هذه الفترة، فكانت أهم ما فيها. عصر التحرر كذلك يشير إلى أهم ما في الفترة التي حدث فيها التحرر، وهكذا.

عندما نرى في كتاب الله سورة تسمى العصر فحنن أمام أمر عظيم، بل هو أمر يلخص كلَّ شيء حرفياً. العصر يعني الملخص، ولكي نفهم إلى ماذا يشير هذا الملخص، يجب أن نستمرَّ في القراءة لتكتمل الصورة.

سياق الآيات التالية بعد آية العصر لا يشير أبداً إلى أن المقصود هو الدهر، وإنما متوافقة تماماً مع كون العصر ملخص الشيء وخلاصته. هذا الملخص جاء من خلال آيتين فقط، بشكل بليغ وموجز، يصف عمل الإنسان على الأرض.

الآية الثانية: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ)

تعني أن مجمل حياة الإنسان خسارة، وهذا المعنى يُرجفُ القلوب، ويجعل كل لبيب يراجع حساباته مراراً وتكراراً، لا أن يمرَّ من خلال السورة مرور الكرام.

لك أن تتخيل أن مدرساً وقف في الصف، وقال: الطلاب راسبون! أليس هذا التنبيه كفيلاً بأن يثير الرعب في نفوس الطلاب؟. إذا استثنى الأستاذ قائلاً: إلا من حضرَ تدريبات الأسبوع الثامن. لا شك أن في هذه الحالة سوف يقوم الطلاب ببذل كل طاقتهم لهضم كل ما يخص الأسبوع الثامن، بل وتجنّب كل ما من شأنه تعطيلهم عن هذا الأسبوع. لن يمر على عبارة كهذه دون انتباه إلا طالب مستهتر، غير جدير بالنجاح.

هناك حالة غريبة من الثقة بالنجاة لدى الغالبية العظمى من الناس لا يمكن إنكارها، حتى ولو لم يؤدِّ ما عليه، وحتى لو لم يعرف من الأساس ما هو المطلوب منه بالضبط. أمر وجود الإنسان في هذه الحياة أمر في غاية العجب، ومصيره يلفه الكثير من الغموض، ومع كل هذا الغموض تجد أكثر الناس لا يرغبون في المعرفة، والتي يمكن أن تكون طوق النجاة بالنسبة إليهم.

مفهوم المسلم الحنيف حسب التعريف القرآني، الذي تناولناه في الفصول السابقة، لا ينطبق أبداً على هذا الشخص الذي لا يرغب في المعرفة. فقدان البوصلة المعرفية بهذا الشكل من النذر كارثية، وللأسف الشديد كرس كثير من رجال الدين هذا الإحساس لدى بعض

الناس؛ مما جعل الكثير من الناس يرفض خوض تجربته الشخصية في التعرف على الخالق، واكتفى بما يقوله له بعضهم عن الخالق ومراد الخالق، حتى وإن كان يرفضه العقل.

تكن اللجنة الحقيقية في هذه التجربة الشخصية، والسير في هذا الطريق بصدق وإخلاص، ومن رضي بأن يكون مع الخوالب أو مع الجموع فقد فقد جنة الدنيا، ومصيره في الآخرة لا يختلف كثيراً عن حياته التي عاشها أعمى في الدنيا.

هناك 7 مليارات ونصف المليار في هذا العالم حتى هذه اللحظة، كلُّ منهم يعتقد نفسه غير خاسر. ببساطة التحذير القرآني موجه لهذا الجمع الغفير في كل زمن أن الإنسان خاسر، والاستثناء الوحيد هو كما جاء في الآية الثالثة.

الآية الثالثة: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ)

ثمان مليارات نسمة إلا قليلاً يعتقدون أنهم من الذين آمنوا وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، فلست أنت وحدك من تعتقد ذلك! لقد تم شرح مفهوم الإيمان في الفصول السابقة، والذي لا بد أن يسبقه الإسلام كما ذكرنا، والإسلام هو حالة حركة مستمرة لقبول الحق دون تحيز، وتطلع للمزيد.

الإسلام الفكري أو الإسلام العقلي هو ملة جميع الأنبياء بلا استثناء، وهو المنهج الفكري الذي اتخذه الأنبياء للوصول للحقيقة، والتعرف على الخالق. دون هذا التجرد ودون فهم هذا المنهج الفكري الذي تتضمنه كلمة إسلام، يصبح الإنسان غير ذي ميزة حقيقية، ولم يدخل بعد إلى دائرة الإيمان الحقيقية بالخالق، بعد أن يكون تخلص من كل التجاذبات والأهواء.

الإسلام بمفهومه القرآني هو المدخل الرئيس للإيمان، هو حركة فطرية لدى كل النفوس السوية. قد تنتكس هذه الفطرة بسبب بيئة ثقافية معينة، أو حتى بسبب القهر والظلم والفقر، ولكنها تبقى اختيار الإنسان نفسه إن لم يكن راغباً في الخروج منها. مجرد الرغبة الصادقة في المعرفة، حتى لو حالت الظروف دون المعرفة، كفيلة بأن تضع الإنسان تحت مظلة الإسلام

كما ذكرنا. الإيمان نسبيّ، شأنه شأن كل أمور الحياة، ولكي نوضح أمر الإيمان سوف أضرب مثلاً على ذلك:

بفرض أن إنساناً لديه معرفة بأمر أو اعتقاد معين أياً كان هذا الاعتقاد، وبفرض أنه مؤمن بهذا الاعتقاد؛ بمعنى مستقرّ ومطمئن له تماماً، ثم حدث أمر وظهرت معرفة جديدة تختلف عما كان يعتقد، فماذا سوف يكون تصرف هذا الإنسان؟

المسلم: الإنسان المسلم سوف يتعامل مع الأمر بكل حيادية، ويحاول فهم الأمر رغباً بكل إخلاص في معرفة الحقيقة، وبكل تجرد. فإذا وصل لقناعة بصحة الفكرة الجديدة، واطمئن لها فهذا هو الإيمان ويصبح من المؤمنين. أما إن بذل جهده ولكن توصل لقناعة بصحة اعتقاده القديم فهو أيضاً هنا من المؤمنين. لاحظ أنه بذل الجهد ولم يكتفِ بالإعراض؛ لأن كثيراً من الناس يظنون أن مجرد الإعراض عن فكرة جديدة هو في صالحهم، وهذا خطأ كارثي.

أما إذا كذب الفكرة دون بحث وجهد، فهو من المكذبين، وإذا أعرض عن الفكرة طلباً للسلام النفسي كما يعتقد بعضهم، أو لأي سبب آخر، فهو من المعرضين. إن جحد الفكرة رغم معرفته بحقيقتها وعقلانيتها فهو من الكافرين، وإذا خلط الأمور على نحو لا تجد لديه حدوداً بين الصواب والخطأ - كما يفعل كثير من الناس عندما لا يفرقون بين الأفكار التي عليها أدلة، والأفكار التي هي مجرد فلسفات - فهو من المشركين. الإشراف هو أخطر حالة فكرية؛ لأنه حالة خادعة ينتهجها الكثير من الناس؛ إما بسبب نقص معرفة، أو الرغبة في الظهور بمظهر المحايد.

أحد أهم مظاهر الشرك هو المساواة بين الدليل والحيل، فترى الإنسان لا يفرق بين النتيجة وبين الرأي الشخصي. كثيراً ما أرى هذه الحالة عندما أقدمُ بحثاً مفصلاً عن أمر من الأمور، فتجد أن هناك فئة تعتقد أن ما تقوله هو وجهة نظر خالصة، رغم التأكيد على الأدلة.

بغض النظر عن صحة ما أسوقه أو خطئه، فلا بد أن يكون للإنسان موقفٌ قاطع من المعرفة التي تخالف ما يعتقد، فإما أن يعتنق الفكر الجديد، وإما أن يظل متمسكاً بما يعتقد، ولا بد في الحالتين أن يكون هذا الاعتقاد نابعاً بعد جهد وبحث، وليس هرباً من البحث والجهد. تميم الأمر ليس في صالح الإنسان؛ لأن الأمر لا يرتبط بمسألة ثانوية أو مسألة محايدة، مثل نوع الطعام أو حالة الطقس أو نوع معين من السيارات. المسألة متعلقة باعتقاد سوف ينبنى عليه أشياء أخرى كثيرة، وبالنهاية سوف يتحدد مصيرك تبعاً لهذه الاعتقادات، التي يأخذها بعضهم بكثير من التساهل.

الإيمان الذي يصل إليه الإنسان بعد أن يكون مسلماً هو النجاة الوحيدة من الخسران، فرجاء أعد قراءة مفهوم المسلم، ومفهوم المؤمن في الفصول السابقة بكل تأنٍ. لو طبّق الناس المفهوم القرآني للإسلام والإيمان سوف تنتهي كل مشاكل العالم؛ لأن كل الناس سيصبحون متقبّلين للمعرفة الجديدة، غير متحيزين، ومتطلعين للحقيقة.

تحدث المشاكل جميعها عندما يدخل على الخط أصحاب المصالح، أو من لهم حسابات أخرى، والمقلدون الذين لا يدركون حقيقة المفاهيم بشكل كامل، ويساهمون في إرباك الناس وتشويش المفاهيم. الإيمان المذكور في سورة العصر هو الإيمان في حالته العامة، وليس الإيمان بالله مثلاً، أو الإيمان بالكتاب. هذه الحقيقة قد تزج بعض الناس؛ لأنهم يعتقدون أن هذا التنظير يشجع الناس على عدم الإيمان بالله، و تميم مفهوم الدين. للأسف الشديد هذه النظرة نظرة ضيقة، لا تستوعب نتائج الإسلام ونتائج الإيمان.

النتيجة الحقيقية لكون الإنسان مسلماً؛ أي أن يكون جاهزاً باستمرار لتقبل الحقيقة، واستبدال المفاهيم المغلوطة بأخرى سليمة كلها أدركها، ومن ثم الإيمان بها، هذا بالنهاية سوف يؤول به إلى معرفة الله. أما الإنسان المتحيز منذ البداية، ويبحث عن طريقة مريحة تعفيه من المسؤوليات، ويظن أنه أدى ما عليه، فهو خارج التعريف القرآني للأساس، ولن يستطيع

خداع الله بادعائه. الإيمان يدور حول استقرار القلب بعد بحث الحقيقة، والاطمئنان لها وليس لقب يحمله الإنسان بالميلاد.

كل إنسان في هذه الدنيا مؤمن بأشياء، مكذب بأشياء، معرض عن أشياء، كافر بأشياء، مشرك بأشياء. بقدر وزن الإيمان لدى هذا الإنسان تقل احتمالية خسارته، أما إذا زاد وزن التكذيب والإعراض والغفلة لديه فقد خسر.

لكي يزيد الإنسان وزن الإيمان لديه لا بد أن يكون مسلماً بالمفهوم القرآني، ويستمر هكذا مع كل معرفة يقابلها في حياته. مع زيادة المعرفة سوف تزداد الشكوك، والسبيل الوحيد لطرد هذه الشكوك هو استمرار البحث وخوض تجربته الشخصية؛ لأنها الضمان الوحيد لتجنب الخسران وزيادة جرعة الإيمان. بعد أن يستقر الإيمان بالإنسان، لا بد أن يتبع هذا الإيمان عمل صالح. بفرض أن الإيمان قاد الإنسان للاعتقاد بصحة تأويل آية قرآنية لم يكن على دراية كاملة بها أو فكرة نبيلة، هنا لا بد أن تتم ترجمة هذا الإيمان عمل وإلا سوف يصبح إيمان فارغ المحتوى.

الإيمان بمعرفة لا بد أن يتبعها العمل بهذه المعرفة. من توصل إلى الإيمان بالله، وبكتاب الله، فلا بد أن يؤدي ما في هذا الكتاب، وإن كان لديه شك في شيء، فلا بد أن يخوض تجربته مرة أخرى بإخلاص وتفانٍ للوصول للحقيقة. أي محاولة لاستبدال حالة المسلم بحالة التحيز هي حالة شرك لا يغفرها الله. لا أحد يرغب أن ينتهي به المطاف خاسراً إيمانه، مقابل تحيزه الكبير لكثير من الأشياء في حياته.

العمل الصالح هو نتيجة طبيعية للإيمان، فالإنسان الذي يصلي لله أو يصوم هو بالفعل وصل لمرحلة استقرار واطمئنان، أن هذا العمل من تكاليف الله، لذلك يقوم به. الإنسان الذي أدرك أن حرية الاعتقاد هي مراد الله، وآمن بذلك، لا يمكن أن ينخرط في أي عمل من شأنه إجبار أحد على الاعتقاد؛ لأنَّ فعلَ هذا ينافي الإيمان الذي استقر في قلبه.

الإنسان الذي آمن أن زيادة التلوث مثلاً يضر بالبيئة، لا يمكن أن يقدم على فعلٍ من شأنه تلويث البيئة، ولو فعلَ لَمَّ خصم هذا الفعل من رصيد العمل الصالح الناتج عن الإيمان. كل تقصير في الوصول إلى الإيمان هو خصم من رصيده الإيماني، وكل تقصير في متابعة هذا العمل الصالح هو كذلك خصمٌ من رصيد العمل الصالح. هذه هي فكرة الموازين التي سوف توضع للإنسان يوم القيامة، لكي تحصى عليه كم من الإيمان قد حصل، وكم من الإيمان قد ترك، كم من العمل الصالح قد فعل، وكم من العمل الصالح قد ترك؛ لذلك من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية.

حسن المعرفة هي من تكفل للإنسان أن يزيد جرعة الإيمان وجرعة العمل الصالح، والزهد في المعرفة مُهلكٌ إلى أقصى درجة ممكنة. لم تكتفِ السورة بذكر الإيمان والعمل الصالح على أنهما ضمانتان للنجاة، بل أضافت بُعدين آخرين، لا يقلان أهمية عن الإيمان والعمل الصالح؛ البعد الأول: هو التواصي بالحق، والبعد الثاني: هو التواصي بالصبر.

التواصي بالحق ما هو التواصي بالحق؟ لفظ (وصى) كما جاء في قاموس اللغة يعني وصلَ شيئاً بشيء، ومن خلال النظر في كتاب الله، سنجد أن لفظ (وصى) يعني وصلَ الشيءَ بمعنى تعاهدَه. التواصي بالحق هو تعاهدُ الحق، وممارسة الحق حتى يصير هو الأمر الطبيعي.

من أهم مظاهر التواصي بالحق أن يألف الناس الحق، وينفرون من الباطل ويُستهجنون. في المجتمعات التي لا تتواصى بالحق يصبح فعل الأمور العادية أو البديهية غريباً ويستحقُّ الإشادة. لا تجد الناس في مجتمع يكيلون المدح لمسؤولٍ ما لأنه فعلَ ما يجب عليه فعله إلا لغياب التواصي بالحق، وأصبحت الأمور البديهية مثار الإعجاب والمدح الثناء.

تعظيم كل القيم النبيلة هو عين التواصي بالحق، والنفور من القيم السلبية هو عين التواصي بالحق. مساعدة الآخرين، وتقديم يد العون للناس لغرض استقامة الحياة، هو تواصٍ بالحق.

قول الحقيقة وإماتة الشائعات هو عين التواصي بالحق. نشر العلم ووادُّ الجهل هو قلبُ التواصي بالحق. تشجيع الحق والنظر في الحقائق هو التواصي بالحق.

أكثر الناس لا يتواصون بالحق، إما عن جهل وإما لافتقارهم للشجاعة. التواصي بالحق يحتاج إلى شجاعة، وخصوصاً إذا كان السائد خلاف الحق. لو أردنا التركيز على قصة التواصي بالحق، وخصوصاً في مسألة نشر العلم سوف نرى العجائب.

جموع غفيرة من الناس تنشر الخرافات، وتتعصب لها، وأحياناً تخاصم من أجلها، ولا يدركون أن محلهم من الاعراب هو التواصي بالباطل. أستغرب كثيراً من ذلك الشخص الذي يبرر الخطأ دون أي بحث، ويجادل دون علم ولا هدى، ليثبت وجهة نظره التي ورثها أو سمعها، ألا يدرك هذا الإنسان أنه قد وقع في التواصي بالباطل، ودخل ضمن زمرة الخاسرين. لا أكون مبالغاً إن قلت أن سبب نكبات الأمم هو وجود تلك الجموع الكثيفة، التي تسير كما يسير الآخرون، تؤيد أفكاراً وتنشرها دون إمام بهذه الأفكار، وهم على ذلك يتواصون بالباطل، ويدحضون الحق، وقد أمروا أن يتواصوا بالحق.

على الجانب الآخر يُحجم الناس كثيراً عن التواصي بالحق؛ بسبب فقرهم المعرفي، الذي لا يمكنهم من تبيين الحق من الباطل. أبرز مظاهر عدم التواصي بالحق تكمن في الإشراك. عندما يعتقد الإنسان أن هناك وجوهاً عديدة للحق، فهو غالباً أشرك مع الحق وجوهاً أخرى؛ بسبب عدم رغبته في تبينها. عند ذلك لن يتحمس لنشر الحقيقة أو إماتة الباطل، بل يستوي عنده الاثنان، وهذا الإنسان لم يتواص بالحق.

أموراً لا حصر لها سواء دينية أم علمية أم سياسية، ينغمس فيها الناس انغماساً، يتواصون بالباطل، ويحجمون عن التواصي بالحق. لا تحتاج لجهد كبير لفهم كيف يتجافى الناس عن التواصي بالحق، ويسارعون في التواصي بالباطل، وبالتحديد في المجتمعات غير الحرة، والتي يمارس فيها القهر. كيف يمكن للمجتمعات أن تضغط على الأفراد في التواصي بالباطل، بدلاً

من الحق. عملية التواصي بالحق عملية قائمة على قناعات الشخص وإيمانه؛ لذا هي عملية ليست سهلة بل مكلفة.

تدور بين الحين والآخر معارك كلامية بين فريقين، أحدهما يؤيد فكرة بشدة، والآخر يرفض بشدة. الأمر صحيٌّ إن كان بالفعل نابعاً عن قناعات، وبعد جهدٍ في البحث. أما إن كان مجرد تبني قناعات الآخرين، وجدال دون رغبة في تبيين الحقائق، أو غرض الوصول للحقيقة، فكلا الفريقين لا يتواصلون بالحق. الفريقان يتواصلان بالباطل ولا دخل للحق بذلك. التواصي بالحق يمس جميع نواحي الحياة، فلا يوجد مسألة من مسائل الحياة إلا وينطبق عليها التواصي بالحق، والتواصي بغير الحق. كل ما عليك هو أن تسأل نفسك قبل كل موقف، أو قبل أي تصرف، هل هذا التصرف تواصٍ بالحق أم أنه غير ذلك؟

إن لم تكن متأكداً فأنت تحتاج لمزيد من الجهد والبحث لتحري التواصي بالحق، فلا تتعجل وتقع في نقيض الحق. أنت من تصنع من هذه الحياة جنة على الأرض، عندما تسعى للمعرفة بكل قوة، وأنت من تصنع منها حفرة عندما تضلّ وتتعد عن منهج الله، الذي أراده لعباده من السعي المخلص للمعرفة، ومن ثم التواصي بالحق.

كنت أمرُّ على هذه الآية مرور الكرام قبل أن أستوضح مفهوم العصر، أما وقد أدركت الآن مفهوم العصر فقد شكَّلت هذه الآية ركناً أساسياً من أركان وجود الإنسان على هذه الأرض. فهي أحد أربع نقاط رئيسة مثلت ملخص عمل الإنسان ومصيره.

أستغربُ كثيراً ممن يردُّ المعلومات العلمية المغلوطة دون بذل جهدٍ حثيث في تتبعها وفهمها، مثل: كروية الأرض، أو حالات التطور. هل يظن الإنسان أن شجاعته في تبني أفكار لم يختبرها، ومن ثم ينشرها، أهو تواصٍ بالحق؟ كلاً، فهذا التصرف هو عين التواصي بالباطل. كما جاء الإيمان والعمل الصالح في هذه السورة كحالة عامة، فكذلك التواصي بالحق هو حالة عامة. كل من لا يؤيد فكرة آمن بها ويسعى في نشرها هو لم يتواص بالحق.

كل من ينشر فكرة أو رأياً ليس مؤمناً به بشكل سليم فهو تواصل بالباطل. مفهوم التواصل بالحق ليس مقصوراً على المفاهيم البسيطة، مثل: أقم الصلاة، أو صم، أو لا تكذب، بل أعم وأشمل من ذلك. هو مفهوم يحتاج كل التصرفات والأقوال والأفعال، ويجعل الإنسان في حالة حركة مستمرة لمشاركة إيمانه مع الآخرين، ويصحح لهم ويصححون له، في شكل تواصل وليس فرض وصاية، وهذا هو عمارة الإنسانية.

الركن الأخير في هذه الآية، والضامن للنجاة من الخسران، هو التواصل بالصبر.

ما هو الصبر؟ الصبر في اللغة له ثلاثة أصول: الأصل الأول وهو ما يعيننا: هو الحبس، ويقال صبرت نفسي على أمرٍ ما؛ أي حبستها عليه. هذا الأصل هو الصبر المقصود؛ بمعنى مدافعة الأمر. فكأن الصابر حبس نفسه على الأمر متحملاً تبعاته، ومحاولاً دفعه بكل السبل. المعنى المتداول للصبر اليوم وهو الاستسلام ليس له أصل، وهو من باب تحريف الكلم. الصبر على المصيبة هو محاولة تخفيف آثارها ومعالجتها، فالصبر على المرض هو البحث عن علاج له ومدافعة أمره، وليس الاستسلام. الاستسلام للمصائب مثلاً أو الموقف السلبي تجاه الحياة ليس صبراً؛ وإنما تخلياً عن المسؤولية، وتخلياً عن عبادة الله، وهو أمرٌ مذموم. أعتقد أن أغلب الناس مدركون لهذه الصفة، ولكن لا يربطون بينها وبين مفهوم الصبر كما جاء في القرآن.

القصة المتداولة عن نبي الله أيوب أيقونة الصبر، وأنه كان مستسلماً غير دافع للمرض بكل ما أوتي من قوة، ليس عليها دليل، والقول المتداول أنه ظل 80 عاماً لا يدعو الله بالصحة؛ لأنه كان يستحي أن يطلب من الله الصحة، هو قول مرسل، لا يتوافق مع القرآن الذي قص علينا أن نبي الله أيوب دعا ربه، دون تحديد أيِّ مدة أو إشارة زمنية.

التواصل بالصبر جاء بعد التواصل بالحق؛ لأن طبيعة الحق هي طبيعة الغريب في المجتمعات، وخصوصاً المجتمعات القبلية، أو المجتمعات قليلة المعرفة. التواصل بالحق يحتاج إلى

الصبر؛ لذلك لا بد من تعاهد الصبر، وهو مداومة واستمرار الدفع باتجاه الحق دون كلل أو ملل، حتى لو لم تكن النتائج ظاهرة أو مرئية.

الترتيب الذي جاء في الآية ليس ترتيباً عشوائياً، وإنما ترتيب له فائدته؛ فلا يمكن أن يتواصى بالصبر من لا يتواصى بالحق، ولا يمكن أن يتواصى بالحق من لم يعمل صالحاً، ولا يصح عمل صالح إلا من مؤمنٍ مستقر ومطمئن، والإيمان هو ثمرة الإسلام بمفهومه القرآني. هذه سلسلة متصلة من الأفعال، لا يمكن تحقيق شرط فيها إلا من خلال هذا الترتيب، وإلا قد تنقلب النتائج. هذه السورة لخصت كل شيء، وها نحن نضع اللمسات الأخيرة لهذه المفاهيم، ونوجزها في النقاط التالية:

أولاً: لا بد أن يكون الإنسان مسلماً في كل تصرفاته وأفعاله وأقواله؛ بمعنى أن يكون غير متحيز في قبول المعرفة. كمال هذا الإسلام بكون الإنسان حنيفاً، وهو المتطلع للمزيد بشغف ودون كلل.

ثانياً: التطبيق الصحيح لمفهوم الإسلام لا بد أن يقود للإيمان بوصفه حالةً عامةً.

ثالثاً: الإسلام ثم نتيجة له الإيمان هو حالة مستمرة. وزنُ إيمان الإنسان يتحدد بما حققه، ويخضم منه ما لم يستطع الإيمان به، أو ما أعرض عنه أو كذب به أو أشرك به، أو كل فعل يقوم به يناقض هذا الإيمان.

رابعاً: لا بد أن يتبع الإيمان عمل صالح تبعاً لما آمن به الإنسان، ويخضم من هذا العمل الصالح كل ما آمن به الإنسان، ولم يقم به.

خامساً: التواصي بالحق، وتعاهد الحق بالقول والفعل والنقل، ويخضم من ذلك كل فعل فيه تقصير، أو تواصٍ بالباطل.

سادساً: التواصي بالصبر، والتحمل ومدافعة الباطل، والمداومة على العمل الصالح، والتواصي به التابع من الإيمان الصادق.

هذه هي ملخص حركة الإنسان كما بينتها سورة العصر، والتي تعني بالأساس الملخص. سوف ننتقل في الفصل الأخير إلى نموذجين يشرحان كيف يتعامل الإنسان مع المعرفة، وكيف ينتقل من مرحلة الدراسة إلى مرحلة نقل الخبرة للآخرين، بأسلوب قرآني، وتجنب التعجل الذي قد يكون سبب ضلال الإنسان، وإضلاله للآخرين دون أن يدري من خلال مفهوم المزمّل والمدثر.

الفصل الخامس عشر المزمّل والمدثر

في هذا الفصل نحن على موعد مع سورة المزمّل، والحالة الخاصة التي يصفها هذا اللفظ في كتاب الله. ما معنى المزمّل؟ وما الرسالة التي يرسلها الله لنا من خلال ألفاظ هذه السورة؟

جاءت الآية الأولى في السورة تحمل نداء لهذا المزمّل: (يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ). العجيب أنّ المفسر القديم نسب جميع النداءات في كتاب الله إلى النبي صلوات ربي عليه. فكلمها رأى نداءً محيراً نسبة إلى الرسول، وكأنّ القرآن رسالة خاصة بين الله والرسول، وليس موجهاً لعموم البشرية. عندما خاطب الله سبحانه وتعالى رسوله جاء الخطاب بلفظ (يا أيها الرسول) و(يا أيها النبي)، أما النداءات الأخرى فهي نداء للإنسان بصفة عامة، يدخل ضمنها النبي بوصفه إنساناً، وليست موجهاً إلى النبي على التعيين.

لكي نفهم ما المقصود بالمزمّل لا بد أن نرجع إلى أصل الكلمة (زمل)، ومن ثمّ نفهم السياق الذي قيلت فيه الكلمة، حتى نصل إلى فهم شامل للحالة القرآنية التي تشير إليها كلمة المزمّل.

أصل كلمة (المزمّل) هو زمل، لها أصلان: أولهما: تحمّل ثقل من الأثقال، والآخر: صوت. اعتماداً على أصل الكلمة، قال المفسرون: إن المقصود بالمزمّل هو المتحمّل أعباء النبوة والرسالة، وهو رسول الله صلوات ربي عليه. لكن لو نظرنا إلى المطلوب من المزمّل لعلنا أنّ الإنسان بصفة عامة هو المخاطب؛ لأن الآية الرابعة تطلب منّا ترتيل القرآن: (أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (سورة المزمّل: آية 4). الرسول كما نعلم مطالب بالتبليغ، والإنسان بصفة عامة مطالب بترتيل القرآن، ويدخل في هذا الخطاب الرسول بصفته البشرية، فما هو الترتيل؟

في لسان العرب لابن منظور أصل كلمة (رتل) هو حسن تناسق الشيء. وجاء في مادة رتل في لسان العرب: "في التنزيل العزيز: وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً، قال أبو العباس: ما أعلم

الترتيل إلاّ التحقيق والتبيين والتمكين". عندما نضيف مفهوم (رتل) إلى معنى كلمة (القرآن)، والتي قلنا مراراً أنها تعني الشيء القابل للقراءة، نجد أنّ المخاطب هو الباحث وطالب العلم، الذي يريد فهم الآيات ودراستها وفهم مكنونها.

من هنا نستطيع القول أن المخاطب في أول السورة هو كل باحث يحاول فهم هذا الكتاب الإلهي العظيم وقراءته. ليس المقصود إطلاقاً الذين يتلون منطوق الآيات، بل الذين يقفون على الآيات مقارنةً وقياساً، وهذا هو الترتيل. بقول الله: (يا أيها المزمل) نداء لطالب العلم، المجتهد المتحمل هذا العبء.

من عجائب اللغة أن لفظ (زميل) والمشتق أيضاً من الأصل زمل؛ يعني باحث في جامعة بمفهومنا المعاصر، مما يؤكد النظرية التي نركز عليها في فهم اللغة؛ وهي أن اللغة هبة إلهية، ولها نظام وبرنامج دقيق، وليست لغة اعتباطية تتلاشى فيها أحياناً علاقة الدال بالمدلول.

إذا تساءل الإنسان كيف أستطيع فهم أمرٍ، أو حتى كيف أستطيع تدبر آيات الله على مستوى متقدم؟ نقول له الإجابة جاءت في سورة المزمل.

سورة المزمل تحمل إرشادات لهذا الباحث، أو إن جاز لنا التعبير (زميل الترتيل القرآني)، حتى يستطيع إتمام عمله على أكمل وجه. ما هي هذه الإرشادات؟ وكيف نفهمها؟ جاءت هذه التوجيهات في الآيات الثلاثة التالية، ترشد هذا الباحث إلى قيام الليل ومتابعة العمل بالليل، ولم تحدد الآيات حداً معيناً من الليل؛ ولكن جاء فيها الزيادة والنقص، وهذا التراوح بين الزيادة والنقص لا شك معتمد على الباحث نفسه. المستفاد من هذا الترتيب وهذا الإرشاد الرباني هو بذل الجهد قدر المستطاع، ومحاولة القيام بالعمل البحثي في فترات الليل.

(قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً

((4)) (سورة المزمل: آيات 2-4).

يبدو لنا أن الإرشاد الرباني الذي يشجع على البحث والقراءة في فترات الليل، إنما يرتبط بعمليات حيوية تعزز هذا الإجراء. يقول الباحث ألبريشت فورستر في جامعة توبنجن الألمانية: إن عمليات حيوية عديدة تبدأ في الدماغ، وهي في أثناء النوم تكون أكثر من أي وقت. تبعاً لهذا الباحث فإننا في حالة الاستيقاظ يتم بناء اتصالات بين الخلايا العصبية، ومع النوم تبدأ عملية إعادة البناء والترتيب داخل الدماغ، إذ يساعد النوم في هذه الحالة على عملية التنظيف والترتيب داخل الدماغ.

النوم بحسب رأي الباحث يلعب دوراً هاماً جداً في تثبيت المعلومات، وإعادة تنظيم الذاكرة، ويحوّل المعلومات الموجودة في الذاكرة إلى معرفة ذات كفاءة عالية.

الآن نستطيع القول: إن العمل الذهني أثناء الليل بمثابة شحن الدماغ بكم من المعلومات والمعرفة، وما إن يلجأ الإنسان إلى النوم حتى تتم إعادة ترتيب هذه المعلومات وتنظيمها، بشكل يساعد على الاستنتاج والفهم والتحليل. بعيداً عن النتائج العلمية والأبحاث في هذا المجال، إلا أن المشاهد اليومية تؤكد نجاح استراتيجية العمل الذهني ليلاً، وكيف يشعر الإنسان عند الاستيقاظ بأنه أكثر قدرة على فهم ما لم يفهمه، بل ويجد أن قدرته على معالجة النواقص أكثر كفاءة. يبدو أن القيام ليل لأداء مهمة البحث والفكر مهمة شاقة، وقد عبرت عنه الآية التالية بالقول الثقيل.

(إِنَّا سَنَلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) (سورة المزمل: آية 5).

في هذا الآية إشارة إلى الاتصال الإلهي والذي بدوره يمنح الإنسان فهماً، أو يلقي عليه أمراً، كما أشارت آيات كثيرة إلى ذلك؛ من أن الإنسان الذي يجتهد قدر استطاعته يفتح له الله ما لا يتوقعه. مثال ذلك الآية في سورة النجم التي تشير إلى أن على الإنسان السعي وتبشره بأن سعيه لن يضيع هباءً.

(وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (41)) (سورة النجم: آيات 39-41).

وكذلك الآية المشهورة في سورة الكهف التي تؤكد على أن الله لا يضيع أجر من أحسن العمل. "إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا" (سورة الكهف: آية 30). الآيات التالية تشرح لماذا الليل هو المعنى بالعمل الذهني والبحث والتدبر:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7)) (سورة المزمل: آيات 6-7).

قال المفسرون في الآية الأولى: إن المقصود بـ (ناشئة الليل) هو بدايته، وقال آخرون: بل هو كل الليل. النشاء هو نوع من التكوين، فتصبح (ناشئة الليل) تعني تكوين الليل أو طبيعة الليل. أما لفظ (وطئاً) فهو كما جاء في قاموس اللغة يعني تسهيل الشيء وتمهيده. فيصبح مفهوم الآية الكريمة هو أن تكوين الليل وطبيعته أكثر ملاءمة وتمهيدياً لما سوف تقوم به، وهو العمل الذهني والتدبر وترتيل الآيات.

لا بد أن نلاحظ أن هذه الآيات تتحدث عن الوضع الطبيعي، وليس الإنسان المجهد المتعب، وكذلك تتحدث عن جزء من الليل وليس الليل كله. قيام الليل بالنسبة للإنسان المجهد في دراسة أمرٍ ما وبحثه، لن ينفعه في شيء؛ لأنه لن يستقبل التسهيل الإلهي والفتح بسبب الإجهاد. إننا نتحدث عن حالة خاصة جداً، وهي التدبر ومحاولة فهم الأشياء؛ فأوقات الليل مناسبة تماماً لهذه الحالة.

الآية التالية تشرح سبباً إضافياً ليكون الليل أكثر ملاءمة للبحث والترتيل؛ وهو أن النهار معاش، أو أن النهار فيه سبْحٌ طويل:

(إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا) (سورة المزمل: آية 7).

السبح في النهار هو الحركة المستمرة، والتي بدورها تمنع التفكير والتدبر؛ ولذلك الليلُ وطبيعةُ السكون فيه هي الأنسب في حالة التدبر والترتيل.

السورة الكريمة تأخذ بيد الباحث أو كما قلنا زميل الترتيل خطوة بخطوة، وتشرح له ما يجب عليه فعله في سبيل تحقيق نتائج جيدة في ترتيل القرآن. جاءت الآية التالية لتضع اللمسات الأخيرة التي سوف تكمل العمل بالنجاح، وهي استحضار الرب وصفات الرب القادر ذي العلم المحيط بكل شيء، ثم التبتل إليه.

(وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) (سورة المزمل: آية 8).

لفظ (التبتل) أصله بتل، ويعني إبانة الشيء من غيره. يقال بتلت الشيء، إذا أبنته من غيره. الآية تذكّر الإنسان بالإخلاص في العمل، وتحري الدقة في إبانة الشيء من بعضه بعضاً، وهذا ما يفعله الباحث تحديداً في كل العلوم، وهو محاولة تدقيق كل شيء وتفصيل كل أمر.

أكتفي هنا بالآيات الثمانية من سورة المزمل، حيث يمكن تلخيص الفكرة الرئيسية التي دارت حولها السورة كالآتي:

سورة المزمل أو لفظ (المزمل) يشير بشكل حصري إلى الباحث أو زميل الدراسة بمفهومنا المعاصر، وفي هذه المرحلة ليس مطلوباً من المزمل سوى التعلم، وجمع أكبر قدر من المعرفة والبيان. ليس مطلوباً من المزمل أن يُنذر أو يتصدى لأيّ أمر، وهو ترتيب رباني عظيم؛ لكي يزداد تركيز المزمل على تحصيل العلم وكفى. مرحلة الإنذار ونقل هذه المعرفة هي مرحلة المدثر، والتي شرحتها سورة المدثر التالية.

من هو المدثر؟

الآية الأولى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (سورة المدثر: آية 1).

فعل (دثر) له أصل واحد، وهو: تضاعف الشيء وتناضده بعضه فوق بعض. جاءت سورة المدثر بعد سورة المزمل التي وصفت ذلك الباحث المجتهد الذي يقوم الليل ولا يفتر في

طلب العلم، حتى إذا تراكم العلم لديه طلب الله منه أن يقوم فينذر. ليس هناك أدلّ على أن لفظ (المدثر) يعني ذلك الممتلئ بالعلم من قول الله سبحانه في الآية التالية قم فأنذر.

الآية الثانية: (قُمْ فَأَنْذِرْ) (سورة المدثر: آية 2).

لا يقوم وينذر إلا من امتلك قدرة حقيقة على التنفيذ ورد الادعاءات، وهذه القدرة لا تأتي هكذا دون تراكم حقيقي للمعرفة، التي تثمر بدورها علماً وفهماً.

لاحظ أننا نتحدث عن تكوين العالم الحقيقي، وليس الشخص العادي، حتى لا يختلط الأمر على الناس. إذا أردنا قياس مفاهيم المزمل والمدثر بمفاهيمنا المعاصرة؛ فإن كان لفظ (المزمل) أقرب ما يكون لزميل الجامعة أو الباحث في طور البحث والعمل، فإنّ (المدثر) هو المرحلة التالية؛ وهي الأستاذ أو ذلك الشخص الناضج علمياً ومعرفياً.

سورة المزمل وكذلك المدثر أشارتا إلى السبيل الذي يجب أن يسلكه الباحث إن أراد علماً وفهماً، فليس هناك سماء تمطر معرفة، وليس هناك وصفة سحرية يمكن أن تجعل الإنسان عالماً أو باحثاً؛ إنما هو طريقٌ طويلٌ وشاقٌ، طريق يبدأ بالبحث والسهر والتقصي. ليس مطلوباً من هذا الباحث أو الزميل أن ينشر علماً أو يتعجل، بل أن يكون جُلُّ هدفه الاستزادة، حتى إذا امتلأ علماً قام مقام المدثر.

هذه السورة العظيمة تنقل لنا صورة مكتملة لهذا المدثر، وسوف نحاول بقدر ما فتح الله لنا أن نفهم علاقة المدثر ببعض الآيات المذكورة في السورة الكريمة.

الآية الثالثة: (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) (سورة المدثر: آية 3).

لا شك أن التعرض لعملية نقل العلم عملية شاقةٌ ومحفوفة بالمخاطر؛ لذلك كان الإرشاد الرباني أن يجعل المدثر ربه نصب عينيه، وهو أكبر من كل ما سوف يواجهه. إذا واجه المدثر تكذيباً أو استهزاءً أو إيذاءً أو كفراً، فالمقابل أعظم بكثير الذي وعد الله الصادقين. هذه الآية

هي بمثابة إعدادٍ جيدٍ للمدثر، وتهيئةٍ لما سوف يتعرض له، فهما تعرض لمتاعب فليجعل أمرَ الله أكبرَ، حتى ينجز ما يرغب في إنجازه.

الحقيقة التي لا تقبل الشك أن كل الذين جاؤوا بأمر غير سائدة واجهوا المتاعب، خصوصاً إذا كانت المجتمعات بسيطة ومتواضعة. يبدو الأمر أفضل في المجتمعات الحرة؛ إذ يكون هناك مجال متسع للتعبير عن الأفكار وعرضها، وللإنسان حق التعامل معها بشيء من الحرية. التوجيه الرباني يُعدُّ المدثرَ للتعامل مع كل المنغصات والإحباطات التي قد تجرُّها عليه هذه المهمة.

الآية الرابعة: (وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ) (سورة المدثر: آية 4) (التياب) أصلها ثوب، وهو العطاء أو النوال، وليس المقصود هو الثوب الذي يرتديه الإنسان. ما يزيد الدليل على أن المقصود بالتياب هو العطاء أو النوال هو أن مفهوم التطهير جاء في كتاب الله واصفاً الأشياء المعنوية، مثل القلب والنفوس.

التياب التي يرتديها الإنسان هي أحد معاني التياب، ولكنها هنا ليست التياب التي نعرف؛ بسبب اقترانها بمفهوم الطهارة، والتي وصفت كل ما هو معنوي. من هنا يكون مقصودُ (وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ) هو العطاء الذي أفاض الله به على هذا المدثر، بأن يجعله زكياً، لا يطلب به رياءً ولا سمعةً، ولا يسخره لخدمة غرضٍ ما. التطهير تخلص الشيء من كل ما يشوبه، فإذا كان الحديث عن المدثر الذي نال حظاً من العلم، وجاء دوره لكي يقوم بهذا العلم؛ فإن ابتغاء وجه الله بهذا العلم وعدم رجاء أحد به غير الله هو ديدن العلماء. كل من يأكلون على موائد الحاكم بهذا العلم، وخصوصاً في المجتمعات غير الحرة، هو رجس وخلاف الطهارة.

القرآن يرشد العلماء إلى اجتناب كل ما يمكن أن يدفعهم للانحراف، أو يؤثر بشكل سلبي فيما يقولون ويجعله موظفاً لأغراض خبيثة أو استعماله في تضليل الناس، وأن يكون خالصاً لوجه الله، ليس لأحد فيه شيء. التعبير القرآني وتيابك فطهر تحذر كل ذو عقل رشيد

من أن يقع في الضلال فيستعمل الحق والعلم في تثبيت أركان الباطل وخلط الصحيح بالخطأ، فيفسد الصحيح ولا ينفع.

الآية الخامسة: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (سورة المدثر: آية 5).

معنى (الرجز) هو الاضطراب. وهنا أيضاً توجيه رباني لهذا المدثر، إذا كان في موقف الإنذار أو نقل العلم أن يكون مثبتاً واثقاً، ولا يدخل في الأمور التي لم يتوثق منها ويفهمها جيداً. آفة العالم أن يتكلم في كلِّ شيء، فعندما يصبح العالم له صوت يصل بسهولة إلى مسامع الناس لربما أغراه ذلك للقول في كلِّ أمر، حتى أنه يقول في أمور ليس واثقاً فيها بالقدر الكافي، أو لم يعطها حقها في البحث والتقصي. لذلك جاءت هذه الآية تشير إلى ترك الرجز؛ أي الاضطراب أو القول قبل التثبت.

الآية السادسة: (وَلَا تَمْنُنْ تَسْكَثِرُ) (سورة المدثر: آية 6).

في هذه الآية الكريمة يبدو لي الأمر أنه نهي عن الأكل بهذا العلم؛ بمعنى لا تطلب بما وهبك الله أو بهذا العلم الاستكثار. الاستكثار هنا لفظ عام. قد يكون الاستكثار في المال أو المنصب أو الشهرة. النهي جاء هنا حتى لا يتلوَّث العلم بمقاصد تُضعفُ العلم وتحوِّل وجهته. البشر بطبعهم يميلون لكل مظاهر الدنيا، ولذلك جاءت الآية التالية لتعالج هذه المسألة، وذلك بالصبر وعدم طلب الدنيا بالعلم، وهذه درجة الرسل، وليست درجة سهلة أبداً.

الآية السابعة: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) (سورة المدثر: الآية 7)

إذا طلب العالم الدنيا بالعلم فسَدَ العلم، وضل العالم، وأضل الناس؛ لذلك لا بد من تذكُّر هذه الآية جيداً (ولربك فاصبر) أي من أجل ربك تحل بالصبر ولا تتعجل، وعالج هذه الرغبات دائماً بذكر الغرض الأسمى الذي من أجله تعمل.

الآية الثامنة وحتى العاشرة: (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى

الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (سورة المدثر: آية 8 - 10).

الناقور اسم آلة، وعلى ذلك فهو الآلة التي تنقر، والنقر هو إحداث ثقب بشكل سريع. فإذا نقر في الناقور؛ أي أن الناقور نفسه تم عطفه أو إحداث ثقب فيه. إذا تم إحداث ثقب في الناقور فسوف يتعطل، ونتيجة هذا العطل يصبح الأمر عسيراً على الكافرين غير يسير. يقول أهل اللغة: إن اسم (ناقور) على وزن فاعول، وهو اسم آلة، بل مبالغة في الآلة. الحقيقة أن لفظ (الناقور) يوحي بذلك، إذ إنه اسم آلة، وفيه من المبالغة، فهو يشير إلى قوة هذا الناقور وقوة فعله.

إذا عدنا لموضوع السورة الكريمة، وهو الإنذار والتذكير بواسطة الباحث الناصح وهو المدثر، فإننا سوف ندرك معنى النقر في الناقور.

الآية الكريمة تتحدث عن تفنيد الافتراءات التي يأتي بها الكافرون، وكأنها بالفعل تُحدث ثقباً في البنية المعرفية للمؤمنين، فإذا تصدّى لها ذو علم، وفنّدها بشكل سليم، وأفسد الآلية التي يرتكن إليها هؤلاء، فلا شك أن هذا اليوم هو يوم عسير على الكافرين. الناقور هو الآلية التي يستخدمها بعضهم في إحداث ثقب في البناء المعرفي لبعض الناس، عن طريق تشكيكهم فيما يعتقدون.

مهمة المدثر كما نرى ليست مجرد الرد، بل كسر الناقور نفسه، من خلال بيان تهافت الطريقة التي يستخدمها هؤلاء. لا شك أننا نتحدث عن مستوى متميز من العلماء، يملكون الأدوات، ويجيدون استخدامها. هذه الآلية توضح لنا سلوك الكافرين، وبالمقابل سوف نرى كيف يكون سلوك المسلم. في حالة تبين خطأ الطريقة التي ينتهجها الإنسان في فهم أمر ما، فإن الإنسان المسلم سوف يُدعن للحق؛ لأنه بطبيعته التي أرشد إليها القرآن غير متحيز ويخضع للحقيقة.

أما في حالة الإنسان المتحيز فما يحدث هو العكس تماماً؛ سوف يُسقط في يديه، ويرى أن مكانته قد اختلت، فيستكبر ويحجد، ولذلك لن يكون اليوم عليه سهلاً أبداً. هذه الأمثلة نقرأ عنها ونراها كثيراً، كيف أن هناك من ينقاد للحقيقة بمجرد بيانها أو حتى الإشارة إليها، وكيف أن هناك من يستنكف عنها ويستكبر.



رغم غزارة ما تحمله سورتا المزمل والمدثر إلا إن تتبعهما بالكامل شيء ليس سهلاً أبداً،
وحسبنا أننا أشرنا إلى هذه الإشارات؛ لعلها تنفع المؤمنين، ويأتي من استثمارها في فهم جميع
الآيات الكريمة، وعلى الله قصد السبيل.
تم بحمد الله